



غيوم ميسو

فتاة من ورق

رواية

سما للنشر

غيوم ميسو

فتاة من ورق

رواية

ترجمة: شكير نصرالدين



المركز الثقافي العربي

سما للنشر

غيوم ميسو

فتاة من ورق

العنوان الأصلي للرواية:

La Fille de papier

By: Guillaume Musso

الكتاب

فتاة من ورق

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

شكير نصرالدين

الطبعة

الأولى، 2012

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-574-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى أمي

ما جدوى الكتب إذا لم ترجعنا إلى الحياة، إذا لم تجعلنا نَعُبّ من مائها بلهفة أشد؟

هنري ميلر

استهلال

إن من يهتم بحياة الكاتب لأنه يحب كتابه، مثل من يهتم بحياة البط لأنه يحب كبده المأدوم.

مارغريت آتوود

(يو. إس. إي. توداي - 6 شباط/ فبراير 2008)

«ثلاثية الملائكة» تسحر أمريكا

إن قصة الحب المستحيل هذه بين امرأة شابة وملاكها الحارس هي أشهر عمل أدبي للسنة.

في ما يلي فك لرموز الظاهرة.

كلٌّ من لدى الناشر **دابلداي**، لم يصدق الأمر بالفعل. بعد سحبٍ وصلَ بالكاد 10000 نسخة، هاهي أول رواية لكاتب مغمور، طوم بويد، عمره ثلاثون سنة، تصير في بضعة شهور على رأس قائمة المبيعات للسنة. **رفقة الملائكة**، الجزء الأول من ملحمة يفترض أن تضم ثلاثة أجزاء، ظلت لمدة ثمانية وعشرين أسبوعاً على رأس أفضل المبيعات. بعد بيع أكثر من ثلاثة ملايين نسخة في الولايات المتحدة، وهي على وشك أن تترجم في أكثر من أربعين بلداً.

في لوس أنجلس رومنسية وعجائبية معاً، تحكي الرواية قصة

حب مستحيل بين **دليله**، طالبة شابة تدرس الطب، و**رفائيل**، الملاك الحارس الذي يسهر على حمايتها منذ طفولتها. لكن هذه الحبكة الخارقة ليست سوى مبرر لمقاربة مواضيع حساسة مثل زنا المحارم، والاغتصاب ووهب الأعضاء البشرية والجنون.

ومثلها مثل **هاري بوتر** أو **توايلايت**، فإن **رفقة الملائكة** وحَّدت الجمهور، وبسرعة، حول ميثولوجيا ثرية جداً. وشكّل القراء الأشد شغفاً طائفة حقيقية لها قوانينها الخاصة ونظرياتها المتعددة. وعلى الإنترنت، تم تخصيص المئات من المواقع للشخصيات التي أبدعها طوم بويد. والمؤلف، شخص شديد التكتم، أستاذ شاب ينحدر من الحي الشعبي ماك آرثر بارك بلوس أنجلس. قبل وصوله للشهرة، كان بويد يُدرِّس الأدب للمراهقين من ذوي الصعوبات المدرسية في الثانوية التي كان هو تلميذاً بها خمسة عشر عاماً من ذي قبل.

وبعد نجاح روايته الأولى، غادر التدريس إثر توقيع عقد مع دابلداي يخص كتابين إضافيين و... مليوني دولار.

*

(غراموفون - فاتح حزيران/ يونيو 2008)

عازفة البيانو الفرنسية أُرُوْر فَالُنْكُور تفوز بجائزة آفْرِي فِيشِر المرموقة.

في سن الواحد والثلاثين حازت عازفة البيانو الشهيرة، أرور فالنكور، يوم السبت الماضي على جائزة آفري فيشر المرموقة التي تبلغ قيمتها 75000 دولار، هذه الجائزة المغرية تكافئ كل سنة موسيقياً لإسهامه الفريد في الموسيقى الكلاسيكية.

وتعتبر أرور فالنكور، المولودة في باريس يوم 7 تموز/ يوليوز 1977 من أكبر موسيقيي جيلها موهبة.

نجمة نجوم البيانو

بعد تكوينها في معهد كيورتيس في فيلادلفيا، ومنذ العام 1997 لفتت أنظار قائد الأوركسترا أندريه غريفان الذي دعاها إلى القيام بجولة فنية تحت إشرافه. فتح لها هذا الاعتراف أبواب الاحتراف العالمي. راكمت الحفلات مع أكبر الفرق، لكن بعد أن خاب أملها جراء نخبوية النظام الموسيقي الكلاسيكي، انسحبت فجأة من الساحة الفنية في العام 2003. وقامت بجولة عبر العالم بالدراجة النارية دامت عامين قادتها إلى وسط بحيرات ومنحدرات ساوايْ ماذْهوبور بالهند، حيث أقامت هناك شهوراً عديدة.

في العام 2005 استقرت في مانهاتن وعادت مجدداً إلى الخشبة والاستوديوهات منخرطةً بنشاط في حماية البيئة. سلط عليها هذا الاستثمار أضواء إعلامية جديدة فتجاوزت شهرتها دائرة عشاق الموسيقى.

مستفيدة من جمالها المميز، استعرضت صورها العديد من مجلات الموضة (صور مثيرة لمجلة **فانيتي فير**، وأخرى أكثر عرياً لمجلة **سبورتس إلسترايتد**...) وصارت ملهمة لعلامة كبيرة في صنع الملابس الداخلية. إضافة إلى عقود إشهارية جعلت منها الموسيقية الأغلى أجراً على وجه الأرض.

موسيقية خارج المألوف ومثيرة للجدل.

رغم صغر سنها، تُعتبر فالنكور مثالاً للمهارة في العزف، لكن يؤاخذ عليها في الغالب بعض الجفاء، خاصة عند عزف الربرتوار الرومانسي.

ولأنها تعلن بقوة وبأعلى صوت حريتها واستقلاليتها، صارت تمثل «كابوساً» بالنسبة إلى منظمي الحفلات الموسيقية: إذ أصبح

انسحابها المتكرر في آخر لحظة ونزوات المشاهير عندها هي أكثر من أن تحصى.

بل إن مزاجها الحاد يتجلى كذلك في حياتها الخاصة. فهذه العَزبة الأبدية تصرح أنها لا تنتظر شيئاً من الارتباط العاطفي إذ تتبنى شعار: «اقطف ثمار يومك»، مما يجعلها متعددة المغامرات. إن علاقاتها المدوية مع مشاهير عالم الأعمال جعلت منها الموسيقية الكلاسيكية الوحيدة المألوفة لدى مجلات عالم الشهرة، وهذا ما لا يستحسنه بالضرورة المتعصبون لصفاء عزف البيانو...

*

(لوس أنجولس تايمز - 28 حزيران/ يونيو2008)

مؤلف «رفقة الملائكة» يمنح هبة بقيمة 500000$ لمدرسة في لوس أنجلس

في الوقت الذي تفرض فيه روايته الثانية **أبعد ما قد يتذكره ملاك** نفسها على رأس المبيعات، منح الكاتب طوم بويد هبة تقدر بنصف مليون دولار للهارفست هاي سكول في لوس أنجلس. هذا ما أعلن عنه مدير المؤسسة. تقع المدرسة في حي ماك آرثر بارك المهمش، وقد كانت مدرسة طوم بويد خلال مراهقته. ولما أصبح أستاذاً درّس فيها الأدب قبل مغادرتها بعد نجاح كتابه.

وفي اتصال لصحيفتنا به، لم يفضل الكاتب تأكيد الخبر. ويقال إن هذا المؤلف الغامض الذي نادراً ما يحدث الصحافة، منهمك مسبقاً في تحرير الجزء الثالث من ملحمته.

*

(ستار نيوز - 24 آب/ غشت 2008)

أرور الجميلة، عزبة من جديد!

مصائب قوم عند قوم فوائد. في سن الواحد والثلاثين، انفصلت عازفة البيانو وعارضة الأزياء تواً عن صديقها لاعب التنس الإسباني خافيير سانتوس الذي عاشت معه قصة حب منذ بضعة شهور.

ونتيجة لذلك، فإن هذا الرياضي سيمضي بضعة أيام من عطلته المستحقة في برشلونة، في إبيزا، عقب أدائه الجيد في رولان غاروس وويمبلدون. أما عن ملكة القلب السابقة، فلن تبقى عزبة لمدة طويلة...

(فاريتي - 4 أيلول/ شتنبر 2008)

«رفقة الملائكة» قريباً على شاشة السينما

اشترت كولومبيا بيكتشرز حقوق الاقتباس السينمائي لـ «ثلاثية الملائكة»، هذه الملحمة الرومانسية والعجائبية لصاحبها طوم بويد.

رفقة الملائكة، و**أبعد ما يتذكره ملاك**، عنوانان مألوفان لدى ملايين القراء الذين سبق وأن حبست أنفاسهم من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة في الجزأين الأوليين من هذه الثلاثية.

ومن المقرر أن يشرع في تصوير اقتباس الجزء الأول قريباً جداً.

*

من: Patricia.moore@speedacces.com

الموضوع: الشفاء

التاريخ: 12 أيلول/ شتنبر 2008

إلى: thomas.boyd2@gmail.com

نهارك سعيد، السيد بويد. كنت أود الكتابة إليك منذ مدة طويلة. اسمي باتريسيا، عمري 31 سنة، وأشرف لوحدي على تربية طفليَّ الاثنين. لقد رافقت حتى رمقه الأخير الرجل الذي أحببته والذي كوَّنت معه هذه الأسرة. لقد كان يعاني من مرض عصبي نخر كل قوته، شيئاً فشيئاً. ومن هذه الفترة من حياتي خرجت مثخنة بالجراح أكثر مما أرغب في إقراره لنفسي. كانت حكايتنا قصيرة جداً. وأثناء الفترة التي أعقبت مأساتنا اكتشفت كتاباتك.

لقد لجأت إلى حكاياتك وخرجت منها منسجمة مع ذاتي. في رواياتك، من حسن حظ شخصياتك أن لها في الغالب القدرة على تغيير مصيرها، وماضيها، وعلى تصحيح أخطائها. أما عني أنا، أملي الوحيد هو أن أحظى بالحب من جديد، وبأن أكون محبوبة مرة أخرى.

شكراً لأنك أعنتني على التصالح مع الحياة.

*

(**باري ماتان** - 12 تشرين الأول/ أكتوبر 2008)

أرور فالنكور: موهبة حقيقية أم خدعة إعلامية؟

شهد مسرح الشانزليزيه البارحة تدافع الحشود المعهودة في الأمسيات الكبرى.

مسبوقة بصورتها الإعلامية، لاتزال الموسيقية الشابة والبارعة تثير الفضول.

ضم البرنامج كونصرتو **الإمبراطور** لبيتهوفن، متبوعاً في الجزء الثاني بمرتجلات **شوبير**. طبق شهي لم يف بوعوده.

رغم توفر تقنية لا غبار عليها، فإن أداء الكونصرتو خلا من أي روح أو غنائية. ولن نتردد في قول ما يلي: إن أرور فالنكور نتاج لفن

التسويق أكثر مما هي عازفة بيانو خارقة وعبقرية مثلما يتم وصفها في التغطيات الإخبارية التلفزية. إذ بدون خلقتها الجميلة ووجهها، فهي مجرد عازفة عادية، لأن «الظاهرة» فالنكور تنبني على شيء واحد، أي على آلة دقيقة الصنع نجحت بمهارة في تحويل عازفة صادقة إلى نجمة معشوقة الجماهير.

المحزن في كل ذلك؟ هو أن فجاجتها الموسيقية لم تمنع جمهوراً منبهراً بصورتها من التصفيق لها بشدة.

*

من: Myra14.washington@hotmail.com

الموضوع: كتب لا مثيل لها.

التاريخ: 22 تشرين الأول/ أكتوبر 2008

إلى: Thomas.boyd2@gmail.com

نهارك سعيد، السيد بويد. اسمي ميرا، عمري 14 سنة. أنا «فتاة من الضاحية»، كما يقولون في الصحف. أرتاد المدرسة في ماك آرثر بارك وقد شهدت محاضرتك عندما حللت في مدرستنا. لم أتصور قط أنني سوف أهتم في يوم من الأيام بالروايات. ومع ذلك، فإن رواياتك استهوتني. لقد ادخرت بعض المال لشراء كتابك الثاني، لكن بما أنه لم يكن كافياً، فقد أمضيت ساعات طويلة بين أروقة «بارنس & نوبل» من أجل قراءته خلال زيارات عديدة...

شكراً.

*

(ت. م. ز. كوم - 13 كانون الأول/ دجنبر 2008)

أرور وطوم بمظهر العشاق في الحفل الموسيقي لكينغس أوف ليون؟

قدمت فرقة **الكينغس أوف ليون** حفلاً هائلاً يوم السبت في الفوروم في لوس أنجلس. وبين الحشود التي حجت لتشجيع فرقة الروك لناشفيل، عازفة البيانو أرور فالنكور وطوم بويد الكاتب اللذان بدا أن علاقتهما حميمية جداً. نظرات متواطئة، تهامس بكلمات ودية، والذراعان تحيطان بالخصر. إجمالاً، هذان الاثنان هما أكثر من صديقين. الصور التالية تتحدث عن نفسها. وأنتم الحَكَم..

*

(ت. م. ز. كوم - 3 كانون الثاني/ يناير 2009)

أرور فالنكور وطوم بويد: يركضان كأي عاشقين

هل هي رغبة للحفاظ على الرشاقة أم هروب عاشقين؟ في كل الأحوال، فإن أرور فالنكور وطوم بويد قد منحا نفسيهما، البارحة، حصة طويلة من الركض بمسالك سنترال بارك التي لا يزال يكسوها بياض الثلج. [...]

*

(ت. م. ز. كوم - 18 آذار/ مارس 2009)

أرور فالنكور وطوم بويد يبحثان عن شقة بمانهاتن

*

(يو. إس. إي. توداي - 10 نيسان/ أبريل 2009)

كتاب طوم بويد الجديد سيصدر قبل نهاية العام

أعلن الناشر دابلداي أمس: سوف يتم إصدار الفصل الختامي من

ملحمة طوم بويد الخريف المقبل. ساعات من القراءة في انتظار محبي الروائي.

من المرجح أن يكون الجزء الأخير من «ثلاثية الملائكة» الذي يحمل عنوان **ميكس آب إن هيفن** (فوضى في السماء)، أبرز الروايات نجاحاً هذا العام.

*

(**إنترتاينمنت توداي** - 6 أيار/ مايو 2009)

طوم يبحث عن الخاتم المثالي لأجل أرور

لقد أمضى الكاتب ثلاث ساعات في متجر تيفاني في نيويورك بحثاً عن الخاتم المثالي للمرأة التي يصاحبها منذ بضعة شهور.

وتحكي إحدى البائعات قائلة: كان يبدو عليه أنه عاشق بشدة ومنشغل جداً باختيار الحلية التي ترضي رفيقته.

*

من: Svetlana.shaparova@hotmail.com

الموضوع: ذكرى حب

التاريخ: (9 أيار/ مايو 2009)

إلى: Thomas.boyd2@gmail.com

العزيز، السيد بويد

بداية، أرجو المعذرة عن بعض الأخطاء الإملائية. أنا روسية ولا أجيد الحديث بالإنجليزية. كتابكم أهداني إياه رجل كنت أحبه، التقيت به في باريس. حينما أعطاني كتابكم، قال لي فقط: «اقرئيه وسوف تفهمين». هذا الرجل (كان اسمه مارتان) وأنا، لم نعد نعيش معاً اليوم، لكن حكايتكم تذكرني بالرابطة التي كانت تجمعنا وتجعلني أشد حيوية. عندما أقرؤكم، أكون في عزلة عن العالم. أقول لكم

شكراً، إذا قرأتم هذه الرسالة، وأتمنى لكم الكثير من النجاح في حياتكم الخاصة.

سفيطلانا.

*

(أونل! ني، 30 أيار/ مايو 2009)

مشادة بين أرور فالنكور وطوم بويد في مطعم

*

(أونيل! ني، 16 حزيران/ يونيو 2009)

هل أرور فالنكور«تخون» طوم بويد؟

*

(ت. م. ز. كوم، 2 تموز/ يوليو 2009)

أرور فالنكور وطوم بويد: نهاية قصة

عازفة البيانو المشهورة التي كانت تعيش منذ عدة شهور قصة حب جميلة، مع الكاتب طوم بويد، شوهدت الأسبوع الماضي رفقة جيمس بوغلياري، طبّال فرقة الروك ذي سفانكس.

*

أكيد أنه سبق لكم مشاهدة شريط الفيديو هذا... لقد ظل لمدة طويلة من بين أكثر الأشرطة مشاهدة على **يوتيوب وديليموشن**، مثيراً جملة من التعليقات، بعضها ساخر-وهي الأكثر عدداً-وبعضها الآخر أكثر تعاطفاً.

المكان؟ قاعة الرويال آلبرت هول بلندن. الحدث؟ **البرومس**، أحد مهرجانات الموسيقى الكلاسيكية الأكثر شهرة في العالم، والذي تبثه شبكة البي. بي. سي. مباشرة.

في بداية الشريط، نشاهد أرور فالنكور وهي تدخل الخشبة تحت تصفيقات منبعها آلاف من عشاق الموسيقى، وهم وقوف في صفوف متلاحمة، أسفل القبة الفيكتورية الهائلة. كانت ترتدي فستاناً أسود ضيقاً، يزينها طوق مجوهرات لا يثير الانتباه، تحيي الأركسترا، تجلس إلى البيانو ثم توقع بقوة على لوحة المفاتيح أولى نغمات كونصرتو **شومان**.

خلال الدقائق الخمس الأولى، كان الجمهور منتبهاً بشدة، تسمو به الموسيقى. وبعد أن كان مندفعاً في البدء، صار أداء أرور منطلقاً أكثر، وديعاً كالحلم، إلى أن...

...استطاع رجل، بعد مراوغة عناصر الحراسة، صعود الخشبة متوجهاً نحو العازفة المنفردة.

- أرور!

ذعرت المرأة الشابة وأطلقت صرخة قصيرة.

ولما توقفت الأوركسترا دفعة واحدة، برز حارسان شخصيان لمحاصرة المزعج وطرحاه أرضاً.

- أرور! قال مجدداً.

بعد تخلصها من الفزع الذي أصابها، قامت عازفة البيانو وبحركة من يدها طلبت من البديغارديين (الحارسين الخاصين) تخليص المشاغب. بعد لحظة ذهول، هاهي القاعة الآن غارقة في صمت غريب.

ينهض الرجل، يعدل قميصه في سرواله كي يستعيد شيئاً من التماسك. حدقتاه تلمعان، حمراوان من شدة الكحول والسهاد.

إنه ليس بالإرهابي ولا بالمخبول.

إنه عاشق فحسب.

إنه شقي فحسب.

يقترب طوم من أرور ويبوح لها بحبه بطريقة خرقاء يحدوه أمل كاذب في أن ذلك سيكفي لإذكاء شعلة الحب في نظرة تلك التي لا يزال مغرماً بها.

لكن، لعجزها عن إخفاء حرجها أو تحمل نظرته أكثر مما فعلت، تقاطعه المرأة الشابة قائلة:

- انتهى كل شيء، طوم.

وهو البائس، يفرج ما بين ذراعيه دلالة على عدم الفهم.

- انتهى كل شيء، تقول مجدداً هامسة وهي تغض بصرها عنه.

*

(لوس أنجلس دايلي نيوز - 10 أيلول/ شتنبر2009)

اعتقال مبدع ثلاثية الملائكة في حالة سُكْر

الجمعة مساء، تم اعتقال مؤلف أفضل المبيعات وهو في حالة سكر أثناء القيادة. كان يسير بسرعة 150كم/س على طريق محدودة السرعة في 70.

وبدل عدم إثارة الانتباه، تصرف بوقاحة مع ضباط الشرطة، مهدداً بتحطيم مسارهم المهني. تم وضعه مصفد اليدين في زنزانة حتى زوال السكر، وحسب السلطات فإن نسبة الكحول في الدم تجاوزت 1,6 غرام، فيما النسبة المسموح بها في ولاية كاليفورنيا هي 0,8 غرام.

عقب إطلاق سراحه بضع ساعات بعد ذلك، قدم اعتذاره عبر بلاغ أذاعه وكيل أعماله، **ميلو لومباردو**. «لقد تصرفت مثل أسوأ الأغبياء باتباع سلوك غير مسؤول كان سيشكل خطراً على حياة الآخرين كما على حياتي».

*

(بابلشر ويكلي - 20 تشرين الأول/ أكتوبر 2009)

تأخر إصدار الجزء الأخير من ثلاثية الملائكة

أعلن الناشر دابلداي بأن إصدار رواية طوم بويد سوف يتم تمديده إلى غاية الصيف المقبل. وعلى القراء إذاً الانتظار ثمانية شهور أخرى لمعرفة نهاية الملحمة الناجحة.

ويشاع أن سبب هذا التأخر هو الانتكاسة حديثة العهد التي يعيشها المؤلف بعد انفصاله العاطفي غير المستساغ والذي أغرقه في حالة اكتئاب حاد.

وهذا تفسير يرفضه وكيل أعماله، ميلو لومباردو: «إن طوم لا يعاني قطعاً من متلازمة الورقة البيضاء! إنه يعمل كل يوم كي يمنح لقرائه أفضل رواية ممكنة. يستطيع الجميع تفهم ذلك».

لكن هذا لا يمنع أن محبيه لا يفهمون الأمور بتلك الصورة! إذ خلال أسبوع واحد أُغْرِقَت مكاتب الناشر برسائل الاحتجاج. وبشبكة الإنترنت تم وضع عريضة مفتوحة لمطالبة طوم بويد باحترام التزاماته!

*

من: yunjinbuym@yahoo.com

الموضوع: رسالة من كوريا الجنوبية

التاريخ: (21 كانون الأول/ دجنبر 2009)

إلى: Thomas.boyd2@gmail.com

عزيزي السيد بويد. لن أقص عليك حياتي. أريد فحسب أن أقر لك بكوني أقمت منذ فترة قريبة بعيادة للطب النفسي نتيجة انهيار عصبي حاد، بل إنني جاولت مرات عديدة وضع حد لحياتي. وخلال هذا المقام، أقنعتني ممرضة بقراءة أحد كتبك. لقد كنت أعرف بك مسبقاً: من الصعب عدم مشاهدة أغلفة رواياتك في الميترو، في

الباصات أو في شرفات المقاهي. كنت أظن أن حكاياتك لم تكتب لأمثالي. كنت مخطئة. طبعاً، الحياة ليست كما هي في الكتب، لكنني وجدت في حبكاتك وشخصياتك ذلك القبس الضئيل الذي بدونه لم أكن شيئاً.

تقبل كل امتناني.

يونجين بويم.

*

(أونل! ني. - 23 كانون الأول/ دجنبر 2009)

اعتقال الكاتب طوم بويد في باريس

تم اعتقال مؤلف أفضل المبيعات في فرنسا، في مطار شارل ديغول، الاثنين الماضي، بعد عراكه مع نادل مقهى رفض خدمته نظراً إلى حالة سكره المفرط. وقد وضع بويد قيد الحراسة النظرية. وعقب التحقيق، ارتأى مدعي الجمهورية عرض قضيته أمام محكمة الجنايات في بُوبِينِي، نهاية كانون الثاني/ يناير. وستتم محاكمة بويد من أجل العنف المتعمد والقذف والضرب.

*

من: mirka.bregovic@gmail.com

الموضوع: قارئتك المخلصة جداً من صربيا!

التاريخ: (25 كانون الثاني/ دجنبر 2009)

إلى: thomas.boyd2@gmail.com

عزيزي السيد بويد. إنها أول مرة أخاطب فيها شخصاً لا أعرفه إلا من خلال كتاباته! أنا أستاذة للآداب في قرية صغيرة جنوب صربيا، حيث لا وجود للخزانات ولا للمكتبات. وفي يوم 25 كانون الأول/

دجنبر هذا، اسمح لي بأن أتمنى لك ميلاداً سعيداً. يهبط الليل في هذه الأثناء على البادية المكسوة بالثلج. آمل أن تأتي يوماً لزيارة بلدنا، ولم لا قريتنا ريكانوفيكا!

شكراً لكل هذه الأحلام.

مودتي.

ميركا.

ملحوظة: كنت أود أيضاً أن أقول لك بأنني لا أصدق ولو كلمة واحدة مما يحكى في الصحف، وعلى الإنترنت، عن حياتك الخاصة.

*

(**نيويورك بوست** - 2 آذار/ مارس 2010)

هل طوم بويد في طريقه إلى الهلاك؟

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر ليلاً، أول أمس، عندما قام المؤلف المشهور، ولسبب غير معروف حتى الآن، بمهاجمة زبون فريز، وهي حانة من الطراز الرفيع في بفرلي هيلس. تحول الحديث بين الرجلين إلى عراك. عند وصولها السريع للمكان، أوقفت الشرطة الكاتب الشاب بعدما عثرت لديه على 10 غرامات من الكريستال ميث.

بعد متابعته بحيازة المخدرات، تم وضعه قيد الحرية المشروطة، لكن سوف يتم استدعاؤه قريباً للمثول أمام المحكمة العليا في لوس أنجلس.

نراهن أنه، هذه المرة، بحاجة لمحامٍ جيد كي يتفادى السجن.

*

من : eddy93@free.fr

الموضوع : شخص طيب

التاريخ : (3 آذار/ مارس 2010)

إلى : thomas.boyd2@gmail.com

أقدم لك نفسي: اسمي إيدي، عمري 19 سنة وأهيئ شهادة الكفاءة، تأهلني أن أصبح حلوانياً في سْتَان، في الضاحية الباريسية. لقد ضيّعت كلياً سنوات الإعدادي والثانوي بسبب رفقة السوء وميل واضح للحشيش.

لكن منذ سنة، دخلت فتاة رائعة حياتي وكي لا أفقدها قررت الكف عن التصرف كأسوأ مغفل. استأنفت الدراسة، وبصحبتها فأنا لا أتعلم فحسب بل أفهم. ومن بين الكتب التي تجعلني أقرؤها، فإن كتبك هي المفضلة لدي: إنها تبرز ما هو أفضل في داخلي.

في الوقت الحاضر، أنا أنتظر بشوق حكايتك المقبلة. لكني لا أحب ما تحكيه وسائل الإعلام عنك. إن شخصياتي المفضلة في رواياتك هي بالتحديد تلك التي تعرف كيف تبقى مخلصة لقيمها. وعليه، إذا كان هناك شيء من الحقيقة في كل ذلك، احفظ نفسك، السيد بويد. لا تضيع نفسك في الكحول وفي تلك الفضلات، ألا وهي المنشطات.

ولا تصبح، بدورك، مغفلاً.

مع كامل احترامي. إيدي.

1

المنزل المطل على المحيط

قد يحدث أن تصادف امرأةٌ رجلاً محطماً وتقرر أن تجعل منه رجلاً سوياً. إنها تنجح في ذلك أحياناً. قد يحدث أن تصادف امرأة رجلاً سوياً وتقرر أن تجعل منه رجلاً محطماً. إنها تنجح في ذلك دائماً.

سيزار بافيز

- طوم، افتح الباب!

ذهبت الصرخة في مهب الريح وظلّت بلا جواب.

- طوم! هذا أنا، ميلو. أعرف أنك هنا. اخرج من مخبئك، تبّاً لك!

ماليبو

ناحية لوس أنجلس، كاليفورنيا

منزل مطل على الشاطئ.

منذ أكثر من خمس دقائق وميلو لومباردو يطرق بلا توقف الستائر الخشبية المطلة على شرفة منزل أعز صديق لديه.

- طوم، افتح وإلا كسرت الباب! تعلم أني أستطيع فعل ذلك!

بقميص مكوي بعناية، وبدلة على المقاس، ونظارات شمسية على الأنف، كان ميلو متجهماً.

لقد ظن في البدء أن الأيام كفيلة بلملمة جراح طوم، لكن بدل أن تنفرج الأزمة التي يمر بها، استفحلت. خلال الشهور الستة الأخيرة لم يغادر الكاتب قط منزله، مفضلاً التحصن داخل سجنه الذهبي وعدم الرد على جرس هاتفه المحمول ولا على جرس الباب.

- ألتمس منك ذلك مجدداً، طوم: دعني أدخل!

كل مساء، كان ميلو يأتي وينقر على باب الإقامة الفاخرة، لكنه لم يكن يتلقى من جواب سوى شتائم الجيران والتدخل الحتمي لدورية الأمن التي تسهر على راحة سكان مقاطعة «ماليبو كولوني» الأثرياء.

ومع ذلك، هذه المرة لم يعد هناك وقت للمماطلة: يجب التصرف قبل فوات الأوان.

- حسناً، إذا كانت تلك رغبتك! قال مهدداً وهو يسقط معطفه ويلتقط قبضة المطرقة التي أعطته إياها كارول، صديقة طفولتهما والتي تعمل اليوم محققة سرية بـ LAPD (شرطة مقاطعة لوس أنجلس).

ألقى طوم نظرة خلفه. كان الشاطئ ذو الرمال الناعمة يغفو تحت الشمس الذهبية لبداية الخريف هذه. منحشرة مثل أسماك السردين، كانت الفيلات الفاخرة تمتد على طول واجهة البحر، توحدها الرغبة في منع العبور إلى الشط على الفضوليين. العديد من رجال الأعمال ومشاهير الإعلام والفرجة اختاروا المقام هناك. من دون الحديث عن نجوم السينما: طوم هانكس، شين بين، ديكابريو، جنيفر أنيستون، جميعهم كان يمتلك بيتاً في الناحية.

منبهراً بنور الشمس الساطع، أغمض ميلو عينيه. على بعد خمسين متراً منه، كان هناك شاب فائق الجمال بلباس البحر، يقف أمام كوخ محمول على ركائز، والمنظاران مثبتان على عينيه، إنه معلم سباحة ويبدو كأنه مسحور بقوام راكبات الموج اللائي يستمتعن بأمواج المحيط الهادي القوية.

لما أدرك أن المجال مفتوح، شرع ميلو في العمل. أولج الطرف المعقوف للرافعة الحديدية في إحدى فتحات القاعدة ودفع بكل قوته لتحطيم ألواح الستائر الخشبية.

هل لنا الحق بالفعل في حماية أصدقائنا من أنفسهم؟ قال متسائلاً وهو يلج المنزل.

لكن صحوة الضمير تلك لم تدم ولو لثانية: عدا كارول، لم يعرف ميلو إلا صديقاً واحداً في هذه الدنيا وكان مصمماً على فعل أي شيء كي ينسيه غمه ويحبب لديه طعم الحياة مجدداً.

*

- طوم؟

كان الطابق الأرضي، المغمور بالعتمة، يسبح في صمت مريب تتناهبه رائحة العطن والعفن. أطنان من الأواني تراكمت في مغسل المطبخ وكان الصالون مخرباً كما لو أنه تعرض للسطو: أثاث مقلوب، ملابس مطروحة فوق الأرضية، صحون وأكواب مهشمة. تخطى ميلو علب البيتزا ومعلبات الطعام الصيني وحطام قنينات الجعة، ثم فتح جميع النوافذ كي يطرد الظلام ويُهَوِّي الغرف.

بُنِي المنزل الذي كان يضم مستويين بمسبح تحت أرضي على شكل حرف L. ورغم الفوضى التي تعمه، كان يبعث جواً هادئاً بفضل الأثاث المصنوع من خشب القيقب، والبلاط الخشبي

الأصهب، والضوء الطبيعي الوفير. زخرفة تجمع في الآن معاً بين الفِنْتِدْج (الطابع القديم) والدِيزايْن، تزاوُجٌ بين الأثاث الحديث والتقليدي يمثل نموذجاً للفترة التي كانت فيها ماليبو مجرد شاطئ لراكبي الأمواج ولم تكن بعد ملجأ ذهبياً لأصحاب الملايير.

وهو منكمش في وضعية الجنين على أريكته، كان منظر طوم مخيفاً: منفوش الشعر، شاحب الوجه الذي طغت عليه لحية مثل لحية روبنسون كروزو، لم يكن يشبه الصور الرفيعة التي كانت تزين الأغلفة الخلفية لرواياته.

انهض! صرخ ميلو بقوة.

دنا من الأريكة. العديد من الوصفات الطبية المكومة أو المطوية كانت تملأ المنضدة. وصفات من تحرير الدكتورة صوفيا شنابل، «طبيبة المشاهير النفسية» والتي كانت عيادتها في بفرلي هيلس تغطي جانباً كبيراً من حاجيات المجتمع الراقي المحلي، المحلق في الأعالي، من العقاقير المهدئة، القانونية إلى حد ما.

- طوم، استيقظ! صرخ ميلو متجهاً حيث يرقد صديقه.

بحذر، تفحص ملصقات علب الدواء المبعثرة على الأرض وعلى المنضدة: فيكودان، فاليوم، كزاناكس، زولوفت، ستيلنوكس. خليط جهنمي من المسكنات، ومضادات القلق، والاكتئاب، والحبوب المنومة. الكوكتيل القاتل في القرن الواحد والعشرين هذا.

- تباً لك!

لأن الرعب تملكه، وقد كان يخشى تسمماً جراء الأدوية، أمسك بطوم من كتفيه لإخراجه من نومه الاصطناعي.

بعد هزه مثل شجرة برقوق، فتح الكاتب عينيه في آخر المطاف:

- ماذا تفعل في منزلي؟ قال مغمغماً.

2

صديقان

كنت أتلو الأدعية الأبدية التي يتم ترديدها عند محاولة تقديم المساعدة لقلب محطم، لكن الكلمات لا تجدي نفعاً. (لا شيء مما نستطيع قوله قد يسعد أبداً الشخص الذي يشعر أنه غارق في الوحل لأنه فَقَدَ تلك التي يحب.

ريتشارد بروتيغان

- ماذا تفعل في منزلي؟ غمغمتُ.

- لكن، هذا يقلقني، يا طوم! مرت الآن شهور وأنت محبوس هنا تفتك بنفسك من فرط المسكنات.

- هذه مشكلتي! أعلنت ذلك وأنا أستقيم في جلستي.

- لا، يا طوم: مشاكلك هي مشاكلي. كنتُ أعتقد أن هذه هي الصداقة، أليس كذلك؟

جالس على الأريكة، أخفي وجهي بين يَدَيّ، أهز كتفي هزاً نصفه من خجل ونصفه الآخر من يأس.

- على أي حال، قال ميلو مواصلاً كلامه، لا تعتمد علي في أن أدع امرأة تجعلك على هذه الحال!

- أنت لست أبي! أجبته وأنا أقف بصعوبة.

لمَّا أخذني الدوار، وجدت صعوبة في مواصلة الوقوف، مما جعلني أتكئ على مسند الأريكة الخلفي.

- صحيح، لكن إذا لم نكن، كارول وأنا هنا لمساعدتك، من سيفعل ذلك؟

أدرت له ظهري ولم أبحث عن جواب.

بسروالي القصير كنت لا أزال، جُزْتُ الغرفة حتى المطبخ كي أشرب كوباً من الماء. في أعقابي، وجد ميلو كيساً كبيراً لجمع النفايات ثم فتح الثلاجة كي يُعْمِل فيها فرزاً انتقائياً.

ما لم تكن عازماً على الانتحار بواسطة المربى الذي عفا عليه الزمن، أنصحك بالتخلص من مشتقات الحليب هذه، قال وهو يَشُم وعاء الجبن ذي الرائحة المريبة.

- إني لا أرغمك على أكله.

- وهذا العنب، هل أنت متأكد من أن أوباما كان رئيساً عندما اشتريته؟

ثم شرع في إعادة بعض النظام لغرفة الجلوس، ملتقطاً البقايا من الحجم الكبير، والمغلفات والقنينات الفارغة.

- لماذا تحتفظ بهذا الشيء؟ سأل بنبرة عتاب مشيراً إلى إطار رقمي يعرض مجموعة من صور أورور.

- لأنني في منزلي وفي منزلي ليس لدي ما أبرره لك.

-ربما، لكن هذه الفتاة حطمتك تحطيماً. ألا تظن أن الوقت قد حان لإنزالها من عليائها؟

- اسمع يا ميلو، إنك لم تحمل لأرور وداً في ما سلف...

- صحيح، لم أستحسنها بتاتاً. ولكي أصارحك، كنت دائماً أعرف أنها سوف تهجرك في نهاية المطاف.

- حقاً؟ هل لي أن أعرف لماذا؟

الكلمات التي كانت تثقل صدره منذ أمد طويل، انبعثت من فمه بقسوة.

- لأن أرور ليست مثلنا! لأنها تحتقرنا! لأنها ولدت وبفمها ملعقة من ذهب. لأن الحياة كانت بالنسبة إليها دوماً عبارة عن لعب أما بالنسبة إلينا فقد كانت دوماً عبارة عن كفاح...

- كما لو أن الأمور بهذه السهولة... إنك لا تعرفها!

- كفّ عن تقديسها! انظر لما فعلته بك!

- بالطبع، فهذا لا يحدث لك أنت! عدا نساؤك الغبيات، لم يكن للحب مكان في حياتك!

وبدون أن نقصد ذلك فعلاً، تصاعدت لهجتنا وعندها صارت كل إجابة تصطك وكأنها صفعة.

- لكن ما تشعر به، لا يمت بصلة للحب! قال ميلو بغضب. ذلك شيء مغاير: إنه مزيج مكثف من المعاناة والهوى المدمر.

- لكن، على الأقل، أنا أقدم على بعض المجازفات. أما أنت...

- لا أقدم على المجازفات، أنا؟ لقد قفزت بالمظلة من فوق الأمْبايْر سْتِيت بيلْدينْغ. وشريط فيديو الحدث طاف على شبكة النت...

- وماذا جنيت من ذلك عدا غرامة ثقيلة؟

وكما لو أنه لم يسمع شيئاً، عدّد ميلو:

- لقد نزلت متزحلقاً جليد سلسلة جبال لاكورديرا بلانكا في البيرو. واندفعت بالمظلة من قمة الإيفرست، وأنا من بين بضعة أشخاص في العالم ممن تسلقوا قمة K2.

- كي تؤدي دور الكاميكاز، صحيح أنك بارع جداً. أما أنا، فأحدثك عن المجازفة في الحب. وهذه المجازفة، لم تُقْدِم عليها قط، حتى مع...

- توقف! صرخ بعنف وهو يشدني من طوق قميص «تي شيرت» كي يمنعني من إتمام جملتي.

بقي على تلك الحال لبضع ثوان، يداه منقبضتان، ومن عينيه يتطاير الشرر، إلى أن استوعب الوضع: لقد جاء لمساعدتي وها هو يوشك على توجيه لكمة من قبضة يده لوجهي...

- أنا آسف، قال وهو يفك خناقي.

هززت كتفي وخرجت إلى الشرفة الرحبة المطلة على المحيط. كان للمنزل، المتواري عن الأنظار، مدخل مباشر إلى الشاطئ عبر سلم خاص وُضِعَت على درجاته أصص طينية للأزهار تكاثرت بها النباتات المحتضرة التي لم تكن لدي القوة لسقيها منذ شهور.

وضعت زوجاً قديماً من نظارات ري بان وييفارير كانت منسية على طاولة من خشب الساج الجاواني لاتقاء الأشعة، ثم تهاويت على كرسيّ الهزاز.

بعد جولته في المطبخ، لحق بي ميلو حاملاً فنجاني قهوة وناولني واحداً منهما.

- جيد، لنَكُفّ عن هذه التصرفات الصبيانية ولنتحدث بجدية! قال مقترحاً وهو يضع ردفه على الطاولة.

محدقاً في لا شيء، لم أبد أي مقاومة. في هذه اللحظة كانت

لدي أمنية واحدة: أن يقص علي بسرعة ما جاء من أجل قوله وأن يمضي إلى حال سبيله حتى أستطيع الذهاب لأفرغ همي بوضع رأسي في حوض المرحاض كي أتناول مجدداً حفنة من الحبوب التي تقذف بي بعيداً عن الواقع.

- منذ متى ونحن نعرف بعضنا، يا طوم؟ خمسة وعشرين عاماً؟

- تقريباً، قلت وأنا أرشف جرعة من القهوة.

- منذ فترة مراهقتنا، لقد كنتَ دائماً صوتاً للعقل، بادر ميلو قائلاً. لقد منعتني من ارتكاب العديد من الحماقات. لولاك، لكنت بالسجن منذ زمن بعيد وربما كنت ميتاً حتى. لولاك، لما صارت كارول شرطية أبداً. لولاك، لما استطعت شراء منزل لأمي. باختصار أعرف أني مدين لك بكل شيء.

وأنا محرج، نكست هذه الحجج بحركة من يدي:

- إن كان قدومك من أجل التفوه بمثل هذا الكلام المعسول...

- ليس كلاماً معسولاً! لقد قاومنا كل شيء، يا طوم: المخدرات، عنف العصابات، طفولة فاسدة...

هذه المرة أصابني سهم الحجة ونجح في أن يسبب لي قشعريرة. رغم النجاح والرقي الاجتماعي، شيء مني ظل دائماً في سن الخامسة عشر ولم يغادر بتاتاً حي ماك آرثر بارك، ومروجيه، ومهمشيه، وسلالمه التي يملؤها الصراخ. والخوف الذي كان في كل الأرجاء.

التفت برأسي وغابت نظراتي نحو المحيط. كان الماء صافياً ويشع بألف لون بدءاً من الفيروزي وصولاً إلى الأزرق اللازوردي. وحدها بضع موجات، متناغمة ومنتظمة كانت ترج الهادي. سكينة على النقيض من ضوضاء مراهقاتنا.

- نحن ذمتنا بريئة، واصل ميلو. لقد جنينا مالنا بعرق جبيننا. لا

نخفي مسدسات في ستراتنا. ليس هناك من قطرات دم على قمصاننا، ولا أثر للكوكايين على أوراقنا النقدية...

- إنني لا أرى جيداً ما العلاقة بين...

- لدينا كل ما يجعلنا سعداء، يا طوم! عافية، شباب، مهنة نحبها. لا يمكنك تدمير كل شيء من أجل امرأة. هذا قمة الغباء. إنها لا تستحق ذلك. احتفظ بحزنك للأيام التي تطرق فيها المصائب بابك.

- لقد كانت أرور حب حياتي! ألا تستطيع فهم ذلك؟ ألا تستطيع احترام حزني الشديد؟

تحسر ميلو:

- تريد الصراحة: لو كانت فعلاً حب حياتك، لكانت موجودة هنا اليوم، برفقتك، كي تمنعك من الغرق في هذا الهذيان المدمر.

ابتلع قهوته الإسبريسو جرعة واحدة ثم قال ملاحظاً:

لقد جرَّبْتَ كل شيء لاسترجاعها. توسلت إليها، حاولت إثارة غيرتها، وأهنت نفسك أمام العالم كله. انتهى الأمر: لن تعود. لقد طوت الصفحة ومن الأفضل لك أن تقوم بالمثل.

- لا أقوى على ذلك، قلت معترفاً.

بدا أنه يفكر للحظة وارتسمت على وجهه ملامح قلق واستغراب.

- في الحقيقة، اعتقد أنه لم يعد لك خيار بكل بساطة.

- كيف ذلك؟

- خذ حماماً وارتد ملابسك.

- للذهاب إلى أين؟

- حيث تأكل ضلعاً بقرياً مشوياً عند سْبَاغُو.

- لست جائعاً.

- ليس من أجل الطعام آخذك إلى هناك.

- من أجل ماذا إذاً؟

- من أجل المُنَشِّط الذي ستحتاجه عندما أبوح لك بما لدي من أقوال.

3

الرجل المُلْتَهَم

لا يا «جيف»، لست وحدك
كُف عن النحيب
هكذا أمام الملأ
لأن عجوزاً ناقصة
لأن صهباء مخادعة
تخلت عنك (...)
أعرف أنك حزين جداً
لكن عليك أن تفرغ ما في قلبك، يا «جيف»

جاك بريل

- لماذا ركنت هذه الدبَّابة أمام بيتي؟ سألتُ وأنا أشير إلى السيارة الرياضية المهيبة والتي تسحق بعجلاتها المخيفة رصيف «كولوني رود».

- ليست دبَّابة، أجابني ميلو، مغتاظاً، إنها «بوغاتي فيرون»، طراز «صانْ نْوارْ»، إحدى أقوى السيارات في العالم.

ماليبو
شمس مستهل الظهيرة
حفيف الريح في الأشجار.

- اشتريت سيارة جديدة مرة أخرى! هل تجمع السيارات أم ماذا؟

- أنا لا أحدثك عن سيارة يا عزيزي. أنا أحدثك عن تحفة فنية!

- أنا أسمي ذلك مصيدة للبغايا. هل هناك بالفعل فتيات تنطلي عليهن حيلة السيارة الرديئة تلك؟

إذا كنت تظن أنني بحاجة لذلك من أجل تعقب الغانيات!

ارتسمت على وجهي عبارة شك. لم أفهم قط انبهار بني جلدتي من الرجال بالسيارات الكوبيه، والرودستيرز وأصناف أخرى من السيارات المكشوفة...

- هيا، تعال كي ترى الوحش! قال ميلو مقترحاً بعينين مشرقتين.

وكي لا أحبط صديقي، أجبرت نفسي على تفحصها من كل الجوانب. متكومة حول نفسها، بيضوية الشكل إهليلجيته، تشبه البوغاتي شرنقة تتلألأ نتوءاتها في الشمس وتتميز بالكامل عن الهيكل شديد السواد: غطاء أمامي مصقول، مرايا جانبية معدنية، إطارات براقة تنبعث منها الشعلة الزرقاء للفرامل ذات الأقراص.

- هل تريد أن تلقي نظرة على المحرك؟

- لا داعي للشكليات، قلت بتحسر.

- هل تعلم أنه تم صُنع خمسة عشر نموذجاً فقط عبر العالم؟

- لا، وأنا سعيد بمعرفة ذلك.

- معها، قد نصل 100 كلم/ س في ما يقارب ثانيتين. وفي حال السرعة القصوى، يمكنك الاقتراب من 400كلم/ س.

- إنها مفيدة جداً في زمن غلاء البترول، والرادارات المبثوثة على بعد كل مئة متر، إنها ليست محافظة على البيئة قطعاً!

هذه المرة، لم يخف ميلو خيبته:

- لستَ إلا مُنَكِّداً يا طوم، غير قادر تماماً على تقدير خفة العيش وملذات الحياة.

- كان من الضروري أن يكون هناك واحد يمنح التوازن للثنائي الذي نشكله، قلت معترفاً. وبما أنك اخترت مسبقاً الدور الآخر، فقد أخذت الدور المتبقي.

- هيا، اركب.

- هل أستطيع القيادة؟

- لا.

- لماذا؟

- لأنك تعلم جيداً أن رخصتك قد تم تعليق العمل بها...

*

غادرت السيارة المسرعة ممرات ماليبو كولوني الظليلة كي تلج الباسيفيك كوست هايواي الذي يمتد على طول المحيط. كانت السيارة تلتحم والطريق بشكل جيد. مقصورتها المكسوة بالجلد الملمَّع ذي البريق البرتقالي، كان فيها شيء من الدفء. كنت أشعر بأني في أمان داخل هذا العش الهادئ ثم أغمضت عيْنيَّ، تهدهدني مقطوعة أوتيس ريدينغ القديمة «نفَس» التي كانت تذاع على الراديو.

كنت أعرف أن هذه السكينة، الظاهرة والهشة، لم تكن ناجمة إلا

عن الشرائط المضادة للقلق التي كنت قد تركتها تذوب تحت لساني بعد حمامي الخفيف، لكن فترات الراحة كانت من الندرة حيث تعلمت تقديرها حق قدرها.

منذ أن هجرتني أرور، ما يشبه السرطان أفسد قلبي، انحشر فيه بصورة مزمنة مثل جرذ في غرفة المؤن. التهمني الحزن، هو الكاسر وآكل لحم جنسه، إلى أن أفرغني من كل عاطفة أو إرادة. في الأسابيع الأولى، جعلني الخوف من الانهيار دائم الحذر، مرغماً إياي على مقاومة اليأس والمرارة بضراوة. لكن الخوف هجرني أيضاً، ومعه الأنفة بل وحتى أبسط رغبة في الحفاظ على المظاهر. نخرني ذلك الجذام الداخلي بلا هوادة، ماسحاً ألوان الحياة، ممتصاً كل نسغ، مطفئاً كل ومضة. ولأدنى تلميح لمعاودة التحكم في وجودي، كانت القرحة تتحول إلى أفعى، تلقحني مع كل عضة جرعة من السم الذي كان يتسرب بخبث داخل دماغي على هيئة ذكريات مؤلمة: القشعريرة التي تعتلي بدن أرور، عبقها بملح الصخر، رمش أهدابها، الطيف الذهبي المتلألأ في عينيها...

وإذا بالذكريات نفسها تغدو أقل حِدَّة. ومن جراء إهلاك نفسي بالأدوية المهدئة، صار كل شيء غائماً. واستسلمت للانحراف، أقضي أيامي وأنا ممدَّد على أريكتي، مختبئ في الظلمة، صريع من جراء «كزاناك المنوم» المُرْهِق الذي يُتَوَّجُ في الأيام الصعبة بكوابيس تملؤها جرذان لها خطم مسنن وذيل خشن، أستيقظ منها وأنا أتصبب عرقاً، متصلب، مرتجف، تستحوذ عليَّ رغبة واحدة، ألا وهي الهروب مجدداً من الواقع وذلك بتناول جرعة جديدة من العقاقير المضادة للاكتئاب، تهلكني أكثر من سابقتها.

مرت الأيام والشهور في هذا السبات الغائم من دون أن أنتبه لذلك، أيام وشهور لا معنى لها ولا جوهر. والواقع ماثل هناك:

حزني أكثر وطأة ولم أكتب سطراً منذ سنة خلت. كان دماغي متصلباً. هجرتني الكلمات، تخلت عني الرغبة، ونضب خيالي.

*

قبالة شاطئ سانتا مونيكا، ولج ميلو الطريق السريع رقم 10، في اتجاه ساكرامينطو.

-هل علمت بنتائج البيسبول؟ سألني بنبرة مبتهجة وهو يناولني جهازه الآي فون الموصول بموقع رياضي. الآنجلز يهزمون اليانكيز.

ألقيت نظرة عارضة على الشاشة.

- ميلو؟

- نعم ؟

- عليك النظر صوب الطريق وليس نحوي.

كنت أعرف أن همومي تربك صديقي، وتصرفه إلى أمور كان يجد صعوبة في تقبلها: انزلاقي الذهني وهذا النصيب من الاختلال الذي نحمله جميعاً في داخلنا والذي ظن، عن سوء تقدير، أني معصوم منه.

انعطفنا إلى اليمين للصعود نحو ويستوود. دخلنا المثلث الذهبي بلوس أنجلس. ومثلما لاحظ بعضنا ذلك، لم يكن في ذلك الحي لا مستشفى ولا مقبرة. هناك فحسب شوارع نظيفة فيها متاجر باهظة الثمن يوجِب ارتيادها الحصول على موعد مثلما هو الأمر عند الطبيب. من الناحية الديمغرافية، لا أحد يولد أو يموت في بفرلي هيلس...

- آمل أن تكون قد جعت، قال ميلو وهو ينحدر بسرعة نحو «كانون درايف».

فرملة حادة بما يكفي أوقفت البوغاتي أمام مطعم راقٍ.

بعد تسليم المفاتيح لراكن السيارات، سبقني ميلو بخطوات واثقة داخل المنشأة التي دأب على ارتيادها.

إن الولد سيئ السمعة الذي كانه قديماً في ماك آرثر بارك يعيش، بما يشبه الانتقام الاجتماعي، إمكانية القدرة على الغذاء عند سباغو من دون موعد مسبق، في حين أن على الناس العاديين الحجز ثلاثة أسابيع مقدماً.

قادنا رئيس الخدم إلى فناء باذخ حيث رصت أجود الموائد التي تستضيف مشاهير عالم الأعمال وتجار الفن. أشار إلي ميلو بحركة خفية ونحن نتأهب للجلوس: على بعد أمتار قليلة كان جاك نيكولسن ومايكل دوغلاس ينهيان نبيذهما المُيَسِّر للهضم، بينما إلى مائدة أخرى، جلست ممثلة سيتكوم غذت خيالاتنا كمراهقين، وكانت تلوك ورقة خس.

جلستُ غير مكترث بذلك المحيط «الساحر». منذ سنتين، سمح لي الوصول إلى الحلم الهوليوودي بالاقتراب من بعض معبوداتي القديمة. من خلال حفلات خاصة بالنوادي أو بفيلات فسيحة مثل القصور، استطعت الحديث مع بعض الممثلين والمغنين والكتاب الذين كنت أذهل لرؤيتهم وكأني في حلم حينما كنت مراهقاً. لكن هذه اللقاءات اصطدمت بجدار الخيبة وزوال الافتتان. كان من الأفضل عدم معرفة كل ما يجري في كواليس مصنع الأحلام ذاك. في الحياة «الفعلية»، لم يكن أبطال مراهقتي في الغالب سوى منحرفين، انخرطوا في مطاردة منهجية أثناءها يمسكون فتيات-طرائد يفترسونهن ويلقون بهن فوراً، بعد إشباع نهمهم، ثم الاندفاع نحو لحم أكثر طراوة. والمحزن أيضاً: بعض الممثلات اللاتي كانت على الشاشة تطفح سحراً وسرعة بداهة كانت تنتقل في الواقع بين جرعات الكوكايين، وفقدان الشهية وحقن البوتوكس وشفط الدهون.

لكن بأي حق أحكم عليهم؟ ألم أصبح بدوري واحداً من هذه النماذج التي أمقتها؟ ضحية للعزلة ذاتها، لإدمان الأدوية ذاته وللأنانية المتقلبة ذاتها التي كانت تقودني في لحظات الصحو إلى التقزز من نفسي.

- استمتع! قال ميلو بحماسة وهو يشير إلى قطع الخبز المأدوم التي تم إحضارها لنا مع المقبلات.

تذوقت بطرف شفتي قطعة الخبز المكسوة بشريحة رفيعة من اللحم الناعمة ورخامية اللون.

- إنه لحم أبقار «كوبي»، قال شارحاً. هل تعلم أن في اليابان، يتم تدليكها بالسَّاكي، نبيذ الأرز، كي يتسرب الدسم إلى العضلات؟

عقدت حاجبي. ثم واصل:

- ومن أجل ملاطفتها، يُخْلَطُ طعامها بالبيرة ولراحتها تذاع عليها وبأعلى صوت، الموسيقى الكلاسيكية. ربما تكون الشريحة الموضوعة في طبقك قد استمعت لحفلات أرور الموسيقية. وربما قد وقَعَت في حبها. ها أنت ترى أن لكما أشياء مشتركة!

كنت أعرف أنه يفعل ما في مستطاعه كي تنبسط أساريري، لكن حتى حس الفكاهة هجرني.

- ميلو، لقد بدأت أشعر بالضجر من كل ذلك. اشرح لي ما الذي عندك قوله وله كل تلك الأهمية؟

التهم قطعة أخيرة من الخبز المأدوم، من دون أن يترك للحم الوقت كي يلامس حنكه، ثم أخرج من جرابه حاسوباً محمولاً صغير الحجم ووضعه على المائدة.

-حسناً، الآن، اعتبر أن من يحدثك ليس هو صديقك بل وكيل أعمالك.

كانت تلك كلمته المعتادة لافتتاح أي اجتماع يفترض أن نتحدث فيه « لغة الأعمال». كان ميلو هو المحرك الرئيس لمقاولتنا الصغيرة. والمحمول لصق أذنه، كان يعيش على إيقاع شديد السرعة، متصل على الدوام بالناشرين والعملاء الأجانب والصحافيين، دائم البحث عن أفكار جيدة لترويج كتب زبونه الوحيد: أنا. لم أعرف كيف استطاع إقناع دابلداي بنشر روايتي الأولى. في عالم النشر الشرس، تشرب حرفته في الميدان، من دون دراسات أو تكوين خاص، حتى صار من بين الأفضل في المجال ببساطة لأنه كان يثق كثيراً في قدراتي أكثر مما أفعله تجاه نفسي.

لقد ظن دائماً أنه مدين لي بكل شيء، لكني كنت أعلم خلافاً لذلك أنه هو من حولني إلى نجم، وذلك بجعلي، منذ كتابي الأول ضمن الحلقة السحرية لمؤلفي أفضل المبيعات. بعد ذلك النجاح الأول، توصلت باقتراحات من أشهر وكلاء الأعمال الأدبيين، لكنني اعتذرت عنها جميعها.

إذ علاوة على كونه صديقي، كان لميلو ميزة نادرة أضعها فوق كل الخصال: الولاء.

هذا على الأقل ما كنت أعتقده قبل سماع اعترافاته ذلك اليوم.

4

عالم الداخل

كلما كان عالم الخارج خالياً من الأمل
تضاعفت عندي قيمة عالم الداخل.

إميلي برونتي

- فلنبدأ بالأخبار السارة: مبيعات الجزأين الأولين لا تزال جيدة كما في السابق.

أدار ميلو شاشة الحاسوب اتجاهي: منحنيات حُمْر وخُضر تحلق نحو أعلى الرسم البياني. حل العالمي مكان السوق الأمريكية، وثلاثية الملائكة في طريقها إلى أن تصير ظاهرة كونية. وفي ظرف ستة شهور فقط توصلت بأكثر من خمسين ألف رسالة من القراء عبر البريد الإلكتروني! هل تدرك معنى ذلك؟

أدرت رأسي ورفعت بصري. لم أكن أدرك أي شيء. سحب خفيفة كانت تتبخر في أجواء لوس أنجلس الملوثة. كنت أشتاق إلى أرور. ما نفع ذلك النجاح إن لم يكن لدي من أقاسمه إياه؟

- خبر سار إضافي: سوف يُشْرَع في تصوير الفيلم الشهر المقبل. لقد أكد كل من كييرا نايتلي وآدريان برودي موافقتهما وأقطاب كولومبيا متحمسون. لقد تعاقدوا تواً مع مدير الديكور لأفلام

هاري بوتر ويراهنون على عرض الفيلم شهر تموز/ يوليوز المقبل على ثلاثة آلاف شاشة. لقد ذهبت لحضور بعض حصص اختيار الممثلين: كان ذلك رائعاً. كان ينبغي عليك الحضور...

وبينما كانت نادلة تحضر الأطباق التي طلبنا - معجنات (تاغلياتيل) بالسلطعون له، وبيض بفطر الشانتريل لي - إذا بهاتف ميلو المحمول يهتز فوق المائدة. ألقى نظرة إلى الرقم الظاهر، عقد حاجبيه وتردد لثانية قبل أخذ المكالمة، ثم غادر المائدة وانعزل خلف الشرفة الزجاجية الممتدة بالطول والتي تصل الفناء بباقي أجزاء المطعم.

لم تدم المكالمة طويلاً. كان يصلني منها مقتطفات، يقطعها ضجيج القاعة. خمنت أن حديثهما كان صاخباً، تخللته مؤاخذات متبادلة وتلميحات إلى مشاكل لا أعلم عنها شيئاً.

- إنه دابلداي، قال ميلو شارحاً وهو عائد إلى الجلوس. لقد حدثني عن أمر كنت أود مفاتحتك فيه. ليس بالأمر الجسيم: فقط هناك مشكلة بسيطة في طبع النسخة الفاخرة من روايتك الأخيرة.

كنت متعلقاً بهذه الطبعة التي أردت لها أن تكون أنيقة: غلاف قوطي مجلد، تزينه رسومات مائية لأبرز الشخصيات، ومقدمة وخاتمة لم يسبق نشرهما.

- أي نوع من المشاكل؟

- لمواجهة الطلب، قاموا بالسحب على عجل. وقد ضغطوا على الطابع وكان أن تخرب شيء ما. النتيجة: عليهم تحمل أكثر من مئة ألف نسخة معيبة. وسوف يقومون بإتلافها، لكن المزعج هو أن بعض الكتب قد سبق تسليمها للمكتبات. سوف يوجهون رسائل لاسترجاعها.

سحب نسخة من جرابه وناولني إياها. وحتى عند تصفحه بلا

انتباه، فإن سوء الصنعة كان بادياً للعيان، إذ من بين الخمسة مئة صفحة التي تضمها الرواية، النصف فقط هو ما تم طبعه، حيث توقفت الحكاية بغتة وسط الصفحة 266 عند جملة غير تامة بدورها:

مسحت بيلي عينيها المسودتين جراء اندلاق الماسكارا.

- من فضلك يا جاك لا ترحل هكذا.

لكن الرجل كان قد لبس معطفه. فتح الباب، من دون إلقاء نظرة نحو عشيقته.

- أتوسل إليك! صرخت وهي تسقط.

وكان ذلك كل شيء. ولا حتى نقطة. كان الكتاب يختتم بـ«وهي تسقط»، متبوعة بأكثر من مائتي صفحة بيضاء.

ولأنني أحفظ رواياتي عن ظهر قلب، لم أجد صعوبة في تذكر الجملة بأكملها: «أتوسل إليك! صرخت وهي تسقط عند ركبتيه».

- حسناً، لا نحفل بذلك، جزم ميلو وهو يمسك بشوكته. هم من عليهم التصرف لتسوية هذه القضية. الأهم يا طوم، هو...

كنت أعرف ما سيقوله حتى قبل إتمام جملته: الأهم يا طوم، هو... روايتك المقبلة.

روايتي المقبلة...

تناول قضمة كبيرة من المعجنات ثم شرع مجدداً في الضرب على لوحة مفاتيح حاسوبه.

- التوقع هائل. أنظر شيئاً ما إلى هذا!

كان الجهاز موصولاً بموقع المبيعات عبر الإنترنت، أمازون دوت كوم. وباحتساب الطلبات القبلية فقط كانت «روايتي المقبلة» مصنفة سلفاً في المرتبة الأولى، تتقدم الجزء الرابع من ميلينيوم.

- ما رأيك في ذلك؟

قلت مغيراً مجرى الحديث:

- كنت أظن أن ستيغ لارسون مات وأن الجزء الرابع لن ينشر أبداً.

- أنا أحدثك عن روايتك، يا طوم.

من جديد، نظرت إلى الشاشة وأنا منبهر بعرض لبيع شيء لم يوجد، والذي ربما لن يوجد أبداً. كان مقرراً لكتابي أن يصدر بتاريخ 10 كانون الأول/ دجنبر المقبل، أي في أقل من ثلاثة شهور من الآن. كتاب لم أكتب منه ولا سطر واحد ولم يكن لدي عنه سوى مشروع مختصر مبهم.

- أنصت يا ميلو...

لكن صديقي لم يكن مصمماً على السماح لي بالكلام:

- هذه المرة، أعدك بدعاية جديرة بـ«دان براون»: وينبغي على المرء أن يسكن كوكباً آخر كي لا يكون على علم بصدور روايتك.

لم يكن من السهل إيقاف ميلو حينما تأخذه الحماسة: لقد شرعت في القيام بما يجب من اتصالات، والأعمال جارية على قدم وساق في الفيسبوك وتويتر وغرف الدردشة هناك حيث يتنافس معجبوك ومهاجموك.

- ميلو...

- في الولايات المتحدة وبريطانيا فقط، التزم دابلداي بسحب أولي لأربع ملايين نسخة. إن الدُّور الكبرى تبشر بأسبوع رائع. ومثلما حصل بالنسبة إلى مجموعات هاري بوتر، ستفتح المكتبات أبوابها حتى منتصف الليل!

- ميلو...

- وأنت، يجب أن تظهر أكثر في الواجهة: أستطيع أن أتدبر لك حواراً على الـ NBC...

- ميلو!

- هناك افتتان حقيقي، يا طوم! لا يريد أي كاتب آخر إصدار كتابه في الأسبوع نفسه وإياك، بما في ذلك ستيفن كينغ الذي أجَّل طبعة الجيب إلى كانون الثاني/ يناير حتى يتفادى استحواذك على قرائه!

ومن أجل إخراسه، هويت بقبضتي على المائدة.

- **كف عن هذيانك!**

اهتزت الكؤوس وانزعج الزبائن وهم ينظرون نحونا باستنكار.

- لن يكون هناك كتاب مقبل، يا ميلو. على أي حال ليس قبل مرور سنوات. لم تعد لدي قدرة على ذلك، وأنت تعلم هذا جيداً. لقد نضبت، وأنا عاجز عن كتابة ولو سطر واحد، وعلى الخصوص لم أعد أرغب في ذلك.

- لكن حاول، على الأقل! العمل هو أفضل الأدوية. ثم إن الكتابة هي حياتك. إنها **الحل** لإخراجك من هذا الفتور!

- لا تحسب أنني لم أحاول. لقد عاودت الجلوس عشرين مرة قبالة شاشتي، لكن مجرد النظر إلى حاسوبي أمر يغيظني.

- لعلك تشتري حاسوباً آخر أو تكتب بخط يدك على دفاتر المدرسة مثلما كنت تفعل في الماضي.

- حتى ولو كتبت على رقاق أو ألواح من الشمع لن يغير ذلك في الأمر الشيء الكثير.

بدا وكأن صبر ميلو قد نفذ:

- من قبل، كنت تستطيع الكتابة في كل مكان! لقد شاهدتك تكتب وأنت بشرفة السْتارْبَكْس، وعلى المقاعد غير المريحة للطائرات، أو أنت مسند ظهرك جلوساً إلى الحواجز الشبكية بملاعب

كرة السلة، يحيط بك أشخاص يتلاغطون. بل لقد شاهدتك ترقن فصولاً كاملة على هاتفك المحمول بانتظار الحافلة تحت المطر.

- إذاً، كل ذلك انتهى.

- هناك الملايين من الناس ينتظرون تتمة حكايتك. وهذا دَين عليك إزاء قرائك!

- إنه مجرد كتاب يا ميلو، وليس لقاحاً ضد داء السيدا (الإيدز)!

فتح فمه للرد، لكن انقبضت أساريره كما لو أدرك فجأة أنه لم يعد هناك من وسيلة تدفعني للعدول عن قراري.

ماعدا، ربما، البوح لي بالحقيقة.

- طوم، لدينا مشكلة حقيقية، شرع يقول.

- فيمَ تفكر؟

- في العقود.

- أي عقود؟

- تلك التي وقعنا مع دابلداي وناشريك الأجانب. لقد صرفوا لنا مسبقاً دفعات كبيرة شرط أن تلتزم بالآجال.

- لم ألتزم قط بأي شيء.

- أنا التزمت مكانك، وهذه العقود ربما لم تقرأها ولكنك وقعت عليها...

سكبت لنفسي كوباً من الماء. لم أتحمل المسار الذي اتخذه ذلك الحديث. منذ سنوات تقاسمنا الأدوار: تركت له تدبير الجانب المتعلق بالأعمال وأنا، كنت أدبر أوهام خيالي. إلى حدود تلك اللحظة كان ذلك الاتفاق يناسبني دوماً.

- لقد سبق وتم تأخير تاريخ الصدور عدة مرات. إذا لم تنه كتابك في شهر كانون أول/ دجنبر، سوف نؤدي غرامات مالية هائلة.

- ما عليك إلا أن تعيد لهم الدفعات المسبقة.

- الأمر ليس بكل هذه البساطة.

- لماذا؟

- لأننا تصرفنا فيها سلفاً، يا طوم.

- كيف تم ذلك؟

هز رأسه بانزعاج:

- هل تود أن أذكرك بثمن المنزل؟ أو ثمن خاتم الماس الذي أهديته لأرور والذي لم تعده لك حتى.

يا لوقاحتها!

تمهل، عمَّ تتكلم؟ إني أعرف جيداً ما جنيته من أرباح وما أقدر على إنفاقه!

أطرق ميلو إلى الأرض. لمعت قطرات من العرق على جبينه. انقبضت شفتاه، أما وجهه الذي كان منذ بضعة دقائق يشع حماساً فقد صار الآن مكتئباً ومتشنجاً.

- إني... إني خسرت كل شيء، يا طوم.

- ماذا خسرت؟

- أموالك وأموالي.

- ماذا تقول؟

- لقد وظفت كل الأموال تقريباً لفائدة صندوق تدبير تورط في قضية مَادُوفْ.

- آمل أنك تمزح.

لا، لم يكن يمازحني:

- الجميع وقع في الفخ، قال بنبرة أسى؛ مصارف كبرى، محامون، رجال سياسة، فنانون، سبيلبرغ، مالكوفيتش، بل حتى إيلي فيتزل!

- وماذا تبقى لدي بالضبط علاوة على البيت؟

- إن بيتك قيد الرهن العقاري منذ ثلاثة شهور، يا طوم. وكي أكون صادقاً معك، لم يتبق لديك حتى ما يكفي لتسديد ضريبة الأملاك.

- لكن... ماذا عن سيارتك؟ إن قيمتها تقدر بأكثر من مليون دولار...

- بل قل مليوني دولار. لكن منذ شهر، أنا مجبر على ركنها أمام بيت جارتي لتفادي حجزها!

بقيت لمدة طويلة صامتاً ومصدوماً إلى أن عبرت ذهني بارقة أمل:

- لا أصدِّقُك! إنك تختلق كل هذه الحكاية كي ترغمني على العودة إلى العمل، أليس كذلك؟

- للأسف، ليس كذلك.

وبدوري تناولت الهاتف المحمول لمكالمة مكتب الاستشارة المالية المكلَّف بإيداع ضرائبي والذي كان يطلع من خلال ذلك على حساباتي المختلفة. أكد لي مخاطبي أن ودائعي البنكية كانت في حالة إفلاس، وهذا ما لم يتوقف، على ما يبدو، عن تحذيري منه منذ عدة أسابيع عبر رزم بريدية مضمونة متعددة ورسائل ظلت بلا رد على المسجل الآلي للمكالمات.

لكن منذ متى لم أطلع بتاتاً على بريدي أو لم أرد على الهاتف؟

عندما استعدت رشدي، لم أكن مرعوباً ولم تثرني الرغبة في الانقضاض على ميلو بغية تحطيم وجهه. كنت أشعر فقط بفتور عظيم.

- أنصت إلي يا طوم: لقد سبق وتجاوزنا أوضاعاً أكثر صعوبة، تجرأ على القول.

- هل تدرك ماذا صنعت؟

- لكن بإمكانك تعويض كل ذلك، قال مؤكداً. إذا نجحت في إنهاء روايتك في الآجال المحددة، نستطيع إذاك تجاوز العقبة بسرعة.

- كيف تريد لي أن أكتب خمسمائة صفحة في أقل من ثلاثة شهور؟

- أعرف أنك تحتفظ مسبقاً ببضعة فصول.

- وضعت يديَّ حول رأسي. قطعاً إنه لم يكن يدرك مقدار شعوري بالعجز.

- لقد أمضيت الآن ساعة لأشرح لك بأني نضبت، وبأن ذهني أضحى مغلقاً، صلداً مثل حجر. إن المشاكل المالية لا تغير في الوضع شيئاً. قضي الأمر!

ألحَّ علي:

- لقد قلت لي دائماً إن الكتابة كانت ضرورية لتوازنك ولصحتك العقلية.

- وبعد، ها أنت ترى أني كنت مخطئاً: إن ما جعلني أفقد صوابي ليس هو التوقف عن الكتابة وإنما لأنني افتقدت الحب.

- هل تدرك على الرغم من ذلك أنك ماض في تدمير نفسك من أجل شيء لا وجود له؟

- الحب لا وجود له؟

- الحب موجود بالتأكيد. لكنك تؤمن بنظرية وجود توأم روحك الخرقاء تلك. كما لو كان هناك تكامل تام بين فردين مقدر لهما أن يلتقيا...

- هكذا، من الحمق الاعتقاد أن هناك ربما شخص قادر على جعلنا سعداء، شخص نود أن نعيش صحبته إلى أن نشيخ؟

- بالطبع لا، لكنك تؤمن بشيء آخر: بفكرة أنه لن يكون على

هذه الأرض سوى شخص وحيد خُلِقَ من أجلنا. مثل نصف أصلي مفقود احتفظنا بعلامته على جسدنا وفي نفسنا.

- أذكرك بأن هذا بالضبط ما يقوله أرسطوفان في مأدبة أفلاطون!

- ربما، لكن أرِسْطوكَ لا أدري ماذا، وأفلاطونك، لم يكتبا في أي موضع مما كتباه أن أرور هي نصفك المفقود. صدِّقني: دع عنك هذا الوهم. لعل الميثولوجيا كانت لها مصداقية في رواياتك، لكن الأمور لا تتم بهذه الصورة في الواقع.

- لا، بالفعل، في الواقع، لا يكتفي أعز صديق لدي بتدميري، بل علاوة على ذلك، يسمح لنفسه بأن يوجه لي المواعظ، قلتُ والكلام يتطاير نحوه بقوة وأنا أغادر المائدة.

قام ميلو هو أيضاً، واليأس باد عليه. في تلك اللحظة، كنت أشعر بأنه مستعد لفعل أي شيء كي يحقن جرعة من الإبداع في أوردتي.

- إذاً ليست لديك النية في العودة إلى الكتابة؟

- لا. ولن تستطيع فعل أدنى شيء ضد ذلك. أن نكتب كتاباً فذلك ليس كما نصنع سيارة أو علبة لمسحوق الغسيل، صرخت في وجهه عند عتبة الباب.

حينما غادرت المطعم ناولني راكن السيارات مفاتيح البوغاتي.

جلست خلف مقود تلك السيارة الخارقة، أدرت المحرك، وشغلت السرعة الأولى. كان للمقاعد الجلدية رائحة البرتقال المدوِّخ، أما اللوحة ذات الخشب المصبوغ التي تزينها مفاتيح من الألمنيوم المصقول، فقد ذكرتني بمركبة فضائية.

جمدتني سرعتها الخاطفة على المقعد. وبينما خلَّفت العجلات بضع علامات من الصمغ على الإسفلت، رأيت في المرآة العاكسة ميلو يركض ورائي وهو يوجه نحوي وابلاً من الشتائم.

5

أسمال الجنة

إن الجحيم موجود، وإني أعلم الآن أن
رعبه ينبئني على أنه ليس مصنوعاً إلا
من أسمال الجنة.

أليك كوفين

- أعيد لك أداتك، كي تتمكني من إرجاعها لمالكها، قال ميلو وهو يناول كارول المطرقة الفولاذية التي أعارته إياها.

- إن مالكها هو ولاية كاليفورنيا، أجابت ضابطة الشرطة الشابة وهي تضع الرافعة الحديدية في الصندوق الخلفي لسيارتها.

سانتا مونيكا

السابعة مساء

- شكراً على قدومك

- أين هي سيارتك؟

- إن طوم استعارها مني.

- طوم لم تعد له رخصة!

- لنقل إنه استشاط غضباً مني، أقر ميلو وهو مطرق إلى الأرض.

- هل صارحته بالحقيقة؟ سألته باهتمام.

- أجل، لكن ذلك لم يدفعه إلى استئناف العمل.

- هذا ما حذرتك منه.

أغلقت سيارتها وترجلا جنباً إلى جنب على طول القنطرة المعلقة التي تقود إلى الشاطئ.

-لكن وبعد، ألا تجدين أن هذا تصرف غير معقول، قال ميلو بانفعال: يستسلم لتدمير نفسه من أجل قصة حب؟

نظرت إليه والحزن باد على محياها:

- لعل ذلك غير معقول، لكن هذا ما يحدث كل يوم. بالنسبة إلي أجد أن ذلك مؤثر جداً وموغل في الإنسانية.

هز كتفيه وأتاح لها فرصة أن تسبقه ببضع خطوات.

بقوامها الطويل وبشرتها السمراء وشعرها الفحمي وعينيها الصافيتين كالماء، كانت كارول ألفاريز تبدو بهيئة أميرات المَايَا.

أصلها من السالفادور، حلت بالولايات المتحدة في سن التاسعة. ميلو وطوم يعرفانها منذ الطفولة. أسرهم - أو ما تبقى منها- كانت تقطن العمارة المتآكلة نفسها بماك آرثر بارك، هارليم الإسباني بلوس أنجلس، المأوى المفضل لدى المدمنين على الهيروين ولتصفية الحسابات بالأسلحة النارية.

لقد اقتسموا ثلاثتهم المحنة ذاتها، ومنظر العمارات غير الآمنة نفسه، والأرصفة المغطاة بالزبالة، والمتاجر ذات الستائر الحديد المخربة والمليئة بالرسومات.

- نستريح بعض الوقت؟ اقترحت كارول وهي تفرش منديلاً.

لحق بها ميلو على الرمال البيضاء. الأمواج الصغيرة تلثم الشط، قاذفة زبداً بلون الفضة يعض أقدام المتنزهين العارية.

كان الشاطئ أكثر سكوناً في بداية الأصيل الخريفي هذا وهو بالعادة شديد الاكتظاظ في الفترة الصيفية. يستقبل رصيف سانتا مونيكا الخشبي الثابت منذ أكثر من مئة سنة سكان لوس أنجلس الذين يحجون إليه، بعد يوم من العمل المضني، إذ يجدوا فيه ملاذاً بعيداً عن المتاعب المنهكة وصخب لوس أنجلس.

شمرت كارول عن أكمام قميصها، أزالت حذاءها، أغمضت عينيها وأودعت وجهها للريح ولشمس الخريف المميزة. نظر إليها ميلو برقة موجِعة.

ومثله، فإن الحياة لم تكن رحيمة مع كارول. إذ ما كادت تقفل سنتها الخامسة عشر حتى قُتِل زوج أمها برصاصة في الرأس أثناء الهجوم على متجره الصغير إبان الاضطرابات الدامية التي ألهبت الأحياء الفقيرة للمدينة سنة 1992 . بعد الكارثة، ظلت تتهرب متخفية من عيون الخدمات الاجتماعية كي تتفادى وضعها لدى عائلة كفيلة ما، مفضلة العيش بالقوة عند **بلاك ماما**، المومس سابقاً، شبيهة تينا تورنر التي افتضت عذرية نصف عدد ذكور ماك آرثر بارك.

وبمشقة، تابعت دراستها إلى جانب مزاولتها للعمل: نادلة عند بيتزا هات، بائعة بمتاجر المجوهرات «تشيب»، مضيفة استقبال في مؤتمرات من الدرجة الثانية. والمثير أنها نجحت منذ الوهلة الأولى في مباراة ولوج مدرسة الشرطة، ملتحقة بشرطة مقاطعة لوس أنجلس يوم عيد ميلادها الثاني والعشرين، ثم ترقت السلالم الأولى بسرعة مذهلة: في البدء ضابط، ثم محقق إلى أن حصلت منذ بضعة أيام على درجة رقيب.

- هل أجريت أي مكالمة مع طوم مؤخراً؟

- أبعث له برسالتين يومياً لكني لا أحصل في أحسن الأحوال سوى على إجابات مقتضبة، ردت كارول وهي تفتح عينيها.

نظرت إلى ميلو بقسوة:

- والآن، ما الذي نستطيع فعله من أجله؟

- أولاً، منعه من أن يهلك نفسه، رد عليها وهو يخرج من جيوبه علب الحبوب المنومة والعقاقير المزيلة للاكتئاب التي اختلسها.

- هل أنت مدرك بأن كل ما يقع هو إلى حدٍّ ما ذنبك؟

- هل هو ذنبي إن هجرته أرور؟ قال مدافعاً عن نفسه.

- إنك تعلم جيداً ما الذي ألمح إليه.

- هل هو ذنبي إن كانت هناك أزمة مالية عالمية؟ هل هو ذنبي إن استحوذ مادوف بالنصب على 50 مليار دولار؟ وقبل هذا وذاك، أجيبيني بصدق: ماذا كان رأيك في تلك الفتاة؟

هزت كارول كتفيها بحركة تعبر عن العجز.

- لا أدري، لكن ما أنا متأكدة منه هو أنها لم تكن جديرة به.

في الأفق، على الرصيف، كان معرض الملاهي الشعبي مكتظاً. صراخ الأطفال يمتزج بروائح سكر النبات والقوطة. بعجلتها الدوارة الكبيرة وقطاراتها الأفعوانية، كانت حديقة الملاهي مقامة على الماء مباشرة، قبالة الجزيرة الصغيرة سانتا كاتالينا التي كانت تُرى من خلال ضباب خفيف.

تنهد ميلو:

- ما أخشاه هو أن لا يعرف أحد، وإلى الأبد، نهاية ثلاثية الملائكة.

- أنا أعرفها، أجابت كارول بهدوء.

- تعرفين نهاية الحكاية؟

- لقد قصَّها طوم علي.

- حقاً؟ متى ذلك؟

اضطربت نظراته.

- منذ فترة طويلة، أجابت بغموض.

عبس ميلو. وامتزجت الدهشة بشيء من الإحباط. كان يعتقد أنه يعرف كل شيء عن حياة كارول: لقد كانا يلتقيان يومياً تقريباً، كانت أقرب صديقة له، أسرته الفعلية الوحيدة بل- وإن كان يرفض تقبل ذلك-المرأة الوحيدة التي يكن لها مشاعر الحب.

شارد الذهن، نظر ميلو نحو الشاطئ. ومثلما هو الشأن في المسلسلات التلفزية، كانت بعض النفوس الشجاعة تواجه الأمواج على ألواح التزلج المائي بينما معلمات للسباحة بقوامهن الذي يذهب بالألباب تراقبن البحر من على أكواخهن الخشبية. لكن ميلو كان ينظر إليهن بدون أن يراهن، لأن عيناه لا تريان سوى كارول.

لقد كانت تجمعهما رابطة متينة، ضاربة في الطفولة، ممزوجة بالحشمة والاحترام. وإن لم يجرؤ في السابق على البوح بمشاعره، فإنه كان يتشبث بكارول مقدار حرصه على بؤبؤ عينيه، وكان باله منشغلاً عليها بسبب المخاطر المتصلة بمهنتها. لم تكن تعلم بذلك، لكن في بعض الأمسيات كان يحدث أن يستقل سيارته كي يمضي الليلة بموقف السيارات الخاص بعمارتها لا لشيء سوى أن ذلك يجعله يحس بالأمان وهو قريب منها. والواقع هو أنه كان يخشى، أكثر من خشيته على أي شيء آخر في العالم، أن يفقدها، وإن لم يكن يعرف هو نفسه أي حقيقة يعبر عنها هذا اللفظ الأخير: الخشية من أن يدهسها قطار؟ من أن تصيبها رصاصة طائشة وهي تعتقل حشاشاً ما؟ أو، وهذا من أشد ما يحتمل وقوعه، أن يقبل برؤيتها تترعرع بين أحضان رجل أخر غيره.

وضعت كارول نظاراتها الشمسية وفتحت زراً إضافياً بقميصها.

ورغم الحرارة قاوم ميلو رغبة تشمير أكمام قميصه. كان أعلى ذراعه موشوماً برسوم قبلانية وهي شاهد لا يضمحل عن انتمائه السابق للـ MS-13 المشهور، والذي يسمى أيضاً مارا سالفاتروشا (*Mara Salvatrucha*)، وهي عصابة عنيفة للغاية تسيطر على تجمعات ماك آرثر بارك السكنية، والتي انضم إليها نظراً إلى الفراغ عند سن الثانية عشر. ولأنه ولد من أم إيرلندية وأب مكسيكي، كان يعد ميلو واحداً من « الشيكانو» بالنسبة لأعضاء هذه الجماعة التي كونها شبان مهاجرون من السالفادور والذين أخضعوه لاختبار المسارَّة المسمى كورتون «*corton*»: يتمثل اختبار الانضمام في اغتصاب جماعي بالنسبة إلى الفتيات وضرب منظم يستغرق ثلاثة عشر دقيقة بالنسبة إلى الفتيان. تصرف عبثي يفترض أن يبرهن عن شجاعة المرء ومقاومته وولائه، لكنه كان في بعض الأحيان ينتهي بصورة دموية.

ورغم صغر سنه فقد «نجا» بعد ذلك ولأكثر من عامين قام بسرقة السيارات والتجارة في الحبوب المهلوسة وابتزاز التجار وإعادة بيع الأسلحة النارية لحساب المارا. وفي سن الخامسة عشرة، صار أشبه بوحش كاسر تسير حياته على إيقاع العنف والخوف. بعد وقوعه في مصيدة هذه الدوامة، وأصبح لا ينظر إلى مستقبله إلا بمنظار الموت أو السجن، لم يعرف خلاصه إلا بفضل ذكاء طوم وحنو كارول اللذين نجحا في إخراجه من ذلك الجحيم، وتكذيب المبدأ الذي يقول باستحالة مغادرة المارا تحت طائلة الموت.

كانت الشمس الغاربة تلقي بسهامها الأخيرة، طرف ميلو بعينيه مرات عديدة للاحتماء من التماعات الطيف ولطرد ذكريات الماضي وآلامه.

- هل لي بدعوتك إلى تناول فواكه البحر؟ قال مقترحاً وهو يثب واقفاً.

- أعتقد أنه بما تبقى لديك في حسابك البنكي، فبالأحرى أنا من عليها دعوتك، صرّحت كارول.

- وستكون مناسبة للاحتفال بترقيتك، قال وهو يمد لها يده كي يعينها على الوقوف.

غادرا الشاطئ بفتور وسارا بضعة أمتار على الأقدام على طول مسلك الدراجات الذي يربط فنيس بيتش وسانتا مونيكا.

ثم ولجا تورد ستريت برومناد، وهو شارع واسع مرصوف تحفه أشجار النخيل، يضم العديد من قاعات العرض الفنية والمطاعم العصرية.

جلسا بشرفة مطعم وحانة أنيزيت «*Anisette*»، حيث قائمة الطعام، المكتوبة بالفرنسية، تضم أطباقاً بأسماء غريبة مثل الهندباء بلحم الخنزير المقدد، شريحة لحم الضلع بالكرّاث، أو قحاطة البطاطس الدوفينية.

ألح ميلو لتذوق مشروب مشهي يسمى بَاسْتِيسْ (Pastis) الذي قُدِّمَ لهما على الطريقة الكاليفورنية، كأس كبيرة مملوءة بمكعبات الثلج. ورغم وجود البهلوانات والموسيقيين وقاذفي النار الذين كانوا يحيون عروضهم في الشارع، فإن العشاء كان كئيباً. كانت كارول حزينة. أما ميلو فقد كان يعذبه الشعور بالذنب ويضنيه. وكان مدار الحديث عن طوم وأرور.

- هل تعلمين لماذا يكتب؟ سألها ميلو فجأة أثناء العشاء، وهو يدرك أنه يجهل جانباً أساسياً من نفسية صديقه.

- كيف ذلك؟

- أعرف أن طوم أحب دوماً القراءة، لكن الكتابة أمر مغاير.

وفي فترة المراهقة، كنت تعرفينه أفضل مني. ما الذي دفعه، في تلك الفترة، إلى إبداع حكايته الأولى؟

- لا أعرف ذلك، ردت كارول بسرعة.

*

ماليبو

الثامنة مساء

بعدما تسكعت في أرجاء المدينة ركنت البوغاتي المهددة بالحجز أمام بيت صرت أعلم أنه لم يعد في ملكيتي. ساعات قبل ذلك، كنت في قعر الهاوية، لكن أتربع على عرش ثروة تقدر بـ10 ملايين دولار. والآن، أصبحت في قعر الهاوية فحسب...

ولأنني كنت محطماً، منهكاً من دون أن أكون قد ركضت، تهاويت في جوف الأريكة، وعيني مستغرقتان في تشابك العوارض التي تسند المنحنى البسيط للسقف.

كان رأسي يؤلمني، ظهري كله رضوض، يدي تنضحان بالعرق، ومعدتي متشنجة. خفقان يضغط علي ويهز صدري: بالداخل، كنت مفرغاً، تنخرني حرقة قضت علي في نهاية المطاف.

على مدى سنوات، أمضيت لياليَّ في الكتابة، مستنفذاً في ذلك كل أحاسيسي وطاقتي. ثم واصلت الندوات وجلسات توقيع الكتب في مختلف بقاع العالم. أنشأت جمعية خيرية لتمكين أطفال حارتي القديمة من متابعة الدروس الفنية. وخلال بعض الحفلات الموسيقية، قرعت الطبول صحبة «معبوداتي»: فرقة الروك بادم رميندرز(*).

(*) فرقة روك تتكون من كتاب معروفين- ستيفن كينغ، سكوت توراو، مات غرونينغ، ميتش ألبوم... -وكانت حفلاتها تجمع أموالاً تخصص لتمويل مشاريع محاربة الأمية.

لكني اليوم، فقدت طعم كل شيء: الناس، الكتب، الموسيقى، بل حتى أشعة الشمس التي تغرب على المحيط.

أرغمت نفسي على القيام ثم خرجت كي أتوكأ لبضع لحظات على درابزين الشرفة. بعيداً عند أسفل الشاطئ، تقف هناك سيارة قديمة، من بقايا عهد البيتش بويز، من نوع كريزلير صفراء اللون، بمشغولات خشبية ملمعة، كانت تزهو مفتخرة بشعار المدينة المكتوب على زجاجها الخلفي: Malibu, where the mountain meets the sea(*).

حدقت حد انخطاف البصر في الشريط الوهاج الذي كان يلامس خط الأفق وينير السماء قبل أن تحمله معها الأمواج. هذا المنظر الذي سحرني في السابق لم يعد يثير فيّ أي انبهار. لم أعد أشعر إذاك بأي شيء كما لو أن معين عواطفي قد نضب.

شيء وحيد كان بإمكانه إنقاذي: استعادة أرور، جسدها الرشيق، بشرتها الرخامية، عيناها الفضيتان، وعبقها الرملي، لكني كنت أعلم أن ذلك لن يحدث. كنت أعلم أني خسرت النزال ولم يعد لي بعد هذه المعركة سوى الرغبة في تدمير أعصابي من فرط الكريستال ميث وأي قذارة أخرى قد تقع عليها يدي.

كان ينبغي علي النوم. حينما عدت إلى البهو، بحثت عن أدويتي بعصبية، لكني خمنت أن ميلو قد أخفاها. ركضت نحو المطبخ، فتشت داخل أكياس القمامة. لا شيء. وأنا مذعور، اندفعت نحو الطابق العلوي، فتحت كل الخزانات وانتهى بي المطاف أن عثرت على حقيبة سفري. في جيب صغير انحشرت علبة مستعملة من الحبوب المنومة وبعض الأكياس المزيلة للقلق، كانت تنتظرني منذ

(*) ماليبو، هناك حيث يؤاخي الجبل البحر.

سفري الدعائي الأخير إلى دبي من أجل لقاء لتوقيع الكتب بمكتبة كبيرة في Mall of the Emirates.

ورغماً عني تقريباً، أسقطت جميع الكبسولات في كف يدي وبقيت للحظة أنظر إلى مجموعة الأقراص البيضاء والزرقاء التي بدا وكأنها تسخر مني:

عاجز حتى عن ذلك!

لم يسبق أن كنت أقرب إلى الهاوية. صور مرعبة تتصارع في رأسي: جسمي معلق إلى طرف حبل، أنبوب الغاز بفمي، فوهة مسدس لصق صدغي. عاجلاً أم آجلاً، لا ريب أن خاتمتي ستكون بهذا الشكل. في أعماق ذاتي، ألم أعرف ذلك دوماً؟

عاجز حتى عن ذلك!

وللهروب من ذلك ابتلعت قبضة الكبسولات. وجدت صعوبة في ابتلاعها، لكن رشفة من الماء سهلت تجرعها بالكامل.

ثم زحفت إلى غرفتي وتهاويت على السرير.

كان المكان فارغاً وبارداً، يحفه جدار عريض من اللوحات الزجاجية المنيرة ذات اللون الفيروزي، شفافة بما فيه الكفاية كي يمر عبرها نور النهار.

تكومت في فراشي، صريع أفكاري المستفحلة.

معلقان إلى الجدار، كان عاشقا مارك شاغال ينظران إلي بإشفاق، كما لو أنهما يتحسران لعجزهما عن التخفيف من معاناتي. قبل اقتناء منزلي (الذي لم يعد حينها منزلي) أو خاتم أرور (التي لم تعد لي)، فإن شراء لوحة الرسام الروسي كان بمثابة أول حماقة من حماقاتي. بعنوانها الرصين Lovers in blue (عاشقان زرقاوان) تعود لوحة شاغال إلى العام 1914. كنت قد شغفت من النظرة الأولى بهذا

الرسم الذي يمثل زوجاً متعانقاً، يوحده حب غريب، صادق وآمن. لقد كان يمثل بالنسبة إلي شفاء كائنين جريحين، خيط الواحد بالآخر كي لا يقتسما أبداً إلا جرحاً واحداً.

وبينما كنت أغوص برفق في حالة عميقة من النعاس، شعرت وكأنني أنفصل تدريجياً عن أوجاع العالم. كان جسمي يختفي، وشعوري يهجرني، والحياة تنبذني.

6

حينما التقيتك

ينبغي أن نحمل في داخلنا سديماً كي تولد
نجمة راقصة.

فريدريك نيتشه

فرقعة

صراخ امرأة

طلب النجدة!

صوت زجاج متهشم أخرجني من كابوسي. فتحت عيني مرتجفاً. كانت الغرفة غارقة في الظلمة والمطر ينقر النوافذ.

استقمت بمشقة، والحلق جاف. كنت محموماً ومبلولاً بالعرق. أتنفس بصعوبة، لكني كنت ما زلت حياً.

ألقيت نظرة على الراديو-المنبه:

03 : 16

كانت هناك جلبة في الطابق الأرضي، وكنت أسمع بوضوح الستائر وهي تصفق الجدار.

حاولت إضاءة مصباح المرقد، لكن العاصفة كانت قد قطعت التيار عن ماليبو كولوني مثلما يحدث في الغالب.

نهضت بصعوبة. كنت أشعر بالدوار ورأسي يؤلمني. كان قلبي يخفق بقوة في صدري كما لو أني ركضت الماراطون للتو.

بعدما أصابني الدوار، استندت إلى الجدار كي لا أسقط. ربما لم تُرْدِني الحبوب المنومة، لكنها طوحت بي في غياهب لم أستطع التخلص منها. حيرتني عيني بالخصوص: كان الأمر كما لو أنه تم حَزُّهما وقد كانتا تؤلماني كثيراً بحيث شق علي إبقاؤهما مفتوحتين.

ومع أن الصداع النصفي كان يعذبني، أكرهت نفسي على نزول الأدراج القليلة مستنداً إلى الدرابزين. مع كل خطوة كنت أشعر وكأن أحشائي تنقلب على بعضها وبأنني سوف أتقيأ وسط السلم.

بالخارج كانت العاصفة هوجاء. وبفعل وميض البرق كان المنزل يشبه مناراً وسط العاصفة.

لما وصلت أسفل السلم، شاهدت الخسائر: كانت الريح قد هجمت عبر الشرفة الزجاجية التي ظلت مشرعة، مسقطة في طريقها مزهرية من الكريستال التي تهشمت على البلاط، وكان المطر الجارف قد أخذ يغمر البهو.

يا للقرف!

أسرعت إلى إغلاق النافذة وسحبت نفسي إلى غاية المطبخ للعثور على علبة كبريت. وحين عودتي إلى غرفة الجلوس شعرت فجأة بوجود ما متبوع بزفير.

استدرت ثم...

*

طيف قوام أنثوي رشيق وممشوق يبرز في الضوء الخارجي ذي الزرقة الليلية.

ارتجفت ثم حدَّقت جيداً: باعتبار لما تيسر لي رؤيته، كانت

المرأة الشابة عارية، يدها موضوعة على سرَّتها، ويدها الثانية تخفي صدرها.

هذا ما كان ينقصني!

- من أنت؟ سألتها وأنا أقترب متفحصاً إياها من أعلى إلى أسفل.

- مهلاً، لا تتردد! صرخت وهي تلتقط غطائي الصوف الاسكتلندي الموضوع على الأريكة وأحاطت به خصرها.

- كيف ذلك «لا تتردد!»؟ هو العالم بالمقلوب! أذكرك أنك موجودة بمنزلي!

- لعله كذلك، لكنه ليس مبرراً كي. . . .

- من أنت؟ سألتها مجدداً.

- كنت أعتقد أنك سوف تتعرف إلي.

كنت أميزها بصعوبة، لكن صوتها، على أي حال، لم يعن لي شيئاً ولم تكن لدي الرغبة في لعبة حل الألغاز تلك. قرعت عود كبريت لإشعال فتيلة مصباح قديم يستعمل وقت العاصفة كنت قد عثرت عليه في سوق المستعملات في باسادينا (*Pasadena*).

ضوء هادئ أنار الغرفة وأبدى لي خلقة الدخيلة. امرأة شابة لها حوالي خمس وعشرين سنة، ذات نظرة متقدة نصفها دهشة ونصفها الآخر تمرد، لها شعر بلون العسل كان مبللاً بالمطر.

- لا أدري كيف كان لي أن أتعرف إليك: لم يحدث قط أن التقينا.

أفلتت منها ضحكة ساخرة صغيرة، لكني كنت أرفض الانخراط في اللعبة.

- حسن، يكفي هذا يا آنستي! ماذا تصنعين عندك؟

- هذه أنا: بيلي! قالت وكأن ذلك أمر بداهي وهي ترفع الغطاء إلى كتفيها.

لاحظت أنها ترتعش وأن شفتاها ترتعدان. لا عجب! لقد كانت مبللة والغرفة من جليد.

- لا أعرف أي بيلي، أجبت وأنا متجه نحو الخزانة المصنوعة من خشب الجوز التي كنت أحشو فيها كل ما يقع بين يدي.

سحبت الباب وبعد تفتيش حقيبتي الرياضية وضعت يدي على شرشف للشاطئ ذي رسومات جزيرة هاواي.

- خذي! صرخت في وجهها وأنا أرمي لها بالغطاء من أقصى طرف غرفة الجلوس.

التقطته بخفة، جففت شعرها ووجهها وهي تتحداني بنظراتها.

- بيلي دونلي، قالت موضحة وهي ترقب رد فعلي.

بقيت جامداً في مكاني لثواني عديدة، من دون أن أفهم في الحقيقة معنى كلامها. بيلي دونلي كانت شخصية ثانوية في رواياتي. وهي بالأحرى فتاة محببة لكنها حمقاء بعض الشيء، تعمل ممرضة في مستشفى عمومي في بوسطن. كنت أعلم أن عدة قارئات تعرَّفن إلى أنفسهن في شخصية فتاة الجوار تلك التي كانت تراكم قصص الحب الفاشلة.

مذهولاً، مشيت بضع خطوات نحوها ثم سلّطت نور مصباحي عليها. ومن بيلي، كان لديها القوام الممشوق، الحيوي والمثير، والمحيا الوضاء، والوجه بارز القسمات بعض الشيء، الذي يكسوه نمش خفي.

لكن من تكون هذه الفتاة؟ متحمسة مهووسة؟ قارئة تتماهى مع شخصيتي الروائية؟ معجبة تبحث عن الشهرة؟

- إنك لا تصدقني، أليس كذلك؟ سألت وهي تهم بالجلوس على مقعد خلف مشرب المطبخ وتلتقط من سلة الفواكه تفاحة قامت بقضمها ملء فمها.

وضعت مصباحي على المبسط الخشبي. ورغم الألم الحاد الذي كان يشق دماغي، كنت مصراً على ضبط نفسي. لأن مثل هذا التسلل إلى بيوتات المشاهير كانت عملة رائجة في لوس أنجلس: كنت أعلم أنه ذات صباح وجد ستيفن كينغ رجلاً يحمل سكيناً في الحمام، وبأن كاتب سيناريو مبتدئ اقتحم منزل سبيلبيرغ لا لشيء سوى لكي يقرأ مخطوطه، وبأن معجباً بمادونا، مخبولاً، هدد بأن يدق عنقها إذا ما رفضت الزواج به.

ولمدة طويلة، نجوت من هذه الظاهرة. كنت أتحاشى بلاطوهات التلفزيونات، وأرفض أغلب طلبات إجراء الحوارات، ورغم إلحاح ميلو، لم أكن أسلط على نفسي الأضواء بهدف الدعاية لكتبي. وكان بمثابة مفخرة لي أن يستحسن قرائي حكاياتي وشخصياتي أكثر من شخصي المتواضع، لكن الحملة الإعلامية التي رافقت ما حدث لي مع أرور جعلني أنتقل، رغماً عني، من صنف الكتاب إلى صنف العاديين، المشاهير الأقل حظوة.

- يا هذا! هل هناك شخص على الخط؟ كانت تناديني بيلي وهي تحرك ذراعيها. كأن ضغطك الدموي منخفض جداً بالنظر إلى عينيك الشبيهتين بخصيتَيْ السنونو!

القاموس «المجازي» ذاته...

- حسن، يكفي الآن، سوف ترتدين شيئاً ما وتعودين أدراجك بهدوء.

- أظن أنه سوف يكون من الصعب علي العودة إلى دياري...

- لماذا؟

- لأن دياري توجد بكتبك. وبالنسبة إلى أديب عبقري مثلك، أجد أنك بطيء الفهم شيئاً ما.

تنهدت من دون أن يتملكني الغيظ. حاولت إقناعها:

- يا آنستي، إن بيلي دونلي شخصية خيالية...

- في هذا، أنا متفقة معك.

على الأقل هذا كاف لحد الآن.

- أما هذه الليلة، في هذا المنزل، فنحن في الواقع.

- يبدو لي هذا أمر واضح.

حسن، ها نحن نحرز تقدماً

- إذا كنت شخصية روائية، فلن يكون بمقدورك الوجود ها هنا.

- بلى!

كم كان ذلك جميلاً جداً.

- اشرحي لي كيف ذلك، لكن اشرحي بسرعة لأني أشعر فعلاً بالنعاس.

- لأنني سقطت.

- سقطت من أين؟

- سقطت من كتاب. سقطت من حكايتك، هكذا!

نظرت إليها غير مصدق، من دون أن أستوعب ولو كلمة واحدة من شطحاتها.

- سقطت من سطر، وسط جملة غير تامة، قالت وكي تقنعني أشارت إلى الكتاب الموضوع على المائدة الذي أعطاني إياه ميلو أثناء الغذاء.

نهضت وأحضرت لي النسخة التي فتحتها على الصفحة 266.

وللمرة الثانية في ذلك اليوم تصفحت المقطع الذي تتوقف فيه الحكاية بغتة:

مسحت بيلي عينيها المسودتين جرّاء اندلاق الماسكرا.

- من فضلك يا جاك لا ترحل هكذا.

لكن الرجل كان قد لبس معطفه وفتح الباب من دون إلقاء نظرة نحو عشيقته.

- أتوسل إليك! صرخت وهي تسقط

- ها أنت ترى، لقد كتبت عبارة: «صرخت وهي تسقط». وفي منزلك سقطتُ.

كنت مذهولاً أكثر فأكثر. لماذا يسقط هذا النوع من الأشياء (والحالة كذلك حقاً) على رأسي دوماً؟ ماذا جنيت لأستحق ذلك؟ ربما كنت أحمقاً شيئاً ما، لكن ليس بالقدر الذي يجعلني أنحرف إلى ذلك الحد. لقد تناولت فقط بعض الحبوب المنومة ولم آخذ مهلوس الـLSD! ومهما يكن، فهذه الفتاة لا وجود لها سوى في رأسي. ربما لم تكن إلا تجلياً مزعجاً لجرعة دواء زائدة جعلتني أهذي.

حاولت التشبث بهذه الفكرة، ساعياً إلى إقناع نفسي بأن كل ذلك ليس إلا هلوسة تصيب بالدوار كانت تخترق دماغي، ورغم ذلك لم أستطع منع نفسي من القول ملاحظاً:

- إنك غريبة الأطوار تماماً، وهذه مجرد تورية. أكيد أنه سبق إخبارك بهذا، أليس كذلك؟

- وأنت، من الأفضل لك أن تذهب للنوم، لأن رأسك يبدو مكان عقبك. وهذه ليست تورية.

- أجل، سوف أفعل ذلك لأنه لا وقت لدي أهدره مع فتاة تخرف!

- لم أعد أتحمل شتائمك!

- وأنا، لم أعد أتحمل مخبولة هبطت من القمر وحطت بمنزلي، عارية، عند الثالثة صباحاً.

مسحت حبات العرق من على جبهتي. ومن جديد كنت أجد صعوبة في التنفس وكانت تشنجات القلق تهز عضلات عنقي.

ظل هاتفي الخليوي في جيبي، أخرجته لتركيب رقم مخفر الأمن المكلف بحراسة الإقامة.

- هيا، ارم بي إلى الخارج! صرخت. إن ذلك أبسط بكثير من أن تساعدني.

كان يجب أن لا أدخل معها في اللعبة. بالطبع، شيء ما فيها كان يثيرني. وجهها الشبيه بوجوه المانغا اليابانية، طراوتها المستبشرة، مظهرها المسترجل ذاك الذي تخفف منه عيناها المرجانيتان وساقاها اللانهائيتان. لكن كلامها كان غير مترابط بإفراط، إذ لم يكن في وسعي فعل شيء من أجلها.

ركبت الرقم ثم انتظرت.

رنة أولى.

كان وجهي ملتهباً ورأسي أثقل فأثقل. ثم اضطربت رؤيتي إلى أن تضاعفت صورة الأشياء.

رنة ثانية.

كان يجب علي أن أبلل وجهي بقليل من الماء. كان يجب أن...

لكن من حولي فقد الديكور حقيقته ومال كل شيء. سمعت الرنة الثالثة تتردد، من بعيد جداً، ثم فقدت الوعي وتهاويت على الأرض.

7

بيلي في ضوء القمر

ربات الشعر أشباح ويحدث أن تدخلن
الخشبة بلا سابق دعوة.

ستيفن كينغ

كان المطر يهطل من دون توقف، مخلفاً ندوباً على النوافذ التي كانت تهتز بفعل هبوب العاصفة. كان التيار قد عاد للغرفة، ولو أن المصابيح كانت تنطفئ من حين إلى آخر.

ماليبو كولوني
الرابعة صباحاً

وهو متدثر في غطاءه، كان طوم نائماً بعمق على الأريكة.

كانت «بيلي» قد شغلت المكيف وهي تلبس مئزراً أوسع منها، تلف رأسها منشفة، وكوب من الشاي بيدها، تتجول بالمنزل، فاتحة خزانات الملابس والأدراج، وتقوم بتفتيش دقيق بدء بمحتوى الخزائن وصولاً إلى محتوى المُبَرِّد.

رغم الفوضى التي كانت تعم غرفة الجلوس والمطبخ، فإنها كانت تستحسن الديكور بروحه البوهيمية ومسحته الروك آند رول:

لوحة التزلج الخشبية المعلقة إلى السقف، المصباح المرجاني، المنظار النحاسي الملمع، وصندوق الأسطوانات القديم. . .

قضت نصف ساعة وهي تبحث في أروقة خزانة الكتب، متنقلة بين هذا الرواق وذاك حسب هواها. وعلى المكتب كان يوجد الحاسوب المحمول لطوم. أشعلته من دون إظهار أي حرج، لكن كلمة السر أوقفتها. حاولت ببعض الشفرات المستوحاة من عالم المؤلف، لكن أي من محاولاتها لم تسمح لها بولوج أركان الآلة الخفية.

في الأدراج وضعت يدها على العشرات من رسائل القراء تم إرسالها من أطراف الدنيا القاصية. بعض الأظرفة كانت تضم رسومات، وبعضها الآخر كانت بداخله صور، أزهار مجففة، تمائم، وأوسمة الفأل. . . وعلى مدى أكثر من ساعة قرأت بتمعن كل رسالة من الرسائل كي تلاحظ بدهشة أن عدداً مهماً منها يتحدث عنها.

وعلى صعيد العمل، كان هناك ركام من الرسائل لم يتجشم طوم عناء فضها: فواتير، كشوفات بنكية، دعوات إلى عروض أولى للأفلام، نسخ من مقالات صحافية أرسلت من طرف الخدمة الصحافية لدابلداي. ومن دون التردد طويلاً، فتحت أغلب الأظرفة، ودققت في لائحة مصاريف الكاتب، منغمسة في التقرير الذي أعدته الصحف حول انفصاله عن أرور.

وأثناء القراءة، كانت تلقي بنظرات متواترة نحو الأريكة، للتأكد من أن طوم لا يزال يغط في نومه. ولمرتين، غادرت مجلسها وسوَّت غطاءه مثلما لو قامت بذلك من أجل طفل مريض.

نظرت طويلاً إلى معرض صور أرور المقدم في الإطار الرقمي الموضوع على برقع المدخنة. كانت عازفة البيانو تشع خفة وجمالاً خارج المألوف. فيها شيء من القوة والصفاء. وأمام هذه الصور لم

تمنع «بيلي» نفسها من التساؤل بسذاجة لماذا تحصل بعض النساء على كل ذلك القدر - جمال، تربية، ثراء، مواهب - بينما البقية الباقية لا تظفر سوى بالقليل.

ثم انتصبت خلف فتحة إحدى النوافذ وشاهدت المطر وهو ينقر الزجاج. كانت ترى انعكاس صورتها على زجاج النافذة ولم تكن تستحسن الصورة المنعكسة. لقد كانت مترددة دوماً في ما يخص خلقتها: كان يبدو لها وجهها حاد القسمات، وجبينها عريض بإفراط. بينما جسدها المتخلع يجعلها وكأنها جرادة. لا، لم تكن تعتبر نفسها مليحة جداً بصدرها المستتر، ووركيها الضيقين، وقامتها الطويلة الخرقاء والنمش الذي تمقته. ولكن بالطبع، هناك ساقاها الطويلتان بلا نهاية... «سلاحها القاتل» في لعبة الإغراء، كي نستعير هنا عبارة مستعملة في روايات طوم. ساقان كانتا تذهبان بعقول العديد من الرجال، ولكن ليس دوماً أولئك الأكثر تأدباً من بينهم. أزاحت عن ذهنها هذه الأفكار، وللهرب من «العدو في المرآة» غادرت موقع مراقبتها ذاك لاستكشاف الطابق.

بمخدع الملابس في غرفة الزوار، اكتشفت حافظة ثياب مرتبة بعناية فائقة. إنها بدون شك ملابس تركتها أرور وتشهد على فجائية انفصالها عن طوم. فتشت مغارة علي بابا تلك بعينين منبهرتين لطفلة صغيرة. لقد احتوت بعض أسماء الموضة التي لا مناص منها: سترة بالْمان، معطف مطري بارْبُري بيج، حقيبة يد بِيركِين- أصلية! - سروال جينز نوتيفي...

في درج الأحذية المزلاق، عثرت صراحة على الكأس المقدسة: زوج أحذية خفيفة من توقيع كريستنيان لوبوتان. والمعجزة: كانتا على مقاسها. أمام المرآة، لم تستطع مقاومة لبسها، مانحة نفسها ربع ساعة على طريقة سندريلا، مع جينز فاتح وقميص فوقي من السّاتان.

ختمت جولتها في المنزل بولوج غرفة طوم. وقد اندهشت لما رأت أن الغرفة تسبح في نور أزرق بينما لم يكن أي مصباح مضاءً. التفتت صوب اللوحة المعلقة على الجدار ورأت، وهي مسحورة، عناق العاشقين الوديع.

خارقة الظلمة، كان في لوحة شاغال شيء ما غير واقعي، وبدت وكأنها تومض في الليل.

8

سارقة الحياة

لن تمنحك الحياة أي هدية، صدقني.
إذا أردت أن تكون لك حياة، اسرقها.

لو آندريا سالومي

غمرت موجة من الحر جسدي ونكست وجهي. كنت أشعر أنني في أحسن حال، في الدفء، محمي. قاومت للحظة الرغبة في فتح عيني لإطالة ذلك النوم السابيائي في شرنقتي المبطنة. ثم بدا لي أنني أسمع أغنية بعيدة: لازمة مقطوعة من نوع الريغي تمتزج أنغامها مع رائحة مقبلة من الطفولة: رائحة الفطائر الحلوانية بنكهة الموز والتفاح المسكَّر.

شمس عنيدة كانت تسكب نورها على الغرفة بأكملها. تبخر صداع رأسي. واضعاً يدي إزاء عيني كي لا تبهرني الأشعة، أدرت رأسي نحو الشرفة. كانت الموسيقى تنبعث من مذياعي الصغير الموضوع على طبقية من السّاج المصقول.

كانت هناك حركة حول المائدة: ذيول فستان ضبابية، مفتوح حتى أعلى الفخذ، كانت تطفو بعكس منبع الضوء. استقمت للجلوس متكئاً على مسند الأريكة. كنت أعرف هذا الفستان، الوردي الفاتح،

ذي الحمالات الدقيقة! كنت أعرف هذا الجسد الذي أخمنه بفضل خدعة التموجات الشفافة!

- أرور! . . . همستُ.

لكن الطَّيْفَ الشفاف والضبابي تقدم إلى أن حجب الشمس و. . .

لا، لم تكن أرور، بل خرقاء تلك الليلة التي تعتبر نفسها شخصية روائية!

وثبتُ مغادراً اللحاف قبل العودة إليه بسرعة شديدة مدركاً أني كنت عارياً تماماً.

هذه الحمقاء خلعت ملابسي!

بحثت بعيني عن ملابسي أو حتى عن تبَّان، لكن لا شيء كان في متناول يدي.

لن تتم الأمور هكذا!

أمسكت غطاء السرير للفه حول خصري قبل الإسراع إلى الشرفة.

كانت الريح قد طردت الغيوم. وكانت السماء صافية وتسطع بزرقة ساحرة. بفُسْتاَنِها الصيفي، كانت «مستنسخة» بيلي تتحرك بنشاط حول المائدة مثل نحلة تحلق بين أشعة الشمس.

- ماذا تصنعين عندك بعد هنا؟ قلت بقسوة.

- إنها لطريقة غريبة من أجل شكري على إعداد الفطور!

علاوة على الفطائر الصغيرة، وضعتْ كأسين من عصير البرتقال الهندي، وأعدت القهوة.

- وبأي حق خلعت ملابسي؟

- حسناً، لكل دوره! إنك لم تجد حرجاً مساء البارحة لتفحصي من الرأس إلى القدمين. . .

- لكنك موجودة في منزلي!

- هيّا! إنك تختلق من ذلك كل هذه الضجة لأنني رأيت أبو رقبة!

- أبو رقبة؟

- أجل، مَسيحُكَ الصغير، أبْلَهُك الصغير.

مسيحي الصغير! أبلهي الصغير! فكرت وأنا أشد اللحاف حول خصري.

- لاحظ جيداً الجانب الودود لصفة صغير، إذ من هذه الناحية فأنت بالأحرى...

- حسناً، كفانا مزاحاً! قاطعتها. وإن كنت تظنين أنك سوف تحتالين علي بهذا الثناء.

ناولتني فنجان قهوة:

- هل يحدث لك أن تتكلم من دون أن تصرخ؟

- وبأي حق لبست هذا الفستان؟

- ألا ترى أنه يناسبني كثيراً؟ كان في ملكية حبيبتك، أليس كذلك؟ إنني لا أتصور أنك في طور التنكر...

تهاويت فوق كرسي وفركت عيني كي أستعيد رشدي. تلك الليلة كنت آمل أن تكون هذه الفتاة مجرد هلوسة، لكن للأسف، الأمر ليس كذلك: لقد كانت امرأة، حقيقية، مبطنة بامرأة مزعجة من الطراز الرفيع.

- اشرب قهوتك قبل أن تبرد.

- لا أريدها، شكراً.

- إن لك سحنة الخارج من قبره، ولا تريد قهوة؟

- لا أريد شرب **قهوتك**، الأمر يختلف.

- لِمَ؟

- لأنني لا أعرف بماذا حشوت فنجاني.

- لا تظن مع ذلك أنني أسعى إلى تسميمك؟

- إني على دراية بالمجانين من طينتك...

- المجانين من طينتي!

- أجل! الجنيات اللائي لديهن اعتقاد مهووس بأنهن محبوبات من طرف الممثل أو المؤلف الذي أعجبن به.

- أنا مهووسة بالجنس! هاهنا، يا عزيزي، بصراحة، إنك تنظر إلى رغباتك على أنها حقيقة. وإن كنت تظن أني معجبة بك، فأنت تقترف خطأً فادحاً!

مسدت صدغي وأنا أنظر إلى الشمس الظافرة خلف خط الأفق. كانت فقرات عنقي تؤلمني والصداع النصفي عاودني فجأة، واختار هذه المرة أن يعذب مؤخرة رأسي.

- حسناً، سوف نضع حداً لهذه المزحة. ستعودين إلى بيتك من دون أن تدفعيني إلى طلب الشرطة، اتفقنا؟

- اسمع، إني أتفهم كونك ترفض تقبل الحقيقة، لكن...

- لكن؟

-... أنا بحق بيلي دونلي. أنا بحق شخصية روائية وصدقني أن ذلك يرعبني قدر ما يرعبك.

وأنا مذهول، انتهى بي المطاف إلى رشف جرعة من القهوة ثم، بعد تردد أخير، أنهيت فنجاني. ربما كان المشروب مسموماً، لكن الظاهر أن ذلك السم لم يكن له مفعول فوري.

ومع ذلك، لم أرفع الراية البيضاء. لما كنت طفلاً، أتذكر أنني شاهدت برنامجاً تلفزيونياً فيه يبرر قاتل دجون لينون فعلته بإرادة

اكتساب شيء من شهرة ضحيته. أكيد أنني لم أكن مغني البيتلز السابق، وتلك المرأة كانت أكثر لطفاً من مارك دايفد شابمان، لكني كنت أعرف أن العديد من الملاحقين(*) (stalkers) هم مضطربون عقلياً وأن انتقالهم إلى الفعل قد يكون اندفاعياً وعنيفاً. اغتنمت صوتي الأكثر اطمئناناً محاولاً إقناعها مجدداً:

أصغي إلي، أظن أنك. . . . مشوشة بعض الشيء. هذا ما يقع. إننا نمر جميعاً بلحظات صعبة في يوم من الأيام. ربما فقدت شغلك حديثاً أو أحداً من أقربائك؟ ربما هجرك حبيبك. أو ربما تشعرين أنك منبوذة وممتعضة بشدّة؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أعرف معالجة نفسية تستطيع أن. . .

قاطعَتْ خطبتي مُلَوِّحَة أمام ناظري بإحدى الوصفات المحررة من طرف الدكتورة صوفيا شنابل:

- حسب ما فهمت، فأنت من يحتاج إلى معالج، أليس كذلك؟

- لقد نبشت حاجياتي!

- مؤكد، أجابت وهي تسقيني القهوة مجدداً.

تصرفها كان يحيرني. ماذا كان علي القيام به في وضع مشابه؟ طلب الشرطة أم الطبيب؟ بالنظر إلى كلامها كنت مستعداً للمراهنة على أن لديها سوابق جنائية أو مرضية عقلية. ربما إن أبسط شيء كان هو اقتيادها بالقوة إلى الخارج، لكن لو أمسكت بها، فإن هذه المزعجة كانت قادرة على الادعاء أنني كنت أنوي الاعتداء عليها ولم أكن أرغب في المجازفة بذلك.

- إنك لم تمضي الليل ببيتك، قلت ملاحظاً في محاولة أخيرة

(*) وهم أشخاص غير مستقرين نفسياً يتحرشون، ويضطهدون وأحياناً يعتدون على المشاهير.

مني. لا شك في أن هناك من سيقلق بشأن ذلك، سواء من بين أفراد أسرتك أو أصدقائك. إذا كنت تودين إخبار أي كان، بإمكانك استعمال هاتفي.

- لا أعتقد ذلك! أولاً، لا أحد يهتم بشأني، وهذا أمر محزن، أعترف بذلك. أما عن هاتفك، فإنه قد تم تعليق خدمته للتو، ردت علي واحدة بواحدة وهي تعود إلى غرفة الجلوس.

ثم شاهدتها تتجه نحو المنضدة الكبيرة التي كنت أستعملها مكتباً. من بعيد، وبابتسامة عريضة، أشهرت حزمة فواتير.

- لا غرابة، قالت ملاحظة. لم تؤد اشتراكك منذ شهور!

كانت تلك هي الإجابة الزائدة عن الحد. انقضضت عليها باندفاع ثم مرجحتها كي أسقطها بين ذراعي. لا يهم إن تم اتهامي بتعنيفها. كنت أفضل ذلك على سماعها لدقيقة إضافية أخرى. كنت أمسكها بحزم، يد خلف ركبتيها والأخرى أسفل خاصرتها. كانت تتخبط بكل قواها، لكن لم أستسلم وقدتها إلى الشرفة حيث «وضعتها» من دون لطف أبعد قدر ممكن قبل العودة بسرعة إلى قاعة الجلوس وإغلاق الفتحة الزجاجية ورائي.

هو ذاك!

ليس هناك ما هو أكثر واقعية من الأساليب القديمة.

لماذا أكرهت نفسي على هذه الرفقة المضجرة كل هذه المدة الطويلة؟ لم يكن الأمر معقداً جداً للتخلص منها في نهاية المطاف! عبثاً كنت أكتب العكس في رواياتي، أحياناً، ليس من العيب أن تنتصر القوة على الكلمات...

نظرت إلى المرأة الشابة، «المحبوسة في الخارج»، بابتسامة راضية. ردت على مزاجي الصافي بأصبعها الوسطى الموجه نحوي.

وأخيراً لوحدي!

كنت في حاجة إلى صفاء الذهن. وفي غياب مضادات القلق، تناولت الآي بود الذي لي، وعلى طريقة كاهن بلاد الغال الذي يعد خلطة مهدئة، هيأتُ قائمة أغانٍ لكل من مايلس ديفس وجون كولترين وفليب غلاس. ربطت الجهاز المتنقل بمكبرات الصوت فامتلأت الغرفة بالنغمات الأولى لمقطوعة Kind of Blue، أجمل موسيقى الجاز في العالم، المقطوعة التي يستحسنها حتى أولئك الذين لا يحبون الجاز.

في المطبخ، أعددت لنفسي قهوة من جديد ثم عدت إلى الصالون آملاً أن تكون زائرتي الغريبة قد اختفت من الشرفة.

لم يكن الأمر كذلك.

الظاهر أنها بمزاج عكر- وهذه تورية أيضاً- إذ كانت تخرب أواني الفطور. إبريق القهوة، صحون، فناجين: كل ما يحتمل كسره كان ملقى على البلاطات الطينية. ثم نقرت بشراسة على الواجهة الزجاجية المزلاقة قبل أن تقذف عليها وبكل ما أوتيت من قوة كرسي الحديقة الذي ارتد على الزجاج المُؤَمَّن. «**أنا بيلي!**» صرخت عدة مرات، لكن كلماتها كانت ترشح من خلال الزجاج الثلاثي وكنت أخمنها أكثر مما أسمعها. لم تكن هذه الجلبة لتتأخر عن استنفار الجيران، ومن ثم، فريق حراسة ماليبو كولوني الذي كان سيخلصني من المزعجة.

حينها، خرَّتْ على طول مدخل النافذة. جالسة ورأسها محاط بيديها، كانت تبدو منهارة وساجدة. متأثر لمحنتها، كنت أنظر إليها بثبات وأنا مدرك بأن كلامها، إن لم يكن قد خلف فيَّ سحراً غريباً، فإنه على الأقل قد أثار لدي تساؤلاً حقيقياً.

لما رفعت بصرها ومن خلال خصلات شعرها الذهبية لاحظت أن نظرتها بلون الأزرق البحري تحولت في بضع دقائق من التعبير الأكثر وداعة إلى الأشد سديمية.

دنوت ببطء وجلست بدوري لصق الحاجز الزجاجي، وعينيَّ منغرستان في عينيها بحثاً عن جانب من الحقيقة، وإن لم يكن فبحثاً عن تفسير. عندها رأيت جفناها يرتجفان كما لو بفعل الألم. رجعت إلى الوراء لأكتشف أن فستانها بلون البشرة كان ملطخاً بالدماء! ثم رأيت شفرة سكين الخبز بيدها وفهمت أنها آذت نفسها. نهضت لنجدتها، لكن هذه المرة، كانت هي من سدّ الباب بحصر المقبض الخارجي بواسطة الطاولة.

لماذا؟ سألتها بناظري.

استشفيت لمحة من التحدي في عينيها، وكان جوابها الوحيد، الضرب لمرات عديدة على الزجاج بكف يدها اليسرى التي كانت تنزف دماً. وفي الأخير، أوقفت يدها الممزقة، وبشفافية قرأت الأرقام الثلاثة المجترحة في لحمها:

144

9

كتف موشوم (Tatoo)

منقوشة بحروف من دم، كانت الأعداد تتراقص أمام ناظري:

في الظروف العادية، كان رد فعلي الأول سيكون هو طلب الرقم 911 لإخطار النجدة، لكن شيئاً ما منعني من فعل ذلك باستعجال. كان الجرح ينزف بغزارة، لكنه لم يكن مميتاً. ما الذي كان ينبغي فهمه من خلال هذه الحركة؟ لماذا ألحقت هذه المرأة بنفسها طعنة مماثلة؟

لأنها مجنونة...

ليكن، وبعد؟

لأنني لم أصدقها.

ما علاقة الرقم 144 بما حكته لي؟

من جديد، ضربت الزجاج بكفها على نحو شديد ورأيت أن أصبعها يشير إلى الكتاب الموضوع على الطاولة.

روايتي، الحكاية، الشخصيات، الخيال...

فرضت البداهة نفسها علي:

الصفحة 144.

التقطتُ كتابي وتصفحته بعجالة إلى أن وصلت للصفحة المعلومة. لقد كانت بداية فصل يفتتح كما يلي:

غداة المرة الأولى التي ضاجعت فيها جاك، ذهبت بيلي إلى متجر للوشم في بوسطن. كانت الإبرة تعدو على كتفها، تنفث الحبر تحت جلدها، وتحفر من خلال لمسات دقيقة كتابة بالرسم الأرابيسك. علامة يستعملها أفراد قبيلة قديمة لوصف جوهر الشعور بالحب: شيء منك داخلني إلى الأبد وأعداني مثل سم. نقش جسدي تعمدت حمله مذاك بصفة القربان لمواجهة آلام الحياة.

رفعت رأسي نحو «زائرتي». كانت متكومة على نفسها. ذقنها مسند إلى ساقيها المطويتان، كانت حينها تحدق في بعين منطفئة؟ هل كنت أسير في الاتجاه الخاطئ؟ هل كان هنالك بحق شيء وراء هذه المسرحية؟ وأنا غير متأكد، دنوت من الحاجز الزجاجي. خلف النافذة، فجأة استعر نظر المرأة الشابة. مررت يدها على عنقها كي تسحب حمَّال فستانها على طول كتفها.

على مستوى عظم الكتف، لمحت رسماً قبائلياً كنت أعرفه حق المعرفة. علامة هندية يستعملها اليانومامي (*Yanomamis*) في وصف جوهر الشعور بالحب: شيء منك داخلني إلى الأبد وأعداني مثل سم...

10

فتاة من ورق

إن روح الروائيين مسكونة، بل مملوكة بشخصياتهم،
مثلما تكون روحُ قرويةٍ متطيرة مسكونة بالمسيح-مريم-يوسف، أو كما روحٌ مجنونة بالشيطان.

نانسي هوستن

في البيت، حلّ الهدوء مكان العاصفة. بعد قبولها العودة إلى الصالون، انعطفت المرأة الشابة عبر الحمام بينما كنت أعد الشاي وأقوم بجَرْدٍ لما حوته خزانتي الصيدلية.

ماليبو كولوني
التاسعة صباحاً.

لحقت بي إلى مائدة المطبخ. كانت قد استحمت، ولبست رداء الحمام الذي لي، وأوقفت النزيف بالضغط على جروحها بمنشفة.

- لدي عدّة للإسعافات الأولية، قلتُ، لكنها ليست مزودة بما يكفي.

في المحفظة وجدت مع ذلك مُطَهِّراً ونظفت الجرح بعناية.

- لماذا صنعت ذلك؟

- لأنك لم ترد الإنصات إلي، طبعاً!

شاهدتها وهي توسع حافتي الجروح كي تتحقق من عمقها.

- سوف أقودك إلى المستشفى. أنت بحاجة إلى بعض الغرز.

- سوف أقوم بها بنفسي، لا تنسى أنني ممرضة. سوف أحتاج فقط إلى خيط الجراحة وإبرة معقمة.

- اللعنة! لقد نسيت وضعها على القائمة في المرة الأخيرة التي تبضعت فيها.

- أليس لديك أيضاً شرائط لاصقة؟

- اسمعي، هذا منزل شاطئي وليس مستوصفاً.

- أو خيط من الحرير أو شعر الخيل؟ قد يقوم بالمطلوب. لا، بل لديك أحسن من ذلك! أنا متيقنة بأنني رأيت المادة المعجزة، هناك، في...

غادرت المقعد البراز في منتصف جملتها، وكما لو أنها كانت في منزلها، ذهبت تنبش في أدراج مكتبي.

- ها هو، حصلت عليه! قالت وهي عائدة إلى الجلوس بنبرة ظافرة، وبيدها السليمة أنبوب لاصق (Super Glue).

فكت غطاء الأنبوب الصغير- الذي كتبت عليه عبارة: «خاص بالأواني الخزفية الصينية»- ثم وضعت خطاً من اللصاق على جرحها.

- تريشي، هل أنت متأكدة مما تصنعين؟ إننا هنا لسنا في فيلم!

- لا، أما أنا، فإني بطلة رواية، أجابت بمكر. لا تشغل نفسك، لهذا الغرض صنع هذا اللصاق.

قربت بين حافتي الجرح وأبقتهما مغلقتان لبضع ثوان كي تترك متسعاً من الوقت للصاق حتى يؤتي مفعوله.

- وها هي! صاحت فرحة بافتخار عارضة يدها الملتئمة يدوياً.

قضمَت من الفطيرة التي كنت قد زبدتها لها وتناولَتْ جرعة من الشاي. ومن خلف فنجانها كنت ألمح عينيها الواسعتين اللتين كانتا تحاولان تخمين ما يجول بخاطري.

- لقد صرت أكثر وداعة، لكنك لاتزال لا تصدقني، أليس كذلك؟ خمنت وهي تمسح فمها بكمها.

- إن الوشم ليس دليلاً بحق، لاحظتُ بحذر.

- والبتر دليل أم لا؟

- دليل على أنك عنيفة ومندفعة، أجل هو كذلك!

- استجوبني إذاً!

قلت مراوغاً وأنا أهز رأسي:

- أنا كاتب ولست محققاً ولا صحافياً.

- هذا سهل شيئاً ما، لا؟

ألقيت محتوى فنجاني في حوض المطبخ. لماذا أرغم نفسي على شرب الشاي بينما كنت أكره ذلك؟

- أنصتي، أقدم لك عرضاً...

تركت جملتي معلقة، وأنا أفكر في الطريقة التي سأعرض بها الأمور.

- نعم؟

- أود امتحانك وذلك بأن أطرح عليك مجموعة من الأسئلة حول حياة بيلي، لكن إن أخفقتِ، ولو مرة واحدة، تذهبين إلى حال سبيلك من دون مشاكل.

- أعدك.

- اتفقنا إذاً: عند أول إخفاق، سوف تغربين عن هذا البيت، وإلا طلبت الشرطة فوراً. وهذه المرة حتى لو ذبحت نفسك قطعة قطعة بسكين جزار، سأتركك تبولين دماً على الشرفة!

- هل تكون بهذا اللطف دائماً أم ترغم نفسك عليه؟

- هل تفاهمنا؟

- طيّب، هات أسئلتك.

- الاسم، تاريخ ومكان الولادة؟

- بيلي دونلي، مواليد 11آب/ أغسطس 1984 في ميلووكي، قرب بحيرة ميشيغان.

- اسم الأم؟

- فليريا ستانويك.

- مهنة الأب؟

- كان عاملاً لدى ميلر، ثاني أكبر مُصَنِّع للبيرة في البلاد.

كانت تجيب واحدة بواحدة، بلا أدنى تردد.

- أعز صديقة لديك؟

- للأسف الشديد، ليس لدي أي صديقة حقيقية. هناك رفيقات فحسب.

- أول علاقة جنسية؟

أخذت وقتاً للتفكير، ناظرة إلي بعين غاضبة كي تُفْهِمني جيداً أن استياءها نابع فقط من طبيعة سؤالي.

- في عمر السادسة عشر، في فرنسا، إبان رحلة لتعلم اللغة بالكوت دازور. كان اسمه ثيو.

بتوالي الأجوبة، عمني التشويش، وعند رؤية ابتسامتها الراضية، فهمت أنها تدرك تسجيلها للنقط الرابحة. وفي كل الأحوال، الشيء الأكيد هو أنها كانت تحفظ رواياتي عن ظهر قلب.

- شرابك المفضل؟

- الكوكا. الأصلية. وليس الخفيفة (light) أو الصفر (zero).

- الفيلم المفضل؟

- Eternal Sunshine of the Spotless Mind . . فيلم صاعق حول الألم الناجم عن الحب. غاية في الشعرية والسوداوية. هل شاهدته؟

أطلقت خلقتها الطويلة كي تذهب للجلوس على الأريكة. ومن جديد، صدمني تشابهها مع بيلي: اللهبة الوضاءة نفسها، الجمال الطبيعي نفسه بدون تصنع، النبرات الصفيقة نفسها، الجرس الصوتي نفسه الذي أتذكر أنني وصفته في كتبي باعتباره «مستفز ومتهكم، تارة جازم وتارة صبياني».

- الميزة التي تبحثين عنها لدى الرجل؟

- هل غرضك هذا استمارة بْرُوسْت؟

- شيء يشبه ذلك.

- في حقيقة الأمر، أحب أن يكون الرجل رجلاً. إني لا أستحسن كثيراً هؤلاء الأشخاص الذين يسعون بأي ثمن إلى إبراز جانبهم الأنثوي. هل تفهم قصدي؟

أومأت برأسي والشك باد علي. كنت على أهبة المواصلة حينما تناولت الكلمة:

- وأنت ما الميزة المفضلة لديك عند المرأة؟

- النزوة. الفكاهة، إنها جوهر الذكاء، أم لا؟

أشارت إلى الإطار الرقمي الذي يستعرض صور أرور.

- رغم ذلك، لا يبدو أن عازفتك ضحوكة.

- ماذا لو عدنا لخرافنا، اقترحت وأنا ألحق بها على الأريكة.

- إن وضع الأسئلة يثيرك، أليس كذلك؟ إنك تتلذذ بسلطتك الصغيرة!

قالت باستمتاع.

لكنني رفضت أن يتشتت انتباهي وواصلت استنطاقي:

- ماذا لو كان عليك تغيير شيء في مظهرك الخلقي؟

- أود أن أصبح مكتنزة وبدينة أكثر من هذا.

وأنا، أسقط في يدي. كان كل شيء صائباً. إما أن هذه المرأة كانت مخبولة وتماهت مع شخصية بيلي بتقليد مذهل، وإما أنها كانت بحق بيلي، وبالتالي فأنا من كان مخبولاً.

- إذاً؟ قالت بازدراء.

- إن إجاباتك تدل فقط على أنك درست جيداً رواياتي، قلت محاولاً إخفاء دهشتي قدر الإمكان.

- في هذه الحال، اطرح علي أسئلة أخرى.

وكان ذلك بالضبط ما كنت أنوي فعله. ولاستفزازها رميت كتابي في صندوق قمامة المطبخ المعدني ثم فتحت حاسوبي المحمول الصغير، الخفيف كالنسيم، ورقنت كلمة السر لولوج سِجِلِّي. وبكل صدق، كانت لدي معلومات عديدة عن شخصياتي أكثر مما أضمنه رواياتي. ولكي أكون على توافق تام مع «أبطالي»، كنت قد تعودت على أن أكتب بالنسبة إلى كل واحد منهم سيرة مفصلة من عشرين صفحة. كنت أسجل فيها أقصى قدر من المعلومات، بدءاً من تاريخ ولادتهم وصولاً إلى أغنيتهم المفضلة مروراً باسم المُدَرِّسة في مرحلة الحضانة. ثلاث أرباع هذه المؤشرات لم تكن تظهر في الصيغة النهائية للكتاب، لكن هذا التمرين كان جزءاً من العمل غير المرئي الذي يسمح بأن تتم الخيمياء السرية للكتابة. وبحكم التجربة، انتهيت إلى الاقتناع بأن هذا التمرين يمنح بعض المصداقية لشخصياتي أو على الأقل قبساً من الإنسانية التي كانت تفسر ربما السبب في أن القراء يتعرفون من خلالها إلى أنفسهم.

- هل تُصِرِّينَ بحق على المتابعة؟ سألتها وأنا أفتح الملف المخصص لـ «بيلي».

أخرجت المرأة الشابة من أحد أدراج المنضدة ولاّعة فضية صغيرة وعلبة سجائر دانهيل قديمة مجتزئ منها- أنا بنفسي كنت أجهل وجودها- ربما تم نسيانها من طرف إحدى النساء اللائي رافقتهن قبل أرور. أشعلت سيجارة بأسلوب مميز:

- لا أنتظر سوى ذلك.

راجعت الشاشة واخترت مرجعاً بالصدفة.

- فرقة الروك المفضلة؟

- إحِم... نيرفانا، شرعت تقول قبل أن تتراجع: لا، فرقة الريدس هوت!

- كل هذا ليس جديداً للغاية.

- لكنها الإجابة الصحيحة، أليس كذلك؟

كانت كذلك. لا ريب أنها ضربة حظ. في أيامنا هذه، الجميع يحب الريدس هوت شيلي بيبرس.

- الأكلة المفضلة؟

- إن كانت رفيقة في العمل هي من يطرح علي هذا السؤال، سوف أجيب سلاطة قيصر، كي لا يتم اعتباري أكولة، لكن متعتي الحقيقية تتمثل في قطعة دسمة جداً من السمك ورقائق البطاطس!

هذه المرة لم يكن الأمر وليد الصدفة. شعرت بقطرات العرق تندي جبيني. لم يسبق لأحد، بما في ذلك ميلو، أن قرأ السِّيَر «الخفية» لشخصياتي. لقد كانت موجودة على حاسوبي فقط، لكن الوصول إليها كان محمياً بشدة. رافضاً قبول ما هو بداهي، تابعت بسؤال آخر:

- وضعيتك الجنسية المفضلة؟

- أغرب عن وجهي، عليك اللعنة.

غادرت الأريكة وأطفئت سيجارتها بوضعها تحت الصنبور.

غياب الجواب هذا أعاد لي الثقة:

- عدد الشركاء في حياتك؟ أجيبي، هذه المرة! لم يكن لديك حتى الحق في استعمال جوكر، ومع ذلك فإنك استهلكت واحداً للتو.

صوبت نحوي نظرة تحتمل أي شيء إلا الرفق.

- أو لست مثل الآخرين، في العمق؟ لا يهمك إلا ذلك...

- لم يسبق لي الادعاء بأني مختلف. إذاً، كم؟

- إنك تعرف ذلك، على كل حال: بضع...

- كم بالضبط؟

- لن أقوم بتعدادها أمامك!

- سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً؟

- ماذا تقصد؟ أنني ساقطة؟

- لم يحدث أن قلت ذلك قط.

- قطعاً لا، ولكنك فكرت فيه بقوة.

غير مبال بحيائها، تعمدت أن ألحق بها ما يشبه العقاب أكثر فأكثر:

- إذاً، كم؟

- ستة عشر، أعتقد.

- ومن ضمن هذه «الستة عشر أعتقد»، كم عدد من أحببت؟

تنهدت:

- اثنان. الأول والأخير: ثيو وجاك.

- الأول صبى بِكْر والثاني رجل مِثْر، نكّاح. تتعاطين مع الأطراف القصوى.

نظرت إلي باحتقار:

- عظيم، مبهر! إنك بحق جنتلمان.

ورغم ملامحي المستفزة، كان علي الإقرار أنها تقول الصواب كل مرة.

دْرِنْ!

شخص ما دق جرس الباب، لكن لم تكن لدي أدنى رغبة في الإقدام على فتحه.

- هل انتهيت من أسئلة الهراء هذه؟ سألتْ بنبرة تحدي.

جربت سؤالاً مفخخاً:

- كتابك المفضل؟

محرجة، هزت كتفيها:

- لا أعرف، لا أطالع كثيراً، ليس لدي الوقت الوفير.

- يا له من عذر!

- إذا وجدت أنني مفرطة الغباء، فلا يسعك لوم سوى نفسك! أذكرك أني خارجة مباشرة من خيالك. فأنت من صنعني!

دْرِنْ ! دْرِنْ!

خلف الباب، كان زائري مهتاجاً بالجرس، لكنه سوف يضجر قبلي.

عاجزاً عن السيطرة على الموقف، ومتحيراً من كل واحد من أجوبتها الصائبة، تحاملت عليها من دون إدراك أن استجوابي أصبح أقرب إلى المضايقة:

- أكبر شيء تأسفين له؟

- أن ليس لي أبناء.

- في أي وقت من حياتك كنت سعيدة أكثر؟

- آخر مرة استيقظت فيها وأنا بين ذراعي جاك.

- آخر مرة بكيت فيها؟

- لقد نسيت.

- أنا أُصِرُّ.

- لا أدري، أبكي لأتفه سبب.

- آخر مرة كان ذلك مهماً.

- منذ ستة أشهر خلت، عندما قمت بتلقيح كلبي. كان اسمه أرغوس. أليس ذلك مسجل في جذاذتك الصغيرة؟

درن! درن! درن!

كان ينبغي علي الاكتفاء بتلك الأسئلة. كنت أتوفر على أكثر مما يكفيني من الأدلة، لكن كل ذلك كان يحيرني. هذه اللعبة الصغيرة أسقطتني في بعد آخر، واقع آخر يرفض عقلي تقبله. مذعوراً، حولت غضبي نحو «بيلي»:

- أكبر لحظة خوف؟

- المستقبل.

- هل تتذكرين أسوأ يوم في حياتك؟

- لا تطلب مني ذلك، من فضلك؟

- سوف يكون آخر سؤال.

- من فضلك...

أمسكت ذراعها بصرامة:

- أجيبي!

- دعني! إنك تؤلمني! صرخت وهي تتخبط.

- طوم!

صرخ صوت من خلف الباب.

كانت بيلي قد تخلصت من قبضتي. صار وجهها ممتقعاً، ونظرتها تشع ناراً مؤلمة.

- طوم! هل ستفتح لي، تباً لك!
لا ترغمني على القدوم لزيارتك
برفقة جرّافة!

- إنه ميلو، طبعاً...

كانت بيلي قد اختبأت في الشرفة. كنت أود كثيراً مواساتها عن الألم الذي ألحقته بها تواً، لأنني أدركت أنها لم تتظاهر بالغضب وبالحزن. لكنني كنت مشوشاً جداً بما عشته قبل ذلك بقليل إلى حد أنني اعتبرت استشراف مشاطرة الأمر مع شخص آخر بمثابة تعزية لي.

11

فتاة ماك آرثر بارك الصغيرة

الأصدقاء ملائكة ترفعنا حينما تعجز
أجنحتنا على تذكر كيفية التحليق.

مجهول

لقد نجوت بالكاد من الجرّافة! أكد ميلو وهو يقتحم الصالون. يا هذا! الحال ليس كما يرام عندك. إن لك مظهر الشخص الذي استنشق البِكارْبُونات للتو.

- ماذا تريد؟

- جئت كي أسترد سيارتي، إذا كان هذا لا يزعجك كثيراً! حتى أقوم بجولة أخيرة قبل أن أتركها للحجز...

ماليبو كولوني
العاشرة صباحاً.

- يوم سعيد، طوم، قالت كارول وهي تدخل بدورها إلى الصالون. كانت تلبس زيها الرسمي. ألقيت نظرة نحو الزقاق ولاحظت أن سيارة شرطة كانت مركونة أمام بيتي.

- هل جئت للقبض علي؟ قلت مازحاً وأنا أضمها بين ذراعي.

- لكنك تنزف! صاحت مندهشة.

عقدت حاجبي ثم لمحت بقع الدم التي تلطخ قميصي: ذكرى خلفتها يد بيلي المجروحة.

- لا داعي للخوف، إنه ليس دمي.

- وتعتقد أن هذا يطمئنني! وعلاوة على ذلك فهو لا يزال ندياً، لاحظتْ بنبرة مرتابة.

- مهلاً. لن تتخيلا ما يحدث لي! مساء أمس...

- لمن هذا الفستان؟ قاطعني ميلو وهو يرفع الرداء الحريري المخضب دماً.

- لأرور. لكن...

- لأرور؟ لا تقل بأنك...

- لا! ليست هي من كانت ترتديه. بل امرأة أخرى.

- هكذا، تعاشر امرأة أخرى! تعجب. هذه علامة جيدة! هل نعرفها؟

- بمعنى ما، أجل.

تبادلت كارول وميلو نظرة مشدوهة قبل أن يسألاني معاً:

- من هي؟

- ألقيا نظرة إلى الشرفة. سوف تنبهران.

بالخطوة المستعجلة نفسها، عبرا الصالون وأطلا برأس ملؤه الفضول عبر الباب - النافذة. ثم تلا ذلك قرابة عشر ثوان من الصمت، إلى أن انتهى ميلو إلى إبداء ملاحظة:

- لا أحد في الخارج، أيها العظيم.

مستغرباً، لحقت به إلى الشرفة حيث كانت تهب نسمة منعشة.

كانت الطاولة والكراسي مقلوبة والبلاطات مكسوة بمئات من بقايا زجاج صغيرة. قهوة، خلطة موز، شراب القيقب، كانت تغطي الأرضية. لكن ولا أثر لـ«بيلي».

- هل قام الجيش بتجارب نووية في منزلك؟ استعلمت كارول.

- صحيح أن هذا أسوأ مما في كابول، تابع ميلو.

لتفادي الطيف جعلت يدي فوق جبيني وتفحصت الأفق. عاصفة اليوم السابق أعادت للشاطئ مظهره الموحش. لفّات الزبد التي كانت لاتزال تتكسر على الرمل ألقت على الشط بعض جذوع الأشجار، طحالب بنية ولوحة تزلج قديمة بل وبقايا دراجة هوائية. لكن كان ينبغي عليَّ الإقرار بما هو بداهي: بيلي اختفت.

وبحكم العادة المهنية، قرفصت كارول قرب النافذة، متفحصة بقلق آثار الدم التي أخذت تجف على الزجاج.

- ماذا حدث، يا طوم؟ هل تعاركت مع شخص ما؟

- لا! فقط...

- ها هنا، أعتقد أن عليك أن تقدم لنا بعض التفسيرات! قاطعني صديقي من جديد.

- يا للعجب منك أيها الأبله، كنت ستحصل على تفسيراتك قبل هذا لو تركتني أنهي كلامي!

- هيا، أكمله إذاً! من خرّب شرفتك؟ ولمن هو الدم الموجود على الفستان؟ البابا؟ المهاتما غاندي؟ مارلين مونرو؟

- هو دم بيلي دونلي.

- بيلي دونلي؟ لكنها إحدى شخصيات رواياتك!

- هو ذاك.

- هل تستمتع بالسخرية مني؟ قال ميلو غاضباً. إن دمي يفور من أجلك. إذا تطلب الأمر ذلك، سوف أساعدك في دفن جثة وسط الليل، وأنت، كل ما تجيد فعله هو اعتباري مجرد...

كانت كارول قد نهضت، وبنبرة الأم التي تؤنب أطفالها تدخلت بيننا، مقلدة حركات حَكَمِ الملاكمة.

- لحظة، يا رجال! حسناً، لنوقف هذه السخافات الرخيصة، لنجلس إلى مائدة ونأخذ الوقت لتفسير الأمور بهدوء، اتفقنا؟

*

وهكذا كان.

ولأكثر من ربع ساعة، ومن دون نسيان أي تفصيل، قصصت عليهم حكايتي العجيبة، بدءاً من لقائي الغريب مع بيلي، منتصف الليل، وصولاً إلى استجوابي لها ذاك الصباح والذي انتهى بإقناعي بحقيقة هويتها.

- إذاً، إن كنت قد فهمت قصدك جيداً، أوجز ميلو، إحدى بطلات روايتك سقطت من جملة سيئة الطباعة، مباشرة على منزلك. وبما أنها كانت عارية، ارتدت لباساً في ملكية رفيقتك السابقة ثم أعدَّت كعكاً بالموز لفطورك. ومن أجل شكرها، حبستها في الشرفة، وبينما كنت تنصت لمايلس ديفس ذبحت شرايينها، ناثرة الدم في كل مكان، قبل أن تعيد لصقها بواسطة اللاصق العجيب «الخاص بالأواني الخزفية الصينية». ثم دخنتما غليون السلام(*) ولهوتما بلعبة الحقيقة حيث وصفتك بالمهووس جنسياً ووصفتها بالسافلة قبل أن تنطق

(*) غليون السلام: يحتل دوراً بارزاً في الطقوس الروحية عند الهنود الحمر، بحيث يدخن الخصمين هذا الغليون بعد أن تتم المصالحة بينهما، تعبيراً عن الشكر للآلهة.

بالكلمة السحرية لتختفي في اللحظة ذاتها التي نقرنا فيها جرس الباب. أليس كذلك؟

- دع عنك ذلك، قلت. كنت على يقين أنك ستقلب هذه الحجج ضدي.

- مجرد سؤال أخير: بأي «تبغ» حشوتما غليون السلام ذاك؟

- لا تزد الطين بلة! نهته كارول.

تفحصني ميلو بحيرة:

- يجب عليك العودة لرؤية طبيبتك النفسية..

- هذا أمر غير وارد. أشعر بأني في حالة جيدة.

- أنصت إلي. أعرف أني مسؤول عن إفلاسنا المالي. أعرف أنه ما كان ينبغي أن أضغط عليك من أجل إنهاء كتابك المقبل في الآجال المحددة، لكن والحالة هذه فإنك تخيفني يا طوم. إنك في طريقك إلى فقدان عقلك.

- لا شك في أنك تعاني من الإرهاق التام، قالت كارول بلطف. أزمة إرهاق مهني. لم تتوقف طوال ثلاث سنوات: ليالٍ من الكتابة، اللقاءات مع القراء، الندوات، الأسفار من أجل معاينة الأماكن والدعاية. لا أحد كان سيتحمل كل ذلك يا طوم. انفصالك عن أورور كان بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس. لا تزال في حاجة للراحة، هذا كل ما في الأمر.

- كُفَّا عن الحديث إلي وكأني طفل.

- يجب عليك العودة لرؤية طبيبتك النفسية، كرر ميلو. لقد حدثتنا عن علاج بالنوم الذي...

-كيف ذلك «لقد حدثتنا»؟ طلبتما الدكتورة شنابل من دون إخباري بذلك؟

- إننا معك، يا طوم، لسنا ضدك، قال ميلو لتهدئتي.

- لكن، ألا يمكنك أن تتركني في حالي لثلاث دقائق؟ ألا يمكنك أحياناً الاهتمام بحياتك وليس دائماً بحياتي؟

متأثراً بذلك الرد، حرّك ميلو رأسه، فغر فاه، تردد في إضافة شيء ما، لكن وجهه تربَّد، ثم تراجع عن ذلك. وبدلاً منه، تناول سيجارة دانهيل من العلبة التي ظلت مفتوحة وخرج إلى الشاطئ لتدخينها منفرداً بنفسه.

*

بقيت لوحدي رفقة كارول. بدورها، أشعلت سيجارة وعبت منها نفساً وناولتني إياها، مثلما كنا نفعل في سن العاشرة حيث كنا نختبئ للتدخين خلف أشجار النخيل العجفاء بماك آرثر بارك. وحيث إنها لم تعد في الخدمة، فكت عقيصتها، تاركة شعرها الأبنوسي يندلق على الأزرق البحري لبدلتها. كان وضوح نظرتها يتميز عن خصلاتها الفحمية ومن خلال بعض تقاسيمه كان وجهها كامرأة يذكر بالمراهقة التي كانت. إن الصلة التي كانت تربطنا هي أبعد من التعاطف والمودة. ولم تكن أيضاً مجرد صداقة عادية، بل كانت من تلك الوشائج الثابتة التي لا يمكن بناؤها إلا في الطفولة والتي تلزم المرء طوال حياته، في أغلب الأحيان على المُرِّ أكثر منه على الحُلْو.

ومثل كل المرات التي نكون فيها لوحدنا نحن الاثنان، ارْتَدَّت مراهقتنا إلى وجهي بقوة البُومْرُنْغ: تلك الأراضي الخلاء التي كانت تمثل أفقنا الوحيد، الاختناق الناجم عن ذلك المستنقع الآسن الذي كنا سجناءه، الذكرى المفجعة لأحاديثنا بعد الخروج من المدرسة في ملاعب كرة السلة المسيّجة...

وهذه المرة أيضاً، شعرت بقوة أننا لا نزال دائماً في سن الثانية عشر. وأن ملايين الكتب التي قمت ببيعها، والمجرمين الذين أوقفَتهم

هي جزء من دور نقوم به نحن الاثنان، وأننا في الأصل لم نفارق هناك قط، في حقيقة الأمر.

وبعد كل شيء، لم يكن مصادفة أن أياً منا لم يكن له أطفال. لقد كنا مشغولين كثيراً بمحاربة أعطابنا العصبية مما تعذر معه امتلاك القدرة على التكاثر. وعن كارول الحالية، كنت أعلم الشيء القليل. في الآونة الأخيرة، لم نلتق كثيراً، وحينما كنا نفعل ذلك، كنا نتفادى بعناية التطرق لما هو أساسي. ربما لأننا كنا نأمل بسذاجة أن عدم استحضار الماضي كان يسمح بمحوه. لكن الأشياء لم تكن بتلك البساطة. ولنسيان طفولته، كان ميلو يُهَرِّج على مدار اليوم. وأنا كنت أُسَوِّد مئات الصفحات، أتناول خليطاً من الأدوية وأستنشق الكريستال ميث.

- إني لا أحب الخطابات الطنانة، يا طوم، شرعت تقول وهي تعبث بملعقة صغيرة.

الآن وبعد أن لم يعد ميلو في الغرفة، كان وجهها محزوناً ومهموماً، متخلصاً من الحاجة «إلى التظاهر».

- . . . بينك وبيني، معاً في الحياة وفي الموت، تابعت. قد أمنحك كِلْيَتي، بل الاثنتين إن تطلب الأمر.

- لن أطلب منك كل ذلك.

- بقدر ما أستطيع التذكر، فأنت من كان يجد الحلول. اليوم حان دوري لفعل ذلك، لكنني عاجزة عن مساعدتك.

- لا تقلقي بشأن ذلك، أنا بخير.

- لا، لستَ بخير. لكني أود فقط أن تدرك شيئاً: بفضلك أنت، أمكننا، ميلو وأنا، عبور كل ذلك الطريق.

هززت كتفي. لم أكن حتى متيقناً من أننا فعلاً عبرنا طريقاً ما.

أكيد أننا كنا نقيم في أماكن أفضل بكثير ولم يعد الخوف يهز أحشاءنا كما في الماضي، لكن بالنظر إليه من أعلى فإن ماك آرثر بارك كان على بعد بضع كيلومترات من المكان الذي يعيش فيه كل منا.

على أي حال، كل صباح، خاطرتي الأولى هي دوماً موجهة إليك، يا طوم. إن غرقت، فسنغرق معك. إن تخاذلت، أعتقد أن حياتي لن يكون لها أي معنى إذاك.

فتحت فمي كي أدعوها للكف عن قول السخافات، لكن كلمات أخرى أفلتت منه:

- هل أنت سعيدة يا كارول؟

رمقتْني وكأني تلفظت بما لا يليق، مادام أن مسألةِ البقاء بالنسبة إليها كانت قد عوضت نهائياً مسألة السعادة.

- إن حكاية الشخصية الروائية هذه لا أساس لها من الصحة، واصلت، ألا توافقني الرأي؟

- يبدو ذلك مبالغ فيه، أقررت.

- أنصت إلي، لا أدري ما علي فعله بشكل ملموس لمساندتك، اللهم أن أعرض عليك صداقتي ومودتي من جديد. إذاً، فكرة العلاج بالنوم ربما هي أمر يستحق الإقدام عليه، أم لا؟

تأملتها بحنو، وأنا متأثر بحدبها وفي الآن نفسه عازم على تحاشي أي علاج كان.

- على كل حال، ليس لدي حتى ما يسدد كلفته!

أزاحت هذه الحجة:

- هل تتذكر اليوم الذي توصلت فيه بحقوقك الأولى كمؤلف؟ كان المبلغ كبيراً للغاية، بحيث إنك أصررت على أن تقتسمه معي. رفضت، طبعاً، لكنك وجدت الوسيلة لاختلاس معلوماتي المصرفية

كي تودع الشيك باسمي. هل تذكر حالتي عندما توصلت بالكشف المصرفي الذي ضم فائضاً زاد عن 300000 دولار!

عند ذكر هذا الحدث، استعادت كارول شيئاً من المرح وأومضت بضعة نجوم في عينيها الغائمتين.

ضحكت أنا أيضاً عند تذكر هذه الحقبة السعيدة التي ظننت خلالها أن المال سوف يحل جميع مشاكلنا. وعلى امتداد بضع ثوان، كان الواقع أكثر خفة، لكن ذلك لم يدم طويلاً ولم يتبق في نظرتها سوى دموع الاستغاثة عندما سألتني:

- وافق، من فضلك. هذا العلاج، أنا التي سوف أسدد ثمنه.

وأصبح وجهها من جديد وجه الفتاة الصغيرة المعذبة التي عرفتها في طفولتي، ومن أجل تهدئتها وعدتها بالخضوع لذلك العلاج.

12

إعادة تأهيل

الموت قادم وستكون له عيناك...

عنوان قصيدة عثر عليها على طاولة
مقربة من سرير سيزار بافيز بعد
انتحاره.

خلف مقود البوغاتي، كان ميلو يقود ببطء، وهذا لا يشبهه في شيء. صمت مُحَمَّل بالتوتر كان يخيم على السيارة.

- حسناً، لا داعي للتجهم هكذا. كما أنني لا أقودك إلى مشفى بيتي فورد(*)!

- إحم...

بمنزلي، ولمدة ساعة، تواجهنا من جديد ونحن نبحث بدون جدوى عن مفاتيح سيارته. وللمرة الأولى في حياتنا كدنا نتشابك بالأيدي. وفي الأخير، بعد أن قال كل منا رأيه بلا مواربة في وجه الآخر، أرسلنا أحداً كي نستعيد مجموعة المفاتيح التي كان يحتفظ بها ميلو في مكتبه.

(*) مركز مشهور للعلاج من الإدمان في كاليفورنيا.

شغل الراديو لتخفيف الأجواء، لكن مقطوعة إيمي واينهاوس رفعت من درجة التوتر:

They tried to make me go to Rehab
I said NO, NO, NO(*)

مؤمناً بالقدر، أنزلت زجاج النافذة ونظرت إلى أشجار النخيل المتتابعة على طول شاطئ البحر. ربما كان ميلو على حق. ربما كنت على حافة الجنون وكنت ضحية تهيئات. كنت على وعي بذلك جيداً: خلال فترات الكتابة، كنت دائماً أسير على خيط دقيق. أن أكتب فذلك كان يغرقني في حالة غريبة: كان الواقع يترك شيئاً فشيئاً المكان للخيال وتصير شخصياتي أحياناً واقعية جداً إلى حد أنها تصحبني أينما رحلت. عذاباتها، شكوكها، سعادتها تصير خاصة بي وتستبد بي حتى بعد وضع النقطة النهائية للرواية. كانت شخصياتي ترافقني في أحلامي وألتقيها مجدداً في الصباح عند مائدة الإفطار. كانت معي عندما أذهب للتسوق، عندما أتناول العشاء في المطعم، عندما أذهب للتبول، وحتى عندما أضاجع إحداهن. كان الأمر مسكراً ومثيراً للشفقة في الآن نفسه، مثملاً ومقلقاً، لكن إلى الآن نجحت في احتواء هذا الهذيان الوديع في حدود المعقول. وبالنظر إلى ما سبق، إذا كانت انحرافاتي قد عرضتني دوماً للخطر، فإنه لم يسبق لها قط أن قادتني إلى حدود الجنون. لماذا ستفعل ذلك اليوم في حين أنني لم أكتب سطراً واحداً منذ شهور؟

– آه! لقد أحضرت لك هذه، قال ميلو وهو يقذف نحوي بعلبة صغيرة من البلاستيك البرتقالي.

(*) لقد حاولوا إخضاعي للعلاج من الإدمان لكني قلت: لا، لا، لا.

التقطتها وهي طائرة في الهواء.

إنها مضادات القلق الخاصة بي.

فتحت السدادة وعاينت القضبان البيضاء التي تستفزني في جوف العلبة.

لماذا إعادتها إلي بعد كل تلك الجهود لجعلي أقلع عنها؟

- لم يكن الفطام المباغت فكرة جيدة، قال مفسراً لتبرير تصرفه.

خفق قلبي وازداد هلعي درجة. كنت أشعر أني وحيد وأحس بالألم في كل أنحاء جسمي، مثل مدمن على المخدرات ساعة الحاجة. كيف يتعذب المرء كل ذلك القدر من دون جراح بدنية؟

في رأسي تتعالى أصداء أنغام أغنية قديمة للمغني لو ريد Lou Reed: I'm waiting for my man(*). أنتظر صاحبي، أنتظر بائعي. من الغريب أن يكون هذا البائع هو أعز صديق لدي.

- إن هذا العلاج بالنوم سوف يجعلك تولد من جديد كلياً. قال لي مواسياً. سوف تنام مثل طفل طوال عشرة أيام!

لقد حَمَّل صوته كل الحماس الذي كان في وسعه، لكنني كنت أدرك جيداً أنه لا يؤمن بذلك هو نفسه.

ضغطت على العلبة بيدي بقوة شديدة حتى بدا وكأن البلاستيك كان على شفير الانفجار. كنت أعرف أنه ما كان علي سوى إذابة بعض تلك القضبان الصغيرة تحت لساني كي أشعر للفور بأني في حال أحسن. كنت أستطيع تناول ثلاثة أو أربعة إذا ما أردت أن أسقط صريعاً. كان ذلك يناسبني جداً. «إنك محظوظ، أكدت لي الدكتورة شنابل، لأن بعض الأشخاص يعانون من مضاعفات جانبية مؤلمة.

(*) في انتظار صاحبي أنا.

وبتبجح وضعت العلبة في جيبي من دون أخذ أي قرص.

- إذا لم ينجح علاج النوم هذا، سنجرب شيئاً آخر، أكد لي ميلو. لقد حدثني بعضٌ عن شخص من نيويورك: كونور ماكوي. يبدو أنه يحقق المعجزات بفضل التنويم المغناطيسي.

التنويم المغناطيسي، النوم الاصطناعي، علب الدواء... لقد صار الهروب من الواقع يتعبني، ولو أن هذا الأخير لم يعد سوى معاناة. لم أكن أرغب العيش في النعيم لمدة عشرة أيام بفعل العقاقير المضادة للهذيان. لم أكن أرغب التنصل من المسؤولية التي تستتبعها. ومن جديد، كانت لدي الرغبة في مواجهة الواقع، ولو لقيت حتفي جراء ذلك.

منذ مدة طويلة، كنت منبهراً بالوشائج الدقيقة بين الإبداع والمرض العقلي. كميي كلوديل، موباسان، نيرفال، آرطو كانوا قد غرقوا في الجنون شيئاً فشيئاً. فيرجينيا وولف فضلت الغرق في النهر، سيزار بافيز أهلك نفسه بالحامض المسكن في أحد الفنادق، نيكولا دو ستال قفز من علو نافذة؛ جون كينيدي تولى ربط عادم الأدخنة بداخل سيارته... من دون الحديث عن الأب همينغواي الذي دق عنقه بطلقة من بندقيته. وكذلك الشأن بالنسبة إلى كورت كوبان: رصاصة في الرأس، ذات صباح شاحب قرب سِيَاتْل، على سبيل الوداع، وكلمة مخطوطة موجهة لصديق طفولته الخيالي: «من الأفضل الاحتراق صراحة بدل الموت ببطء».

إنه حل مثل باقي الحلول، في نهاية المطاف.

كل واحد من هؤلاء المبدعين اختار طريقته، لكن النتيجة كانت واحدة: الاستسلام. إذا كان الفن قد وُجِدَ لأن الواقع لا يكفي، ربما يحدث أن الفن نفسه لا يصير كافياً فيسلم الزمام للجنون وللموت.

وإن كنت لا أمتلك موهبة أي من هؤلاء الفنانين، فإنني أقتسم للأسف جزءاً من عُصَابِهِم.

*

ركن ميلو السيارة في موقف السيارات المزروع بالأشجار التابع لبناية عصرية تجمع بين الرخام الوردي والزجاج: إنها عيادة الدكتورة صوفيا شْنَابْل.

- نحن أصدقاؤك ولسنا أعداؤك، طمأنتني كارول مجدداً حينما لحقت بنا على أدراج البهو.

دخلنا ثلاثتنا البناية. في بهو الاستقبال لاحظت بذهول أن موعداً سابقاً قد جدد باسمي وأن إقامتي للاستشفاء قد تم التخطيط لها في اليوم السابق.

مستسلماً، تبعت صديقَيَّ إلى المصعد من دون طرح أي أسئلة. حملتنا الكبسولة الشفافة إلى غاية الطابق الأخير وهناك أدخلتنا السكرتيرة مكتباً كبيراً وأخبرتنا بأن الدكتورة لن تتأخر.

كانت الغرفة مضاءة وواسعة، رتبت حول طاولة عمل وأريكة ركنية من الجلد الأبيض.

- الكرسي لا بأس به! صفَّر ميلو وهو يجلس على مقعد له شكل كف اليد.

منحوتات بوذية تؤثث المكان، مما يخلق جواً من السكينة، لا ريب يساعد على فك عقدة لسان بعض المرضى: تمثال نصفي من البرونز لِسيدارْثا، عجلة القانون من الصلصال، زوج من الغزلان، ونافورة رخامية...

كنت أتابع ميلو الذي كان يجهد نفسه للعثور على كلمات مرحة أو مزحة اعتادهما. بين المنحوتات والديكور كانت هناك مادة لتغذية

العشرات من الغمزات، لكن لا شيء صدر عنه وها هنا أدركت أنه يخفي عني أمراً خطيراً.

بحثت عن سند من جهة كارول، لكنها تفادت نظراتي متظاهرة بالاهتمام بالشهادات الجامعية التي علقتها صوفيا شنابل على الجدران.

منذ اغتيال إيثان وايتكير، صارت شنابل بمثابة «معالجة النجوم» التي لا محيد عنها. لقد كانت تستقبل للعلاج بعض أكبر أسماء هوليود: ممثلين، مغنين، منتجين، مشاهير الإعلام، رجال السياسة، «أبناء ذوي . .» و«أبناء أبناء ذوي . .».

لقد كانت أيضاً تنشط برنامجاً تلفزيونياً كان فيه بإمكان الناس العاديين، رجالاً ونساء، عرض جانب من حميميتهم والظفر لبضع دقائق باستشارة النجوم (كان هذا هو عنوان البرنامج) وذلك بحكيهم على المباشر طفولتهم التعسة، وإدمانهم، وزنا المحارم لديهم، وأشرطتهم الجنسية، وخُيالاتهم عن العلاقات الجنسية الثلاثية.

جزء من صناعة الترفيه كان يتملق صوفيا شنابل. والجزء الآخر كان يخشاها. بعد عشرين سنة من الممارسة، كان يشاع بأنها تمتلك أرشيفاً جديراً بإدغار هوفر(*): آلاف الساعات من التسجيلات لحصص التحليل النفسي، حيث تستحضر أحلك الأسرار والتي لا يجرؤ على ذكرها مجتمع هوليود. سجلات سرية، عادة ما ينم التكتم عليها بالسر الطبي، لكنها، إن عرفها العموم، قد تفجر مؤسسة عالم الترفيه وتسقط العديد من الرؤوس في عالم السياسة والقضاء.

(*) شخصية مثيرة للجدل في تاريخ أمريكا، كان هوفر مديراً لوكالة الاستخبارات الفدرالية FBI من 1924 إلى 1972 وقد اشتبه فيه بأنه كان يساوم رجال السياسة والشخصيات العامة بفضل الملفات المتوفرة لديه عن علاقاتهم خارج نطاق الزواج وميولاتهم الجنسية.

وهناك قضية حديثة العهد رسخت سلطة صوفيا. بضعة شهور من ذي قبل، إحدى مريضاتها، ستيفاني هاريسون، أرملة الملياردير ريتشارد هاريسون، مؤسسة مجموعة الأسواق الممتازة Green Cross- ماتت في سن الثانية والثلاثين جراء جرعة أدوية زائدة. وبعد التشريح، عثر على بقايا مضادات للاكتئاب، والمسكنات وعقاقير للتخسيس. لا شيء يستحق الاهتمام. إلا أن الجرعات كانت زائدة حقاً. وفي التلفزيون، اتهم شقيق الراحلة شنابل بالتسبب في اقتياد أخته للمشرحة. وقد تعاقد مع كتيبة من المحامين والمحققين الخاصين الذين، عند تفتيشهم الدقيق لشقة ستيفاني عثروا على أكثر من خمسين وصفة طبية. وصفات طبية موجَّهة لخمسة أسماء مستعارة مختلفة، مكتوبة بخط يد... صوفيا شنابل. بالنسبة إلى الطبيبة النفسية، فذلك يحدث في الوقت غير الملائم. وحيث لا يزال تحت هول صدمة وفاة مايكل جاكسون، فإن الرأي العام أصبح على علم بوجود شبكة عريضة من الأطباء المستعدين لمنح وصفات تنال رضا المرضى الأكثر ثروة. وحرصاً منها على الحد من هذه الممارسات، قامت ولاية كاليفورنيا بتقديم شكوى ضد الطبيبة النفسية لإصدارها وصفات مغشوشة ثم تراجعت عن ذلك. وهذا سلوك لا مبرر له مادام المدعي العام كان يمتلك كل الأدلة التي تدينها. إن هذا الانقلاب الذي يعزوه الكثيرون إلى انعدام الشجاعة السياسية لدى رجل القانون رفع صوفيا شنابل إلى مرتبة ذوي الحصانة الذين لا يمكن مَسُّهُم.

ولدخول الدائرة المميزة لزبائن الطبيبة النفسية، كان يجب الحصول على واسطة من زبون سابق. لقد كانت تعد من تلك «النصائح الجيدة» التي تتبادلها النخبة في ما بينها مثلما هو الشأن بالنسبة إلى أمور عديدة من قبيل: كيف تحصل على أفضل كوكايين؟ بأي وسيط تجاري ينبغي الاتصال للحصول على أحسن الأسهم في

البورصة؟ كيف الحصول على مقاعد في المنصة لمشاهدة مباراة الليكرز؟ أي رقم تطلب للحصول على مومس بالهاتف لا تشبه مومس الهاتف؟ (بالنسبة إلى الرجال) وأي جرّاح تجميل لإعادة تشكيل الثديين من دون أن يثير ذلك الشك في أنه تمت إعادة تشكيل الثديين؟ (بالنسبة للنساء).

وأنا مدين لاختياري إلى ممثلة كندية في أحد المسلسلات الناجحة التي حاول ميلو التغرير بها من دون الوصول إلى مبتغاه والتي عالجتها صوفيا من نوع شديد من رهاب الخلاء. فتاة ظننت للوهلة الأولى أنها سطحية، لكن تبين في ما بعد أنها مهذبة ومثقفة، عرفتني على مفاتن أفلام جون كزافيتز ولوحات روبير رايمان.

بين صوفيا وبيني، لم يحدث قط أن كان هناك تواصل حقيقي. وبسرعة، تلخصت مواعيدنا في مجرد منح الأدوية، وهذا أمر كان يريحنا معاً في نهاية المطاف: هي، لأن استشارتي بالسعر الكامل لم تكن تتجاوز خمسة دقائق، وأنا، لأنها لم تكن تضن علي بوصف كل الحماقات التي لم أكن أتورع عن مطالبتها بها.

*

- سيداتي، سادتي.

دخلت د. شنابل مكتبها وألقت التحية. كانت تُظْهِر على الدوام الابتسامة الفاتنة نفسها التي تكشف عنها على الهواء وتلبس مثل العادة سترة من الجلد اللامع، مفصلة لصق جسدها بإفراط، وكانت تتركها مفتوحة فوق قميص عاري الصدر. بعضهم كان يسمي ذلك بداية أسلوب...

ومثل كل مرة، يتطلب مني الأمر بضع لحظات للاعتياد على حجم شعرها المثير الذي تعتقد أنها تكبحه بتسريحة متموجة دائمة

سيئة تعطي الانطباع بأنها زرعت في رأسها جثة لا تزال دافئة لكلب البيشون ذي الفرو المُتجعد.

ومن خلال الطريقة التي كانت تحدثهما بها، تأكد لي بأنه قد سبق والتقت ميلو وكارول. كنت مقصياً من الحديث وكأنهما كانا والديَّ وقد اتخذا من أجلي قراراً ليس لي فيه رأي.

إن ما كان يحيرني أكثر، هو مشاهدة كارول بذلك الجفاء والبعد عقب حديثنا المليء بالمشاعر الذي خضنا فيه ساعة قبل ذلك. كانت محرَجة ومترددة، وكان يبدو جلياً أنها مرغمة على المشاركة في عملية لم تكن تتفق معها. ظاهرياً، كان ميلو أكثر حزماً، لكنني كنت أشعر بأن ثقته هي للواجهة فقط.

وعند سماع خطاب صوفيا شنابل الملتبس فرضت البداهة نفسها علي: لم يتعلق الأمر قط بعلاج بالنوم. إن ما كان يختفي وراء مجموعة الفحوصات التي كانت تنوي إجراءها لي، هو الحجز الصحي! كان ميلو يسعى إلى وضعي تحت الوصاية للتهرب من مسؤولياته المالية! كنت محيطاً بالقانون كفاية لمعرفة أنه في كاليفورنيا يستطيع طبيب ما طلب الحجز الطبي لمدة اثنين وسبعين ساعة إذا اعتبر أن مريضه غير مستقر إلى حد كاف، بحيث إنه يشكل خطراً على المجتمع، وقد استنتجت أنه لم يكن من العسير تصنيفي ضمن تلك الخانة.

منذ سنة، كنت قد تورطت مع قوات حفظ الأمن في أكثر من قضية ومشاكلي القانونية لم تنته. كنت قيد الحرية المشروطة، بفعل مسطرة اتهام بحيازة المخدرات. لقائي مع بيلي- الذي كان ميلو يحكيه بأدق تفاصيله للطبيبة المعالجة- سوف يكون خاتمة للدفع باعتباري مريضاً يعاني من الذهان وضحية الهلوسة.

كنت أعتقد أني انتهيت من المفاجآت حينما سمعت كارول تذكر

آثار الدم على قميصي وعلى زجاج الشرفة.

- هل هو دمك، يا سيد بويد؟ سألتني الطبيبة.

صرفت النظر عن تقديم شروح لها: ما كانت لتصدقني. وعلى أي حال، فقد تَكَوَّنَ لديها رأي مسبق وبدا لي أني أسمعها تملي تقرير الخبرة على السكرتيرة:

لقد قام المريض بإلحاق ندوب جسدية خطيرة بنفسه أو بالغير. إن قدرته على التمييز، التي تعطلت بجلاء، تجعله عاجزاً عن تفهم حاجته إلى العلاج، مما يبرر مسطرة الحجر.

- إذا سمحت، سوف نجري بعض الفحوصات.

لا، لم أكن أريد أي فحوصات، لم أكن أريد أي نوم اصطناعي، لم أكن أريد الأدوية بتاتاً! غادرت مقعدي للهروب من ذلك الحديث.

مشيت بضع خطوات على طول الحاجز الزجاجي الباهت، حيث عُرِضَت منحوتة تمثل عجلة القانون مزينة بشعلات صغيرة وزخارف زهرية. بعلو يقارب متراً، كان الشعار البوذي ينشر أشعته الثمانية المفروض أنها تدل على الطريق الذي يخلص من المعاناة. هكذا تدور عجلة الدارْمَا: اتباع النهج نحو «ما يجب أن يكون»، استكشاف السبيل حتى بلوغ «العمل الصحيح».

لما تملكني نوع من الوضوح، رفعت المنحوتة وقذفتها بكل ما أوتيت من قوة على الشرفة الزجاجية التي تناثرت إلى عدة شظايا من الزجاج.

*

أتذكر الصرخة التي أطلقتها كارول.

أتذكر الستائر الصقيلة التي تسبح في الريح.

أتذكر ذلك الشرخ المنفرج الذي هجمت منه هبة ريح عاصفة تطايرت معها بضعة أوراق وتحطمت بفعلها مزهرية.

أتذكر نداء السماء.

أتذكر أنني تهاويت ساقطاً في الفراغ من دون استعداد للقفز.

أتذكر جسدي المستسلم.

أتذكر حزن فتاة ماك آرثر بارك الصغيرة.

13

الهاربان

كثير من الناس من يسألني عن اللحظة
التي سأنجز فيها، أخيراً، فيلماً بأشخاص
واقعيين. لكن ما الواقع؟

تيم بورتون

- لقد استغرقت وقتاً طويلاً! اشتكى صوت.
لكنه لم يكن صوت ملاك بل ولا حتى صوت القديس بيار.
كان صوت بيلي دونلي!

موقف سيارات العيادة
الظهيرة.

بعد سقطة من علو طابقين، وجدتُني ملفوفاً بستار فوق سيارة دودج قديمة مبعجة، مركونة بالضبط أسفل نافذة مكتب صوفيا شنابل. كان لي ضلع مغروز، وألم في الركبة وفقرات العنق والكاحل، لكنني لم أكن ميتاً.

- لا أريد أن أستعجلك، قالت بيلي مجدداً، ولكن إن لم نرحل من هنا بسرعة، أخشى هذه المرة من أن يُلبِسوك سترة المجانين.

من جديد، استعملت خزانة ملابس أرور وارتدت قميص

ديباردور أبيض، وسروال جينز باهت وسترة مُزَوَّدة مطرزة بأشرطة فضية.

- حسناً، إنك لا تنوي قضاء عيد الميلاد فوق هذا السقف! ألحت وهي تلوح بمجموعة مفاتيح معلقة إلى حلقة تحمل شعار «بوغاتي».

- أنتِ من اختلس مفاتيح ميلو! قلت ملاحظاً وأنا أنزل من الدودج.

- نقول شكراً لمن؟

وإن بدا الأمر غريباً، فلم أكن أعاني سوى من بعض الجراح الطفيفة، لكن حينما وضعت قدمي على الأرض، لم أمنع نفسي من إطلاق صرخة ألم. كان عندي التواء في الكاحل ولم أعد أقوى على الخطو.

- **إنه هناك!** صرخ ميلو عند وصوله لموقف السيارات حيث بعث في أعقابنا بثلاثة ممرضين أقوياء مثل لاعبي الكرة المستطيلة.

جلستْ بيلي خلف مقود البوغاتي واندفعتُ بعدها على مقعد الراكب.

ضغطت بأقصى سرعة قرب مخرج موقف السيارات في اللحظة التي كان فيها الباب الأوتوماتيكي يهبط. واثقة من نفسها بشدة، قامت بانحراف مضبوط على التربة المليئة بالحصى.

- سوف نهرب من الخلف.

- **ارجع، يا طوم!** توسلت إلي كارول بينما كنا نعبر أمامها كالإعصار.

حاول العمالقة الثلاثة أن يسدوا علينا الطريق، لكن بمتعة ظاهرة مرت بيلي إلى سرعة جديدة وضغطت بغتة على الدواسة.

- اعترف رغم كل حال بأنك سعيد لملاقاتي! ألقت نحوي بنبرة المنتصِر بينما السيارة تحطم الحاجز وتحملنا نحو الحرية.

14

من هي تلك الفتاة؟

قاوم! أشعل ذلك النور الذي انطفأ.

ديلان طوماس

- والآن، إلى أين نحن ذاهبان؟ سألتها ويديَّ الاثنتان تمسكان بحزام الأمان.

بعد أن لفت حول بيكو بولفار، ولجت البوغاتي وبسرعة قصوى الباسفيك كوست هاي واي.

جالسة خلف مقعد السائق وظناً منها أنها إيرْطُونْ سِينَا، اختارت بيلي قيادة عدوانية: فرملة مباغتة، زيادة سرعة كالبرق، ولوج المنعطفات بالسرعة القصوى.

- إنها صاروخ، هذه السيارة! مكتفية بالرد.

ورأسي ملتصق بالمسند، كنت أشعر وكأني في طائرة لحظة الإقلاع. كنت أنظر إليها وهي تتابع زيادة السرعة بمهارة قل نظيرها. الظاهر أنها كانت سعيدة جداً بفعل ذلك.

- إنها صاخبة بعض الشيء، أم لا؟

- صاخبة! هل تمزح أم ماذا؟ موسيقى المحرك، إنها لمُوزَار!

لم يكن لملاحظتي أي تأثير على بيلي، كرَّرتُ منزعجاً:

- حسناً، إلى أين نحن ذاهبون؟

- إلى المكسيك.

- ماذا؟

- لقد أعددت لك حقيبة سفر وعُدَّة النظافة.

- لقد جننتِ! أنا لن نذهب إلى أي مكان!

ولأنني انزعجت من المنحى الذي اتخذته تلك القضية، طلبت منها أن تنقلني إلى طبيب لمعالجة كاحلي، لكنها تجاهلت طلبي.

- أوقفي السيارة، قلت لها آمراً وأنا أمسك بذراعها.

- إنك تؤلمني!

-أوقفي فوراً هذه السيارة!

فرملت بغتة وهي تلامس حافة الطريق. انحرفت البوغاتي بعض الشيء قبل أن تتوقف مثيرة سحابة من الغبار.

*

- ما قصة المكسيك هذه؟

كنا قد غادرنا السيارة معاً وأخذنا نتشاجر على الحافة المعشوشبة المحاذية للطريق.

- إني أقودك إلى حيث لا تملك الجرأة على الذهاب!

- هكذا؟ وهل لي أن أعرف إلى ما تلمحين إليه؟

ولحجب ضوضاء حركة السير، كنت مرغماً على الصراخ، مما كان يجعل ألم ما بين الضلوع أكثر حدة.

- العثور على أرورا! صاحت في الوقت الذي كانت فيه شاحنة من الوزن الثقيل تمر بالقرب من البوغاتي بضجيج بوقها الذي يصم الآذان.

نظرت إليها وأنا مذهول تماماً.

- لا أرى ما دخل أرور في هذا النقاش.

كان الهواء مشحوناً وملوثاً. خلف السياج، يمكن أن نتبين بعيداً منا مدرجات الهبوط وأبراج مراقبة مطار لوس أنجلس الدولي.

فتحت بيلي صندوق السيارة وناولتني نسخة من مجلة People Magazine. على الغلاف، كانت عدة مواضيع تتقاسم دائرة الضوء: التهديد بالانفصال عند آل برانجلينا، حماقات بِيتْ دوهيرتي، صور عطلة الاستجمام في المكسيك الخاصة ببطل الفورمولا وان، رافائيل باروس وخطيبته الجديدة... أرور فالنكور.

وكما لو أني أود إيلام نفسي، فتحت الأسبوعية عند الصفحات المشار إليها واكتشفت صوراً مثيرة أخذت في أماكن فردوسية. بين صخور وعرة، رمال بيضاء ومياه فيروزية. كانت أرور تشع جمالاً وسكينة بين ذراعي فارسها.

تبلبلت رؤيتي. مرعوباً، حاولت قراءة المقال، لكني لم أستطع ذلك. وحدها الجمل البارزة طباعتها كانت ترتسم بألم في ذهني.

أرور: «قصتنا حديثة العهد، لكني أعلم أن رفائيل هو الرجل الذي كنت أنتظره».

رفائيل: «سوف تكون سعادتنا كاملة حينما تنجب لي أرور طفلاً».

بحركة تقزز طوحت بتلك الوساخة بعيداً، ثم، رغم تعليق رخصة السياقة التي لي، جلست خلف المقود، أغلقت الباب وقمت بنصف لفة للانطلاق نحو المدينة.

- يا هذا! لن تتركني في قارعة الطريق! صاحت بيلي مُلَوِّحَة بذراعيها ومتسمرة أمام غطاء محرك السيارة.

تركتها تصعد لملاحظة أنها لم تكن مستعدة لمنحي ولو لحظة استراحة.

- إني أتفهم معاناتك. . . شرعت تقول.

- لا حاجة للشفقة، إنك لا تفهمين أدنى شيء.

كنت أقود محاولاً ترتيب أفكاري. كان ينبغي علي التفكير في كل ما حدث منذ الصباح. كان ينبغي أن. . .

- وأين تنوي الذهاب هكذا؟

- إلى بيتي.

- لكن لم يعد لك بيت! وعلاوة على ذلك، أنا بدوري لم يعد لدي بيت.

- سوف أجد محامياً، دمدمت، سأجد وسيلة لاسترجاع منزلي وكل الأموال التي بدَّدها ميلو.

- لن يتم ذلك، قالت جازمة وهي تهز رأسها.

- اصمتي! واهتمي بشأنك!

- لكن هذا شأني أيضاً! أذكرك أني محبوسة هنا لخطأ منك بسبب ذلك الكتاب المفلس السيئ الطباعة!

عند إشارة الوقوف، فتشت جيبي وعثرت بارتياح على علبة المضادات للقلق. كان لي ضلع مكسور، كاحل ملتهب، وقلب مجروح. وعليه، وبدون أي إحساس بالذنب تركت ثلاثة قضبان تذوب تحت لساني.

- إن ذلك أسهل مما يكون. . . ألقت نحوي بيلي بصوت يشوبه العتاب والإحباط.

وفي تلك اللحظة تحديداً، تمنيت لو أبقر بطنها، لكني أخذت نفساً عميقاً لأحافظ على هدوئي.

- لن تسترد رفيقتك ببقائك مكتوف اليدين وابتلاعك للأدوية!

- إنك لا تعرفين شيئاً عن علاقتي بأرور، ولإغناء معلوماتك، أخبرك بأنه سبق لي محاولة كل شيء لاستردادها.

- ربما لم تتصرف بكياسة أو لم يكن الوقت مواتياً. ربما تظن أنك تعرف النساء، لكنك في الحقيقة لا تفقه في ذلك شيئاً. وأنا، أعتقد أنه بإمكاني مساعدتك...

- إن كنت ترغبين حقيقة في مساعدتي، فلتمنحيني دقيقة صمت. واحدة!

- هل تريد التخلص مني؟ إذن، فلتعد للعمل. كلما أسرعتَ في إنهاء روايتك، كلما أسرعتُ في العودة إلى عالم الخيال!

راضية عن جوابها، صالبت ذراعيها وانتظرت جواباً لم يحن.

- اسمع، تابعَتْ بنشاط، أعرض عليك صفقة: نذهب إلى المكسيك، أساعدك على استرجاع أرور، ومقابل ذلك تكتب الجزء الأخير من ثلاثيتك، لأن ذلك هو السبيل الوحيد إلى إعادتي إلى المكان الذي منه أتيتُ.

دلكت جفنيَّ، بعد أن أذهلني هذا الاقتراح العجيب.

- لقد أحضرت حاسوبك: إنه في صندوق السيارة، قالت بتدقيق كما لو أن بإمكان ذلك التفصيل أن يغير شيئاً في قراري.

- إن ذلك لا يتم هكذا، شرحت لها. إن كتابة رواية لا تتم بالأمر. إنها نوع من الخيمياء. ثم إن ذلك سيتطلب مني ستة أشهر على الأقل من العمل الحثيث لإتمام الكتاب. إنه عمل جبّار لا قوة لدي عليه ولا رغبة لي فيه.

سخرت مني بتقليدها لي:

- إن كتابة رواية لا تتم بالأمر. إنها نوع من الخيمياء...

انتظرَتْ مرور بضع ثوان ثم انفجرَتْ:

- اللعنة، هلا توقفت عن التلذذ بألمك! إذا لم تضع حداً لذلك، فينتهي بك المطاف إلى الهلاك. من السهل على المرء تدمير نفسه ببطء على امتلاك الشجاعة لإعادة النظر في نفسه. أليس كذلك؟

لقد أصابت.

لم أجبها بل سمعت حجتها. لم تجانب الصواب تماماً. كما أنه حدث قبل ذلك بقليل، عند الطبيبة النفسية، أن شيئاً ما قد انفرج بداخلي حينما قذفت التمثال لتكسير النافذة: تمرد، رغبة للإمساك بزمام حياتي من جديد. لكن من الواضح أن هذه النية قد زالت بالسرعة نفسها التي ظهرت بها.

حينها، شعرتُ بأن بيلي نشيطة، وهي مستعدة لأن تقذف في وجهي صراحة برأيها في:

- إذا لم تخض معركة ضد نفسك، هل تعرف ما الذي سيحل بك؟

- لا، لكن أعتمد عليك في إخباري بذلك.

- إنك تتناول دائماً مزيداً من الأدوية ودائماً مزيداً من المخدرات. كل مرة تجتاز مرحلة إضافية من الانحلال والاشمئزاز من ذاتك. وبما أنك لم تعد تمتلك ولا فلساً واحداً، سوف ينتهي بك المطاف في الشارع حيث سيتم العثور عليك ميتاً ذات صباح والحقنة لا تزال مغروزة في ذراعك.

- جميل...

- يجب أن تعرف أيضاً، أنه إذا لم تتصرف الآن، فإنك لن تجد أبداً الطاقة لكتابة ولا سطر واحد.

ويدي معاً على المقود، كنت أحدق في الطريق بذهن شارد. طبعاً، لقد كانت محقة، لكن ربما فات الأوان لإظهار رد الفعل. لا

ريب في أني استسلمت نهائياً وأطلقت العنان لكل ما هو أشد تدميراً في.

ألقت نحوي نظرة حادة:

- وكل تلك القيم الجميلة التي تدعو إليها في كتبك: مقاومة الشقاء، الفرصة الثانية، المنابع التي ينبغي استدرارها للإقلاع من جديد بعد ضربة شديدة، إن ذلك أسهل كتابة منه تطبيقاً، أليس كذلك؟

وعلى نحو غير متوقع، انكسر صوتها بغتة وكأن فائضاً من العواطف والتعب والخوف قد قهرها.

- وأنا؟ إنك لا تأبه لحالي! لقد خسرت كل شيء في هذه القضية: لم تعد لي أسرة، ولا عمل، ولا سقف يؤويني، وأجدني في واقع يفضل فيه الشخص الوحيد القادر على مساعدتي الإشفاق على نفسه.

اندهشت لمحنتها، أدرت رأسي ونظرت نحوها، وأنا محرج بعض الشيء، لا أعرف ما الذي ينبغي الرد عليها به. وجهها كان هالة من النور وغبار من اللؤلؤ يلمع في عينيها.

هنا، ألقيت نظرة إلى المرآة العاكسة وقمت بزيادة صاروخية في السرعة سمحت لي بتجاوز صف طويل من المركبات قبل القيام مرة أخرى بالعودة والتوجه صوب الجنوب.

- إلى أين نحن ذاهبون؟ سألتني وهي تمسح دمعة شاردة.

- إلى المكسيك، قلتُ، لاستعادة حياتي وتغيير حياتك.

15

الميثاق

لا حركات خفة ولا تأثيرات خاصة. كلمات كتبت
على الورق هي ما أبدعه. وكلمات على الورق
هي الشيء الوحيد الذي سيخلصنا منه.

ستيفن كينغ

توقفنا بمحطة خدمات مباشرة بعد تورانس بيش. لا أدري هل البوغاتي مجهزة بمحرك صاروخ، على أي حال فقد كانت تستهلك مقدار ما يستهلكه من البنزين.

باسيفك كوسْت هايْ وايْ.
ساوث باي. ل. أ.
الثانية بعد الظهر.

كان هناك حشد كبير أمام مزودات البنزين. ولتفادي الانتظار طويلاً، قررت ملء الخزَّان عن آخره من أحد الموزعات الأوتوماتيكية. عند النزول من السيارة كدت أصرخ: كان كاحلي يؤلمني أكثر فأكثر وأخذ ينتفخ. أدخلت بطاقتي، ركبت الرقم الموافق لمكان إقامتي متبوعاً بـ. . .

بطاقتك لا تتيح التزود بالبنزين

كانت الرسالة تمتد على الشاشة بحروف الدجيتال. استرجعت بطاقتي Platinium، قمتُ بحكها على كُمِّ قميصي، وأعدت العملية دون نجاح يذكر.

يا للقرف...

فتشت محفظة نقودي، لكنني لم أجد سوى ورقة بئيسة من فئة 20 دولار. منزعجاً، انحنيت نحو النافذة جهة الراكب:

- بطاقتي لا تعمل!

- ذلك منطقي، أم لا؟ لم تعد تملك فلساً واحداً. إنها ليست بطاقة سحرية!

- أليس لديك بعض المال، بالصدفة؟

- وأين كنت سأخفيه؟ أجابت بهدوء. كنت عارية مثل دودة عندما هبطت على شرفتك!

- شكراً على دعمك! زمجرتُ متجهاً نحو صناديق الدفع وأنا أعرج.

كان المتجر يعج بالناس. في الخلفية الصوتية، كانت تُسْمَعُ مقطوعة Girl from Ipanema في صيغتها الساحرة بعزف Stan Getz و Joào Gilberto. تحفة رائعة لكن للأسف أصبحت مشروخة لإذاعتها بدون توقف منذ أكثر من أربعين سنة في المصاعد والأسواق الممتازة وفي أماكن مثل هذا المكان.

- سيارة جميلة! صفَّر أحدهم في الطابور.

ومن خلال النوافذ كان العديد من الزبائن والمستخدمين ينظرون إلى البوغاتي بفضول، وبسرعة احتشد الناس من حولي. شرحت مشكل بطاقة السلف للشخص الجالس خلف الصندوق والذي أنصت

إلي بصبر. ينبغي الإقرار أنه كان لدي مظهر جيد وبالصدفة سيارة بقيمة 2 مليون دولار- ولو لم أكن أمتلك حينها ما يسمح بتزويد خزانها بعشر لترات من البنزين. ثم انطلقت الأسئلة وسط الحاضرين، ولم يكن لدي أي جواب عنها: هل صحيح أنه يجب تسديد وديعة بـ300000 دولار عند وضع الطلب؟ هل ينبغي تشغيل مفتاح سري للوصول إلى سرعة 400 كلم/ س؟ هل تصل قيمة علبة السرعة لوحدها 150000 دولار؟

وبعد أن سدّد فاتورتها، وبنبرة مازحة، اقترح علي أحد الزبائن- وهو في أناقة الخمسينات، أخلس الشعر، بقميص أبيض ذي ياقة ماو القصيرة- بأن يشتري ساعتي كي يسمح لي بملء الخزان عن آخرة. اقترح مقابلها 50 دولار. ثم علت المزايدات بشكل جدي. منحني مستخدم 100 دولار ثم 150، بينما رفع مسؤول المتجر السعر إلى 200...

كانت هدية من ميلو أحببت بساطتها: علبة معدنية بسيطة، مينا أبيض رمادي، سوار من جلد التمساح أسود، لكني لم أكن أفهم الشيء الكثير في صناعة الساعات ولا في السيارات. كانت هذه الساعة تدلني على الوقت وهذا كل ما كنت أطلبه منها.

استهوت اللعبة كل واحد في الطابور، وآخر عرض كان قد وصل 300 دولار. وكانت تلك هي اللحظة التي اختارها صاحب ياقة ماو كي يخرج من محفظة نقوده حزمة سميكة من الأوراق المالية. قام بحساب عشر قطع من فئة 100 دولار ثم وضعها على المنصب:

- ألف دولار لك إذا تمت الصفقة في الحين، قال لي بنوع من الجدية الرسمية.

ترددتُ. خلال تلك الدقائق الثلاثة الأخيرة، تأملت ساعتي أكثر مما فعلت طوال السنتين السابقتين. إن اسمها العسير على النطق-

IWC Schaffhausen - لم يكن يعني لي شيئاً، لكنني لم أكن حُجَّة في المجال: وإذا كنت أستطيع استظهار صفحات بأكملها لدوروثي باركر، فقد كان يشق علي ذكر أكثر من علامتين من الساعات.

- اتفقنا، قلت أخيراً وأنا أفك السوار.

وضعت الألف دولار في جيبي وأعطيت 200 منها لعامل ضخ الوقود كي أسدد مقدماً ملء الخزان عن آخره. كنت أتأهب للرحيل حينما غيرت رأيي وسألته إن لم يتوافر لديه كذلك ضمادة لكاحلي.

راضياً عن صفقتي، عدتُ إلى البوغاتي وأدخلت فوهة المضخة في الخزان. ومن بعيد، لمحت المشتري ملوحاً لي بإشارة من يده قبل مغادرة المكان خلف مقود سيارته المرسيدس كوبيه.

- كيف تدبرت الأمر؟ سألت بيلي وهي تخفض النافذة.

- ليس بفضلك، على أي حال.

- هيا، قل حتى نرى.

- نظام «د» (دبر أمرك) أجبت بفخر وأنا أنظر إلى الأعداد وهي تجري على الآلة.

لقد أثرت فضولها بما يكفي كي تُلِحَّ علي:

- وماذا بعد؟

- بعت ساعتي.

- البرتغالية التي لك؟

- أي برتغالية؟

- ساعتك. إنها من طراز «البرتغالية» في الـIWC.

- سعيد بمعرفة ذلك.

- وكم أخذت مقابلها؟

- ألف دولار. سوف تسددين بذلك تكلفة البنزين حتى

المكسيك. بل أستطيع أن أقدم لك وجبة غذاء قبل مواصلة الطريق.

هزت كتفيها:

- هيا، قل لي الحقيقة.

- لكن إنها الحقيقة. ألف دولار، كررت وأنا أعلق فوهة المضخة.

وضعت رأسها بين يديها:

- إنها تساوي ما لا يقل عن 40000!

في الحال، اعتقدت أنها كانت تمزح - لا يمكن أن يكون ثمن ساعة يد بكل ذلك الغلاء، أليس كذلك؟ - لكن لمَّا بدا لي محياها المتشنج، كنت مرغماً على الاعتراف بأنه قد تم خداعي على أحسن وجه...

*

نصف ساعة بعد ذلك.

مطعم وجبات سريعة على الطريق بعد هانتينغتون بيش.

جففت وجهي بمنشفة مبللة، وبعد تضميد كاحلي، غادرت المرحاض للالتحاق ببيلي على مائدتنا.

معتلية مقعداً بلا متكأ، كانت تنهي قطعة كبيرة من مثلجات الموز الذي طلبته بعد شطيرتين بالجبن وحصة كبيرة من البطاطس المقلية. كيف تحافظ على رشاقتها وهي تلتهم كل ذلك الأكل؟

- ممم، هذا لذيذ، هل تود تذوقه؟ عرضت علي وفمها ملآن.

رفضت ذلك العرض، مكتفياً بمسح القشدة المطربة التي علت طرف أنفها، بواسطة منشفة.

ابتسمت في وجهي قبل أن تنشر أمامها خارطة طريق كبيرة لتوضيح تفاصيل رحلتنا.

- حسناً، الأمر بسيط جداً: وفق المجلة فإن أرور وصديقها لا يزالان في عطلة إلى غاية نهاية الأسبوع في فندق فخم بكَابُو سَانْ لوكَاسْ.

انحنت على الخارطة، وبواسطة قلم وسّام رسمت علامة متقاطعة على طرف شبه الجزيرة المكسيكية لكاليفورنيا الجنوبية السفلى.

لقد سبق وسمعت بهذا المكان الذي يعتبر مركزا للتزلج على الموج بفضل أمواجه شديدة القوة.

- إنه ليس في الجوار! لاحظتُ وأنا أتناول من جديد فنجان قهوة. ألا تفضلين أن نستقل الطائرة؟

- ألقت إلي بنظرة قاتمة:

- لأخذ الطائرة، نحتاج المال، وللتوفر على المال لا ينبغي أن نزهد في مصدر رزقنا الوحيد!

- قد نبيع السيارة؟

- كف عن حماقاتك وركز بعض الشيء! على كل حال، تعرف أني لا أمتلك جواز السفر.

بإصبعها، تابعت على الخارطة مساراً خيالياً:

- من هنا، المفروض أننا على بعد أكثر من مائتي كيلومتر تقريباً من سان دييغو. أقترح عليك تفادي الطرق السيارة ومقاطع الأداء كي لا ننفق الكثير من المال، لكن إذا أسلمت لي قيادة السيارة، قد نصل الحدود المكسيكية في أقل من أربع ساعات.

- لماذا يجب علي أن اسمح لك بالقيادة؟

- هذا لأني مرتاحة أكثر، أم لا؟ الظاهر أن السيارات ليست هي الشيء المفضل لديك. يبدو أنك موهوب أكثر في الأمور الذهنية منها في الميكانيكا. ثم بالنظر إلى كاحلك...

- إحم. . .

- يبدو أن ذلك جرح كبريائك. لن يغيظك أن تقودك امرأة، على الأقل؟ آمل أنك تجاوزت المرحلة المازوشية البدائية!

- حسن، لا تزيدي الطين بلة! موافق على أن أترك لك القيادة حتى سان دييغو، لكن بعد ذلك سوف نتناوب لأن الطريق طويل.

بدا أنها رضيت بتوزيع المهام ذاك، واستمرت في بسط خطتها:

- إذا كانت الأمور على ما يرام، سنعبر الحدود في تيخْوانا في المساء ونستطيع الاستمرار في انطلاقتنا حتى نجد موتيلاً صغيراً ولطيفاً على الطريق في المكسيك.

موتيل صغير ولطيف. . . وكأننا في عطلة!

- وغداً، نستيقظ باكراً ونطوي الطريق ما إن يلوح الصباح. تقع كابو سان لوكاس على بعد 1200 كيلومتر من تيخوانا. نستطيع عبورها خلال النهار والوصول في المساء إلى الفندق الذي تنزل به حبيبتك.

بقوله بذلك الشكل يبدو الأمر بسيطاً.

اهتز هاتفي المحمول في جيبي - لا يزال بإمكاني التوصل بالمكالمات، وإن كان من المستحيل علي إجراؤها. كان رقم ميلو. منذ ساعة وهو يبعث لي برسالة كل عشر دقائق، لكني كنت أمحوها فور التوصل بها حتى من دون أن أستمع إليها.

- إذاً، لقد اتفقنا: أساعدك في أن تصالح فتاتك، وفي المقابل، تكتب ذلك الجزء الثالث الملعون! قالت موجزة.

- ما الذي يدعوك للاعتقاد أن لدي فرصة أخرى مع أرور؟ إنها تعيش أكبر قصة حب مع سائق الفورمولا 1.

- تلك مهمتي. أما مهمتك فهي الكتابة. لكن بدون مزاح، اتفقنا؟ رواية حقيقية. مع احترام دفتر التحملات الذي يخصني.

- يا للمزيد: دفتر تحملات!

عضت بخفة قلمها مثل طفل يبحث عن الإلهام قبل بدء امتحان ما.

- أولاً، بدأت وهي تكتب رقم 1 بارز على مفرش المائدة الورقي، أريدك أن تكف عن جعلي كبش فداء كتبك! هل تستمتع بجعل سريري معبراً لكل أراذل الدنيا؟ أيثيرك أن تجعلني ألتقي رجالاً متزوجين لم تعد تجد فيهم المرأة ما يستهويها والذين يعتبرونني مجرد حادثة مساء عابر لإذكاء شهوتهم الجنسية؟ ربما سوء حظي يمنح الثقة لقارئاتك، أما عني أنا، فهو يرهقني ويؤلمني.

جعلني هذا الاستجواب المباغت أفقد القدرة على الكلام من الدهشة. أكيد أنني لم أراع جانب بيلي في حكاياتي، لكن بالنسبة إلي، كان ذلك لا يؤدي إلى نتيجة: إنها شخصية خيالية، تجريد خالص لا وجود له سوى في مخيلتي ومخيلة القراء. بطلة يتعلق وجودها المادي ببضعة سطور مطبوعة على صفحات من ورق. والآن ها هي الصنيعة تتمرد على صانعها!

- ثم، واصلت بيلي وهي تخط رقم 2 على الغطاء الورقي، لقد طفح بي الكيل من العيش بالتقتير. إني أحب عملي، لكنني أكِدُّ في قسم العلاج من السرطان وقد شبعت من رؤية الناس يتعذبون ويموتون كل يوم. صرت إسفنجاً حقيقياً: أمتص استغاثات المرضى كلها. إضافة إلى ذلك، استدنت لإتمام دراستي! لا أدري هل تعرف كم هو أجر ممرضة، على أي حال، ليس بالثروة!

- وما الذي يسعني فعله لخدمتك؟

- أود الانتقال إلى مصلحة طب الأطفال: أن أرى الحياة أكثر من الموت... منذ سنتين وأنا أطالب بذلك، لكن كورنيليا سكينير

المتسلطة ترفض بانتظام متعللة كل مرة أن القسم يعاني من نقص في اليد العاملة. وأيضاً. . .

- ثم ماذا أيضاً؟

- ولتحسين أحوالي المادية، أرى من المفيد أن أحصل على ميراث. . .

- يا سلام!

- وما يضيرك في ذلك؟ إنه أمر سهل بالنسبة إليك! يكفيك كتابة سطر واحد! أتريد أن أكتبه مكانك؟ ها هو: «حصلت بيلي على 500000 دولار بعد وفاة عمٍّ كانت هي وريثته الوحيدة».

- سمعاً وطاعة! إذا ما استوعبت جيداً ما تقولينه، أنت مستعدة لأن أضع حداً لعمك!

- لا! ليس عمي الحقيقي! أخ أحد أسلافي لم يسبق لي رؤيته قط، مثلما في الأفلام!

وهي راضية عن نفسها، دونت جملتها بتفان.

- حسناً، هل أنهيت قائمة بابا نويل تلك؟ في هذه الحالة نستطيع مواصلة الطريق.

- هناك شيء آخر، قالت مهدئة من روعي. أهم شيء. سجلت رقم 3 على طرف الغطاء، متبوعاً بالاسم:

جَاكْ

- هو ذاك، شرحت بصرامة: أتمنى أن يهجر جَاكْ زوجته نهائياً للعيش معي.

كان جَاكْ هو عشيقها. رجل متزوج. وسيم أناني، أب لطفلين، كانت تربط معه علاقة عاطفية مدمرة منذ سنتين. منحرف نرجسي، غيور ومستأثر كان يبقيها تحت سيطرته مستعملاً وبالتناوب الاعترافات

الكاذبة بالحب الجنوني والإهانات التي تنزل بها إلى درك العشيقة التي تتم مضاجعتها وهجرها حسب الهوى.

هززت رأسي والحيرة بادية على محياي:

- إن عقل جَاكْ في قضيبه.

لم يتسن لي حتى الوقت لرؤية يدها المنطلقة. وبقوة شديدة، وجهت لي صفعة عظيمة كادت تسقطني من على المقعد الذي لا متكأ له.

التفت جميع من كان في المطعم نحو مائدتنا مترقباً ردة فعلي.

كيف يتسنى لها الدفاع عن هذا الغبي؟ تساءل داخلي صوت الغضب. لأنها تحبه، بالتأكيد! أجاب صوت العقل.

- لا أسمح بأن تبدي رأيك في حياتي العاطفية، مثلما أني لا أحكم على حياتك، أجابت بنظرة تحدي. سوف أساعدك على استرجاع أرور وسوف تكتب لي حياة أستطيع فيها الاستيقاظ كل صباح إلى جانب جَاكْ، اتفقنا؟

وقعت على العقد المرتجل الذي حررته على الغطاء ثم اقتطعت بعناية المربع الورقي قبل أن تناولني قلم الحبر الذي بيدها.

- اتفقنا، قلت وأنا أفرك خدي.

وقعت بدوري على الوثيقة وتركت بضع دولارات على المائدة قبل مغادرة مطعم الوجبات السريعة.

- هذه الصفعة، سوف تدفعين ثمنها غالياً، توعدتها وأنا أنظر إليها بعدوانية.

- هذا ما سنراه، أجابتني بجسارة وهي تجلس خلف المقود.

16

تحديد السرعة

إنه على بعد نصف ساعة من هنا. سأصل
هناك في ظرف عشر دقائق.
من حوار في فيلم Pulp fiction
لكنتان ترانتينو.

- إنك تقودين بسرعة مفرطة!

كنا نسير مسبقاً منذ ثلاث ساعات.

خلال مائة كيلومتر، سرنا على طول ساحل البحر: نيوبورت بيش، لاغونا بيش، سان كليمانت، لكن الطريق التي تلي الشاطئ كانت مختنقة بشدة بحيث سلكنا الطريق كاليفورنيا 78 بعد اجتياز أوشنسايد كي نختصر عبر إيسكونديدو.

- إنك تقودين بسرعة مفرطة! قلت مكرراً لأنها لم تبد أي رد فعل.

- إنك تمزح! احتجت بيلي. نحن بالكاد عند 120.

- لكن السرعة محدودة في 90!

- وماذا بعد؟ إنه يعمل جيداً، هذا الشيء، أم لا؟ قالت وهي تشير إلى المضاد للرادار الذي جهز به ميلو السيارة.

تهيأت للكلام محتجاً حينما أنار ضوء أحمر لوحة القيادة. سُمِع صرير مقلق داخل المحرك، تلاه عطب أرغم المركبة على وقف سباقها على بعد بضعة أمتار، هكذا سنحت لي الفرصة لأصب الغضب الذي كان يغلي بداخلي:

- بالتأكيد، كنت أعلم أن فكرة العثور على أرور كانت تافهة! لن نصل أبداً إلى المكسيك: ليس لدينا مال ولا استراتيجية، والآن ليس لدينا حتى سيارة!

- لا عليك، لا تنفعل، لعلنا ننجح في إصلاحها، قالت وهي تفتح الباب.

- إصلاحها؟ لكنها بوغاتي وليست دراجة هوائية...

وبلا انزعاج، رفعت بيلي الغطاء وشرعت تقلب داخله... بدوري لحقت بها على قارعة الطريق وأنا أتابع وصلة عتابي:

- إنها محصنة بالأنظمة الإلكترونية، هذه السيارات. إن الكشف عن أصغر عطب يتطلب اثني عشر مهندساً. لقد طفح بي الكيل: سوف أعود إلى ماليبو راكباً إحدى السيارات.

- على أي حال، إذا كنت ستتظاهر معي بوقوع عطب، فإنك فشلت، صاحت وهي تعيد الغطاء مكانه.

- لماذا تقولين ذلك؟

- لأن العطب قد أصلح.

- هل تهزئين بي؟

أدارت مفتاح التشغيل ثم خرخر المحرك، استعداداً للانطلاق.

- إن ذلك أتفه ما يكون: لقد انقطع أحد الأجهزة الثلاث في نظام التبريد، فانقطع الشاحن التوربيني الرابع أوتوماتيكياً وانطلقت إشارة الأمان الضوئية للنظام الهيدروليكي المركزي.

- بالفعل، إن ذلك أتفه ما يكون، قلت مندهشاً.

وبينما كنا نواصل الطريق، لم أستطع مقاومة الرغبة في سؤالها:

- أين تعلمت ذلك؟

- حسناً، المفروض أنك تعلم ذلك.

فكرت بضع لحظات من أجل استعراض شجرة أنساب شخصياتي وللعثور على الجواب:

-أخواك!

- أي نعم، أجابت وهي تضغط على دواسة السرعة. لقد جعلتَ منهم ميكانكيين، وقد نقلوا لي بعضاً من شغفهم!

*

- إنك تقودين بسرعة مفرطة!

- آه، لا، ها أنت تعود لذلك مجدداً!

عشرون دقيقة بعد ذلك

- والضوء الوامض! إننا نشغل الضوء الوامض قبل التجاوز بجنون!

أخرجت لي لسانها ساخرة مني بخبث.

كنا قد تجاوزنا للتو رانشو سانتافي وكنا نريد الالتحاق بالطريق الوطنية 15. كان الجو حاراً وكان نور جميل لنهاية الظهيرة يلون الأشجار ويقوي لون التلال الأمغر. لم تكن الحدود المكسيكية بعيدة جداً.

- بالمناسبة، قلتُ وأنا أشير إلى مذياع السيارة، ألا تريدين إيقاف هذه الموسيقى المقرفة التي تجلدينني بها منذ ساعات؟

- إن لك لغة مهذبة. ويدرك المرء رجل الآداب الثاوي فيك...

- صراحة، لماذا تستمعين لكل هذه الأشياء: توزيع جديد لتوزيع جديد، كلمات الراب (Rap) الغبية، مغنيات R’n’B المستنسخة...

- ارحمني، أشعر وكأن المتحدث أبي.

- وما هذه القعقعة؟

رفعت عينيها نحو السماء:

- لِيبْلاكْ إيدْ بيسْ، قعقعة!

- هل يحدث أن تنصتي للموسيقى الحقيقية؟

- ماهي «الموسيقى الحقيقية» بالنسبة إليك؟

- جان سباستيان باخ، الرولينغ ستونس، مايلس ديفس، بوب ديلان...

- اجعلها لي في شريط k7 يا جدي، اتفقنا؟ أجابت وهي تقفل الراديو.

وخلال ثلاث دقائق لم تنبس ببنت شفة -وهذا انجاز جدير بكتاب غنيس بالنسبة إليها - قبل أن تستفسر:

- كم تبلغ من العمر؟

- ست وثلاثون سنة، قلت وأنا مقطب الحاجبين.

- تكبرني بعشر سنوات، لاحظَتْ.

- أجل، وبالتالي؟

- بالتالي لا شيء، قالت وهي تصَفِّر.

- إن كنت تودين عزف أسطوانة الهوة بين الأجيال، فإني أوقفك في الحال، يا صغيرتي!

- جدي يناديني «صغيرتي»...

شغلت الراديو بحثاً عن محطة للجاز.

- من الغريب أن يستمع المرء إلى موسيقى تم تأليفها قبل ولادته، أليس كذلك؟

- وعشيقك ذاك، جَاكْ، ذكريني كم يبلغ من العمر؟

- اثنان وأربعون سنة، أقرّت، لكنه متأنق أكثر منك بعض الشيء.

- طبعاً! كل صباح، في الحمام، يظن نفسه سِناتْرا وهو يهمهم My Way أمام المرآة، ممسكاً بمجفف الشعر عوض الميكروفون.

نظرت إلي بعينين مشدوهتين.

- أي نعم، قلت، هذا هو امتياز الكاتب: إني أعلم كل أسراركم، حتى تلك التي لا يمكن البوح بها. إن وضعنا المزاح جانباً، ما الذي تحبينه في هذا الشخص؟

هزت كتفيها:

- إنه يستبطن جلدي. لا يمكن تفسير ذلك.

- ابذلي مجهوداً!

أجابت بصدق:

- منذ النظرة الأولى، حدث شيء ما بيننا: بداهة، انجذاب حيواني. تعرف كلانا إلى نفسه في الآخر. كما لو أننا كنا معاً قبل أن نكون معاً.

تفاهة، نسيج من السخافات كنت أنا المسؤول عنها للأسف.

- لكن هذا الرجل سخر منك: أثناء لقائكما الأول، نزع عن قصد خاتم زواجه وانتظر مرور ستة أشهر كي يعترف لك بأنه كان متزوجاً!

صار وجهها شاحباً عند استحضار هذه الذكرى الأليمة.

- ثم، بيني وبينك، لم يكن جاك ينوي قط الانفصال عن زوجته...

- بالضبط، اعتمد عليك لتغيير ذلك.

- إنه يذيقك مهانة بعد مهانة، وأنتِ بدل أن تبصقي في وجهه، تعبدينه مثل إله!

لم تسع للرد علي وركزت على قيادتها، مما أدى إلى زيادة جديدة في السرعة.

- هل تتذكرين، الشتاء الأخير؟ كان قد وعدك، وأقسم على ذلك: هذه المرة سوف تقضيان ليلة رأس السنة أنتما الاثنان. أعرف أنه كان من المهم بالنسبة إليك أن تستهلي السنة الجديدة رفقته. كنت تحبين هذا الرمز. وهكذا، ولإرضائه، تكفلت بكل شيء. قمت بحجز منزل بَنْغَالُو صغير وجميل في هَاوَايْ وأخذت على عاتقك كل مصاريف السفر. لكن، إليكِ ما حدث: عشية الرحيل، يخبرك بأنه لم يتسن له التخلص من بعض الالتزامات. الأعذار نفسها دائماً: زوجته، أبناؤه... وهل تتذكرين ما وقع بعد ذلك؟

وبينما كنت أنتظر جواباً لم يحن، نظرت إلى عداد السرعة الذي كان يظهر 170 كلم/س.

- إنك تقودين بسرعة مفرطة حقاً...

رفعت يدها من على المقود، وتعبيراً عن عدوانيتها، مدت أصبعها الوسطى اتجاهي في ذلك الوقت بالضبط الذي كان فيه وميض الرادار يحكم قبضته الأشد لذلك اليوم.

سَحَقَتْ دواسة الفرامل، لكن الضرر كان قد وقع.

المسطرة المعروفة: مراقبة عند مدخل بلدة ما، ما لا يقل عن 800 متر من وجود أي مسكن...

صفارات الإنذار والأضواء الدَّوارة.

مختفية خلف أجمة، كانت الفورد كْراوْنْ، سيارة الشَّريف

المحلي قد خرجت للتو من مخبئها. التفتُ كي أرى من خلال النافذة الإشارات المضيئة، زرقاء وحمراء، للسيارة التي كانت تطاردنا.

- لقد كررت عليك ما لا يقل عن عشر مرات بأنك تقودين بسرعة مفرطة!

- ماذا لو توقفتَ عن فظاظتك تلك، كما...

- من السهل جداً أن تحملي الآخرين مسؤولية أخطائك.

- هل تريد أن أفلت منه؟

- كفي عن حماقاتك، وتوقفي على جانب الطريق.

شغلت بيلي الإشارة الضوئية ونفذت ما طلب منها بانزعاج بينما واصلت تأنيبها:

- نحن غارقان في القرف حتى النخاع: لا تملكين رخصة القيادة، تقودين سيارة مسروقة، وبالتأكيد ارتكبت أكبر تجاوز للسرعة في تاريخ ناحية سان دييغو!

- أجل، حسناً، كف عن هذا! لقد مللت دروسك الوعظية! لا غرابة من أن فتاتك قد فرّت منك هاربة!

حدقت فيها بعدوانية:

- لكن... ليس هناك كلمة لتوصيفك! إنك لوحدك... ضربات العهد القديم العشر!

لم أعر اهتماماً لجوابها، لأني كنت منشغلاً بترقب عواقب توقيفنا. كان موظف الشَّريف سيأمر بحجز سيارة البوغاتي، وسيطلب تعزيزات، ويقودنا إلى المخفر ثم يخبر ميلو أنه قد تم العثور على سيارته، وبالتالي قد تتعقد الأمور حينما ينتبه إلى أن بيلي لا تتوفر على بطاقة هوية ولا على رخصة للقيادة. من دون الحديث عن وضعي الاعتباري كواحد من المشاهير الذين يتمتعون بالحرية المشروطة وهذا ما لا يصلح أمورنا.

توقفت سيارة الدورية بضعة أمتار خلفنا. أوقفت بيلي المحرك وكانت تتململ في مقعدها مثل صبية.

- لا داعي للتهريج. الزمي مكانك وضعي يديك على المقود.

بسذاجة مفتعلة، فكت زراً إضافياً بقميصها كي تكشف صدرها أكثر، وهذا ما أخرجني عن طوعي:

- تعتقدين أن ذلك سوف يدغدغ مشاعره! إنك لا تدركين ما تفعلين! لقد ارتكبت تجاوزاً عظيماً للسرعة: 170 كلم/س في منطقة حددت سرعتها في 90. إن ما ينتظرك هو المثول أمام المحكمة وعدة أسابيع من السجن!

كان شحوبها بادياً للعين، التفتت كي ترقب بقلق توالي العمليات.

علاوة على الأضواء الدوارة المنيرة دائما، ورغم نور النهار، سلّط ضابط الشرطة نحونا مصباحاً ضوئياً قوياً.

- ماذا يفعل؟ سألَتْ متحيرة.

- لقد أدخل رقم تسجيل السيارة في قاعدة المعطيات وهو ينتظر نتيجة بحثه.

- لم نوشك على الوصول إلى المكسيك، أليس كذلك؟

- يجوز لك قول ذلك.

انتظرت مرور بضع ثوان، وكمن يصب الزيت على النار قلت:

- وأنت، إنك لا توشكين على ملاقاة جَاكْ الذي يخصك.

تلا ذلك صمت القبور امتد لدقيقة كاملة قبل أن يتفضل الشرطي بمغادرة سيارته البِرْلِينِيَّة.

في المرآة العاكسة، رأيته يتقدم نحونا مثل وحش مفترس هادئ، يطارد فريسة يعلم أنها سهلة المنال، وشعرت بداخلي بانهمار موجة من السأم.

ها هي نهاية المغامرة. . .

صار بطني أجوفَ. فراغ مباغت وملتهم، وكأنه احتياج. إنه أمر عادي بعد كل شيء: ألم أعش للتو اليوم الأشد غرابة والأشد جنوناً في حياتي؟ في أقل من أربع وعشرين ساعة، خسرت ثروتي كلها، أكثر شخصياتي إزعاجاً حطت وهي عارية على صالوني، اخترقت نافذة كي أتفادى حجزي بالمستشفى، وسقطت من علو طابقين فوق سيارة دُودْج، وبِعْتُ بألف دولار، وأنا فخور بما فعلت، ساعة بقيمة أربعين ألف دولار، ووقعت عقداً غريباً على مفرش مائدة مطعم، بعد أن تلقيت صفعة كادت تخلع رأسي.

لكنني كنت في حال أحسن، وأشعر بأني منتعش وحي من جديد.

نظرت إلى بيلي وكأننا سوف لن نلتقي مجدداً، ولن نستطيع الحديث إلى بعضنا وجهاً لوجه. كما لو أن السحر سيتبخر. وللمرة الأولى رأيت الندم والاستغاثة في عينيها.

- أنا آسفة على الصفعة، قالت معتذرة. لقد بالغت في الأمر.

- إحم. . .

- وفي ما يخص الساعة، حقيقة، لم يكن بإمكانك معرفة ذلك.

- موافق، أعذار مقبولة.

- وبالنسبة إلى أرور، صحيح أنه لم يكن علي قول. . .

- حسناً، لا عليك! لا داعي للمبالغة مع ذلك!

دار الشرطي حول السيارة ببطء كما لو كان يود شراءها، ثم تحقق من رقم التسجيل بعناية، والظاهر أنه كان راضياً على إطالة أمد استمتاعه.

- إننا لم نقم بكل ذلك من أجل لا شيء! قلت وأنا أفكر جهراً.

أخذ يتملكني الإحساس بأن شخصيات الرواية لم تكن منذورة للعيش في الحياة الواقعية. كنت أعرف بيلي، وعيوبها، قلقها وسلامة طويتها و هشاشتها. إلى حد ما، كنت أشعر أني مسئول عما يقع لها ولم أكن أرغب في أن يفسدها السجن أكثر من ذلك. ومن جديد كنا نواجه الصعاب ذاتها. ومن جديد كنا معاً.

طرق الضابط زجاج النافذة كي يطلب منا إنزاله.

نفذت بيلي المطلوب عن طواعية.

إنه شبيه «رعاة البقر»: الشخص الرجولي على شاكلة دْجِيْف بْريدْجْ، وجه مُلوَّح، نظارات شمسية من طراز الطيّار، صدر مجعد الشعر تتدلى عليه سلسلة ذهبية ثقيلة الوزن.

وهو مسرور لكونه اصطاد امرأة شابة جميلة في شباكه، تجاهلني بعجرفة:

- آنستي.

- سيدي الضابط.

-هل تعلمين السرعة التي كنت تقودين بها؟

- لدي فكرة بسيطة عن ذلك: 170 بالتمام، أليس كذلك؟

-هل لديك مبرر خاص للقيادة بتلك السرعة؟

- كنت على عجلة من أمري.

- إنها لوحش كاسر هذه السيارة.

- أجل، ليس كمثل ركام القاذورات ذاك، قالت وهي تشير إلى سيارة الشرطة. قد لا تصل إلى أكثر من 120 أو 130.

أربد وجه الشرطي وفهم أن من مصلحته اتباع المسطرة حرفياً.

- رخصة القيادة ووثائق السيارة.

- أتمنى لك الكثير من المتعة، شرعت تقول بهدوء وهي تشغل محركها.

- رفع يده إلى مستوى حزامه:

- المرجو أن توقفي فوراً هذا...

- لأنك بصندوقك المتهرئ ذاك، لن توشك على اللحاق بنا...

17

بيلي وكلايد

يوماً ما، سوف نسقط معاً
أنا لا أبالي بذلك، بل لأجل بُونِي أرتعد
لا يهم إن سلخوا جلدي
أما أنا بُونِي، فلأجل كلايد بارو أرتعد.

سيرج غانزبورغ

- يجب أن نتخلى عن السيارة!

كانت البوغاتي تسير بسرعة هائلة على طريق ضيقة صغيرة تحفها أشجار الكالبتوس. للوهلة الأولى، تخلى الشريف عن مطاردتنا، لكن من المؤكد أنه أعلن حالة الاستنفار. ولسوء الحظ، فإن وجود معسكر للبحرية الأمريكية على بعد بضعة كيلومترات كان يجعل من المكان منطقة فائقة الحماية. باختصار، كنا في وضعية حرجة جداً.

فجأة، صوت مكتوم قادم من السماء زاد من حدّة مخاوفنا.

- هل هذا من أجلنا؟ قالت بيلي متحيّرة.

خفضت زجاجة النافذة، وبإمالة رأسي، شاهدت مروحية الشرطة تحوم فوق الغابة.

- أخشى أن الأمر كذلك.

تجاوز تاريخي للسرعة، سب قوات الأمن، جنحة الهرب: إذا قرر مكتب الشَّريف استعمال الإمكانيات الضخمة، فإننا نجازف بالكثير.

انحشرت بيلي في أول مسلك غابوي وأدخلت البوغاتي أبعد ما يكون لإخفائها.

- لا تبعد الحدود إلا بحوالي أربعين كيلومتراً، قلتُ. سنحاول العثور على سيارة أخرى بِسَانْ دْييغو.

فتحتِ الصندوق الذي كان يطفح بالأمتعة.

- هذه لك، لقد حملتها بعض الحوائج، قالت وهي ترمي لي بحقيبة سامسونايت قديمة ذات غطاء صلب والتي كادت تسقطني أرضاً.

أما هي، المرغمة على القيام باختيار، فقد رأيتها مترددة أمام كومة الحقائب المليئة بالملابس والأحذية التي اختلستها من خزانة أرور.

- حسناً، سوف لن نذهب إلى الحفلات الراقصة كل مساء، قلت كي أستعجلها.

أمسكت جراباً كبيراً من قماش المونوغرام وحقيبة من نوع beauty case فضية. وبينما أنا أبتعد، أمسكتني من ذراعي:

- انتظر، هناك هدية من أجلك على المقعد الخلفي.

رفعت حاجبي، وأنا مرتاب من مطب جديد، لكنني رغم ذلك ألقيت نظرة سريعة كي أكتشف تحت منشفة الشاطئ... لوحة شاغال!

- قلت مع نفسي إنك متعلق بها لا محالة.

نظرت إلى بيلي بامتنان وقد أوشكت على تقبيلها.

ملتصقان فوق المقعد المنجّد، كان العاشقان يعطيان الانطباع بأنهما متعانقان بقوة، مثل طالِبَيْن أثناء أول موعد لهما بسينما مكشوفة على السيارات.

وكما هو الحال دائماً، كان لرؤية اللوحة أثر طيب عليّ، مانحة إياي شيئاً من السكينة وانقباضاً في القلب. كان العاشقان هناك، خالدان، منغرسان الواحد في الآخر، وكان لقوة رابطتهما مفعول البلسم المداوي.

- إنها أول مرة أراك فيها تبتسم، قالت منبهة إياي.

حملتها تحت ذراعي وهربنا من خلال الأشجار.

*

محملان مثل بَغْلَيْن، نتصبب عرقاً ونلهث- وأخيراً، خاصة أنا- نزلنا منحدراً تلو منحدر آملين الإفلات من محيط المروحية. الظاهر أنها لم تحدد مكاننا، لكن وبوتيرة منتظمة كنا نسمع طنينها المحلق فوقنا كتهديد.

- لم أعد أقوى على ذلك، قلت وأنا أخرج لساني. ماذا وضعت في هذه الحقيبة؟ أشعر وكأني أحمل خزنة حديد!

- ليست الرياضة من اهتماماتك هي الأخرى، لاحظت وهي تلتفت نحوي.

- في الآونة الأخيرة، ربما كنت ميالاً إلى التقوقع، قلت معترفاً، لكن لو كنتِ قد قفزت من الطابق الثاني مثلي، ما كنتِ لتتحاذقي عليّ.

حافية القدمين، تحمل خُفَّيْها بيدها، كانت بيلي تندس بسهولة بين فروع الأشجار والأدغال.

نزلنا آخر منحدر حاد قادنا إلى غاية طريق مُعَبَّدة. لم تكن طريقاً

وطنية، لكنها على أي حال واسعة بما فيه الكفاية للسماح بالمرور في الاتجاهين.

- أي وجهة في رأيك؟ سألتني.

أرخيت حقيبتي بارتياح ووضعت كلتا يدي على ركبتَيْ كي أستعيد أنفاسي:

- لا أدري. لم يكتب على جبيني خرائط. غوغل (google. maps).

- لعلنا نطلب توصيلة مجانية، اقترحتْ متجاهلة ملاحظتي.

- محمّلان هكذا، لن يوصلنا أحد.

- لن يوصلك أحد، قالت مصححة. أما أنا...

جلست القرفصاء للتنقيب في جرابها وأخرجت منه زياً جديداً. ومن دون افتعال، فكت أزرار الجينز واستبدلته بسروال قصير أبيض وعوضت سترتها بصدرية بَالْمَان صغيرة ذات لون أزرق شاحب، عريضة ومربعة عند المنكبين.

- في أقل من عشر دقائق سنكون داخل سيارة، أكدت وهي تعدل نظاراتها الشمسية وتتخذ مشية مترنحة.

ومن جديد، صعقت بتلك الثَنَوِيَّة التي تستضمرها بداخلها والتي تجعلها تنتقل في طرفة عين من امرأة شابة لعوب وساذجة إلى غاوية قاتلة مستفزة ومتغطرسة.

- «ملكة جمال التخييم والأسفار» سَطَتْ على متاجر روديو درايف، ألقيت نحوها وأنا أتجاوزها.

- «ملكة جمال التخييم والأسفار» لا تعبأ بك.

*

مرت بضع دقائق. اجتازتنا قرابة عشرين سيارة فحسب. لم

تتوقف أي منها. عبرنا أول لوحة تشوير تدل على القرب من سان ديغيتو بارك، ثم لوحة ثانية عند المفترق المؤدي للطريق الوطنية 5. كنا على الطريق الصحيح ما لم نكن في الاتجاه الصحيح.

- يجب أن نعبر الطريق ونطلب توصيلة في الاتجاه الآخر، قالت.

- لا أريد إغضابك ولكن يبدو أن إغراءك بلغ حدوده القصوى، أليس كذلك؟

- في أقل من خمس دقائق، ستستريح مؤخرتك على مقعد من الجلد، أتراهنني على ذلك؟

- على كل ما تريدين.

- كم تبقى لديك من المال؟

- أكثر من 700 دولار بقليل.

- خمس دقائق، كررَتْ. هل تقوم بالعد؟ آه، الحقيقة أنك فقدت ساعتك اليدوية...

- وأنا، ما الذي ستعطينني إياه إن ربحتُ؟

تجنبت السؤال، وصارت فجأة جدِّيَة ومؤمنة بالقدر:

- طوم، يجب أن نبيع اللوحة...

- هذا غير وارد بتاتاً!

- في هذه الحالة، كيف تود شراء سيارة وأداء مصاريف إيوائنا؟

- لكننا نوجد في الخلاء! إن لوحة بهذه القيمة يتفاوض بشأنها في قاعة للمزاد، وليس في أول محطة خدمات نصادفها!

عقدت حاجبيها وفكرت مدة دقيقة قبل أن تقترح:

- حسناً، ربما لا نبيعها، ولكن على الأقل نرهنها.

- نرهنها؟ إنها تحفة فنان وليست خاتم جَدَّتي!

هزت كتفيها في الوقت الذي كانت تزحف فيه سيارة شحن صغيرة قديمة صدئة اللون.

تجاوزت بما يقارب عشرة أمتار قبل أن تعود إلى الخلف.

- نتقاسم المصاريف، قالت وهي تبتسم.

بداخل السيارة البالية، اقترح علينا مكسيكيان- بستانيان يعملان نهاراً بالمتنزه العام ويعودان كل مساء إلى بلاياس دي روزاريتو- نقلنا إلى سان دييغو. الأكبر سناً كانت له فحولة بِنِيسْيو دِيل طُورُو أضيفت إليه ثلاثون عاماً وثلاثون كيلوغراماً، أما الأقل سناً، فكان له اسم عذب، إستيبان إي...

- كأنه البستاني المثير في سلسلة! Desperate Housewives

قالت بيلي مبتهجة هي التي من الظاهر أنها وجدت أنه مناسب جداً لذوقها.

- Senora, usted puede usar el asiento, pero el señor viajara en la cajuela(*).

- ماذا قال، عنده؟ سألت وأنا أستشعر خبراً سيئاً.

- قال إنه بإمكاني الجلوس في المقعد الأمامي، لكن ينبغي عليك أن تكتفي بالصندوق... أجابت وهي مسرورة بكونها عرضتني لذلك المطب.

- لكن وعدك تمثل في مقعد من الجلد! قلت محتجاً وأنا أتسلق إلى الخلف وأستقر وسط المعدات وأكياس العشب اليابس.

*

(*) سيدتي، يمكنك استعمال المقعد، أما السيد فليسافر في الصندوق الخلفي.

I've got a Black Magic Woman[*]

كان الصوت الندي والمشبع لقيثارة كارلوس سانتانا ينبعث من النافذة المفتوحة لسيارة الشحن الصغيرة. وكانت هذه عبارة عن أرجوحة: شيفروليه عتيقة تعود لسنوات الخمسينيات تمت إعادة طلائها عشرات المرات ولا ريب في أن قياس الكيلومترات فيها قد قام سلفاً بدورة كاملة للعداد.

جالس على كومة قش، مسحتُ الغبار الذي تراكم فوق اللوحة وتوجهت بالكلام مباشرة إلى العاشقين الزرقاوين.

- أنصتا إلي، أنا آسف، لكن يجب أن ننفصل عن بعضنا مؤقتاً.

أمعنتُ النظر في ما قالته لي بيلي وخطرت لي فكرة إذاك. السنة الماضية، كانت مجلة Vanity Fair قد طلبت مني كتابة قصة لعددها الموافق لأعياد الميلاد. كان المبدأ يتلخص في الرجوع إلى أحد كلاسيكيات الأدب- وقد عُدَّ الأمر هرطقة في نظر بعض- وواخترتُ تقديم صيغة حديثة لرواية بلزاك المفضلة عندي. في السطور الأولى، نتابع مسار وريثة شابة والتي بعد تبديد كل ثروتها لجأت إلى مُرَابٍ عثرت في متجره على «جلد مسحور» له قوة تلبية رغبات مالِكِه. ينبغي الإقرار بذلك، وإن كان القراء قد استحسنوه، لم يكن ذلك النص هو أحسن ما كتبت، لكن الجهد التوثيقي الذي تطلبه سمح لي بلقاء شخصية مرموقة: يوشيدا ميتسوكو المُرَابِي الأكثر نفوذاً في كاليفورنيا.

وكما هو الشأن بالنسبة إلى عيادة صوفيا شنابل، فإن متجر ميتسوكو الصغير كان يمثل أحد أحسن العناوين التي يتناقلها أجمل الناس للمثلث الذهبي في لوس أنجلس في ما بينهم. في هوليود كما

(*) لقد ظفرت بامرأة سمراء فاتنة. - أغنية كارلوس سانتانا.

في أماكن أخرى، كانت الحاجة إلى السيولة تدفع أحياناً حتى الأكثر ثراء إلى التخلص في استعجال من بعض مقتنياتهم الجنونية، ومن بين قرابة العشرين مرابياً في بفيرلي هيلس كان يوشيدا ميتسوكو المفضل لدى الزبائن الأثرياء. وبفضل دعم Vanity Fair تمكنت من لقائه بمتجره قرب روديو درايف. كان يلقب نفسه بـ«مرابي النجوم» ولم يتردد في تزيين جدران مكتبه بصور يظهر فيها إلى جانب مشاهير هم أقرب إلى الحرج منه إلى الاعتداد بالإمساك بهم بجرم سوء الحظ المشهود.

وهو بمثابة مغارة علي بابا حقيقية، كان مستودعه يطفح بكنوز مختلفة الأشكال. أتذكر أني شاهدت فيه بيانو كبير لعازفة جاز، وعصا بيسبول شبه مقدسة لعميد فريق الدودجيرز، ومسدس ماغنوم لدوم بيرينيون 1996، ولوحة لماغريت، وسيارة الرولس رويس المصممة خصيصاً لواحد من مغنيي الراب، ودراجة مغني من نوع هارلي، وصناديق عديدة من نبيذ موتون- روتشيلد 1945، ورغم المنع الذي تفرضه أكاديمية الأوسكار، هناك تمثال مذهب صغير لفنان أسطوري لن أذكر اسمه.

راجعت هاتفي المحمول. لم يكن بإمكاني إجراء مكالمات، لكني كنت أستطيع الوصول إلى سِجل عناويني وعثرت بسهولة على رقم ميتسوكو.

انحنيت إلى الأمام وصرخت ببضع كلمات لبيلي.

- هلا سألت رفيقك الجديد السماح لنا باستخدام هاتفه؟

فاوضت «البستاني» لبرهة ثم:

- إسْتِبان موافق، لكن سيكلف ذلك 50 دولاراً.

ومن دون إهدار للوقت في المساومة، ناولته ورقة نقدية بدل هاتف نوكيا قديم يعود إلى سنة 1990. نظرت إلى المحمول بشيء من

الحنين: رديء، ثقيل الوزن، باهت، بلا جهاز تصوير أو wifi، لكنه يعمل على الأقل.

رد علي ميتسوكو بعد الرنة الأولى.

- طوم بويد يتحدث.

- ماذا يمكنني أن أصنع من أجلك يا صديقي؟

من دون أن أعرف السبب، كنت أستهويه. رغم ذلك وفي نص لي، رسمت له بورتريهاً بغيضاً، لكن بدل أن يغضبه، فإن هذه الإضاءة «الفنية» قد أسبغت عليه هالة ما، وقد شكرني على ذلك بأن بعث لي بالطبعة الأصلية لكتاب *In Cold Blood* عليه توقيع بخط يد ترومان كابوت.

استفسرت عن أخباره بتأدب، وأقر لي بأنه نظراً إلى الركود وانهيار البورصة، لم يسبق لتجارته أن عرفت ازدهاراً مماثلاً: بل افتتح متجراً ثانياً في سان فرانسيسكو ويفكر في افتتاح ثالث في سانتا باربارا.

- إني أشهد المجيء المفاجئ لأطباء، وأطباء أسنان، ومحامين يحملون إلي سياراتهم لوكسوس، ومجموعاتهم من عصي الغولف، أو فرو المِنْك الخاص بزوجاتهم لعجزهم عن تسديد فواتيرهم.. أكيد أنك طلبتني لسبب وجيه. لديك شيء تقترحه علي، أليس كذلك؟

حدثته عن شاغال الذي لي، لكنه لم «يعرني» إلا اهتمام مجاملة:

- إن تجارة الفن لم تتجاوز أزمتها، مُرَّ علي غداً، وسوف أرى ما يسعني فعله.

شرحت له بأنه لا يمكنني الانتظار إلى الغد، وبأنني كنت في سان دييغو وأحتاج إلى السيولة في أقل من ساعتين.

- أفترض أنه قد تم تعليق خدمة الهاتف لديك، خَمَّنَ. لم

أتعرف إلى رقمك، يا طوم. وبالنظر إلى الألسنة الساقطة التي تلوك سيرتك في هذه المدينة، كل شيء يُعْرَفُ بسرعة هنا...

- وماذا يُحْكَى عني؟

- بأنك أفلست وأنك تقضي أوقاتك في ابتلاع العقاقير أكثر منها في كتابة روايتك الجديدة.

كان صمتي بمقدار كل الأجوبة. على الطرف الآخر من الخط، سمعته مع ذلك يداعب لوحة مفاتيح حاسوبه المحمول وخمنت أنه كان يستخبر عن قيمة أسهم شاغال والمبالغ التي وصلت إليها لوحاته أثناء المزادات الأخيرة.

- في ما يخص الهاتف، يمكنني استعادة خدمة خطك في الساعة التالية، اقترح علي بعفوية. أنت زبون لشركة TTA، أليس كذلك؟ سيكلفك ذلك 2000 دولار.

وقبل أن أعطيه موافقتي، سمعت صوت رسالة إلكترونية تنطلق من صندوقه. إذا كانت صوفيا تتحكم في الناس عبر أسرارهم، فإن ميتسوكو يفعل ذلك من خلال محفظة نقود كل منهم.

- أما عن اللوحة، فأقترح عليك 30000 دولار.

- آمل أنك تمزح. إنها تساوي أضعاف ذلك عشرين مرة!

- في رأيي، ربما سوف تساوي أضعافها أربعين مرة، عند Sotheby's في نيويورك من هنا عامين أو ثلاثة أعوام، حينما تعود الروس الجدد الرغبة في استعمال بطاقتهم السوداء. لكن إن أردت إمتاع ناظريك بلون المال منذ هذا المساء وأن تخصم من ذلك العمولة الباهظة الذي يجب علي تسديدها لزميلتي في سان دييغو، فلن يكون بمقدوري أن أدفع لك سوى 28000 دولار.

- لكنك قلت للتو 30000!

- ناقص الـ 2000 دولار لاستعادة خطك الهاتفي. عدا أنه بشرط أن تتبع بدقة ما سوف أدلك عليه.

هل كان لدي الاختيار حقاً؟ طمأنت نفسي محدثاً إياها بأن لدي أربعة أشهر لتسديد مبلغ الدين- مع زيادة 5% من الفوائد- واستعادة ملكية لوحتي. لم أكن متيقناً من الوصول إلى ذلك، لكنها مجازفة لا مناص منها.

سوف أبعث لك بالخطوة التي ينبغي اتباعها على هاتفك، قال ميتسوكو منهياً كلامه. أوه، قل لصديقك ميلو بأنه لم يتبق له سوى بضعة أيام للحضور من أجل استرجاع آلة الساكسفون التي له.

أنهيت المكالمة وأعدت لإستيبان هاتفه التحفة في الوقت الذي كنا ندخل فيه بحق إلى المدينة. كانت الشمس قد بدأت تغيب في الأفق. وكانت سان دييغو جميلة جداً، تسبح في نور وردي ومائل إلى البرتقالي يذكر بالقرب من المكسيك. انتهزت بيلي فرصة اشتعال شارة الضوء الأحمر لمغادرة مقعدها واللحاق بي في الخلف.

- الجو بارد جداً! قالت وهي تفرك ساقيها.

- فعلاً، بذلك اللباس. . .

لوَّحَتْ في اتجاهي بصفحة من مذكرة:

- لقد أعطياني عنوان واحد من أصدقائهم صاحب مرأب، والذي قد يجد لنا سيارة. وأنت، هل تحرز تقدماً؟

نظرت إلى شاشة محمولي. وكما بفعل ساحر، كان بمقدوري إجراء مكالمات من جديد، إضافة إلى رسالة قصيرة من ميتسوكو أمرتني باستعمال جهاز التصوير المدمج في هاتفي.

بمساعدة من بيلي، صوّرت اللوحة من كل ثناياها، ولم أنس القيام بصور مقربة للشهادة المثبتة لأصالة اللوحة الملصقة على

ظهرها. وبفضل تطبيق قمت بتحميله في بضع ثوان، تم تأريخ وتشفير وتحديد مكان كل صورة آلياً قبل إرسالها عبر محرك آمن. وحسب ميتسوكو، فإن هذا الوَسْم يعطي للصور قيمة الدليل أمام المحاكم ويسمح بمعارضة أطراف أخرى أثناء أي محاكمة محتملة.

لم تتطلب منا هذه العملية أكثر من عشر دقائق وعندما أوصلتنا الشاحنة الصغيرة إلى المحطة المركزية، كنا قد توصلنا برسالة تأكيد من المُرَابِي ضمنها عنوان زميلته حيث نودع اللوحة مقابل الـ 28000 دولار.

ساعدت بيلي في النزول على الرصيف واستعادة أمتعتنا قبل توجيه الشكر للبستانيين عن مساعدتهما لنا.

- Si vuelves por aqui, me IIamas, de acuerdo?(*)

قال إيستبان وهو يحضن المرأة الشابة بإفراط بعض الشيء.

- أجل، أجل، قالت وهي تمرر يدها على شعرها، في ما يشبه حركة غنج أخيرة.

- ماذا قال لك؟

- لا شيء. إنه يتمنى لنا سفراً مريحاً فحسب.

- هو ذاك، اسخري مني، قلت وأنا آخذ مكاني في الصف للوصول إلى سيارة تاكسي.

وجهت لي ابتسامة متواطئة دفعتني إلى أن أعدها قائلاً:

- على أي حال، هذا المساء، إن تمت الأمور كما هو مأمول، فبرفقتي سوف تتناولين قوسديلاس وتشيلي حار باللحم!

كان ذكر الطعام كافياً كي تشتغل طاحونة الكلام لديها، لكن ما

(*) إن عدت إلى هنا، اتصلي بي هاتفياً، اتفقنا؟

كان يزعجني ساعات من ذي قبل أصبح الآن يرن في أذني مثل موسيقى جذلة وودية:

- والأنتشيلادا، إنك تعرف الأنتشيلادا! قالت متعجبة. أنا، أعشق ذلك، خاصة بلحم الفراخ عندما تكون مبروشة جيداً. لكن، تعلم أنه يمكن أيضاً إعدادها بلحم الخنزير والجمبري، هه! أما الناتشوس، مقرف، لا قيمة له عندي. **والدوديات؟ ألم تتذوقها؟ حسناً، علينا إذاً أن نجد منها طبقاً. تصور إنها يرقات النمل! إنها مبروشة بشكل فائق جداً إلى حد أنه يطلق عليها كافيار الحشرات، غريب أليس كذلك؟ لقد سبق لي أكله. كان ذلك أثناء سفر مع صديقاتي إلى....**

18

موتيل Casa del Sol

الجحيم يكمن بأكمله في هذه الكلمة: عزلة.

فكتور هوغو

- أكيد أنه بعد البوغاتي، تبدو لنا هذه السيارة صغيرة...
لاحظت بيلي بصوت تعلوه نبرة أسى.

الضاحية الجنوبية لسان دييغو- السابعة مساء
داخل حظيرة متهالكة ومظلمة بمرآب بائس.

استقرت بالمقعد الأماني للسيارة، من نوع فياط 500 تعود إلى سنوات 1960، بلا غطاء عجلات مزين أو ملون، والتي كان سانطوس، صاحب المرآب الذي نصحنا به، يحاول بيعها لنا وكأنها سيارة بْرِيكْ عائلية:

- طبعاً، تنقصها الرفاهية، لكن صدقوني: إنها صلبة!
- ومع ذلك، إن إعادة طلائها باللون الوردي لهي فكرة غريبة!
- لقد كانت السيارة بحوزة ابنتي، شرح لي «الشيكانو».
- آخ! أجابت بيلي وهي تصدم رأسها. ألا تريد بالأحرى قول إنها سيارة بارْبِي ابنتك؟

وبدوري أدخلت رأسي داخل السيارة:

- إن المقعد الخلفي مقتلع، قلت ملاحظاً.

- هذا سيوفر لكما مجالاً أرحب للأمتعة!

وفي سعي مني لجعله يعتقد بأني مُلِمٌّ شيئاً ما بالميدان، تفحصت الأضواء والشارات الجانبية وحالة المصابيح.

- هل أنت متأكد من أنها تحترم المعايير؟

- على كل حال، تحترم المعايير المكسيكية.

نظرت إلى الساعة في هاتفي المحمول. كنا قد حصلنا على الـ28000 دولار، لكننا أضعنا الكثير من الوقت في إيداع اللوحة والرحلة عبر التاكسي للوصول إلى المرأب. كانت تلك السيارة بالكاد صالحة للكسر، وحيث إننا لا نتوفر على رخصة قانونية، لم يكن بمقدورنا كراء أو شراء سيارة عبر المساطر القانونية. كما أنها تمتاز أيضاً بترقيمها في المكسيك، وهذا ما قد يسهل عبورنا للحدود.

في نهاية المطاف، قبل سانتوس ببيعها لنا مقابل 12000 دولار، إلا أننا تعاركنا مدة تفوق ربع ساعة من أجل إدخال حقيبتي الضخمة وأمتعة السيدة في مثل ذلك المكان الضيق.

- أليست هي السيارة التي كان يطلق عليها «حُقّ الياغورت»؟ سألتُ مستعملاً كل قواي للنجاح في إغلاق الصندوق الخلفي.

- El bote yogur؟ قال مترجماً وهو يتظاهر بأنه لم يفهم الصلة بين مستحضر الحليب والخردة التي كان مبتهجاً للتخلص منها ببيعها لنا.

هذه المرة كنت أنا من جلس خلف المقود وبشيء من الرهبة انطلقنا في الطريق. كان الوقت ليلاً. لم نكن بواحد من الأماكن الراقية في سان دييغو وقد جهدت بعض الشيء كي أحدد مكاني في

غمرة تتابع مواقف السيارات والمناطق التجارية قبل الولوج أخيراً إلى الطريق 805 التي تقود إلى المعبر الحدودي.

كانت العجلات تئن وشخير محرك الفياط قد حل مكان هدير البوغاتي الصاخب.

- انتقل إذن إلى السرعة الثانية، اقترحت علي بيلي.

- أذكرك بأني وصلت مسبقاً إلى السرعة الرابعة!

نظرت إلى مؤشر السرعة الذي كان يدل بالكاد على 70كلم/ س.

- إنك في السرعة القصوى، نبهته وهي متحيرة.

- كما ترين، هكذا، نحن متيقنان من عدم ارتكاب أي تجاوز للسرعة.

بين يسر وعسر قادتنا سيارتنا البالية إلى غاية المعبر الحدودي الفسيح الذي يسمح بالمرور إلى تيخوانا. وكما في غالب الأحيان، كان المكان يعج بالحركة والنشاط. وعند ولوجي طابور Mexico Only، أوجزت التعليمات الأخيرة لمرافقتي في السفر:

- عادة، في هذا الاتجاه، هناك خطر ضئيل لأن نخضع للمراقبة، لكن إن حدث ذلك، فهو السجن، لك ولي، وهذه المرة، من المستحيل المرور بالقوة! إذاً سوف نتفادى ارتكاب الحماقات، اتفقنا؟

- كلي آذان مصغية، قالت وهي تغمز بعينيها على شاكلة بيتي بوب Betty Boop.

- الأمر في غاية البساطة: لا تفتحي فمك ولا يطرف لك رمش. نحن عاملان مكسيكيان مستقيمان يعودان إلى ديارهما. هل فهمت؟

- vale, senor[*]

- إن أمكنك الكف عن الاستهزاء مني، فذلك سيريحني جداً.

- Muy bien, señor[**]

وهذه المرة، ابتسم لنا الحظ: في أقل من خمس دقائق، كنا على الجانب الآخر، من دون مراقبة ولا عراقيل.

وكعهدنا إلى حد الآن، واصلنا السير بموازاة الساحل. ولحسن الحظ، كان صاحب المرأب قد ركب مسجل أشرطة-راديو قديم. لكن للأسف الشريط الوحيد في العلبة كان عبارة عن ألبوم لإنريكي إغليسياس، الظاهر أنه أدخل البهجة على بيلي، لكنه صم آذاني حتى الوصول إلى إينسنادا.

هناك، ضربت عاصفة رعدية من دون سابق إنذار وهطلت علينا أمطار طوفانية. كان واقي الزجاج الأمامي بالغ الصغر وكانت ماسحات الزجاج بدائية جداً بحيث عجزت عن صد حاجز المطر السميك، إلى حد كنت معه مرغماً على إخراج يدي مراراً لفك عطلها.

- نتوقف أنى أمكننا ذلك؟

- هذا ما كنت سأقترحه عليك!

بدا لنا على الطريق أول موتيل، لكنه كان محجوزاً عن آخره. لم تكن الرؤية تسمح بأكثر من ثلاثة أمتار. مكره على السير بسرعة 20 كلم في الساعة، كنت أجتذب عتاب السائقين الذين كانوا بخلفي والذين كانوا يرافقوني مدة ربع ساعة كاملة بزعيق أبواقهم المنبهة لنفاذ صبرهم وغضبهم.

وأخيراً وجدنا ملجأ في سان تِيلمو في المأسوف على تسميته

(*) موافقة، سيدي.

(**) وهو كذلك، سيدي.

Casa Del Sol Motel والذي كانت علامته الضوئية تومض معلنة عن غرف شاغرة محفزة. وبالنظر إلى حالة السيارات المركونة في الموقف، خمنت أن المكان لا يتمتع حتى بالهدوء وبالراحة الموجودة في أماكن المبيت والإفطار، لكن بعد كل شيء، لم نكن نقضي شهر العسل.

- لن نحجز سوى غرفة واحدة، أليس كذلك؟ قالت لتغيظني وهي تدفع باب الاستقبال.

- غرفة ذات سريرين.

- إن كنت تعتقد أني سوف أرتمي عليك. . .

- لا أخشى أي شيء، لستُ بستانياً، كما لست من النوع المحبب لديك.

حيّانا عامل الاستقبال مدمدماً. طلبت بيلي زيارة الغرفة لكنني أمسكت بالمفتاح وسددت الأجر مقدَّماً.

- على أي حال، لا نستطيع الذهاب إلى مكان آخر: المطر غزير وأنا مرهق جداً.

كانت البناية ذات الطابق الواحد تتخذ شكل حرف U محورها فناء مغروس بأشجار يابسة كانت ظلالها النحيلة تنحني بفعل الرياح.

ومن دون أي مفاجئة، كانت الغرفة تتميز بالصرامة، ضعيفة الإضاءة، تفوح منها روائح مريبة ومزينة بأثاث لعله كان رائجاً إبان عهد إيزنهاور. كان هناك تلفاز ضخم، مرفوع على أربع عجلات صغيرة ومجهز بمكبر صوت أسفل الشاشة. هو واحد من النماذج التي يسعى وراءها هواة تفريغ العِلّيات.

- هل تدري، واصلت بيلي، ربما على هذه الشاشة تابع أشخاص خطوات الإنسان الأولى على سطح القمر أو تلقوا خبر اغتيال كينيدي!

مدفوعاً بالفضول، حاولت تشغيل الجهاز: سمعت وشوشة مبهمة، لكني لم أستطع التقاط أي صورة.

- على كل حال، لن نرى عليها المباراة النهائية المقبلة للسُوبِر بُول...

في غرفة الحمام، كانت مقصورة الدش فسيحة، لكن الصنبور كانت تعلوه آثار الصدأ.

- هل تعرف الحيلة، قالت لي بيلي مبتسمة. إننا بإلقاء نظرة خلف منضدة السرير نعرف إن تم تنظيف المكان من الغبار!

قولاً وفعلاً، نقلت المتاع الصغير من مكانه وأطلقت صرخة:

- قذارة! قالت وهي تقذف بخُفِّها لسحق صرصور.

ثم التفتت نحوي، باحثة في عيني عن شيء من التشجيع:

- هل نتناول عشاءنا المكسيكي؟

لكن حماسي كان قد فَتَر:

- اسمعي، لا وجود لمطعم هنا، وهذا المطر ثجاج، وأنا منهك ولست متحمساً لقيادة السيارة مجدداً تحت هذا الوابل.

- أجل، إنك مثل الآخرين: قوي في تقديم الوعود...

- أنا ذاهب للنوم، موافقة!

- تمهل! سوف نشرب كأساً، مهما يكن. لقد شاهدنا حانة صغيرة عند مقدمنا، على بعد أقل من خمسمائة متر...

خلعت نعليّ وتمددت على واحد من السريرين:

- هيا اذهبي من دوني. إن الوقت متأخر جداً ولدينا طريق طويلة غداً. كما إني لا أحب الحانات. وفي كل الأحوال، ليست الحانات الموجودة على أطراف الطريق.

- جيد جداً، سوف أذهب من دونك.

مرت إلى غرفة الحمام وحملت معها بعض الأغراض وشاهدتها تخرج مجدداً بعد ذلك مرتدية جينز وسترة جلدية مزمومة. كانت توشك على الرحيل، لكنني شعرت أن شيئاً ما يشغل بالها.

- قبل قليل، حينما قلت بأنك لستَ من النوع المحبب لدي. . . شرعت تقول.

- نعم؟

- في رأيك، من هو النوع المحبب لدي؟

- حسناً، جَاكْ البليد ذاك، مثلاً. أو أيضاً إسْتيبان ذاك الذي لم يكف عن الغمز إليك طوال الرحلة، تشجعه في ذلك نظراتك المغرية ولباسك المستفز.

- أهكذا تراني بحق أم تود فقط إيلامي؟

- بكل صدق، إنك هكذا وأعلم ذلك جيداً ما دمت أنا من أبدعك.

انقبض وجهها وكانت في طريقها إلى الباب من دون أن تضيف شيئاً.

- تريثي، قلت وأنا ألحق بها عند العتبة. مهما يكن، خذي معك بعض المال.

نظرت إلي بتحد:

- لو كنت تعرفني بحق، لعلمت أني داخل أي حانة لم أكن قط في حاجة لتسديد كأس طوال حياتي. . .

*

لأني بقيت وحيداً، أخذت دشاً فاتراً، وأعدت لف الضمادة حول كاحلي، ثم فتحت حقيبتي بحثاً عن أغراض للنوم. في الداخل، مثلما قالت بيلي، كان ينتظرني حاسوبي وكأنه شيء مؤذ. ذرعت الغرفة

لبضعة دقائق، فتحت الخزانة كي آخذ معطفي وفتشت بدون جدوى عن وسادة. في درج أحد مناضد السرير الجانبية، قرب نسخة رخيصة للعهد الجديد، وجدت كتابين، من المؤكد أنه تم نسيانهما من طرف زبائن قدامى. الأول كان هو الكتاب الأكثر مبيعاً لكارلوس رويز زافون، *La Sombra del Viento*، والذي ما زلت أذكر أني أهديت نسخة منه لكارول. وكان الثاني بعنوان *La Compagna de Los Angelos* وقد استغرقت بعض الوقت لفهم أن الأمر يتعلق بالترجمة الإسبانية لروايتي الأولى. تصفحته بفضول. اعتنى الشخص الذي قرأه بوضع خطوط تحت بعض الجمل وكتابة حواشي على بعض الصفحات. ليس في وسعي القول إن هذا القارئ قد استحسن أو استهجن نصي، لكن على كل حال، فإن الحكاية شدّت انتباهه، وهذا ما كان يعنيني أكثر من أي شيء آخر.

مبتهجاً بهذا الكشف غير المتوقع، جلست إلى المكتب الصغير المصنوع من الفورميكا وشغلت حاسوبي.

ماذا لو كانت الرغبة قد عادت؟ لو أستطيع الكتابة من جديد!

استلزم مني نظام الاستغلال كلمة المرور التي لي. تدريجياً، كنت أشعر بالقلق يطفو مجدداً على السطح، لكني كنت أسعى إلى إقناع نفسي بأن ذلك كان بالأحرى إثارة. حينما ظهر منظر فردوسي في خلفية الشاشة، شغلت برنامج معالجة النصوص الذي انفتح على صفحة مضيئة. في أعلى الشاشة، كانت الزالقة الوامضة تنتظر جريان أصابعي على لوحة المفاتيح كي تبدأ في التحرك. عندها تسارع نبضي كما لو كان يتم الضغط على عضلة قلبي بين فكي مِلْزَمة. انتابني دُوار، وهز قلبي غثيان قوي بحيث... كنت مكرهاً على إطفاء الحاسوب.

ويا للقرف.

انحباس الكاتب، متلازمة الصفحة البيضاء. . . لم يخطر ببالي قط أن ذلك سوف يمسني يوماً. بالنسبة إلي، إن عسر الإلهام كان حكراً على المثقفين الذين كانوا يتصنعون وضعاً وهم ينظرون إلى أنفسهم وهم يكتبون، ولم يكن كذلك بالنسبة إلى مدمن على الخيال مثلي أنا الذي أختلق قصصاً في رأسي منذ أن كنت في العاشرة من عمري.

من أجل الإبداع، كان على بعض الفنانين استنفار يأسهم حينما لم يكونوا يحملون منه ما يكفي. بعض آخر كان يستخدم كدره أو انحرافاته بوصفها شعلة. كان فرانك سيناترا قد ألّف *I'm a Fool To Want You* بعد قطيعته مع آفا غاردنر. وكتب أبولينير قصيدة *Sous le pont Mirabeau* بعد انفصاله عن ماري لورونسان. وغالباً ما حكى ستيفن كينغ بأنه كتب *Shining* تحت تأثير الكحول والمخدرات. وعلى مستواي البسيط، لم أحتج قط إلى مثيرات من أجل الكتابة. طوال سنوات، كنت أعمل كل الأيام- بما فيها أعياد الميلاد والشكر- لتوجيه خيالي الوجهة الصحيحة. وحينما أنطلق، لا أبالي بأي شيء: إذ كنت أحيا في الهناك، ما يشبه الشطح، في حالة تنويم مطوَّل. خلال هذه الفترات المباركة، كانت الكتابة بمثابة مخدر، أكثر إبهاجاً من أشد أنواع الكوكايين صفاء، وألذ من أكثر السكرات جنوناً.

لكن الآن، أضحى كل ذلك بعيداً. بعيد جداً. لقد تخليت عن الكتابة ولم تعد الكتابة ترغب فيّ.

*

حبّة مضاد القلق. لا داعي للسعي وراء الاعتقاد بأننا أقوى مما نحن عليه. قبول الاعتياد بتواضع.

أويت إلى الفراش، أطفأت النور وتقلبت ذات اليمين وذات

الشمال في سريري. يستحيل علي النوم. كنت أشعر بأني عاجز جداً. لماذا لم أعد قادراً على ممارسة مهنتي؟ لماذا أصبحت لا أبالي بمصير شخصياتي؟

كانت الساعة-المذياع ذي الرقائق تشير إلى قرابة الحادي عشرة. بدأت أشعر جدياً بالقلق على بيلي التي لم تكن قد عادت بعد. لماذا كلمتها بقسوة؟ شيئاً ما لأن ظهورها تجاوزني، لكن أيضاً وعلى الخصوص لكوني أعلم بأني كنت عاجزاً عن استمداد القدرة من داخلي على إعادتها إلى عالمها الخيالي.

نهضت، لبست بسرعة وخرجت تحت المطر. مشيت طوال عشر دقائق كاملة قبل أن أبصر علامة مضاءة مخضرة تدل من بعيد على وجود La linterna verde (المصباح الأخضر).

كانت عبارة عن حانة شعبية، لا يكاد يرتادها سوى الرجال. كان المكان مزدحماً والجو احتفالياً وكانت التيكيلا تتدفق كالنهر ومكبر الصوت البالي يذيع موسيقى روك مشروخة. حاملة صينية مليئة بالقنينات، كانت هناك نادلة تنتقل من طاولة إلى أخرى لإمدادهم بالكحول. خلف المشرب، ببغاء مسرور يُسَلِّي الجمع بينما كانت ساقية أخرى - التي ينادي عليها الرواد باسم بَالُومَا- تحاكي النساء اللاتينيات المثيرات وهي تتكفل بالطلبات. سألتها جعة وناولتني قنينة Corona مع قطعة ليمون مثبتة في عنقها. جلت بنظرة دائرية حول الجمع. كانت القاعة مزينة بستائر من الخشب المصبوغ تذكر قليلاً ما بفن المَايَا. معلقة إلى الجدار، صور ويسترن عتيقة بجانب بعض أعلام فريق كرة القدم المحلي.

كانت بيلي تجلس في الجزء الخلفي من القاعة، إلى مائدة رجلين ضخمين شديدين متباهيين، يقهقهان بصخب. والجعة بيدي، اقتربت من الشلة. تعرفت إليّ لكنها فضلت تجاهلي. وبالنظر إلى

حدقتيها الواسعتين خمنت أن المرأة الشابة قد سبق وابتلعت بعض الكؤوس. كنت أعرف عيوبها وأعلم أن الكحول لا يلائمها. كنت أعرف أيضاً هذا النوع من الرجال وخطتهم البائسة: هؤلاء الأجلاف لم يخترعوا آلة ثني أشجار الموز، لكنهم يمتلكون غريزة حقيقية للعثور على نساء ضعيفات بما يكفي، مستعدات لتصبحن فريسة لهم.

- اقبلي، سأعود بك إلى الفندق.

- دعني وشأني! لستَ أبي ولا زوجي. لقد اقترحت عليك القدوم معي لكنك بصقت في وجهي.

هزت كتفيها وهي تغمس رغيف تورتيلا في صحن من صلصة الغواكامول (guacamole).

- هيا، لا داعي لهذا التصابي. إنك لا تتحملين الكحول، تعلمين ذلك.

- إني أتحمله جيداً، قالت مستفزة إياي وهي تمسك بقنينة شراب الميسْكال التي كانت تتربع وسط المائدة كي تصب لنفسها كأساً منه. ثم ناولتها لجليسيها اللذين شربا مباشرة من عنق القنينة. قام من لديه من بينهما أشد العضلات وكان يلبس قميصاً مزيناً باسم خيسوس (المسيح) وناولني القنينة على سبيل الابتداء.

مرتاباً، نظرت إلى العقرب الصغير الذي تم غطسه في عمق القنينة لاحترام الاعتقاد القائل بأن الحيوان يمنح القوة والفحولة.

- لست في حاجة لذلك، قلت.

- لو كنت لا تريد الشرب، فلتدعنا، أيها الصديق! ها أنت ترى أن الآنسة تستمتع بوقتها بصحبتنا.

وبدل أن أعود أدراجي، تقدمت خطوة وغرزت ناظري في عين خيسوس. ومهما أحببتُ جين أوستين ودوروثي باركر، فإني ترعرعت

أيضاً في حي هامشي: لقد وجهت ضربات وتلقيت أخرى، بل حتى من أشخاص مسلحين أحياناً بسكاكين وأشد قوة من الوحش الذي يقابلني.

- أنت، اخرس.

ثم التفتُ مجدداً نحو بيلي:

- آخر مرة سكرت فيها، في بوسطن، لم تنته الأمور على خير، هل تذكرين؟

حدقت فيّ باحتقار:

- دائماً الكلمات المؤلمة، دائماً الكلمات الجارحة! بالتأكيد إنك قوي في هذا المضمار.

ما إن ألغى جَاكْ عطلتهما إلى هاواي في آخر لحظة، حتى ذهبت إلى Red Piano وهي عبارة عن حانة قرب Old State House. لقد كانت متأثرة جداً، وتكاد تكون مُستنفَذة. ولكي تداري حزنها، شربت بضع كؤوس فودكا على حساب المسمى بُولْ وَاكِير، مدير متاجر عديدة لعلامة معروفة في تجارة القُرْب. اقترح أن يرافقها في العودة إلى منزلها. لم تقل «لا»، وهو ما فهمه على أنه «نعم». ثم في سيارة الأجرة شرع في ملامستها. ها هنا أظهرت رفضها، لكن ربما ليس بالصرامة المطلوبة، وقدّر ذلك الشخص أن له الحق في تعويض بسيط مادام قد سدد ثمن الكؤوس. كان رأسها يدور، إلى حد أنها لم تعرف هي نفسها ما الذي كان يريده. أسفل المبنى انحشر الصديق بول في البهو ودعا نفسه لكأس أخيرة. وبعد أن أعيتها الحيلة، سمحت له بأن يأخذ المصعد معها لأنها كانت تخشى إيقاظ الجيران. ثم... لم تعد تتذكر أي شيء. استيقظت صباح اليوم التالي، مضطجعة على أريكتها، وتنورتها مرفوعة الحواف. وطوال أكثر من ثلاثة أشهر قضتها

في إجراء اختبارات فقدان المناعة واختبارات الحمل، فقد كانت مرعوبة حد الموت، لكنها لم تستطع التقدم بشكوى لأنها في قرارة نفسها كانت تعتبر أنها مسؤولة جزئياً عما حدث.

لقد أحييت هذه الذكرى المقيتة وهي الآن تتفرسني والدمع في عينيها:

- لماذا. . . لماذا تذيقني مثل هذه القذارات في رواياتك؟

أصابني السؤال في مقتل. كان جوابي صادقاً:

- لأنك لا ريب تحملين بداخلك بعضاً من شياطيني: الجانب الأشد سواداً والأكثر كراهية فيّ. ذاك الذي يثير فيّ الاشمئزاز وعدم الفهم. ذاك الذي يفقدني أحياناً كل احترام لنفسي.

مذهولة، لم يظهر عليها دائماً أنها تود اللحاق بي.

- سوف أرافقك إلى الفندق، ألححت عليها وأنا أمد لها يدي.

- Como chingas!(*)، صَفَّر خيسوس من بين أسنانه.

لم أرد على الاستفزاز، ولم تفارق عينيّ بيلي.

- لن نتجاوز العقبات إلا معاً. أنت فرصتي وأنا فرصتك.

كادت تجيبني حينما نعتني خيسوس بـjojo(**)، وهي عبارة كنت أعرفها لأنها كانت الشتيمة المفضلة لدى تيريزا رودرغيز، وهي سيدة عجوز من الهوندوراس، كانت تشتغل عندي منظفة وقد كانت جارة لأمي في ماك آرثر بارك.

انطلقت اللكمة لوحدها. ضربة يد يمنى حقيقية لا يمكن تفاديها، مثلما كان عليه الشأن سِنِي مراهقتي الغابرة، رمت بخيسوس على طاولة مجاورة، فتراقصت لذلك قنينات الجعة من سعة نصف لتر

(*) كم أنت مقرف!

(**) لوطي، شاذ.

وشطائر التاكو. لقد كانت لكمة رائعة، لكن لم تتبعها للأسف لكمات أخرى.

في أقل من ثانية، جو مكهرب عمّ القاعة التي استقبلت بالصراخ بداية العراك، فرحة لذلك النشاط الإضافي. بعد قدومهما من الخلف، قام شخصان برفعي من الأرض بينما كان مخادع ثالث يجعلني أندم على كوني خطوت إلى داخل هذه الحانة الملعونة. الوجه، الكبد، المعدة: كانت الضربات تنزل علي بسرعة فائقة، وبطريقة غامضة، فإن هذا الضرب الموسع كان يشعرني أني في حالة جيدة. ليس عن مازوشية ولكن كما لو أن هذا العذاب كان خطوة على طريق خلاصي. مطرق الرأس، كنت أحس بالمذاق الحديدي للدم الذي كان يسيل من فمي. وأمام عيني، صور دوَّارة مبهرة كانت تبرق على فترات منتظمة، خليط من الذكريات والمشاهد التي تحدث في القاعة: نظرة أرور العاشقة، في صور المجلة، الموجهة إلى شخص آخر غيري، خيانة ميلو، نظرة كارول التائهة، الوشم المرسوم أسفل ظهر بالوما، القنبلة اللاتينية التي قامت عن قريب بزيادة صوت الموسيقى والتي كنت أراها تتهزهز على إيقاع اللطم والركل واللكم الذي تعرضت له. أما عن طيف بيلي، فقد رأيته يتقدم، وقنينة العقرب في اليد لتهشيمها على رأس واحد من المعتدين علي.

*

فجأة انقلب الجو. فهمت بارتياح أن الحفل قد انتهى. شعرت بنفسي مرفوعاً تحملني الأذرع وسط الحشود، قبل أن أحط في الخارج، تحت المطر، وانتهى سباقي بأن كان أنفي ممرغاً في بركة موحلة.

19

فيلم على الطريق

السعادة فقاعة صابون تغير لونها مثل
الحدقة، وهي تنفجر حين نلمسها.

بلزاك

- ميلو، افتح الباب!

مشدودة الخصر في زيها النظامي، كانت كارول تطرق الباب بالقوة والسلطة اللتين يخولهما لها القانون.

باسيفيك باليساد

منزل صغير من طابقين، يغلفه ضباب الصباح.

- إني أحذرك: الشرطية هي من تكلمك وليس الصديقة. باسم قانون كاليفورنيا، ألتمس منك أن تسمح لي بالدخول.

- قانون كاليفورنيا، إني أتبول عليه، قال ميلو مدمدماً وهو يفرج الباب قليلاً.

- هذا بَنَّاء جداً، حقيقة! نهرته وهي تتبعه داخل المنزل.

كان بلباسه الداخلي القصير ويرتدي قميصه التِّي شرْتْ القديم (غزاة الفضاء). كان شاحب السحنة. وعيناه مُسَوَّرَتان، وقد كان

منتفش الشعر وكأن أصبع ديناميت انفجر فيه. موشومة على واحد من ذراعيه، كانت الرموز القبلانية للمَارَا سَالْفَاتْرُوَشَا تلمع بشعلة خبيثة.

- أود إخبارك أنها لم تحن السابعة صباحاً، وأنني كنت أرقد وأنني لست لوحدي.

على طاولة الصالون الزجاجية، رأت كارول قنينة فودكا من النوع الرخيص مسجّاة وكيس صغير للحشيش يكاد يكون فارغاً.

- حسبت أنك توقفت عن كل ذلك، قالت بحزن.

- قطعاً لا، كما ترين: حياتي تسير نحو الهاوية، تسببت في إفلاس أعز صديق لدي ولم أكثرت لمساعدته حينما واجه المصاعب، إذاً! : شربت حتى الثمالة، دخنت ثلاث أو أربع لفافات و...

- ولديك رفقة.

- أأأجل، وهذا شأني، أتفهمين؟

- من هي ؟ صَابرِينَا ؟ فِيكِي؟

- عاهرتان بخمسين دولاراً، التقطتهما من Greek Avenue. أيقنعك هذا التفسير؟

مأخوذة على حين غرة، نمت عنها ابتسامة حرجة، وكانت عاجزة عن معرفة ما إن كان يقول صدقاً أم عقد العزم على استفزازها.

شغل ميلو آلة القهوة وأدخل كبسولة وهو يتثاءب.

- حسناً، كارول: من مصلحتك أن يكون لك سبب وجيه لإيقاظي عند مطلع الفجر.

مرت الشرطية الشابة بلحظة بلبلة قبل أن تستعيد رشدها:

- مساء البارحة، أبلغتُ عن البوغاتي بمركز الشرطة، والتمستُ أن يتم إخباري إن جد جديد، خمن ماذا حدث؟ لقد عثر على سيارتك للتو في غابة قرب سان دييغو.

أشرق وجه ميلو أخيراً.

- وطوم؟

- لا خبر. تم توقيف البوغاتي بسبب تجاوز للسرعة، لكن السائقة رفضت التوقف.

- السائقة؟

حسب شرطة المنطقة، ليس طوم هو من كان خلف المقود، وإنما امرأة شابة. إلا أن التقرير يشير إلى وجود راكب ذكر.

أصاخت السمع صوب الحمام. إلى تدفق ماء الدش أُضِيف نفخ مجفف للشعر: كان هنالك بحق شخصان في الغرفة...

- تقولين قرب سان دييغو؟

راجعت كارول تقريرها:

- أجل، في بلدة ناحية رَانْشُو سَانْتَا فِي.

حك ميلو رأسه، محدثاً بلبلة أكبر في شعره المتنفش.

- أعتقد أني سوف أنتقل إلى عين المكان بالسيارة التي اكتريتُها. إن أسرعت، لعلي أجد علامة تدلني على طريق طوم.

- أرافقك! قَرَّرَتْ.

- لا داعي.

- أنا لا أطلب رأيك. سوف أذهب هناك، أحببتَ أم كرهتَ.

- وعملك؟

- لم أستفد من أي إجازة منذ زمن! ثم لن نكون أكثر من اثنين للتحقيق.

- أخشى كثيراً أن يقدم على حماقة ما، أقر ميلو وعيناه ساهمتان.

- وأنت، ألست منغمساً في ارتكاب الحماقات؟ سألته بحدة.

انفتح باب غرفة الحمام على أمريكيتين جنوبيتين خرجتا من الغرفة وهما تثرثران. كانت واحدة منهما نصف عارية، بمنشفة معقودة حول الشعر، والأخرى ملفوفة في لباس الحمام.

عند رؤيتهما، أحست كارول بالغثيان: هاتان الفتاتان تشبهانها! في صورة أكثر ابتذالاً وإنهاكاً. لكن كان لإحداهما نظرتها المشرقة، وللأخرى قامتها الفارعة وغمّازتها. كانتا ما كادت تصيره لو لم تنجح في التخلص من ماك آرثر بارك.

أخفت بلبلتها لكنه كشفها.

أخفى خجله لكنها فضحته.

- أنا، سأعود إلى مركز الشرطة لإخبارهم عن تغيبي، قالت في النهاية لتكسير الصمت الذي أصبح ثقيلاً. أما أنت، فتأخذ دشاً وتعيد صديقتيك وتلاقيني في منزلي بعد ساعة من الآن، اتفقنا؟

*

شبه جزيرة باخا، المكسيك
الثامنة صباحاً.

فتحتُ عيناي على مضض. كان الطريق المبلل يعكس نور شمس باهرة كانت تنثر أشعتها الصباحية على واقي الزجاج الأمامي المبقع بقطرات المطر.

وأنا متدثر بغطاء قطني، عضلاتي متصلبة وأنفي محتقن، صحوت من النوم وأنا متكور على مقعد الراكب للفياط 500.

- حسناً، هل نمت نومة هنية؟ سألتني بيلي.

استقمت في جلستي مُكَشِّراً، وأنا نصف مشلول جراء التواء في العنق.

- أين نحن؟

- على طريق خالية، بين لا مكان وأي مكان.

- هل قُدْتِ الليل كله؟

وافقت بمزاج رائق بينما كنت أشاهد في المرآة العاكسة وجهي المشوه بشدة جرّاء اللكمات التي تلقيتها الليلة السابقة.

- إن ذلك يناسبك جيداً، قالت بدون تفكه. لم أكن أستحسن فيك كثيراً مظهر المراهق المتأنق والمؤدب: إن ذلك كان يجعلك تبدو بغيضاً.

- لديك موهبة حقيقية في قلب المجاملات، أنت.

كنت أنظر من خلال النافذة: كان المنظر قد صار موحشاً أكثر. ضيقة ومتصدعة، كانت الطريق تعبر مناظر جبلية مقفرة كانت تبرز منها بعض النباتات المتفرقة: أشجار الصبار الصخري، والأغاف المكتنزة الأوراق، والأدغال الشوكية. كانت حركة المرور سلسة لكن ضيق الطريق كان يجعل كل لقاء مع حافلة أو شاحنة ما لقاء محفوفاً بالمخاطر.

- سوف أحل مكانك حتى تتمكنين من النوم قليلاً.

- سنتوقف عند محطة البنزين المقبلة.

لكن محطات الخدمات كانت نادرة ولم تكن جميعها مفتوحة. قبل العثور على واحدة منها، عبرنا العديد من الضيعات المعزولة التي تبدو وكأنها قرى أشباح. وعند منعطف واحدة منها التقينا سيارة كورفيت برتقالية، متوقفة على جانب الطريق، ومصابيح الإغاثة مضاءة. متكئاً على الغطاء الخلفي للسيارة، استوقفنا شاب - قد يحقق نجاحاً ساحقاً في وصلة دعائية لمزيل العَرَق - يحمل بيده لافتة: out of gas[*].

(*) عطل بسبب نفاد الوقود.

- نمد له يد المساعدة؟ اقترحت بيلي.

- لا، أشتم رائحة الاحتيال المعروف للشخص الذي يدعي العطل بغية سلب السياح.

- هل تعني أن المكسيكيين لصوص؟

- لا، أعني أنه مع هاجس إرادة مصادقة كل الرجال الوسيمين في البلاد الذي تعانين منه، فإننا سنقع مرة أخرى في ورطة.

- لقد كنت سعيداً جداً حينما تم توصيلك!

- اسمعي، الأمر واضح مثل ماء النبع: سوف يسلبنا هذا الفتى مالنا وسيارتنا! إذا كان هذا ما تريدينه، توقفي، لكن لا تسأليني مباركة فعلتك!

لحسن الحظ لم تجازف وأكملنا طريقنا.

بعد تزودنا بالوقود، توقفنا عند متجر بقالة عائلي. في داخل واجهة زجاجية طويلة وعتيقة، تم فيها رصف عرضي لمختارات من الفواكه الطازجة ومشتقات الحليب والحلويات. ابتعنا بعض الطعام وارتجلنا نزهة في الهواء الطلق على بعد بضعة كيلومترات من هناك، عند جذع شجرة الجُوشْيَا.

وأنا أرتشف فنجان قهوة ساخن، كنت ألاحظ بيلي بشيء من الافتتان. وهي تفترش غطاء، كانت تلتهم ملء شدقيها كعكة الغُرَيْبَة بالقرفة وحلوى تْشُورُوسْ المغطاة بالسكر الناعم.

- ما ألذ ذلك! لا تأكل شيئاً؟

- هناك شيء غير سوي، أجبتُ وأنا مستغرق في أفكاري. في رواياتي، لديك شهية عصفور، في حين منذ أن عرفتك، وأنت تبتلعين كل ما تقع عليه يداك...

توقفت لحظة للتفكير، كما لو أنها كانت بنفسها تستوعب شيئاً

ما، ثم انتهى بها المطاف أن أَسَرَّتْ لي:

- ذلك بسبب الحياة الحقيقية.

- الحياة الحقيقية؟

- أنا شخصية روائية، يا طوم. أنتمي لعالم الخيال وأنا لست في دياري في الحياة الحقيقية.

- وما علاقة ذلك بشراهة شهيتك؟

- في الحياة الحقيقية، لكل شيء مزيد من المذاق ومن اللُّب. وهذا لا يتوقف عند الطعام. للهواء مزيد من الأوكسجين، والمناظر تطفح بالألوان التي تحثنا على الاندهاش في كل آن وحين. أما عالم الخيال فهو كئيب إلى حد...

- عالم الخيال كئيب؟ لكن العكس هو ما أسمع دائماً! أغلب الناس يقرأون الروايات تحديداً للهروب من الواقع.

أجابتني بكل صدق ممكن:

- ربما أنت بارع جداً في سرد القصص، في رسم المشاعر والآلام، واندفاعات القلب، لكنك لا تعرف وصف ما يمثل ملح الحياة: المذاقات.

- هذا ليس ودياً بالنسبة إلي، قلت لأني أدركت أنها تحيلني على هفواتي بوصفي كاتباً. عن أي مذاقات تتكلمين تحديداً؟

بحثت عن أمثلة حولها: طعم هذه الفاكهة، مثلاً، قالت وهي تقتطع قسماً من المانجو الذي ابتعناه للتو.

- وماذا أيضاً؟

رفعت رأسها وأغمضت عينيها، كما لو كانت تعرض وجهها الجميل لنسمة الصباح الباكر.

- حسناً، ما نشعر به حينما تلامس الريح وجهنا...

- لكن. . . أجل.

ندّت عني تكشيرة ارتياب، لكني كنت أعلم أنها لم تكن مخطئة تماماً: كنت عاجزاً عن القبض على روعة اللحظة. كانت محرمة عليّ. لم أكن أعرف اقتطافها، لم أكن أعرف الاستمتاع بها وبالنتيجة لم يكن بمقدوري اقتسامها مع قرائي.

- أو منظر تلك الغيمة المتوردة التي تنتثر خلف الرابية، واصلت وهي تفتح عينيها وتشير بأصبعها بعيداً.

نهضتْ وتابعتْ بهِمَّةٍ عالية:

- في رواياتك سوف تكتب: تناولت بيلي فاكهة مانجو عقب الأكل، لكنك لن تكلف نفسك أبداً عناء تفصيل مذاق فاكهة المانجو هذه.

وبلطف وضعت في فمي قطعة فاكهة غزيرة العصارة.

- إذاً، كيف تجدها؟

وإن لدغني قولها، فقد سايرت لعبتها رغم ذلك وحاولت وصف الفاكهة بأكبر قدر ممكن من الدقة:

- إنها ناضجة، طازجة، بالقدر المطلوب.

- تستطيع فعل أحسن من ذلك.

- لُبُّها حلو، مستساغة، لذيذة وعطرة جداً. . .

لَمَحْتُها تبتسم. تابعتُ:

-. . . ذهبية، مفعمة بالشمس.

- ولا تبالغ أيضاً، تبدو كأنها دعاية لبائعي الخضر والفواكه!

- لا شيء يرضيك دائماً!

طوت المفرش وعادت إلى السيارة.

لقد استوعبت المبدأ، لَوّحَتْ نحوي. إذاً، حاول تذكر ذلك عند

تحرير كتابك المقبل. اجعلني أحيا في عالم من ألوان ولحم، فيه للفواكه طعم الفواكه وليس طعم قصاصات الورق.

*

سان دييغو فريواي

- لقد تجمدت أعضائي من شدة البرد، هلا أغلقتِ النافذة؟

كانت كارول وميلو يسيران منذ ساعة. موصولان بمحطة أخبار، كانا يتظاهران بأنهما منشغلان بنقاش حول السياسة المحلية لتفادي الحديث عن أمور مزعجة.

- عندما تطلب مني شيئاً بمثل هذا اللطف، فإنه لمن دواعي سروري أن أخدمك، قالت منبهة وهي ترفع زجاج النافذة.

- ماذا؟ لديك مشكلة مع طريقتي في الكلام، الآن؟

- أجل، لديّ مشكلة مع فظاظتك المجانية.

- متأسف، أنا لستُ ذا تكوين أدبي، أنا لا أكتب روايات!

نظرت إليه مذهولة:

- رويدك، ماذا تقصد بالضبط؟

بداية، عبس ميلو ثم رفع من صوت الراديو كما لو لم تكن لديه نية للرد، قبل أن يعدل عن فكرته ويفرغ الدُّمُل للقضاء على أسباب الخلاف بطريقة غريبة.

- بينك وبين طوم، هل وقع شيء ما؟

- ماذا؟!

- في الحقيقة، لقد كنت دائماً تحبينه في السر، أليس كذلك؟

أُسْقِطَ في يدها:

- هذا ما تعتقده؟

- أعتقد أنه منذ كل هذه السنوات، لا تنتظرين سوى شيء

واحد: أن ينظر إليك في النهاية بصفتك امرأة وليس كأحسن صديق في الخدمة.

- ينبغي عليك بحق الكف عن تدخين الحشيش والكحول القوية، يا ميلو، حينما تتلفظ بمثل هذا الهراء، أود. . .

- تودين ماذا؟

هزت رأسها:

- لا أدري، أود. . . أود نزع أحشائك كي أميتك على نار هادئة قبل استنساخك في عشرة آلاف نسخة حتى أتمكن بيديّ هاتين من قتل كل واحدة من العشرة آلاف نسخة مع تعذيبك أشد. . .

- يكفي، قاطعها. أعتقد أني فهمت الفكرة الأساسية.

*

المكسيك

رغم سرعة السلحفاة التي تسير بها سيارتنا، شرعت الكيلومترات في التراكم. لقد تجاوزنا الآن سان إينياسيو، وكأن شيئاً لم يكن، فإن حُقَّ الياغورت الذي لنا كان يتحمل الوضع.

وللمرة الأولى منذ مدة طويلة، كنت أشعر أني بخير. أحببت ذلك المنظر الطبيعي: أحببت عطر الإسفلت ورائحته المسكرة التي تعبق بالحرية؛ أحببت تلك المتاجر بلا علامات والسيارات المحطمة المهجورة والتي كانت تعطينا الانطباع بالسفر على الطريق 66 الأسطورية.

ولتتويج كل ذلك: فقد عثرت، في إحدى محطات الخدمات النادرة، على شريطين صوتيين مخفضين بسعر 0,99$. الشريط الأول يجمع بعض نفائس الروك، من إلفيس إلى الرولينغ ستونس. والثاني تسجيل مُقَرْصَن لثلاث حفلات موسيقية لموزار من أداء مارثا

آرغريش. بداية جيدة من أجل هَدْيِ بيلي إلى مسَّرات «الموسيقى الحقيقية».

إلا أن تقدمنا تمت إعاقته، بداية الظهيرة، بينما كنا نسير بقطاع موحش بما يكفي، لا حواجز تحفه أو سياجات. في غمرة عملية الهضم، لم يجد قطيع كبير من الخرفان شيئاً آخر أفضل من التوقف بالضبط وسط الطريق للثرثرة على راحته. كنا على مقربة من عدة ضِيَع ومزارع لتربية المواشي، لكن لا أحد اهتم إطلاقاً بإزاحة البهائم من عرض الطريق.

لم يُجْدِ شيء نفعاً: لا منبهات السيارة ولا إيماءات بيلي لطرد المجترات من مربضها. مرغمة على تحمل الوضع من دون تأفف، أشعلت سيجارة بينما كنت أعُدُّ المال المتبقي لنا. أفلتت صورة لأرور من حافظة نقودي فانقضت عليها بيلي من دون أن أفطن لذلك

- أعطني ذاك!

- تريث، دعني أرى! هل أنت من التقطها؟

كانت مجرد صورة بالأسود والأبيض تنبعث منها بعض البراءة. بسروال قصير وقميص رجالي، كانت أرور تبتسم لي على شاطئ ماليبو وعيناها تشعان ألقاً ظننته ألق الحب.

- بصراحة، ما الذي يعجبك في عازفتك للبيانو؟

- ما الذي يعجبني فيها؟

- حسناً، إنها ظريفة. على كل حال، إذا أردنا إنها من نوع «المرأة الكاملة التي لها جسد عارضات الأزياء، المتمتع بسحر لا يقاوم». لكن عدا هذا، ما الذي يميزها، يا ترى؟

- كفي من فضلك: إنك تحبين وضيعاً أبلهاً. لذلك لا تعطيني المواعظ.

- هل الجانب الثقافي هو الذي يثيرك؟

- أجل، إن أرور مثقفة. لا بأس إن كان ذلك يزعجك. أنا، لقد ترعرعت في حيّ مقرف. كان هناك ضجيج على الدوام: صرخات، شتائم، تهديدات، طلقات نارية. لم يكن هناك من كتاب سوى دليل التلفزيون، ولم أسمع هناك لا شوبان ولا بيتهوفن. إذاً، كان يمتعني مصاحبة فتاة باريسية كانت تحدثني عن شوبنهاور وموزار بدلاً من الحديث عن الجنس والمنشطات والراب والوشم والأظافر المزيفة!

هزت بيلي رأسها.

- خطبة ظريفة، لكن أرور كانت تعجبك لأنها كانت جميلة. وليس من المؤكد أنه لو كان قد أضيف إلى وزنها خمسون كيلوغراماً أخرى كانت سوف تزلزل كيانك بذلك القدر، حتى بشوبان وموزار...

- حسناً، يكفي الآن. انطلقي!

- وكيف أتقدم؟ لو كنت تظن أن سيارتنا البالية سوف تقاوم الاصطدام مع خروف..

أخذتْ نفساً من سيجارتها دانهيل قبل أن تسترسل في إزعاجي:

خطبك الصغيرة حول شوبنهاور، كانت قبل المضاجعة أم بعدها؟

نظرت إليها وأنا مستاء.

- لو كنت أنا من يوجه لك هذه النوعية من الملاحظات، لكنت قد تلقيت صفعة مسبقاً...

- هيا، لقد كانت مزحة. إني أحب مظهرك المُحْرَج حينما تخجل.

من يصدق أنني أنا من أبدع هذه الفتاة...

*

شأن كل أسبوع، قدِمت تيريزا رودريغز إلى منزل طوم للقيام بأعمال النظافة. في هذه الآونة الأخيرة لم يعد الكاتب يرغب في أن يتم إزعاجه وقام بإلصاق عبارة صغيرة على الباب لإعفائها من عملها، لكنه لم ينس قط أن يرفقها بالغلاف الذي يضم الراتب الكامل لخدماتها. هذا اليوم، لم يكن هناك أي عبارة على الباب.

ذاك أفضل

كانت المرأة العجوز لا تحب أن تأخذ أجراً من دون فعل أي شيء وعلى الخصوص لأنها كانت قلقة بشأن من عرفته بماك آرثر بارك حينما كان لا يزال طفلاً بعد.

في ما مضى، كانت شقة تيريزا ذات الغرف الثلاث تقع بالطابق نفسه حيث شقة والدة طوم وتحاذي شقة أسرة كارول ألفاريز. وبما أن تيريزا كانت تعيش لوحدها منذ وفاة زوجها، فإن الفتى ورفيقته اعتادا المجيء عندها قصد إنجاز واجباتهما. ينبغي الإقرار بأن الجو هناك كان هادئاً مقارنة مع ما هو عليه في مسكنيهما معاً: من جهة، أُم نزقة وعُصابِيَّة تجمع العشاق وتحطم الأزواج، من جهة أخرى، زوج أُم يرغد ويزبد باستمرار في وجه عشيرته.

فتحت تيريزا الباب بمجموعة المفاتيح وظلت متسمرة مكانها أمام الفوضى التي تعم البيت. ثم استجمعت شجاعتها وشرعت في ترتيبه. شغّلت المكنسة الكهربائية، أعملت الممسحة وأدارت غسالة الصحون، كَوَتْ كومة من الغسيل، ونظفت بقايا التسونامي الذي ضرب الشرفة.

غادرت البيت بعد ثلاث ساعات من ذلك، وكانت قد جمعت النفايات حسب أصنافها ووضعت أكياسها في الحاويات البلاستيكية المُعَدَّة لذلك الغرض.

*

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساء بقليل حينما قامت خدمة جمع النفايات بإفراغ حاويات قاطني ماليبو كولوني.

عند حمل واحد من أوعية النفايات ذات الحجم الكبير، عثر جُونْ بْرادي- عامل من بين عمال الخدمة لذلك المساء- على نسخة تكاد تكون جديدة للجزء الثاني من ثلاثية الملائكة. وضعها جانباً وانتظر نهاية الجولة لتفحصها ملياً.

يا للعجب! إنها طبعة جميلة! حجم كبير، بغلاف قوطي رائع ومجموعة من اللوحات المائية الجميلة.

سبق لزوجته أن قرأت في السابق الجزء الأول وكانت تنتظر على أحر من الجمر صدور الجزء الثاني في طبعة الجيب. وها ما قد يمتعها.

حينما عاد إلى منزله، انقضت جَانِيتْ بالفعل على الكتاب. بدأت قراءته في المطبخ، مقلبة صفحاته كالمحمومة إلى حد أنها نسيت إخراج خلطتها من الفرن في الوقت المناسب. لاحقاً، على فراش النوم، تابعت مواصلة الفصول بجنون، حيث أدرك جُونْ أنها سوف تكون أمسية بدون عناق وأنه سوف ينام ظهرها لظهره. واستسلم لنومه معكر المزاج، وهو مغتاظ من أنه تسبب بنفسه في شقائه لكونه أحضر تحت سقف بيته ذلك الكتاب الملعون الذي حرمه في الوقت ذاته من عشائه ومن فراشه الزوجي. أخذته سِنَة ببطء، واجداً العزاء بين ذراعيّ مُوْرفِيُوس، ربة الأحلام التي، على سبيل الترضية، وهبته حلماً ممتعاً فيه يفوز الدودجيرز، فريقه المفضل ببطولة البيسبول، وذلك بأن كبّدوا اليانكيز خسارة لا تنسى. كان بْرَادِي إذاً في ذروة الابتهاج حينما أيقظته صيحة مفزعة.

- جُونْ؟

فتح عينيه، مرعوباً. بجانبه، زوجته تطلق صرخات عالية:

- ليس لديك الحق في أن تفعل ذلك معي!
- في فعل ماذا؟
- إن الكتاب يتوقف في منتصف الصفحة 266! قالت معاتبة إياه. والبقية صفحات بيضاء!
- لكن، لا دخل لي أنا في ذلك!
- أنا متيقنة من أنك فعلت ذلك متعمداً.
- حتماً لا، أف! لماذا تقولين ذلك؟
- أريد قراءة التتمة!
هز بْرَادِي نظارتيه نحو الأعلى وعاين المُنَبِّه:
- لكن، يا صبيتي، إنها الثانية صباحاً! أين تودين أن أجد لك التتمة؟
- إن الـ 24 مارْكِت مفتوح الليل كله... من فضلك، جون، هيا، اشتر لي نسخة جديدة. الجزء الثاني يضاهي الأول.
تنهد جُونْ بْرادِي. لقد تزوج جانيت منذ ثلاثين سنة خلت على السراء والضراء. هذا المساء، كان على الضراء، لكنه كان يقبل بذلك. بعد كل شيء، هو الآخر، لم يكن دائماً طيب المعشر.
رفع هيكله العجوز الوسنان لايزال، لبس جينز وكنزة عريضة قبل النزول لأخذ سيارته من المرآب. عند وصوله إلى الـ 24 ماركت في بورل ستريت، رمى بالنسخة المعيبة في حاوية عمومية للنفايات.
يا للكتاب المقرف!

*

المكسيك

كدنا نصيب الهدف. بالاعتماد على علامات التشوير، بقيت أقل من مائة وخمسين كيلومتر قبل الوصول إلى كَابُو سَانْ لُوكَاسْ، وجهتنا.

- إنها آخر مرة لتعبئة الوقود بالكامل، لاحظت بيلي وهي تركن السيارة أمام محطة البنزين.

ولم تكد تُسْكِت المحرك حتى كان المدعو بَابْلو - إن صدقنا الملصق المطرز على قميصه القصير- ينشغل مسبقاً بملء خزاننا وتنظيف واقي الزجاج الأمامي.

كان الليل يرخي سدوله. زمَّت بيلي عينيها وهي تحاول أن تقرأ، من خلال زجاج النافذة، لوحة خشبية لها شكل صبار الكاكتوس كانت تعرض أصناف أطعمة محل الوجبات الخفيفة الواقع في تلك الناحية.

- إني أتضور من الجوع. ما رأيك لو تناولنا طعاماً ما؟ أنا متأكدة من أن لديهم هناك أشياء دسمة للغاية، ولكن لذيذة للغاية.

- سوف ينتهي الأمر بك أن تصابي بعسر في الهضم جراء كل هذا النهم.

- لا ضير في ذلك، سوف تعالجني. أنا متأكدة من أنه بمقدورك أن تكون مثيراً جداً في دور الطبيب الودود.

- إنك مجنونة خالصة، أنت!

- وهي غلطة من، في رأيك؟ ثم، بكل جدية، يا طوم، عليك أحياناً أن تكون لين العريكة قليلاً ما. كن أقل تحيراً. دع الحياة تدخل عليك البهجة بدلاً من خشيتك إياها على الدوام.

إحم.. هاهي الآن تحسب نفسها باولو كويلهو...

غادرت السيارة ورأيتها ترتقي السلم الخشبي الذي يؤدي إلى المطعم. بسروالها الجينز الملاصق للجسم، وسترتها الجلدية المقوسة وحقيبتها الفضية للتجميل، كانت لها هيئة الفتاة راعية البقر التي تناسب الديكور كثيراً. سددت ثمن البنزين لبابلو ولحقت ببيلي على الأدراج:

- ناوليني المفاتيح كي أغلق السيارة.

- حسناً يا طوم! استرخ. كف عن رؤية الخطر في كل مكان. إنس السيارة لبرهة. سوف تقدم لي تورتيلات وفلافل محشوة، ثم سوف تحاول وصفها لي أحسن ما يكون الوصف!

تساهلتُ ومشيتُ خلفها حتى ذلك الصالون الخمارة، حيث ظننت أننا سوف نقضي وقتا ممتعا. لكن، كان ذلك يعني أن لا نأخذ في الحسبان سوء الحظ الذي يستمتع أيما استمتاع بمطاردتنا منذ بداية هذا السفر غير الأكيد.

- الـ... السيارة... بادرت بيلي بينما كنا نستعد للجلوس بالشرفة لتذوق فطائر الذرة.

- ماذا؟

- لم تعد هناك، قالت متأسفة، وهي تشير إلى مواقع ركن السيارات.

خرجت من المطعم الحقير غاضباً من دون أن أبتلع أي لقمة:

- كف عن رؤية الخطر في كل مكان! هذا ما نصحتني به أليس كذلك؟ لقد كنت متأكداً من أنه سيتم خداعنا في نهاية المطاف! بل عبئنا لهم الخزان كاملاً.

نظرت إلي ومحياها يعلوه أسف لم يدم سوى ثانية ليحل مكانه تهكمها المعتاد!

- حسناً، لو كنت متيقناً من وقوع سرقة سيارتنا لا محالة، لماذا لم تعد لإغلاقها؟ لكلٍّ أخطاؤه، بعد كل شيء!

ومن جديد، تمالكت نفسي كي لا أخنقها. هذه المرة لم نعد نمتلك لا سيارة ولا أمتعة. كان الليل قد حل، وأخذ البرد يعم الأرجاء.

*

رانشو سانتا في مكتب الشريف.

- الرقيب ألفاريز... هل هي معك؟ - يعني؟ استفسر ميلو وهو يناول الضابط رخصته للسياقة وكذا بوليصة تأمين البوغاتي.

وهو محرج بعض الشيء، دقق مساعد الشريف سؤاله وهو يشير، من خلف الزجاج، إلى طيف كارول المنشغلة بتعبئة بعض الوثائق برفقة السكرتيرة.

- رفيقتك، هناك، كارول، هل هي رفيقتك «رفيقتك» أم رفيقتك فحسب؟

- لماذا؟ هل تنوي دعوتها للعشاء؟

- ما لم تكن ملتزمة بموعد، صحيح أنني أود ذلك كثيراً. يا للعجب إنها...

كان يبحث عن الكلمات المناسبة، يحاذر من أن يتورط، لكنه أدرك رعونته وفضل عدم إكمال جملته.

- تحمل مسؤولياتك يا صديقي، قال له ميلو ناصحاً. جرب حظك:

وسترى هل أضرب بقبضتي وجهك أو لا.

وهو يغلي من شدة الغيظ، تحقق مساعد الشَّريف من وثائق السيارة قبل أن يناول ميلو مفاتيح البوغاتي.

- يمكنك استعادتها: كل شيء على ما يرام، لكن حاذر من الآن فصاعداً إعارة سيارتك لأي كان.

- لم يكن أياً كان: كان أعز صديق لدي.

- حسناً، ربما ينبغي عليك انتقاء أصدقائك أفضل ما يكون الانتقاء.

كاد يرد عليه بكلام لا يليق حينما لحقت به كارول في المكتب.

- حينما أوقفتهما، أيها الشريف، هل أنت متأكد من أن امرأة هي من كان يقود؟ لا شك في ذلك؟

- ثقي بي، أيتها الرقيب، إني أجيد التعرف إلى امرأة.

- والرجل، على مقعد الراكب، هل كان هو؟ سألته وهي تلوح برواية كانت عليها صورة طوم.

- الصدق أقول، لم أتفحصه في حقيقة الأمر، صديقك ذاك، بل تحدثت على الخصوص مع الشقراء. إنها مضجرة للغاية، تلك.

قدّر ميلو أنه يهدر وقته والتمس استعادة وثائقه.

أعادها له الشريف وتجرأ على سؤال كان يتحرق لوضعه.

- الأوشام الظاهرة على ذراعك هي للمارا سالفاتروشا، أليس كذلك؟ لقد قرأت أشياء عن ذلك على الإنترنت. كنت أظن أنه لا يستطيع المرء مغادرة هذه العصابة.

- لا ينبغي الوثوق في كل ما يوجد على الإنترنت، نصحه ميلو عند خروجه من الغرفة.

في موقف السيارات، قام بتفتيش دقيق للبوغاتي. كانت المركبة في حالة جيدة. كان لديه الوقود، والأمتعة المتبقية في الصندوق الخلفي تشهد على رحيل راكبيها المفاجئ. فتح الحقائب ليجد فيها ملابس نسائية ومنتجات الزينة. في علبة القفازات، وضع يده على خريطة طرقية ومجلة للمشاهير.

- ماذا في ذلك؟ سألته كارول لما لحقت به. هل وجدت شيئاً؟

- ربما... أجاب وهو يريها المسار المرسوم على الخريطة. بالمناسبة، هل دعاك للعشاء، ذاك البليد؟

- لقد طلب رقم هاتفي، واقترح علي أن أرافقه في إحدى الأمسيات. لماذا، هل يزعجك ذلك؟

- لا، على الإطلاق. ثم، ليس هو من ابتكر الثقوب في جبنة الغْرُوييِرْ، أليس كذلك؟

كادت تجيبه بأن عليه أن يغرب عن وجهها، عندما. . .

- هل لاحظت ذلك؟ صاحت وهي تريه صور أرور ورفائيل باروس على شاطئهما الفردوسي.

أشر ميلو علامة مرسومة بالقلم الواسم على الخريطة واقترح على صديقة طفولته:

- ما رأيك في قضاء نهاية أسبوع وجيزة بفندق جميل على الساحل المكسيكي؟

*

المكسيك

محطة البنزين El Zacatal

كانت بيلي تتلمس الثوب الحريري للباس نوم داخلي من دانتيلا شانْتِيِي:

- إن أهديتها هذا، سوف تبدي لك صديقتك أشياء لم تقم بها معك قط. أشياء لا تدري أنت أنها موجودة لكونها بذيئة للغاية. . .

كان بابلو يحملق بعينيه. منذ عشر دقائق وبيلي تحاول مقايضة محتوى حقيبتها للزينة بالدراجة سكوتر لفتى المضخة الشاب.

- وهذا، أوج البهاء، أكدت وهي تخرج من حقيبتها قارورة كريستال مغطاة بسدادة ذات أسطح تلمع كالمَاس.

فتحت القارورة وأضفت على نفسها الغرابة مثل ساحر يتأهب لتقديم عرضه.

- استَنْشِقْ. . . قالت وهي تقرب الإكسير من أنف الفتى. هل

تشم هذه الرائحة الزكية والساحرة؟ عبقها المغناج اللعوب؟ دع نفسك تنغمر بروح البنفسج والرمان والفلفل الوردي والياسمين. . .

- كفي عن إفساد الفتى! طلبتُ منها. سوف تجرين علينا المتاعب.

لكن بابلو لم يكن يطلب أكثر من أن يُسْحَر ولأجل إسعاده واصلت المرأة الشابة خطبتها:

- دع نفسك تسكر بقطرات المسك، وزهرة الفريزية وزهرة الإيلانغ- إيلانغ. . .

وأنا مرتاب، اقتربتُ من «السُكُوتِر». كان عبارة عن دراجة نارية قديمة: تقليد للفيسبا الإيطالية التي عمل صانع محلي على ترويجها في المكسيك في سنوات السبعينيات. سبقت إعادة طلائها مرات كثيرة، كانت مغطاة بملصقات عديدة انحفرت في الهيكل. واحد من بينها كان يحمل الكتابة: كأس العالم لكرة القدم، مكسيكو 1986. . .

من خلفي، كانت بيلي تواصل حركات خفة يدها:

- صدقني يا بابليتو، حينما تضع امرأة هذا العطر، فهي تلج روضاً مسحوراً، يحبل بالروائح الشهوانية تحولها إلى أنثى نمر، خنيمة متوحشة، متوهجة، متعطشة للج. . .

- جميل، كفى تهريجاً! ألزمتها. على كل حال، لن نستقيم أبداً نحن الاثنان على هذا السكوتر.

- طيب، كما أني لا أزن أطناناً! أجابت تاركة بابلو أمام خلاصة السحر الأنثوي الذي ينبعث من حقيبة أرور للزينة.

- عدا أن الأمر خطير. الوقت ليل، والطرق تفتقد الصيانة، وهي مليئة بالحُفَر والمطبات المُسَنَّمَة. . .

سأل بابلو وهو يلحق بنا:

- Trato hecho?[*]

هنأته بيلي:

- إنها صفقة مربحة. صدقني: سوف تعبدك رفيقتك! وعدته وهي تنقض على مفاتيحه.

هززت رأسي:

- هذا أمر سخيف! هذا الشيء سيتخلى عنا بعد 20 كيلومتراً. كما قد يكون الزُنَّار بالياً حد التلف و...

- طوم.

- ماذا؟

- ليس هناك زنار في دراجة مثل هذه. كف عن لعب دور الرجل، ليست لديك أدنى معرفة بالميكانيكا.

- بل ربما إن هذا الشيء لم يعمل منذ عشرين عاماً، قلت وأنا أدير المفتاح.

سعل المحرك مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يشرع في القرقرة بمشقة. ركبت بيلي خلفي، ولفت يديها حول خاصرتي، وضعت رأسها على كتفي. انطلق السكوتر مُفَرْقِعاً في سكون الليل.

(*) صفقة مبرمة؟

20

مدينة الملائكة

ما يهم، ليس الضربات التي نسددها، بل تلك التي نتلقاها ونقاومها كي نسير إلى الأمام.

راندي بوش

كابو سان لوكاس
فندق la Puerta del Paraiso
جناح رقم 12

نور صباحي ينساب من خلال الستائر، فتحت بيلي عيناً، ووأدت تثاؤباً، وتمددت بكسل. كان المنبه الرقمي يشير إلى أن الساعة تجاوزت التاسعة. التفتت فوق سريرها. على بعد أمتار عديدة منها، على سرير منفصل، كان ميلو مضطجعاً على جنبه وساقاه مطويتان، وهو غارق في نوم عميق. متعبان، متيبسان، كانا قد لحقا بالفندق ليلاً. وبعد أن فاضت روح دراجة بابلو العتيقة على بعد عشر كيلومترات من وجهتهما، كان عليهما إتمام رحلتهما راجلَيْن، وهما يتبادلان الشتائم طوال ساعات سيرهما التي تفصلهما عن منتجعهما.

بسروالها القصير وقميص فوقي بحمالتين، نطت بيلي فوق البلاط الخشبي وتوجهت على أطراف أصابعها نحو الأريكة. بالإضافة إلى

السريرين المنفصلين من نوع كْوِينْ سايْز، يضم الجناح مدفأة مركزية وصالوناً فسيحاً يجمع الديكور فيه بين الأثاث المكسيكي التقليدي والوسائل التكنولوجية: شاشات مسطحة، مشفرات متنوعة، وصل لا سلكي بالإنترنت. . . وهي ترتجف، أمسكت الفتاة معطف طوم وتدثرت داخله كما في عباءة قبل أن تخرج من الباب- النافذة.

وحالما وضعت رجلها في الخارج، انقطعت أنفاسها من شدة الدهشة. مساء البارحة، اضطجعا في الظلام، وكانت أعصابهما لا تزال مشدودة، كما كانا مرهقين كثيراً للاستمتاع بالمنظر. لكن، هذا الصباح. . .

تقدمت بضع خطوات في الشرفة المغمورة بالشمس. من هنا، كانت تشرف على ناصية شبه جزيرة بَاخَا، هذا المكان الساحر حيث يلتقي المحيط الهادي ببحر كُورْتِيسْ. هل سبق لها أن تأملت منظراً يصيب بالخدر كهذا؟ لا تتذكر ذلك قطعاً. اتكأت على الدرابزين، والبسمة تعلو شفتيها والبريق يشع من عينيها. إلى جانب الجبال في الخلفية، هناك المئات من البيوت الصغيرة المتتالية في تناغم على طول شاطئ من الرمال البيضاء يغمره بحر بلون اللازورد. اسم الفندق- لابويرتا ديل باريزو- كانت تعد بباب مفتوح على الجنة. يجب الاقرار بقوة أننا لم نكن بعيدين عنها. . .

قربت عينها من المنظار ذي الأرجل الثلاث المنذور للفلكيين الهواة، لكن بدل أن تراقب السماء أو الجبال، وجهت المنظار صوب مسبح الفندق. أحواض متداخلة فسيحة، على ثلاثة طوابق مختلفة، تنزل حتى الشاطئ وتبدو وكأنها تمتزج مع المحيط.

مرتبة وسط الماء، جزائر صغيرة خاصة تستقبل أجمل المشاهير الذين يبدأون يومهم الخاص بالاسمرار تحت شماسي ذات أسقف مصنوعة من القش.

وعينها ملتصقة بالمنظار، كانت بيلي تحدث نفسها بحماس:

الشخص بالقبعة، هناك، اللعنة، يبدو أنه بُونو! والشقراء الفارهة الطول مع طفليها، إنها تشبه كلوديا شيفر على نحو غريب! والسمراء المدمرة، الموشومة من قدميها إلى رأسها بعقيصتها الملتفة، يا إلهي، إنها...

استمتعت على هذه الحال طوال بضع دقائق، إلى أن جعلتها هبة ريح عذبة تنكمش في كرسيها المصنوع من قصب الرُوطَانْ. وبفركها لكتفيها من أجل إعادة الدفء لهما، شعرت بشيء في الجيب الداخلي للمعطف. كانت محفظة نقود طوم. طراز قديم سميك جداً، من الجلد المبذور، وذي الحواشي المكسَّرة. بدافع الفضول، فتحتها بدون أي تردد. لقد كانت منتفخة بالقطع المالية الكبيرة المحصل عليها بعد رهن اللوحة. لكن ليس المال هو الذي كان يهمها. لقد عثرت على صورة أرور التي رأتها في اليوم السابق ثم قلبتها كي تكتشف كتابة بخط نسائي:

الحب، هو أنت نصل بالنسبة إلي
الخنجر الذي به أطعن أحشائي.

أي نعم، استشهاد لعل عازفة البيانو نقلته من مكان ما. فيه شيء من الأنانية، معذب جداً ومؤلم جداً كي يبدو ذلك رومنسياً-قوطياً.

أعادت الصورة وفتشت بقية المحتوى. كان هزيلاً: بطاقات ائتمان، جواز سفر، قرْصا دواء أدفيل. كان ذلك كل شيء. لكن ما مصدر ذلك الانتفاخ عند قاع جيب الأوراق النقدية؟ فتشت محفظة النقود بعناية أكبر واكتشفت ما يشبه بطانة للثوب التي تمت خياطتها بواسطة خيوط سميكة.

مندهشة، فكت المشبك الذي كان يربط شعرها وبفضل ذلك السيخ شرعت في نزع جزء من الخياطة. ثم حركت الجيب الصغير فإذا بجسم معدني برَّاق يسقط في بطن كفها.

لقد كان غلافاً لطلْقَة سلاح ناري.

فجأة، تسارع خفقان قلبها بين ضلوعها. ولإدراكها بأنها انتهكت سراً للتو، أسرعت إلى إعادة غلاف الطلقة إلى قعر البطانة. شعرت حينها بأن هذه الأخيرة كانت تضم شيئاً آخر. كان عبارة عن صورة بولارويد أضحت صفراء ومهتزة شيئاً ما. كان يُرى عليها فتاة وشاب متضامان أمام سياج وشريط من البنايات الإسمنتية. تعرفت إلى طوم بدون صعوبة، وارتأت أنه لم يتجاوز سن العشرين في تلك الفترة. أما الفتاة فقد كانت أصغر من ذلك، سبعة عشر سنة أو ثمانية عشر، لا ريب. كانت فتاة جميلة جداً من الجنس الأمريكي الجنوبي. طويلة القامة ورشيقة، كان لها عينان صافيتان رائعتان تخترقان الصورة رغم جودة الكليشيه الرديئة. وبالنظر إلى وضعهما، ندرك أنها هي من التقط الصورة بإمساكها آلة التصوير على مبعدة منها.

- يا هذه، لا حرج عليك!

تركت بيلي الكليشيه وهي ترتجف. التفتت ثم...

*

فندق لا بويرتا ديل باريزو الجناح رقم 24

- يا هذا، لا حرج عليك!

وعينه لصق المنظار، كان ميلو يتفحص القوام الحسن لحُورِيَّتَيْن شبه عاريتين كانتا تتشمسان بجانب المسبح عندما اقتحمت كارول الشرفة بغتة. ارتجف والتفت ليكتشف أن صديقته كانت تنظر إليه بحِدَّة:

- أذكرك أن ذلك جُعِل لمشاهدة كاسْيُوبْيا وأوريون، وليس من أجل التلصص لإمتاع ناظريك!

- ربما هما أيضاً تحملان اسم كاسيوبيا وأوريون، قال منبهاً إياها وهو يشير بذقنه إلى الحسناوين.

- لو كنت تظن أنك مضحك...

- أصغ إلي، كارول: لست زوجتي ناهيك بأنك لست أمي! ثم، قبل أي شيء، كيف دخلت إلى غرفتي؟

- أنا شرطية، يا عزيزي! إذا كنت تعتقد أن مجرد باب غرفة في فندق قد يستعصي علي... قالت وهي ترمي بكيس من القماش على واحد من كراسي الروطان.

- أنا أسمي ذلك انتهاكاً للحياة الخاصة!

- حسن، أطلب الشرطة.

- أنت أيضاً تظنين نفسك مضحكة؟

منزعجاً، هز كتفيه وغيَّر مجرى الحديث:

- بالمناسبة، تحققت من الأمر لدى خدمة الاستقبال. لقد نزل طوم فعلاً بالفندق رفقة «صديقته».

- أعلم ذلك، لقد قمت بتحقيقي: الجناح رقم 12، سريران منفصلان.

- السريران المنفصلان، ذلك أمر يطمئنك؟

تنهدت:

- عندما تقدم على ذلك، تكون أبله من مكنسة صلعاء...

- وعن أرور؟ هل قمت أيضاً بتحقيقك؟

- تماماً! قالت وهي تقترب بدورها من المنظار كي تسلط العوَيْنَة صوب الشط.

تفحصت لبضع ثوان الامتداد الفسيح من الرمل الناعم الذي تلثمه أمواج شفافة.

- وإذا كانت معلوماتي دقيقة، فإنه ينبغي لأرور أن توجد في هذه اللحظة... هنا تحديداً.

ثبتت موضع العوينة كي تسمح لميلو بالنظر.

قرب الشط، بلباس سباحة مثير، كانت أرور الجميلة تركب فعلاً الدراجة المائية رفقة رفائيل باروس.

- هذا الشخص لا بأس به، على الأصح، أليس كذلك؟ سألت كارول وهي تستعيد مركز مراقبتها.

- هكذا إذاً؟ ت... تعتقدين ذلك؟

- حسناً، لا ينبغي أن نكون متطلبين أكثر! هل رأيت هذين الكتفين العريضين وصدر العداء ذاك؟ إن لهذا الرجل وجه ممثل، وهيئة إله يوناني!

- حسناً، يكفي هذا! دمدم ميلو وهو يدفع كارول للاستحواذ مجدداً على المنظار. اعتقدت أن ذلك جُعِلَ لمشاهدة كاسيوبيا وأوريون...

أفلتت منها ابتسامة بينما كان هو يبحث عن ضحية جديدة يتجسس عليها.

- السمراء المهتاجة كلياً بثدييها المزيفين وعقيصتها الروك أند رول، إنها...

- أجل، إنها هي! قاطعته كارول. قل لي، حينما تكف عن اللعب، يمكنك أن تقول لي كيف سنؤدي فاتورة الفندق؟

- ليست لدي أدنى فكرة عن ذلك، أقر ميلو بحزن.

أبعد عينيه عن «لعبته» ثم رفع حقيبة الرياضة الموضوعة فوق الكرسي ليجلس قبالة كارول.

- هذا الشيء يزن طناً، ماذا يوجد في الداخل؟

- شيء ما أحضرته لأجل طوم.

عقد حاجبيه، يحضها على تقديم تفسير.

عدتُ إلى منزله، صباح أمس، قبل مروري بمنزلك. أردت تفتيش المنزل لعلني أجد أدلة أخرى. صعدت إلى غرفته، تصور، لقد اختفت لوحة شاغال!

- اللعنة...

- هل كنت تعلم بوجود صندوق حديد مدسوس خلف اللوحة!

- لا.

لبرهة، انتعش أمل ميلو. ربما كان لدى طوم مدخرات مخفية تسمح لهما بالوفاء بجزء من ديونهما.

- لقد كنت متحيرة، لم أمنع نفسي من تجريب بعض التوليفات...

- هل توفقت في فتح الصندوق؟ قال مُخَمِّناً.

- أجل، بإدخال الشفرة 07071994.

- وهل تبادرت إلى ذهنك هكذا؟ قال ساخراً. إلهام رباني؟ لم ترد على تهكمه. إنه بكل بساطة تاريخ عيد ميلاده العشرين: 7 تموز/ يليوز 1997. لهذه الذكرى اكفهر وجه ميلو ودمدم بصوت نصف مسموع:

- في تلك الفترة لم أكن برفقتكما، أليس كذلك؟

- لا... كنتَ في السجن.

مرّ ملاك وصوَّب بعضاً من سهام الشجن نحو قلب ميلو. كانت الأشباح والشياطين لا تزال هناك، مستعدة للظهور مجدداً فور استسلامه. في رأسه كانت تتداخل صور متضاربة: صورة ذلك الفندق

الفاخر وصورة السجن القذر. جنة الأغنياء وجحيم الفقراء... خمسة عشر سنة من ذي قبل، كان قد قضى تسعة أشهر بسجن شَايْنْو للرجال. عبور طويل للظلمات. تطهير مؤلم وسم نهاية سنواته الرهيبة. ومذاك، رغم كل المجهودات لإعادة بناء ذاته، كانت الحياة بالنسبة إليه أرض زلقة وغير مستقرة، مستعدة للتحرك تحت كل خطوة من خطواته، وكان ماضيه عبارة عن قنبلة يدوية تم نزع دبوسها قابلة للانفجار في رأسه، في أي لحظة.

غمز بعينيه مرات عديدة كي لا ينساق وراء ذكريات يعرف أنها مدمِّرة.

- حسناً، ماذا كان في داخل الصندوق؟ سأل بصوت لا نبرة فيه.

- الهدية التي قدمت له بمناسبة عامه العشرين.

- هل لي برؤيتها؟

أذعنت بحركة من رأسها. رفع ميلو الحقيبة ووضعها على الطاولة قبل فتح السحابة.

*

الجناح رقم 12

- ماذا تفعلين بأمتعتي؟ صرختُ منتزعاً محفظة نقودي من يديّ بيلي.

- لا داعي للانفعال. كنت أصحو بصعوبة من حالة شبه غيبوبة. كان فمي جافاً وكأنه من الورق المقوى، وتيبسات بكامل جسمي، والكاحل يؤلمني بشدة، وينتابني شعور غريب بكوني قضيت الليلة داخل آلة غسيل.

- إني أكره الفضوليات! لقد جمعتِ حقاً عيوب الدنيا كلها!

- أوه، يكفي، من المخطئ، بعد كل شيء؟

- الحياة الخاصة، إنها شيء مهم! أعرف أنه لم يسبق لك قط أن فتحت كتاباً، لكن حينما تفعلين ذلك، قومي بإلقاء نظرة على سُولْيِينتْسينْ. لقد كتب شيئاً دقيقاً جداً: «إن حريتنا تنبني على ما يجهله الغير عن حيواتنا».

- إذاً، بالضبط، كنت أريد إعادة التوازن، قالت مدافعة عن نفسها.

- أي توازن؟

- إنك تعلم كل شيء عن حياتي، ومن الطبيعي أن يحركني الفضول قليلاً لمعرفة حياتك، أم لا؟

- لا، ليس ذلك بالأمر الطبيعي! لا شيء طبيعي بالمناسبة، ما كان ينبغي أن تغادري عالمك الخيالي، وما كان ينبغي علي أن أتبعك في هذه الرحلة.

- الظاهر أنك ودود مثل كمَّاشة، هذا الصباح. أنا أحلم. . . . إنها هي من يؤنبني!

- اصغ إلي: ربما لديك القدرة على قلب الوضع لصالحك، لكن ذلك لا ينجح معي أنا.

- من تكون تلك الفتاة؟ قالت مشيرة إلى البولارويد.

- إنها شقيقة البَابَا، هل يكفيك هذا الجواب؟

- لا، إنها حقاً إجابة ضعيفة. حتى في كتبك لن تجرأ على مثلها. يا لها من وقاحة!

- إنها كارول، صديقة الطفولة.

- ولماذا تحتفظ بصورتها في محفظة نقودك بمثل هذا الحرص والعناية؟ صوبت نحوها نظرة احتقار محتدمة.

- أوه، وبعد، اللعنة! زعقت وهي تغادر الشرفة. بالمناسبة، لا أبالي قلامة ظفر بكارول تلك! وجهت ناظري نحو الصورة المصفَرَّة التي يحفها إطار أبيض والتي كنت أمسك بيدي. سنوات من ذي قبل، كنت قد خِطْتُها في محفظة نقودي، لكن لم أنظر إليها قط مذاك. وطفت الذكريات على السطح بتؤدة. تبلبل ذهني وأعادني ستة عشر سنة إلى الوراء، وكارول ممسكة بذراعي وهي تسألني:

- توقف! لا تتحرك بعدها، يا طوم! تشييييز!

- طُقْ، بززززززززز.

ومن جديد، بدا سماع الصوت المميَّز للصورة الفورية الخارجة من فتحة الآلة. رأيتني أمسك بالكليشيه بخفة وهي تحتج:

- يا هذا! حذار! سوف تضع أصابعك عليها، دعها تجف! رأيتها تركض خلفي بينما كنت أرج البولارويد كي أُسِّرع من تجفيفها.

- أرني! أرني!

ثم تلك الدقائق الثلاث السحرية التي اتكأت خلالها على كتفي وهي تترقبَ الظهور المتدرج للصورة على الفيلم وضحكها المتواصل عندما اكتشفَتْ النتيجة النهائية!

*

وضعت بيلي صينية الإفطار على منضدة خشب السَّاج.

- طيب، قالت مذعنة، ما كان ينبغي لي تفتيش حاجياتك. أنا متفقة مع سولتيي-شيء ما ذاك:

للجميع الحق في امتلاك أسرار.

هدأ روعي وأصبحتْ هي ساكنة. سكبتْ لي فنجان قهوة؛ وأعددت لها فطيرة مزبدة.

- ما الذي حدث يومها؟ سألت مع ذلك بعد برهة. لم يعد في صوتها أي رغبة في التطفل أو الفضول الخبيث. ربما كانت تستشعر بكل بساطة أنني، رغم المظاهر، بلا شك في حاجة كي أسر إليها بهذه الحلقة من حياتي.

- كان يوم عيد ميلادي، ابتدرتُ، يوم بلغتُ العشرين.

*

لوس أنجلس

حي ماك آرثر بارك 7 تموز/ يوليوز 1994.

ذلك الصيف، الحرارة لا تحتمل. إنها تسحق كل شيء وتجعل الحي يغلي كالقِدْر. على ملعب كرة السلة، شوهت الشمس الزفت، لكن ذلك لا يمنع ما يقارب عشرة أشخاص عراة الصدر والذين يخالون أنفسهم ماجيك جونسون من تسجيل الأهداف باطراد.

- hey, Mr Freak!(*)، تعال وأرنا ما تجيد فعله؟ لم أبال بالرد، بل إنني لم أكن أسمع. رفعت صوت جهاز استماعي الجوال إلى أقصاه. ما يكفي حتى يكون قرع الـ beats الصاخب وثقل الأوتار الغليظة أقوى بكثير من الشتائم. مشيت على طول السياج حتى بداية مواقف السيارات، حيث هناك شجرة معزولة، والتي لا تزال مورقة، توفر مساحة ظليلة صغيرة. ذلك لا يضاهي مكتبة مكيّفة، لكنها أحسن من لا شيء للمطالعة. جلست على العشب اليابس، وظهري مسند إلى جذعها.

محتمياً بالموسيقى، أنا داخل فقاعتي. أنظر إلى ساعتي: الواحدة بعد الظهر. ما زال لدي نصف ساعة بعد قبل أخذ الحافلة للتوجه إلى

(*) أيا سيد وحش!

Venice Beach، حيث أبيع المثلجات في شارع boardwalk. مما ييسر لي قراءة بضع صفحات من المنتقيات الأخاذة للكتب التي نصحتني بها الآنسة ميلر، وهي أستاذة شابة للأدب بالكلية، لامعة ومحطمة أوثان، وهي تستحبني بالأحرى. في محفظتي تتعايش كتب مختلفة، مثل: **الملك لير** لشكسبير، **الطاعون** لألبير كامي، **تحت البركان** لمالكوم لوري، والألف وثمان مائة صفحة من الأجزاء الأربعة لـ **رباعية لوس أنجلس**، لجيمس إلروي.

بجهاز استماعي الجوال الكلمات القاتمة للألبوم الأخير لـ R E M. والكثير من موسيقى الراب أيضاً. إنها سنوات الساحل الغربي العظيمة: إيقاع الفلو (flow) عند Dr Dre، الغَانْسْكا فانْك لـ Snoop Doggy Doggy وغضب Tupac. إني أمقت هذه الموسيقى بقدر ما أحبها. صحيح أن الكلمات في أغلب الأحيان ليست ذات مستوى: مديح الحشيش، شتائم ضد البوليس، جنس فاضح، امتداح قانون المسدسات والسيارات. لكن على الأقل، فهي تحكي عن حياتنا اليومية وعما يحيط بنا: الشارع، الغِيتُو، اليأس، حرب العصابات، عنف عناصر الشرطة، والفتيات اللاتي يحبلن في سن الخامسة عشر ويضعن مواليدهن بمراحيض المدارس. وعلى الأخص، في الأغاني مثلما في المدينة، المخدرات في كل مكان وتفسر كل شيء: السلطة، المال، العنف والموت. ثم إن فناني الرابْ يمنحون الانطباع بأنهم يعيشون مثلنا: يهيمون على وجوههم أسفل البنايات، يتبادلون إطلاق النار مع رجال الشرطة، وينتهي بهم المطاف في المستشفى أو في السجن هذا إذا لم تتم تصفيتهم بكل بساطة في الشارع.

رأيت كارول قادمة من بعيد. ترتدي فستاناً من ثوب شفاف والذي يمنحها بفضل خدعة الانعكاسات مظهر امرأة لعوب. وهذا

ليس أسلوبها مع ذلك. في أغلب الأوقات، شأن الكثير من فتيات الحي، فهي تخفي أنوثتها تحت بدلات رياضية أو بلوزات ذات قبعات، وأقمصة تي شيرت XXL أو سراويل لاعبي كرة السلة القصيرة التي تفوق مقاسها ثلاث مرات. محملة بحقيبة رياضية كبيرة، تجاوزت الأوغاد، غير مهتمة بتهكماتهم أو تعليقاتهم غير اللائقة، للالتحاق بي في «عزلتي الهنيئة».

- مرحباً، يا طوم.

- أهلاً وسهلاً، قلت وأنا أنتزع السمَّاعتين من أذنيَّ.

- إلامَ تستمع؟

نحن نعرف بعضنا منذ عشر سنوات. ماعدا ميلو، فهي صديقتي الوحيدة. إنها الشخص الوحيد (باستثناء الآنسة ميلر) الذي أتبادل معه أحاديث حقيقية. الصلة التي تربطنا لا مثيل لها. إنها أقوى مما لو كانت أختي. أقوى مما لو كانت رفيقتي. إنها شيء «مغاير» لا أستطيع أن أطلق عليه اسماً.

إننا نعرف بعضنا منذ أمد بعيد، لكن شيئاً ما تبدل منذ أربع سنوات. ذات يوم اكتشفت أن الجحيم والرعب يقيمان في البيت المجاور لنا، على بعد أقل من عشرة أمتار من غرفتي. اكتشفت أن الفتاة التي كنت أمر بها في السُّلم كانت ميتة من الداخل سلفاً. وأنها في بعض الأمسيات، بعد أن استحالت مجرد شيء، كانت تعاني أشد العذابات، وأن شخصاً ما امتص دمها، حياتها ونسغها.

لم أجد أدنى وسيلة لمساعدتها. كنت وحيداً. كان عمري آنذاك ستة عشر سنة، لا مال عندي ولا عصبة، لا مسدس لدي ولا عضلات. كان لدي فقط عقل وإرادة، لكن ذلك غير كاف لمواجهة الدناءة.

وعليه، قمتُ بما استطعت إليه سبيلاً، محترماً ما التمسته مني. لم أستغث بأحد واختلقتُ لها حكاية. حكاية بلا نهاية تقتفي مسار **دليلة**؛ فتاة مراهقة تشبهها مثلما تتشابه قطرتا ماء، و**رفائيل**؛ ملاك حارس يحميها منذ طفولتها.

وطوال سنتين، كنت ألتقي كارول يومياً تقريباً وكل يوم جديد كان يَعِدُ بطفرة جديدة في حكايتي. كانت تقول بأن هذه الحكاية هي بمثابة درع تواجه به محن الحياة. وبأن شخصياتي ومغامراتهم تقذف بها في عالم خيالي يخفف عليها وطأة الواقع.

ومع إحساسي بالذنب من العجز عن مساعدة كارول على نحو مغاير، كنت أقضي مزيداً من الوقت في تخيل مغامرات دليلة. كنت أخصص لها جل أوقات فراغي، مختلقاً عالماً له ديكورات السينما سْكُوبْ في لوس أنجلس غريبة ورومانسية. كنت أجمع المعلومات، وأبحث عن مؤلفات خاصة بالأساطير، وألتهم كتباً قديمة عن السحر. كنت أمضي في ذلك الليالي، نافثاً الحياة، يوماً بعد يوم، في شخصيات عديدة تواجه بدورها نصيبها من الظلام والألم.

وعلى مر الشهور، أخذت حكايتي في النمو. وانتقلت من خرافة خارقة إلى حكاية مبادأة كي تصير أوديسة حقيقية. لقد كتبتُ هذه الحكاية المتخيلة بكل ما في قلبي من مشاعر، بما هو أفضل عندي، من دون أن أتوقع، خمسة عشر سنة بعد ذلك، أنها ستجعلني مشهوراً وسوف يقرأها ملايين القراء.

ولهذا السبب، إلى يوم الناس هذا لا أجري مقابلات تقريباً، لهذا السبب أتفادى الصحافيين ما أمكنني ذلك. لأن نشأة **ثلاثية الملائكة** هي سر لن أقتسمه ما حييت إلا مع شخص واحد في هذه الدنيا.

- إذاً، إلام تستمع؟

في الوقت الحاضر، تبلغ كارول السابعة عشرة من عمرها. إنها

تبتسم، إنها جميلة، ومن جديدة تنضح بالحياة، بالقوة وبالمشاريع. وأعرف أنها تظن بأن ذلك قد تم بفضلي أنا.

- أداء جديد لأغنية بْرِينْسْ من طرف سِينياد أُكونور، إنك لا تعرفينها.

- هل تسخر مني؟ الجميع يعرف Nothing compares 2U!

هي الآن واقفة أمامي. طيفها الأثيري يبرز في سماء تموز/ يوليوز:

- هل تود مشاهدة Forrest Gump بسينِراما دُومْ؟ لقد كان عرضه الأول البارحة. يبدو أنه لا بأس به...

- وإن يكن... قلتُ على مضض.

- لعلنا نستأجر Groundhog Day من نادي الفيديو أو نشاهد أشرطة VHS من سلسلة X-Files؟

- لا أستطيع يا كارول، إني أعمل هذه الظهيرة.

- إذاً... بادرت بالقول.

بتكتم، فتشت داخل حقيبتها الرياضية كي تخرج منها عبوة كُوكَا قامت بتحريكها وكأنها شمبانيا.

- يجب أن نحتفل بعيد ميلادك في الحال.

وقبل أن يصدر عني أي احتجاج، سحبتِ السدّادة ورشّت بسخاء صدري ووجهي.

- توقفي! هل جننت؟

- لا عليك، إنها خفيفة، لا تترك بقعاً.

- بالتأكيد!

مسحت البقعة وأنا أتظاهر بالانزعاج. ابتسامتها ومزاجها الرائق يمتعان الناظر إليها.

- وبما أننا لا نحتفل كل يوم بعيد ميلادنا العشرين، كنت مُصِرَّة على إهداءك شيئاً مميزاً، قالت بشيء من الوقار.

ومن جديد، أكبت على حقيبتها وناولتني رزمة كبيرة. للوهلة الأولى، لحظت أن لفافة الهدايا أنيقة جداً وأن مصدرها متجر «حقيقي». لما أمسكتها بيدي، لاحظت أنها ثقيلة الوزن وقد أحرجني ذلك قليلاً. ومثلما هو الشأن بالنسبة إلي، فإن كارول لا تملك فلساً واحداً. إنها تراكم الأعمال الصغيرة، لكن مدّخراتها القليلة هي مخصصة كلياً تقريباً لتمويل دراساتها.

- هيا، افتح، أيها الأبله! لا تظل جامداً هكذا ممسكاً ذلك بيديك!

بالعلبة الكارطونية، هناك شيء يتعذر الحصول عليه. ما يشبه الكأس المقدسة بالنسبة إلى الناسخ الذي هو أنا. أفضل من قلم حبر تشارلز ديكنز أو آلة كاتبة رويال لهمنغواي: إنه PowerBook 540c، قمة الحواسيب المحمولة. منذ سنتين، كلما مررت أمام واجهة Computer's club، لا أستطيع منع نفسي من التوقف للتحديق فيه بإعجاب. إني أعرف خصائصه عن ظهر قلب: معالج معلومات بسرعة 33 ميغاهرتز، قرص صلب بسعة 500 ميغابيت، شاشة LCD ملونة ذات قالب نشيط، مُودِم (محول) داخلي، بطاريات تتيح ثلاث ساعات ونصف الساعة من تخزين الطاقة، وهي أول آلة قامت بإدماج لوحة تتبع (تْرَاكْبادْ). أداة عمل لا مثيل لها تزن أكثر من ثلاث كيلوغرامات بقليل، ثمنها... 5000 دولار.

- لا يمكنك أن تهديني هذا، قلتُ.

- بلى، يجب أن تقر بذلك.

أنا مندهش وهي أيضاً. عيناها تلمعان ولا ريب أن عينيَّ كانتا كذلك.

- إنها ليست هدية، يا طوم بل مسؤولية.

- لم أفهم قصدك.

- أريدك أن تكتب يوماً حكاية دليلة ورفقة الملائكة. أريد لهذه الحكاية أن تفيد بالخير أشخاصاً آخرين غيري.

- لكني أستطيع كتابتها على الورق بقلم حبر!

- ربما، لكن بقبولك هذه الهدية، فذلك شكل من أشكال الالتزام. التزام نحوي أنا.

لا أدري بم أجيب.

- أين وجدتِ المال، كارول؟

- لا تشغل نفسك بذلك: لقد تصرفتُ.

ثم حلَّت تلك الثواني القليلة التي لا يتكلم خلالها أحد. تجتاحني الرغبة في ضمها بين ذراعيَّ، بل ربما تقبيلها، وبل مصارحتها بأني أحبها. لكن لا هي ولا أنا، لم نكن على استعداد للقيام بذلك. إذاً، وعدتها فقط بأن أكتب ذات يوم هذه الحكاية، من أجلها.

ولتبديد انفعالنا، استخرجتْ شيئاً أخيراً من حقيبتها: إنها آلة بُولارُويْد قديمة لبْلاَكْ ماما. أحاطت خاصرتي بذراعها ورفعت آلة التصوير على مبعدة منها والتمست مني وهي تتخذ وضعها:

- توقف! لا تتحرك أبداً، طوم، تْشِيييزْ!

*

فندق لا بويرتا ديل باريزو الجناح 12.

- واهاً، لكارول هذه، إنها فتاة عجيبة! . . . همست بيلي بينما كنتُ أنهي حكايتي.

كانت عيناها تشعان بكثير من الرقة والإنسانية، تقريباً كما لو أنها تراني للمرة الأولى.

- ما عملها في أيامنا هذه؟

- إنها شرطية، قلت وأنا أبتلع جرعة قهوة قد صارت باردة.

- وذلك الحاسوب؟

- إنه ببيتي، داخل خزنة حديد. بواسطته كتبت المسودات الأولى **لثلاثية الملائكة**. كما ترين: لقد وفيت بوعدي.

نازعتني الإحساس بالرضا:

- لعلك تفي بوعدك حينما تكتب الجزء الثالث. بعض الأشياء يسهل الشروع فيها، لكنها لا تتخذ معناها كاملاً إلا حينما ننهيها.

كنتُ على وشك أن أطلب منها الكف عن التلفظ بجملها الجازمة عندما طرق الباب.

فتحت الباب من دون اتخاذ الحيطة، وأنا متأكد بأني سوف أجد خدمة الغرف، أو عاملة النظافة، لكن بدل ذلك...

لقد عشنا جميعاً هذا النوع من التجارب: لحظات رحيمة يبدو أنها من تدبير مهندس سماوي قادر على أن ينسج بين الكائنات والأشياء وشائج غير مرئية كي يمنحنا بالضبط ما نحن في حاجة إليه في اللحظة المحددة التي نحن في حاجة إليه:

- نهارك سعيد، قالت لي كارول.

- مرحباً صديقي، قال ميلو من دون مواربة. جميل أن نراك مجدداً.

21

حب، تيكيلا وماريّاتشي(*)

كانت جميلة مثل زوجة رجل آخر.

بول موران

متجر الفندق ساعتان بعد ذلك.

- هيَّا! توقف عن التصرف كطفل! أمرتني بيلي وهي تسحبني من يدي.

- لماذا تريدين إدخالي هناك؟

- لأنك تحتاج ملابس جديدة! نظراً إلى رفضي، دفعتني من الظهر فوجدتني مسحوباً من طرف الباب الدوار الذي قذفني داخل الردهة الفخمة لمتجر الفندق.

- إنك مخبولة! صرخت منتصباً. وكاحلي! أحياناً يبدو لي أن عقلك قد فسد. صالبت ذراعيها على شاكلة مُدَرِّسَة صارمة:

- اصغ إلي، إنك تشبه بلباسك ورقة اللعب آس البستوني، بشرتك لم تلمسها أشعة الشمس منذ ستة أشهر، وطول قصة شعرك توحي بأن حلاقك قد مات السنة الماضية.

(*) حب، تيكيلا (مشروب كحولي يعود أصله إلى قرية مكسيكية بالاسم نفسه) وماريّاتشي، (موسيقى مكسيكية شعبية ضاربة في القدم).

- وبعد؟

- إذاً، عليك تغيير الأسلوب إن كنت لا تزال تريد إثارة إعجاب امرأة ما ! هيَّا، اتبعني!

تبعتها على مضض، ولم يكن لدي استعداد للقيام بجولة للتسوق. القاعة الفسيحة التي تعلوها قبة زجاجية لا تمت بصلة لما هو مكسيكي، تُذَكِّر على الأصح بديكورات الفن الجديد لمتاجر لندن، أو نيويورك أو باريس الراقية. معلقة إلى السقف، ثُرَيات من الكريستال إلى جانب صور عملاقة، فنية إلى حد ما، لبراد بيت، روبي وليامس وكريستيانو رونالدو. كان المكان ينضح بالنرجسية والتفاخر.

- حسناً، سوف نبدأ بالعناية بالوجه، قرَّرت بيلي. العناية بالوجه. . . قلت بحسرة وأنا أهز رأسي. بملابس فاخرة، كانت بائعات رواق مواد التجميل تعطين الانطباع بأنه قد تم استنساخهن. عرضن علينا خدماتهن، لكن بيلي صرفتهن - هي التي بدا أنها مرتاحة وسط العطور والكريمات ومحاليل الغسول -.

- اللحية المهملة ومظهر إنسان الكُرومَانْيونْ البدائي ذاك، لا يليقان بك إطلاقاً، قالت بيلي جازمة.

- أحجمتُ عن كل تعليق. إذ في الواقع أهملتُ نفسي خلال الشهور الأخيرة. أمسكتْ سلة وألقت فيها بالعبوات الثلاث التي اختارتها.

- تنظيف، تقشير، تطهير، قالت مُعَدِّدة. انتقلت إلى رواق آخر وهي مسترسلة في تعليقاتها:

- إني أقدر كثيراً صديقيك. رفيقك، إنه شخص مضحك، أوَليس كذلك؟ لقد كان منفعلاً بشدة لرؤيتك مجدداً. . . كان ذلك مؤثر جداً. لقد أمضينا للتو الساعتين الأخيرتين رفقة كارول وميلو.

لقد أثلج صدري جمع شملنا وبدا لي أني أتجاوز محنتي قليلاً ما.

- هل تعتقدين أنهما صدَّقا حكايتنا؟

- لا أدري، من الصعب تصديق ما لا يصدق، قالت.

*

مسبح الفندق حانة جيميس

في ظل كوخ من القش، كانت الحانة تطل على المسبح وتتيح رؤية مذهلة للبحر ولمسار غولف عجيب ذي ثمانية عشر حفرة على امتداد ساحل المحيط.

- إذاً، ما رأيك في بيلي تلك؟ سألتني كارول.

- إن لها ساقان ينزعان أزرار فتحة السروال من مكانها، قال ميلو وهو يمتص بشفَّاطة قش جرعة من كوكتيله المُقَدَّم في جوز الهند. نظرت إليه بذهول.

- ينبغي أن تفسر لي يوماً لماذا كل شيء يؤول عندك إلى المؤخرة.. هزَّ كتفيه مثل طفل تم تأنيبه. قبالتهما، كان الساقي يحرِّك بقوة عبوته الرجَّاجة، وهو يُعِّد بمبالغة مشروب Perfect After Eight الذي طلبته كارول.

حاول ميلو مواصلة الحديث:

- جيد، وأنت، ما رأيك؟ لا تقولي بأنك تستسيغين حكاية الشخصية الروائية التي سقطت سهواً من كتاب؟

- أعلم أن ذلك يبدو جنونياً، لكني أحب هذه الفكرة، أجابت وهي مستغرقة في التفكير.

- أعترف بأن التشابه الخلقي يبلبل، لكني لا أؤمن بحكايات الجنيات ولا بالسحر.

بحركة من رأسها شكرت كارول النادل الذي وضع كأسها على

الصينية. ثم غادرا المشرب للنزول نحو المسابح والاسترخاء على كراسيهما الممدودة.

- سواء أردتَ ذلك أم لم ترد، نظراً إلى مجموع شخصياتها المكلومة، فإن حكاية **ثلاثية الملائكة** تمتلك شيئاً من السحر، استطردتْ وهي تنظر نحو المحيط.

في خضم هذا الاندفاع، أسرَّت إلى ميلو باعتقادها الراسخ:

- هذا الكتاب مختلف عن الكتب الأخرى. إنه يُوَلِّد الوعي لدى القراء، إذ يكشف لهم عن التصدعات وكذا عن الموارد التي لم يشكوا حتى في وجودها. في ما مضى، أنقذت هذه الحكاية حياتي وبدَّلت إلى الأبد مسار حيواتنا، وذلك بأن أتاحت لنا نحن الثلاثة مغادرة المجمع السكني.

- كارول؟

- ماذا؟

- هذه الفتاة التي تدعي أنها بيلي هي مجرد متآمرة، هذا كل ما في الأمر. ساقطة تستغل ضعف طوم سعياً منها للنصب عليه.

- كيف يستقيم أن تنصب عليه؟ صاحت. بسببك لم يتبق لديه ولا فلس واحد.

- لا تكوني بكل هذه القسوة! هل تظنين أنه من السهل علي التعايش مع هذه المسؤولية؟ لن أغفر لنفسي أبداً التسبب في كل هذا الإفلاس. إني أفكر في ذلك ليل نهار، وأبحث منذ أسابيع عن وسيلة للتكفير عن ذنبي.

- قامت من على كرسيها الممدود ونظرت إليه بقسوة.

- على فرض أنك شخص يرزح تحت ثقل المسؤولية، أجد أنك مطمئن البال بأصابع رجليك المبسوطة، وقبعتك التي من القش، وكوكتيلك بجوز الهند.

أدارت له ظهرها وابتعدت صوب الشاطئ.

- إنك غير منصفة!

وثب من على كرسيه الممدود وركض خلفها محاولاً إيقافها:

- انتظريني!

خلال جريه، زلت قدماه على البلاط المبلل ثم انزلق.

اللعنة!

*

متجر الفندق

- هذا ما سيناسبك: صابون مطهر مصنوع من حليب الماعز. وأيضاً هذا الهلام من أجل التقشير.

واصلت بيلي مشترياتها، وهي تمطرني بتوصياتها واعتباراتها الجمالية:

- أوصيك، بصدق، بهذه الكْرِيمَة المضادة للتجاعيد. إنك تصل إلى سِنّ حرجة بالنسبة إلى الرجل. إلى حد الآن سُمْكُ بشرتك كان يحميك من تقلبات الدهر، لكن كل ذلك انتهى: سوف تتعمق تجاعيدك بدءاً من الآن. ومن فضلك، لا تكن ساذجاً وتصدق النساء اللائي يدعين بأن ذلك يمنحك سحراً إضافياً!

وما إن تنطلق، لا حاجة بعد ذلك للرد عليها. إنها تضطلع بالعرض لوحدها:

- ثم، لديك كدمات أسفل الجفنين. بجيوبك وهالاتك، قد نعتقد أنك خارج لتَوِّكَ من حفل دام ثلاثة أيام. هل تعلم بأنه ينبغي النوم على الأقل ثماني ساعات ليلاً لتسهيل ارتواء البشرة؟

- يمكن القول إنك خلال هذين اليومين الأخيرين لم تمهليني بعض الوقت لفعل ذلك...

- هكذا إذاً، الذنب ذنبي! وهاهو مصل الكولاجين. وعبوة للسمرة الذاتية من أجل الحصول على اللون الرائج محلياً. لو كنت مكانك، لقمت بزيارة قصيرة للحمام الفوَّار، إن لديهم آلات لمحو الترهلات القبيحة. لا؟ أنت متأكد؟ إذاً، تشذيب الأظافر، لديك أظافر عَتَّال.

- وهل تدرين ما تقوله لك أظافري؟

فجأة، عند منعطف أحد الأجنحة، وبينما كنا نلج رواق العطور، اصطدمتُ وجهاً لوجه بصورة من الحجم الطبيعي لرفائيل باروس. ابتسامة أكْوافْريشْ، صدر عارٍ، منكبان عريضان، نظرة ملتهبة ولحية على شاكلة جيمس بلانت، كان أبُولُون الجميل هذا يمثل علامة مشهورة من النوع الراقي اختارته لتجسيد روح عطرها الجديد: جُمُوح.

أمهلتني بيلي حتى استوعبت الصدمة ثم سعت إلى مواساتي:

- أنا متيقنة بأنهم أدخلوا تحسينات على الصورة، قالت بتودد. لكني لم أكن في حاجة لشفقتها.

- اخرسي، من فضلك. وحيث كانت ترفض أن تجتاحني الكآبة، جرتني في أعقابها، مرغمة إياي على المشاركة في مطاردتها للكنز.

- انظر! صاحت وهي تتوقف أمام معرض. ها هو سلاحنا الشامل كي تستعيد بشرتك بريقها: قناع بِلُبِّ ثمرة الأفوكا.

- من المستحيل أن أدهن بهذا الشيء الصالحِ للممسحات!

- لا حيلة لي إن كانت سحنتك باهتة!

وبينما شرعت في الغليان، صبت الماء على النار:

- أما عن العناية بالشعر، فأنا أرفع الراية البيضاء، إذ لترويض

شعرك الكث، حظاً سعيداً! لعلنا نشتري مسبقاً شامبو بالكِيراتين، لكني سوف أحجز لك موعداً مع جورجيو، حلاق الفندق.

منجرفة وراء اندفاعها، هاهي الآن تجتاز الجناح المخصص للموضة الرجالية.

- حسناً، لننتقل إلى الأمور الجدية.

ومثل أي رئيس للطباخين يختار عناصره قبل إعداد وجبة رفيعة، أخذت تنقب حسب الرفوف:

- هيا، سوف تجرب لي هذا، هذا و... إحم.... هذا. التقطتُ وهو لا يزال محلقاً في الهواء قميصاً أحمر فوشياً، وسترة أرجوانية، وسروالاً من حرير السَّاتان.

- هل أنت متأكدة أنه للرجال؟

- من فضلك، لن تصطنع أزمة الذكورة، أياً كان الأمر! إن «الرجال الحقيقيين» يلبسون على نحو رفيع. هذا القميص المطَّاط والمُضَيَّق، مثلاً، لقد أهديت مثله لجَاكْ و...

علقت جملتها، لما أدركت، على نحو متأخر شيئاً ما، بأنها ارتكبت خطأ.

وبالفعل، فقد رميت اللباس على وجهها وغادرتُ المتجر من دون مزيد من اللغط.

يا للنساء... تنهدتُ وأنا ألج الباب الدَّوَّار.

*

يا للنساء... تنهد ميلو.

وأنفه محشو بقطن دَامٍ، كان يمشي ورأسه إلى الخلف أثناء عودته من المستوصف، حيثُ قدم له طبيب الفندق بعض الإسعافات بُعَيْدَ سقطته. وبسبب من كارول عرَّض نفسه للسخرية، إذ أنهى

انزلاقه فوق «أوريون وكاسيوبيا»، ساحقاً عجيزة الواحدة ومهرقاً مثل بغل كوكتيل جوز الهند على صدر الأخرى.

في هذه الآونة، لم أُخِطأ ولا واحدة. بعد وصوله إلى بهو المعرض التجاري، ضاعف من حذره: كان البلاط زلجاً والممر مكتظاً.

هذا ليس أوان السقوط من جديد، قال محدثاً نفسه، حينها خرج رجل مثل الصاروخ من الباب الدَّوَّار واصطدم به.

*

- ألا تستطيع الانتباه لموضع قدمك؟ قال متحسِّراً وأنفه ممرغ في البلاط.

- ميلو! صحتُ وأنا أعينه على الوقوف.

- طوم!

- هل تأذيت؟

- إن ذلك ليس خطيراً جداً، سوف أخبرك في ما بعد.

- أين هي كارول؟

- إنها تمر بأزمتها المعهودة.

- ماذا لو نحتسي جعة ونأكل لمجة؟

- أنا لها!

كان مطعم Window on the sea أفخم مطعم في الفندق. مجهز من ثلاث طوابق، يعرض، على شكل سُفْرَة، الفنون المطبخية لأثني عشر بلداً مختلفاً. كانت جدرانه الطينية تزدهي بلوحات فنانين محليين: لوحات طبيعة جامدة أو بورتريهات ذات ألوان مكثفة تذكر بلوحات ماريا إزكييردو وريفينو تامايو. للزبائن الاختيار بين القاعة المكيفة أو الموائد المرتبة في الخارج. جلسنا في الهواء الطلق

مستمتعيْن بمنظر ساحر يطل على المسبح الغارق في الشمس وعلى بحر الكورتيس.

كان ميلو ذلق اللسان:

- إني سعيد جداً لرؤيتك على هذا النحو، يا صديقي. إنك أحسن من ذي قبل، أليس كذلك؟ على أي حال، سحنتك أفضل مما كانت عليه خلال الأشهر الستة الأخيرة هذه. الفضل يعود في ذلك إلى الفتاة، صارحني؟

- الحقيقة أنها أنقذتني من الهاوية، أقررتُ.

كانت هناك مجموعة من الخدم يطوفون حول الموائد بصينيات محملة بكؤوس الشامبانيا الفضية، وسُوشِي كاليفورنيا رول بالكبد الدَّسم، وفاكهة البحر «الجمبري» المقرمشة.

- ما كان ينبغي أن ترحل على ذلك النحو المباغت! قال معاتباً إياي وهو يلتقط كأسين وصحناً من الأطعمة المرفقة مع المشروب.

- ومع ذلك، فهذه الانتفاضة هي ما أنقذني! ثم إنني اعتقدت بأنكما تودان وضعي قيد الحجر الصحي!

- ذلك العلاج بالنوم كان غلطة منا، أقرَّ بشيء من الخجل. بعدما يئست من عجزي عن إيجاد وسيلة لمساعدتك، كنت مذعوراً، فلجأت بكل سذاجة إلى صوفيا شنابل تلك.

- حسناً، كل هذا أصبح من الماضي، اتفقنا؟ شربنا نخب المستقبل، لكني لاحظت أن شيئاً ما يشغل باله.

- اطمئن، قال ملتمساً مني بعد حين. في ما يخص هذه المرأة، إنك لا تصدق حقاً بأنها بيلي الأصلية، أليس كذلك؟

- مهما بدا ذلك غير قابل للتصديق، أخشى أنها هي.

- في نهاية المطاف، الحجر الصحي لم يكن فكرة سيئة إلى ذلك الحد، قال مُكَشِّراً وهو يبتلع فاكهة الجمبري.

وما كدت أجيبه بأن يغرب عن وجهي حتى اهتز هاتفي في ما يشبه هديراً معدنياً معلناً عن التوصل برسالة قصيرة.

نهارك سعيد، طوم

جعلتني هوية المرسِلَة أرتجف. لم يكن بمقدوري الإحجام عن الرد.

نهارك سعيد، أرو

ماذا تصنع هنا؟

فليطمئن بالك، لست هنا من أجلك.

قام ميلو من مكانه، هو الوفي لعادته، وأخذ يقرأ بكل وقاحة حديثي المتبادل مع رفيقتي القديمة.

ومن أجل ماذا أنت هنا إذن؟

أقتنص بعض الأيام للعطلة. لقد أمضيت سنة صعبة كما تعلمين

آمل أنك لا تسعى لإثارة غيرتي بتلك الشقراء التي كانت ترافقك في المتجر

- يا لجرأة هذه المرأة، مهما يكن! انفجر ميلو. قل لها بأن تذهب إلى الجحيم.

لكن قبل أن أرقن أي رد، بعثت لي قذيفة جديدة:

وقل لرفيقك أن يكف
عن شتمي...

- العاهرة! صرخ المعني بالأمر.

... وعن قراءة رسائلي
القصيرة من خلف كتفك.

تلقى ميلو الرسالة مثل صفعة، ومع إحساسه بالمهانة، تفحص الموائد من حولنا.

- إنها في الأسفل! قال وهو يشير إلى مائدة موضوعة في ظل قبة صغيرة قرب البوفيه بالهواء الطلق.

نظرتُ من فوق الدرابزين: بحذائَيْ بَالْرِينَا وكسوة بارِيُو، كانت أرور تتناول وجبة الغذاء رفقة رفائيل باروس، وعينها مثبتة على البْلاَكْ بِيرِي الذي لها.

وحتى لا أنساق وراءها، أطفأت هاتفي والتمستُ من ميلو أن يهدئ من روعه.

تطلب منه ذلك كأسان من الشمبانيا.

*

- جميل، الآن وقد تحسنت حالتك، ما الذي تتطلع إليه في مستقبلك؟ قال متحيراً.

- أظن أني سأعود إلى التعليم، قلتُ. لكن في مكان آخر غير

الولايات المتحدة. لدي ذكريات كثيرة في لوس أنجلس.

- وأين تنوي الرحيل؟

- فرنسا، ربما. هناك ثانوية دولية بالكُوتْ دازور التي أبدت اهتمامها بِسيرتي الشخصية. سوف أُجرِّبُ حظي.

- إذاً ستهجرنا، قال وهو مغتاظ.

- يجب أن نَكْبُر يا ميلو.

- والكتابة؟

- الكتابة، انتهى أمرها.

فتح فمه للاحتجاج، لكن قبل أن ينبس بكلمة، هبت عاصفة من خلفي معبرة عن رفضها:

- كيف ذلك، انتهى أمرها؟ وأنا إذاً؟ صرخت بيلي.

التفتت كل العيون نحونا باستنكار. بين مقالب ميلو واندفاعات بيلي، كنت أدركَ أن مكاننا ليس بين هذه النخبة من النجوم وأصحاب الملايير. بل كان داخل بيت صغير في الضاحية، فيه نشوي النقانق على مشواة الفحم، ونشرب الجعة ونراكم تسجيل أهداف بكرة السلة.

- لقد قطعتَ على نفسك عهداً بمساعدتي! قالت بيلي مؤاخذة إياي وهي مشرفة على مائدتنا. وقد زاد ميلو في الطين بلة:

- صحيح أنك قطعت على نفسك عهداً...

- أوه أنت، كفى! قاطعته وأنا أصوب نحوه سبابة مهدِّدة.

أمسكت المرأة الشابة من ذراعها وأخذتها على انفراد.

- سوف نكف عن الكذب على بعضنا. لم أعد أستطيع الكتابة. لم أعد أرغب في الكتابة. هكذا جرى الأمر. لا أطلب منكما تفهم ذلك، بل تقبله فحسب.

- وأنا أريد العودة إلى دياري!

- إذاً اعتبري من الآن فصاعداً أن ديارك ها هنا. في هذه «الحياة الحقيقية» اللَّعينة التي يبدو أنك تفضلينها كثيراً.

- لكني أريد ملاقاة أصدقائي.

- كنتُ أظن أن لا أصدقاء لك! أجبتها.

- دعني أرى جَاكْ على الأقل.

- رجال لمضاجعتك، إنهم بالكثرة حيث لا يحصيهم عد.

- لديك مشكلة كبيرة مع ذلك! وأمي! هل سأعثر على عدد لا يحصى من الأمهات أيضاً؟

- اصغي إلي، لستُ مسؤولاً عما يحدث لك.

- ربما، لكن كان هناك عقد بيننا! قالت وهي تخرجُ من جيبها قطعة المفرش الورقي المدعوك الذي وثَّق اتفاقنا. لديك الأطنان من العيوب، لكني كنت أعتقد على الأقل أنك رجل يفي بعهوده.

ومن غير أن أفلت ذراعها من يدي، أرغمتها على النزول بصحبتي عبر الأدراج الحجرية التي تؤدي إلى المائدة المنصوبة قرب المسبح.

- كُفِّي عن الحديث عن عقد لا يمكنك الوفاء بنصيبك فيه! قلتُ وأنا أومئ بحركة من ذقني إلى المائدة، حيث كانت أرور ورفيقها يتابعان المهزلة التي حلت بنا.

لم تعد لي رغبة في خداع نفسي أو العيش في الوهم.

- عقدنا بات لاغياً: إن أرور تعيش حياتها من جديد، ولن تستطيعي إعادتها إلي أبداً.

نظرت إلي والتحدي باد عليها.

- هل تود المراهنة؟

بسطتُ ذراعيَّ علامة على عدم الفهم.

- طاوعني.

دنت مني بلطف، وضعتْ يدها خلف رقبتي، وببطء المداعبة، طبعتْ قبلة على شفتيَّ. كان فمها نديًّاً وحلواً. اقشعرَّ بدني بفعل المفاجأة، تراجعتُ خفية. ثم شعرت بقلبي يخفق بسرعة، باعثاً فيَّ مشاعر انطفأت منذ زمن بعيد. وإذا كانت هذه القبلة غير المنتظرة، في البداية، قد بدت وكأنها اغتصبت مني، فإنه لم يعد لي الآن أي رغبة في وضع حدٍّ لها.

22

أُرُوزْ

كنا معاً تائهين في غابة فترة تحَوُّلٍ قاسية؛ تائهان في عزلتنا؛ (...) تائهان في حبنا للمطلق (...) وثنيان زاهدان محرومان من مدافن ومن آلهة.

فكتوريا أوكامبو، «رسائل إلى بيار دربيوه لاروشيل».

حانة بوربون ستريت ساعتان بعد ذلك.

بُروق متتابعة انقدحت في كبد السماء. اصطك الرعد فانهمر مطر قوي على الفندق، وارتجت أشجار النخيل، وتزلزلت أسقف القش، وتبَقَّع سطح الماء برشاش كثير. منذ ساعة، لجأتُ إلى الشرفة المغطاة لحانة النبيذ المنصوبة في بيت مزارع من الطراز الكولونيالي الذي يذكر ببعض منازل لانوفيل أورليان. وبيدي فنجان قهوة، كنت أتابع السيَّاح الذين طردهم الفيضان، وهم يهرعون إلى أجنحتهم المريحة.

كنت بحاجة لأن أكون لوحدي حتى أسترد رشدي. كنت حانقاً على نفسي. غاضباً من أني تبلبلتُ جرَّاء قبلة بيلي ولكوني جاريت هذه الخدعة المقيتة لغاية وحيدة ألا وهي إثارة غيرة أرور. لم نعد في سن الخامسة عشرة ولم يعد لهذه الصبيانيات أي معنى.

مسدتُ جفنيَّ وعدتُ إلى عملي. في أعلى الشاشة، كنت أراقب بيأس الزالقة وهي تومض على يسار صفحتي البيضاء. كنتُ قد شغَّلت المَاكْ (الماكنتوش) القديم الذي أحضرته كارول يحدوها أمل مبالغ فيه بأن هذه الآلة القادمة من الماضي سوف تقدح زناد العملية الإبداعية. على لوحة المفاتيح هذه، زمن «ازدهاري»، كنت قد كتبتُ المئات من الصفحات، لكن الحاسوب لم يكن عصاً سحرية.

وأنا عاجز عن أدنى تركيز، وغير مكترث لخط ثلاث كلمات مترادفة، كنت قد فقدت في الآن نفسه ثقتي وحبل حكايتي.

كانت العاصفة تجعل الجو ثقيلاً وضاغطاً. وأنا جامد قبالة شاشتي، شعرت بالغثيان يجتاحني. كنت أشعر بالدوار. كان ذهني في ملكوت آخر، تشغلني هواجس أخرى، كما أن كتابة بداية أصغر فصل كانت تبدو لي أشد مخاطرة من صعود الهملايا.

شربت جرعة أخيرة من القهوة وقمتُ لطلب فنجان جديد. في الداخل، كانت للقاعة ملامح حانة إنجليزية. مشغولات خشبية، ومنقوشات من مواد مختلفة، أرائك من الجلد تمنح المكان جواً مريحاً ودافئاً.

دنوتُ من المنصب وحدقتُ في المجموعة الهائلة للقنينات المرتبة خلف المشرب المصنوع من الأكاجو. وبدلاً من قهوة فإن المكان يحث على طلب كأس ويسكي أو كونياك وتذوقه مع تدخين سيغار هافانا والاستمتاع بخلفية موسيقية قوامها عزف فينيل مهروس لدِينْ مَارْتْن.

وبالضبط، في ركن من القاعة، كان أحد ما قد أخذ مكانه عند البيانو لعزف أولى نغمات As Time Goes By. التفتُ، وأنا أكاد أتوقع رؤية سَامْ، عازف البيانو الأمريكي الأسود في فيلم كازابلانكا.

جالسة على كرسي جلدي من دون متكأ، كانت أرور ترتدي سترة طويلة من الكشمير وجوارب لاصقة سوداء مزيَّنة بزخارف من الدانتيلا. مطويتان إلى الجانب، كانت ساقاها المستدقتان تمتدان بحذاء كعب عالٍ أحمر عقيق. رفعت رأسها نحوي وهي تواصل العزف. كانت أظافرها مصبوغة بلون البنفسج وسبابتها اليسرى مزينة بحجر كريم مرصَّع. وتعرفت إلى الصليب الصغير من الحجر الأسود الذي كان يطوق عنقها غالب الأوقات أثناء حفلاتها الموسيقية.

خلافاً لأصابعي، كانت أصابعها تجري على لوحة مفاتيحها بكل خفة. وبسلاسة انتقلت من **كازابلانكا** إلى **شكوى الهضبة** قبل أن ترتجل تنويعاً على My Funny Valentine.

كانت الحانة شبه فارغة، لكن من حضر من الزبائن القلائل كان ينظر إليها بافتتان، مسحوراً بما يُشِعُّ منها: خليط من غرابة مارلين ديتريش، إغراء آنا نِتْريبْكو وشهوانية ميلودي غاردو.

أما عني، أنا الذي لم أتماثل للشفاء ولم يَزُل مني السُّم الذي ينخرني، فقد كنت ضحية للافتتان نفسه. كان من المؤلم جداً رؤيتها من جديد. لما هجرتني، أخذت معها كل ما كان فيَّ من طاقة: أمالي، ثقتي وإيماني بالمستقبل. لقد جففت ينابيع وجودي، أفرغته من ضحكاته وألوانه. إنها على الخصوص خنقت قلبي، وانتزعت منه كل إمكانية للحب من جديد. في الوقت الحاضر، أضحت حياتي الداخلية تشبه الأرض المحروقة، بلا أشجار ولا طيور، جامد إلى الأبد في جليد كانون الثاني/ يناير. لم تعد لدي لا شهية ولا رغبة، ما عدا الرغبة في حرق خلاياي العصبية يومياً من فرط الأدوية لمحو ذكريات باتت مواجهتها مؤلمة جداً.

*

لقد وقعت في حب أرور مثلما يصاب المرء بفيروس قاتل. كنت

قد التقيتها في مطار لوس أنجلس، في طابور الصعود إلى الطائرة ذات رحلة لليونايتيد إيرلاينز المتجهة إلى سِيُولْ. كنت ذاهباً إلى كوريا الجنوبية من أجل حملة دعائية لكتبي، أما هي فمن أجل عزف ألحان بروكوييف. أحببتها منذ الدقيقة الأولى، من أجل كل شيء، من أجل لاشيء: ابتسامة حزينة، نظرة لها شفافية البِلَّور، طريقة مميزة لإبعاد خصلات شعرها خلف أذنها، وهي تلفت رأسها كما في التصوير البطيء. ثم إني أحببت كل واحدة من تموجات صوتها، ذكاءها، حس الدعابة لديها، وتلك المسافة الظاهرة التي تضعها إزاء خِلْقَتِها. وفي ما بعد، أحببتها من أجل كل واحدة من تصدعاتها الخفية، من أجل حياتها الشقية، من أجل جراحها خلف درعها الحديدي. طوال بضعة أشهر، عشنا سعادة وقحة قذفت بنا إلى أعلى المقامات: مقامات اللحظات المعلَّقَة، الأكسجين الزائد عن الحاجة، والتيهان.

كنت أستشعر بالطبع أن هناك ثمناً ينبغي دفعه. كنت أُدَرِّسُ الأدب وقد تذكرت تحذيرات المؤلِّفِين الذين كنت معجباً بهم: ستاندال ونظريته عن التعلق العاشق؛ تولستوي وآنا كارينين التي ارتمت على سكة القطار بعد أن ضحت بكل شيء من أجل المحبوب؛ أَرْيَان وسُولاَلْ، العاشقان في **جميلة الرب** اللذان أنهيا انهيارهما المحتوم مُخَدَّرَيْن باستنشاق الكحول، في عزلة حقيرة داخل غرفة بأحد الفنادق. لكن الهوى يشبه المُخَدِّر: إن معرفة عواقبه المدمرة لم تمنع أحداً من الاستمرار في تدمير ذاته بعد أن دخل تلك الدوامة.

بعد أن استحوذ علي الاعتقاد الخاطئ بأني لم أكن نفسي إلا برفقتها، انتهى بي المطاف إلى الاقتناع أن حبنا سوف يستمر وأننا سننجح في ما فشل فيه الآخرون. لكن أرور لم تكن تستنهض ما هو أفضل بداخلي، بل كانت تحيلني إلى سمات مزاجية كنتُ أمقتها وقد

عملتُ منذ أمد بعيد على محاربتها: نوع من التملك، افتتان بالجمال، الاستخفاف في الاعتقاد بأن نفساً طيبة توجد خلف وجه ملائكي، والاعتداد النرجسي بالارتباط مع امرأة فاتنة، بوصف ذلك علامة على الاختلاف الذي يميزني عن سائر الذكور من جنسي.

أكيد أنها كانت تجيد البقاء على مسافة من شهرتها وتدعي أنها لا تنخدع بشيء، لكن نادراً ما تجعل الشهرة شخصية من يصلوا إليها أفضل ما يكون. إنها تعمق الجراح النرجسية أكثر من تلطيفها.

كنت واعياً بكل ذلك. كنت أعلم، أكثر من أي شيء آخر، أن أرور تعيش في قلق من رؤية جمالها يذبل وفقدان موهبتها الفنية: القوَّتان السحريتان اللتان حبتها بهما السماء واللتان تميزانها من باقي البشر. كنت أعلم أن صوتها الموزون قد يصير هشاً. كنت أعلم بأنه خلف الأيقونة المطمئنة تكمن امرأة تنقصها الثقة في النفس، لاقت صعوبة في العثور على التوازن الداخلي، والتي كانت تعالج قلقها بالنشاط المفرط، راكضة عبر عواصم العالم بأكمله، واضعة تواريخ لحفلاتها الموسيقية ثلاث سنوات قبل موعدها، مراكمة العلاقات القصيرة والانفصالات التي لا تبعات لها. وإلى آخر المطاف، فكرتُ رغم ذلك أنه بإمكاني أن أصير في بر الأمان بالنسبة إليها، وأن تكون هي بر الأمان بالنسبة إلي. لأجل ذلك، كان ينبغي أن نثق في بعضنا، لكنها درجت على جعل الغموض والغيرة وسيلتي إغراء، وذلك ما لم يكن يساعد على خلق مُناخ من الوئام. وكان الغرق نهاية لذلك الزوجي الذي شكلناه. لا ريب في أنه كان ممكناً لنا العيش سعداء في جزيرة خالية، لكن الحياة ليست جزيرة خالية. فأصدقاؤها، أشباه المثقفين في باريس، نيويورك أو برلين، لم يكونوا يستحسنون رواياتي الشعبية، ومن جانبي، كان ميلو وكارول يعتبرانها متنفخة، متعالية ومتبجحة.

*

هبت العاصفة، حاجبة النوافذ بستار سميك من المطر. في أجواء حانة بوربون ستريت الساكنة والمرهفة، عزفت أرور الأنغام الأخيرة لأغنية A Case Of You التي أدتها بصوت مخملي، له مسحة البْلُوزْ.

وأثناء تصفيقات الجمهور رشفت جرعة من كأس البوردو الموضوعة على البيانو وشكرت الحضور بانحناءة من رأسها. ثم أغلقت الأداة لإظهار أن العرض قد انتهى.

- عرض مقنع، قلت وأنا أدنو منها. سوف تخلقين المتاعب لنُورَا دْجُونْس إن ولجت هذا الميدان.

ناولتني كأسها رافعة التحدي في وجهي:

- سوف نرى إن كنت لا تزال تتمتع بمهارتك القلمية.

وضعتُ شفتيَّ حيث وضعتْ شفتيها وتذوقتُ الشراب. كانت قد حاولت من قبل تلقيني مبادئ شغفها بفن الخمور، لكنها هجرتني قبل تمكني من استيعاب قواعده.

- آه. . . شاتو لاتور 1982، قلتُ متوقعاً حسن الحظ.

ابتسمتْ أمام عدم اقتناعي قبل أن تصحح المعلومة:

- شاطو مارغو 1990.

- أنا لم أتجاوز مستوى مشروب كوكا الخفيفة: إن ذلك أقل تعقيداً بالنسبة إلى التواريخ.

ضحكت مثلما كانت تضحك من ذي قبل، حينما كنا نحب بعضنا. وصدرت عنها حركة الرأس تلك، البطيئة جداً، والتي تعودت عليها كلما أرادت إثارة الإعجاب، وأفلتت خصلة ذهبية من الملقط الذي كان يقيد شعرها.

- كيف هي أحوالك ؟

- حسنة، أجابت. بخلافك أنت، يبدو أنك بقيت حبيس العصر

الحجري القديم السفلي، قالت معلقة وهي تلمح إلى لحيتي. وكيف هي حال فمك، في الواقع؟ هل تمكنوا من رتقه؟

في حيرة من أمري، قطبتُ حاجبيَّ.

- رتق ماذا؟

- قطعة من شفتك التي انتزعتها الشقراء في المطعم. أهي رفيقتك الجديدة؟

تهربتُ من السؤال بأن طلبتُ في المشرب «ما طلبته الآنسة نفسه».

ألحَّتْ:

- إنها ظريفة، تلك الفتاة. ليست أنيقة بالضرورة، لكنها ظريفة. على أي حال، يبدو أن ما يقع بينكما له قوة البركان...

تصديت لهجومها:

- وأنت، كل شيء يسير على ما يرام مع الرياضي الذي يخصك؟ ربما لا يتمتع بذكاء حاد، لكنه يمتلك وجهاً جذاباً بحق.

على العموم، تليقان ببعضكما. وبحسب ما قرأت، إنه الحب الجنوني.

- أصبحت تقرأ هذا النوع من الصحف الآن؟ لقد كتبوا عنا الكثير من السخافات حتى أني ظننت أن ذلك قد قوى مناعتك. أما عن الحب الجنوني... يا طوم، فأنت تعلم جيداً بأني لم أصدق ذلك قط.

- حتى معي؟

تناولت جرعة أخرى من النبيذ وغادرتْ مقعدها وذهبت كي تسند مرفقيها إلى حافة النافذة.

ما عدا علاقتنا، لم يسبق أن كانت علاقتي متينة. لقد كانت ممتعة، لكني نجحت دوماً في الاستغناء عن الشغف.

كان ذلك أحد الأمور التي جعلتنا ننفصل. بالنسبة إلي، كان الحب بمثابة أكسجين. الشيء الوحيد الذي يمنح الحياة قليلاً من البريق، واللمعان والقوة. وبالنسبة إليها، مهما كان ساحراً، فإنه لم يكن في نهاية المطاف سوى وَهْم وخداع.

وعيناها شاردتان في الفراغ، أوضحتْ فكرتها:

- إن الروابط تُعْقَد وتنفرط، هذه هي الحياة. ذات صباح، يظل واحد ويرحل الثاني، من دون أن نعرف أبداً لماذا. لا أستطيع منح كل شيء للآخر، وسيف دَامُوقْليسْ ذاك معلق فوق رقبتي. لا أريد بناء حياتي على المشاعر، لأن المشاعر تتبدَّل. إنها هشة وغير أكيدة. إنك تعتقد أنها عميقة، بينما هي خاضعة لِتَنُّورَة عابرة أو ابتسامة مصطنعة. إني أمارس الموسيقى لأن الموسيقى لن تفارق حياتي. إني أحب الكتب، لأن الكتب ستظل دوماً هنا. ثم... إني لا أعرف أناساً يحبون بعضهم مدى الحياة.

- لأنك تعيشين في عالم نرجسي، وسط فنانين ومشاهير، هناك حيث الروابط تتفكك بسرعة الضوء.

مستغرقة في التفكير، توجهت ببطء نحو الشرفة ووضعت كأسها على حافتها.

- إننا لم نحسن الذهاب أبعد من نشوة البدايات. قالت بشيء من التحليل. لم نعرف كيف نتمسك ببعضنا...

- لم تعرفي، أنت، كيف تتمسكين، قلتُ مصححاً باقتناع. أنت من يتحمل مسؤولية فشل حبنا.

بارقة أخيرة مزَّقت صفحة السماء، ثم ابتعدت العاصفة بالسرعة نفسها التي حلَّت بها.

- ما كنتُ أريده أنا، قلتُ مستطرداً، هو مشاطرتك الحياة. في

العمق، أظن أن الأمر لم يكن شيئاً آخر غير ذلك، الحب: الرغبة في عيش الأشياء معاً، والاغتناء باختلافات الآخر.

أخذ الجو المكفهر في الزوال واستطاعت فرجة من السماء الزرقاء تفتيت الغيوم.

- ما كنتُ أريده أنا، قلتُ بإلحاح، هو بناء شيء ما معك. كنتُ مستعداً لذلك الالتزام، كنتُ مستعداً لاجتياز المحن رفقتك. ما كان ذلك لِيَمُرَّ بسهولة- ولم يكن كذلك قط- لكن ذلك ما كنت أرغب فيه: تلك الحياة اليومية التي تنتصر على العقبات التي تعترض حياتنا.

في القاعة الرئيسية، شخص ما جلس إلى البيانو. كانت تصلنا نغمات من تنويع حميمي وحساس لمقطوعة India Song.

من بعيد، رأيت رفائيل باروس قادماً وهو يتأبط لوحة تزلج على الأمواج. وحتى أتفادى أن يتم تقديمي له، توجهت نحو السلالم الخشبية، لكن أرور أمسكتني من معصمي.

- إني أعلم كل ذلك يا طوم، أعلم أن لا شيء يدوم إلى الأبد، أن لا وعود إلى الأبد...

كان في صوتها شيء من الانفعال والهشاشة؛ كان درع المرأة الغاوية آخذاً في التصدع.

- أعلم أنه كي نستحق الحب، ينبغي أن نهب أنفسنا روحاً وجسداً، والمخاطرة بخسارة كل شيء.. لكني لم أكن مستعدة لفعل ذلك، كما لا استعداد لدي اليوم.

تخلصتُ من قبضتها لنزول بعض الأدراج. وأضافتْ من خلف ظهري:

- أنا آسفة إن كنت قد جعلتك تعتقد العكس.

23

عزلة بصيغة الجمع

العزلة هي العمق النهائي للشرط الإنساني.
الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يشعر بأنه
وحيد والذي يبحث عن الآخر.

أكتافيو باز

منطقة لاباز بداية الظهيرة.

وحقيبتها على ظهرها، كانت كارول تقفز من صخرة إلى أخرى، على طول الساحل الوعر.

توقفت كي تنظر نحو السماء. استمر هطول المطر أقل من عشر دقائق، لكن كان ذلك كافياً كي تتبلل من رأسها حتى أخمص قدميها. كانت ملابسها مبللة وعلى وجهها يسيل المطر، وتشعر بالماء الدافئ يتسلل إلى ما تحت قميصها القصير.

ها أنا صرت قِرْبة! حدثت نفسها وهي تجفف شعرها بيديها. لقد فكرت في إحضار عدة الإسعافات الأولية ووجبة خفيفة، لكنها لم تحضر لا منشفة ولا ملابس بديلة!

شمس خريفية جميلة حلَّت مكان الغيوم، لكنها لم تكن حارة بما يكفي لتجفيفها. وحتى لا تشعر بالبرد، واصلت جريها مخترقة الهواء

بقامة منتصبة، منتشية بجمال خلجان صغيرة متتابعة تتشكل خلفيتها من جبال يكسوها نبات الكاكتوس.

عند منعطف حاد، قبل الوصول إلى الشاطئ الصخري بقليل، برز أمامها رجل خارج من الدغل بغتة. في سعيها إلى الالتفاف من حوله، انحرفت عن مسار جريها، لكن قدمها علقت بجذر شجرة. أطلقت صرخة لكنها لم تستطع تفادي سقطة مدوية جعلتها تتهاوى بين ذراعيْ المحظوظ.

- هذا أنا يا كارول! طمأنها ميلو وهو يتلقفها بوداعة.

- ماذا تفعل هنا؟ قالت وهي تتخلص منه. هل لحقت بي؟ إنك مخبول تماماً!

- على الفور، تطلقين الكلمات المفخمة...

- ثم، كفَّ عن النظر إلي بعينين عاشقتين، صرخت لما تنبهت بغتة إلى أن ملابسها المبللة تكشف عن استدارات جسمها.

- عندي منشفة، قال مقترحاً وهو يفتش محفظته، ولدي ملابس جافة أيضاً.

انتزعت محفظته من بين يديه وذهبت لتغيير ملابسها خلف شجرة صنوبر ظليلة ضخمة.

- لا تنتهز الفرصة للتلصص علي أيها المنحرف، لستُ واحدة من عارضات مجلات العري اللائي ترافقهن.

- لن يكون من السهل التلصص عليك خلف ستارك، قال معلقاً وهو يلتقط القميص القصير والسروال الأقصر وهما محلقان في الهواء، بعد أن تخلصت منهما للتو لأنهما مبللان.

- لماذا تبعتني؟

- أردتُ قضاء بعض الوقت بصحبتك، ثم إن عندي لك سؤال.

- إني أتوقع الأسوأ.

- لماذا قلتِ من ذي قبل بأن **ثلاثية الملائكة** أنقذت حياتك؟

صمتت لبرهة ثم أجابتني بصرامة:

- حينما تصير أقل بلاهة، ربما أشرح لك يومها الأمر.

إنه لأمر عجيب. نادراً ما شهدتها بتلك الشراسة، ومع ذلك حاولت مواصلة الحديث:

- لماذا لم تقترحي علي مرافقتك في نزهتك هذه؟

- أردت البقاء لوحدي يا ميلو، ألم يخطر ذلك على بالك، قالت وهي تلبس على عجلة كنزة صوف ذات زخارف معقوفة.

- لكننا نموت من الوحدة! أن نكون لوحدنا فذلك هو أسوأ ما يكون.

خرجت كارول من مخبئها وهي ترتدي ملابس رجالية أكبر من مقاسها.

- لا يا ميلو، الأسوأ هو أن نُرغَمَ على تحمل أشخاص من نوعيتك.

كانت ضربة موجعة بالنسبة إليه.

- ما الذي تؤاخذينه علي بالتحديد؟

- لا عليك، سوف نحتاج ثلاث ساعات من أجل وضع قائمة لذلك، قالت وهي تواصل انحدارها نحو الشاطئ.

- لا، بل تفضلي، إني أتحرق شوقاً، قال وهو يقتفي خطواتها.

- إنك تبلغ من العمر ستاً وثلاثين سنة، لكنك تتصرف وكأنك بعمر من له ثمانية عشر سنة، بادرته. إنك شخص أخرق لا يقدِّر المسؤولية، تركض من سرير إلى سرير على مر الأيام، ولا تقسم سوى بالثالوث المتلازم...

- الثالوث المتلازم؟

- عشق السيارات ومعاقرة الخمر ومضاجعة النساء.

- هل أكملتِ؟

- لا: لأنك لا تبعث الاطمئنان في نفس أي امرأة، زعقت في وجهه عندما وصلت إلى الرمال.

- هلا فصلت الأمر قليلاً.

انتصبت أمامه واضعة قبضتيها على وركيها، وحدقت في عينيه:

- إنك جزء من «رجال اللحظة»: رعاة بقر تظهر النساء استعدادهن للاستمتاع بصحبتهم للحظة أيام الوحدة وربما أمضين معهم ليلة، لكنهن لا تتخيلنهم أبداً في صورة أباء لأبنائهن.

- إنهن لا تشاطرنك الرأي جميعهن! قال مدافعاً.

- بلى يا ميلو، كل النساء اللائي لهن ذرة عقل يفكرن مثلي. كم من فتاة لائقة قدمت لنا منذ ذلك الحين؟ ولا واحدة! لقد تقاطعت طريقنا مع عدد هائل من الفتيات، لكنهن من النوع ذاته: متعريات، أنصاف عاهرات، أو نساء بائسات تلتقطهن من علب لَيل رخيصة في الصباح الباكر مستغلاً عجزهن!

- وأنت، هل لنا أن نعرف أي رجل مناسب أحضرت لنا معك؟ آه، لا، في الحقيقة، لم يسبق لنا رؤيتك رفقة رجل! أليس ذلك غريباً، يا جميلتي؟ لقد تجاوزت الثلاثين ولا نعرف لك أي علاقة!

- ربما فقط لأنني لا أبعث لك بفاكس كلما كان هنالك شخص ما في حياتي.

- إنك تخرفين! لعل دور زوجة الكاتب يلائمك جداً، أليس كذلك؟ دور تلك التي يرد ذكرها على ظهر الغلاف. تريثي، سأكتب لك ذلك: «يعيش طوم بويد في بوسطن، ماساشوسيتس، برفقة زوجته

كارول، وطفليهما وكلبهما اللابرادور». هذا ما كنت تنتظرينه، أم لا؟

- لقد جننت، أنت. يجب أن تكف عن تدخين الحشيش الذي يصيب بالضحك.

- وأنت كفي عن كذبك المعتاد مثل حمالة نهدين.

- دائماً أنت واستعاراتك الجنسية: إن لك حقاً مشكلة مع ذلك أيها المسكين.

- بل أنت من يؤرقه ذلك! أجابها. لماذا لا ترتدين أبداً فساتين أو تنورات؟ لماذا لا ترتدين أبداً لباس البحر؟ لماذا يقشعر بدنك كلما لمس أحد ما ذراعك؟ هل تفضلين النساء أم ماذا؟

وما كاد ميلو ينهي جملته إذا بصفعة مدوية لها قوة ضربة بقبضة يد تجلد وجهه. وكل ما استطاعه فقط هو إمساك قبضة كارول لتفادي صفعة ثانية.

- أتركني!

- ليس قبل أن يخمد غضبك!

تخبطت مثل عفريت، ساحبة ذراعها بكل قوتها إلى حد أنها أفقدت غريمها توازنه وسقطت في نهاية المطاف على ظهرها فوق الرمال وسحبت معها ميلو جرَّاء سقوطها. ترنح بكل ثقله فوقها وكان يهم بالنهوض لما وجد فوهة مسدس موضوعة على صدغه.

- ارحل! أمرته وهي تعبئ سلاحها.

كانت قد نجحت في إخراجه من حقيبتها اليدوية. ربما يحدث أن تنسى أخذ ملابس بديلة، لكنها لم تنس قط سلاح الخدمة.

- حسناً، قال ميلو بصوت مفزوع.

وهو لا يدري إلى أين الوجهة، نهض ببطء ونظر بحزن إلى صديقته التي كانت تفر منه ويداها متمسكتان بعقب المسدس.

وبعد أن اختفت عن ناظريه ظل لدقائق معدودة مشدوهاً تماماً، في البحيرة الصغيرة التي تحيط بها الرمال البيضاء والمياه الشديدة الزرقة.

في تلك الظهيرة المشهودة كانت ظلال المساكن المنخفضة الإيجار (HLM) لماك آرثر بارك تمتد حتى ناصية المكسيك.

24

كوكاراتشا(*)

الحب مثله مثل الزئبق في اليد، إن أنت جعلتها
مبسوطة لازم كفك، وإن أنت أمسكتها سال
من بين أصابعك.

دوروثي باركر

مطعم La Hija de la luna
التاسعة صباحاً.

معلق إلى جرف، كان المطعم الفاخر يطل في الوقت نفسه على المسبح وعلى بحر الكورتيس. كان المنظر خلاباً في الليل كما في واضحة النهار، يزيده الليل رومانسية وغرابة ما يفقده من عمق النهار. مصابيح نحاسية معلقة على طول التعاريش كما أن أضواء معلّقة ملونة كانت تسلط على كل مائدة نوراً حميمياً.

بفستان مزركش بالفضة كانت بيلي تسبقني إلى بهو الاستقبال. استقبلتنا المضيفة بحفاوة وقادتنا نحو المائدة حيث كان ميلو في انتظارنا منذ بضعة دقائق. وهو في حالة سكر بيِّن، كان عاجزاً عن أن يبرر لي أسباب غياب كارول.

(*) كوكاراتشا (La cucaracha): أغنية تقليدية باللغة الإسبانية، يعود أصلها إلى إسبانيا.

وعلى بعد بضع موائد منا، جلس كل من أرور ورفائيل وسط الشرفة مثل حلية نفيسة في علبة جواهر، يشهران حبهما الحديث.

كانت الوجبة كئيبة، حتى بيلي التي تكون مسرورة في العادة بدت وكأنها فقدت حيويتها. تعبها كان بادياً للعيان، كما كانت شاحبة ومتيبسة. عند العشي، كنت التقيتها في غرفتنا، متكورة في سريرها هناك، حيث نامت طوال الظهيرة. «هذا من عاقبة السفر»، قالت مجازفة. وعلى أي حال فقد أجهدتُ نفسي لإخراجها من تحت أغطيتها.

- ما الذي وقع لك مع كارول؟ سألت ميلو.

كانت عينا صديقي محقونتين دماً، وبرأس مهزوم هو لمن يوشك على السقوط فوق المائدة. وبينما كان يغمغم مفسراً ببضع كلمات، إذا بصوت جهوري يمزِّق سكون المطعم.

La cucaracha, la cucaracha,
Ya no puede caminar(*)

حلَّت بغتة مجموعة مارْياتْشي بمائدتنا كي تغني لنا لحناً غرامياً. كانت الأوركسترا صاخبة: زوج كمان، آلتي نفخ نحاسيتان، قيثارة، قيثارة صغيرة، وفيهويلا واحدة.

Porque no tiene, porque le falta
Marijuana que fumar(**)

كان لباسهم يستحق المشاهدة: سروال أسود مطرَّز الخياطة، سترة قصيرة ذات طيات مزَّينة بأزرار فضية، ربطة عنق مشدودة بأناقة، حزام بحلقة يزينه صقر، وأحذية ملمعة. هذا من دون نسيان القبعة

(*) الصرصور، الصرصور لا يستطيع المشي.

(**) لأنه لم يعد يقوى على الوقوف بسبب عدم تدخينه للماريجوانا.

السامْبْريرو الواسعة الأطراف، الكبيرة مثل صحن طائر.

ورَدّاً على صوت المغني الشّاكي، كان الكُورَال يُعَبِّرُ بصخب عن مرح مبالغ فيه بعض الشيء هو أقرب إلى التصنع منه إلى بهجة الحياة.

- هذا مبتذل، أليس كذلك؟

- هل تمزح؟ صرخت بيلي. إنهم ذوو مرتبة رفيعة.

نظرتُ نحوها والريبة تغمرني. الظاهر أننا لا نمتلك التعريف نفسه لعبارة مرتبة رفيعة.

- سادتي، خذوا منهم العبرة، قالت وهي تلتفت نحونا، ميلو وأنا، إنهم أصدق تعبير عن الفحولة.

مسد المغني شاربه، ولأنه استشعر أنه محط استحسان، واصل بمقطوعة جديدة يرافقه إيقاع راقص موزون.

Para bailar la bamba
Se necesita una puca de gracia
Una puca de gracia pa mi pa ti.
Arriba y arriba(*)

استمر الحفل على ذلك النحو طوال جزء كبير من الأمسية، وهم ينتقلون من مائدة إلى أخرى، استعرض المارياتشي ما لديهم من أغاني شعبية تتحدث عن الحب والشجاعة وجمال المرأة والأصقاع القاحلة. كان عرضاً عفا عليه الزمن، يصم الآذان بالنسبة إلي. وهو عرض يجسد عزة نفس شعب بالنسبة إلى بيلي.

وبينما كان العرض يشارف على نهايته، سُمِعَ دوي بعيد. وبحركة واحدة التفت الزبائن صوب البحر. بدت نقطة مضيئة في

(*) تتطلب رقصة البامبا قدراً من الرشاقة، قدر من الرشاقة لدي ولديك حتى النهاية.

الأفق. وصار الأزيز مهموساً أكثر فأكثر، وبرز ظل طائرة مائية قديمة في السماء. محافظاً على ارتفاع منخفض، حلق الطائر الحديدي فوق المطعم كي يقوم بإفراغ أزهار على الشرفة. وفي ثوان معدودة أخذت تمطر علينا مئات من الورود المختلفة الألوان والتي انتهى بها الحال إلى تغطية بلاط المطعم البرَّاق. تصفيقات حارة استقبلت هذا الوابل غير المتوقع من الأزهار. ثم ظهرت الطائرة المائية من جديد فوق رؤوسنا قبل أن تنطلق راسمة لوحات راقصة خطرة. مولدات دخان مضيئة رسمت في السماء قلباً من دخان تفتت سريعاً في الليل المكسيكي. صاح الجمهور من جديد لما انطفأت جميع الأنوار وتقدم كبير الخدم نحو مائدة أرور ورفائيل باروس. كان يحمل صينية فضية وضع عليها خاتم مزين بالماس. ثم ركع رفائيل طالباً الزواج بينما كان يقف خلفه نادل على أهبة الاستعداد لفتح الشمبانيا احتفالاً بقول أرور كلمة «نعم» الموافقة. كان كل شيء تاماً، منظماً بدقة متناهية، شرط أن يحب المرء تلك الرومانسية المتدفقة واللحظات جاهزة الصنع التي تباع على النشرات الإشهارية.

لكن أليس ذلك بالتحديد ما تمقته أرور؟

*

كنت بعيداً جداً لسماع جوابها، لكني كنت قريباً بما يكفي لقراءة ما حرَّكت به شفتيها.

- أ. نا. آ. س. ف. ة... همسَتْ من دون أن أعرف حقيقة هل هذه الكلمات تتوجه لنفسها، أم للحضور أم لرفائيل باروس.

لماذا لا يفكر الرجال برويَّة قبل الإقدام على مثل ذلك الطلب؟ عمَّ صمت ثقيل جداً كما لو أن المطعم بأكمله قد أُحْرِجَ لأجل نصف الإله الهابط ذاك الذي لم يعد في الوقت الحاضر سوى شخص بئيس

بركبته على الأرض، مثل تمثال ملح، تجمد من العار والذهول. لقد جرَّبتُ ذلك قبله وفي تلك اللحظة بالذات كنت أشعر تجاهه بالشفقة أكثر من النشوة بدافع الانتقام.

على أي، كان ذلك قبل أن يقوم ويعبر القاعة بنوع من الكبرياء المجروحة ويسدد لي، من دون أن أتوقع ذلك، لكمة على طريقة مايك تايسن.

*

- وتقدم نحوك ذلك القذر كي يسدد لكمة ملء وجهك، أوجز الدكتور مورتمر فِلِيبْسُون.

عيادة الفندق خمس وأربعون دقيقة بعد ذلك.

- تقريباً كذلك، قلتُ موافقاً بينما كان يعقم جرحي.

- إنك محظوظ. لقد نزفت كثيراً، لكن أنفك لم يكسر.

- هذا أفضل من لا شيء.

- وعلى العكس من ذلك، فإن وجهك متورم وكأنك تعرَّضتَ لضرب مبرح. هل تعاركتَ مؤخراً؟

- لقد حدث لي شجار حاد في حانة مع خيسوس وجماعة من رهطه، أجبت على نحو مبهم.

- ولديك ضلع منغرس والتواء شديد في الكاحل. لقد انتفخ على نحو سيء. سوف أدلكه بمرهم، لكن يجب مراجعتي غداً صباحاً كي أضع لك ضمادة ضاغطة. كيف حدث لك ذلك؟

- لقد سقطت على سقف سيارة، أجبتُ بكل بساطة.

- إحم... إنك تعيش حياة خطرة.

- منذ بضعة أيام، يمكن قول ذلك.

لم يكن مركز العلاج في الفندق مجرد مستوصف صغير، بل كان عبارة عن مُرَكَّب حديث بتجهيزات فائقة التقنية.

- إننا نعالج أكبر نجوم البسيطة، أجابني الطبيب حينما وجهتُ له ملاحظة في ذلك الصدد.

كان مورتمر فليبسون يشارف على التقاعد. هيئته ذات الأطراف الطويلة والإنجليزية القحة تتعارض مع وجهه الملوح سمرة وقسماته المحفورة وعينيه المشرقتين الباسمتين. كان له مظهر بِيتِرْ أوتُولْ وقد قام بتصوير نسخة قديمة للورانس العرب.

فرغ من ذَلك كاحلي والتمس من ممرضة أن تحضر لي عكازين.

- أنصحك بأن لا تطأ قدمك الأرض لبضعة أيام، نبهني وهو يمد لي بطاقة زيارة سجَّل عليها موعدي لليوم التالي.

شكرته على عنايته بي وبواسطة عكازي جرجرت رجلي بمشقة إلى غاية جناحي.

*

كان نور هادئاً يغمر الغرفة. وسط القاعة نار تتوهج في المدفئة ناشرة هالتها على الجدران والسقف. بحثت عن بيلي لكنها لم تكن في الصالون ولا في غرفة الاستحمام. وصل إلى مسامعي لحن مهموس لأغنية نِينَا سيمُونْ.

سحبتُ الستائر المطلة على الشرفة فوجدتُ المرأة الشابة وعيناها مغمضتان تستمتع بحمام مفتوح على النجوم في الجاكوزي المترع. بخطوطه المنحنية كان الحوض مغطى كله بفسيفساء زرقاء. ولتغذية الحوض كان هناك منقار بَجَعَةٍ عريض يَصُبُّ بانتظام خيط ماء تعمل إضاءته الاصطناعية على عرض كل ألوان الطيف بالتتابع.

- هل تلحق بي؟ قالت مستفزة إياي من دون أن تفتح عينيها.

دنوتُ من الحمام البخاري. كان محاطاً بما يربو عن عشرين شمعة صغيرة تشكل حاجزاً من الشرارات الملتهبة. كان سطح الماء يلمع مثل نبيذ الشمبانيا ومن خلال شفافيته نميز الفقاعات الذهبية التي تصعد إلى السطح من الفوهة.

وضعت العكازين، فتحت أزرار قميصي وخلعتُ سروالي الجينز قبل أن أتسلل داخل الماء الذي كان ساخناً جداً، في حدود المحتمل. كانت هناك قرابة ثلاثين رشاشاً موزعة على الحوض كله تتيح تدليكاً منشطاً أكثر مما توفر الاسترخاء. بينما في الأركان الأربعة مكبرات صوت مخفية تذيع موسيقى ساحرة. فتحت بيلي عينيها ومدت يدها كي تلامس بأصابعها الضمادة اللاصقة التي غطى بها فليبسون أنفي من ذي قبل. وهو مضاء من الأسفل، كان وجهها شفافاً، وكان شعرها يمنح الانطباع بأنه صار أبيض.

- المحارب في حاجة للاستراحة؟ قالت مازحة وهي تدنو مني.

حاولت مقاومة إغراءها.

- لا أعتقد أنه من المجدي تكرار حادثة القبلة.

- هيا، تجرأ وقل بأن ذلك لم يرق لك.

- لا تكمن المسألة في ذلك.

- ومع ذلك فقد أتى أكله: ساعات بعد ذلك قامت حبيبتك أرور بفسخ خطوبتها على نحو صاخب.

- لكن أرور غير موجودة معنا في هذا الجاكوزي.

- وما أدراك؟ سألتني وهي تتسلل بين ذراعيَّ. في كل غرفة من غرف الفندق هناك منظار على الشرفة. والكل يراقب الكل. ألم تنتبه لذلك؟

في الوقت الحاضر لم يكن وجهها يبعد عن وجهي سوى بضع

سنتمترات. عيناها كان لهما لون الزيزفون. تمددت مسام بشرتها بفعل البخار وحبيبات من العرق كانت تلمع على جبينها. - ربما هي تشاهدنا في هذه اللحظة، قالت مواصلة. لا تدعي بأن ذلك لا يثيرك قليلاً ما...

كنت أمقت هذه اللعبة. إنها لا تليق بي كثيراً، وأنا مدفوع بذكرى قبلتنا السابقة، استسلمتُ لوضع يد على خاصرتها والأخرى خلف عنقها.

ألصقت بوداعة شفتيها على شفتي وبحث لساني عن لسانها، ومن جديد فعل السحر فعلته، لكنه لم يدم سوى بضع ثوان، إلى أن جعلتني مرارة لاذعة أقطع حبل تلك القبلة.

أحسستُ بمذاق مر، لاسع، هائج في الفم، تراجعتُ بغتة. بدتْ بيلي مذهولة، حينها أبصرتُ شفتيها المسودتان، ولسانها الأرجواني. اتقدت عيناها لكن بشرتها غدت شاحبة أكثر فأكثر. كانت ترتعش. أسنانها تصطك وتعض شفتيها. في حيرة من أمري غادرتُ الجاكوزي وساعدتها على الخروج بدورها. فركتها بالمنشفة. شعرت بها تترنح على ساقيها، تشارف على الانهيار. وبعد أن هزتها موجة من السعال الشديد دفعتني كي تنحني أحسن إلى الأمام، إذ أخذتها، فجأة، رغبة في التقيؤ. وبألم شديد لفظت طبقة سميكة ولزجة قبل أن تنهار فوق البلاط.

لكن ما كنتُ أراه ليس قيئاً.

كان حِبْراً.

25

خطر فقدانك

بفوهة مسدس بين الأسنان لا ننطق إلا الصوائت.
ردٌّ في حوار من فيلم Fight Club للمخرج
شاك بالاهنيوك.

عيادة الفندق الواحدة صباحاً.

- هل أنت زوجها؟ سألني الدكتور فليبسون وهو يغلق باب الغرفة، حيث نامت بيلي للتو.

- أوه. . . لا، لا نستطيع اعتبار الأمر على ذلك النحو، أجبته.

- نحن أبناء عمومة، ادعى ميلو. نحن أسرتها الوحيدة.

- إحم. . . وهل يحدث لك غالباً أن تأخذ حماماً مع «بنت عمك»؟ قال الطبيب ساخراً وهو ينظر نحوي.

قبل ذلك بساعة ونصف، وبينما كان يوشك على تسديد ضربة رقيقة، ارتدى بسرعة بدلة بيضاء فوق سرواله الخاص بالغولف كي يحل على عجل إلى حيث ترقد بيلي. وفوراً أخذ الأمور بين يديه بجدية وثابر لإنعاش المرأة الشابة، وإدخالها المستشفى ثم منحها العلاجات الأولية.

وبما أن سؤاله لم يكن يستتبع جواباً، سرنا إثره إلى مكتبه: بنيت

الغرفة على امتدادها الطولي، وكانت تطل على عشب أخضر حسن الإضاءة ومشذب مثل الأرضية الخضراء وسطه يرفرف علم صغير. وعند الدنو من النافذة يمكن رؤية كرة غولف على بعد سبع أو ثمانية أمتار من الحفرة.

- لن أكذب عليكما، بادر بالقول وهو يدعونا إلى الجلوس. إني لا أعلم على الإطلاق مم تشكو صديقتكما ولا طبيعة أزمتها.

خلع بدلته وعلقها إلى المشجب قبل أن يجلس مواجهاً لنا.

- لديها حمى مرتفعة وجسمها متخشب على نحو غير عادي، كما أنها أفرغت كل ما في أحشائها وهي تعاني أيضاً من آلام في الرأس وتتنفس بصعوبة، ولا تقدر كذلك على الوقوف، قال موجزاً.

- إذاً؟ قلت وأنا أحثه على المواصلة وكلي لهفة لسماع بداية التشخيص.

فتح فليبسون الدرج الأول لمكتبه وأخرج منه سيجاراً كان ملفوفاً في جعبته.

- لديها الأعراض المعروفة لفقر الدم (أنيميا)، قال مؤكداً، لكن ما يؤرقني في الحقيقة هو تلك المادة المسودة التي تقيأتها بكمية كبيرة.

- ذلك يشبه الحبر، أليس كذلك؟

- ممكن...

مستغرقاً في التفكير، سحب سيكاره الكُوهيبَا من جعبة الألمنيوم، وتلمس ناصيته كما لو كان ينتظر وحياً ما جرَّاء ملامسة أوراق التبغ.

- لقد طلبت إجراء فحص كامل للدم وتحليل للمعجون الأسود، وتحليل شعرة من رأسها ذاك الذي ابْيَضَّ فجأة حسبما تقول.

- قد يحدث ذلك، أم لا؟ لقد سمعتُ دوماً أن صدمة انفعالية قد تجعل الشعر يصير أبيض في ليلة واحدة. لقد حدث ذلك لماري أنطوانيت في الليلة التي سبقت إعدامها.

- bullshit (هراء)، قال الطبيب ملوحاً بيده. وحده التبييض الكيميائي قد يفقد الشعر صبغته بتلك السرعة.

- هل لديكم بحق الوسائل للقيام بهذا النوع من الأبحاث؟ قال ميلو متحيراً.

قصف الطبيب طرف سيجاره الهافانا:

- كما لاحظتم، فإن تجهيزاتنا هي في قمة التقدم. منذ خمس سنوات خلت، كان قد أقام في فندقنا الابن الأكبر لأحد شيوخ الملكيات البترولية. وقد تعرض الابن لحادثة جِيتْ سْكِي. اصطدام قوي مع محرك خارجي لزورق من الزوارق أدخله في غيبوبة لعدة أيام. وقد تعهد والده بتقديم منحة مغرية للمستشفى إن نحن نجحنا في إخراجه من محنته. ولحسن الحظ أكثر منه نتيجة لعلاجاتي فقد تخطى المحنة من دون رواسب، وقد وفى الشيخ بوعده وهذا ما يفسر عملنا المريح.

وبينما كان مورتمر فليبسون يقوم لتوديعنا، التمستُ منه قضاء الليلة قرب بيلي.

- هذا غير معقول، قال بحزم. لدينا ممرضة للمداومة وكذلك طبيبان مقيمان مختصان في البيولوجيا سيعملان الليل بأكمله. بنت «عَمِّكُما» هي مريضتنا الوحيدة. لن نتركها ولو ثانية من دون مراقبة.

- إني ألح، يا دكتور.

هز فليبسون كتفيهْ وعاد إلى مكتبه مغمغماً:

- إن كان يُسَلِّيكَ النوم على أريكة ضيقة وقصم ظهرك، فأنت

حر، لكن نظراً إلى وعكتك وضلعك المنغرس، لا تأتيني غداً شاكياً من العجز عن الوقوف.

غادرني ميلو أمام غرفة بيلي، كنت أشعر بأنه مشوش الذهن:

- أنا قلق بشأن كارول. لقد تركتُ العشرات من الرسائل بمجيبها الآلي، لكنها بقيت جميعها من دون جواب. يجب أن أعثر عليها.

- حسناً، حظ سعيد يا صديقي.

- ليلة سعيدة، طوم.

تابعته وهو يبتعد في الممر، لكن بعد أن اجتاز بضعة أمتار توقف فجأة عائداً نحوي.

- كما تعلم، كنت أود أن... أعبر لك عن أسفي، أسرَّ إلي وهو ينظر إليَّ مباشرة.

كانت عيناه المحمرتان تلمعان، وكان وجهه متعباً، لكنه بدا مصمماً.

- لقد أفسدتُ كل شيء جرَّاء توظيفاتي المالية المجازفة، قال مستطرداً. خلتني أكثر ذكاء من الآخرين. لقد خنتُ الأمانة وتسببتُ في إفلاسك. سامحني...

انكسر صوته وطرفت عيناه، وسالت دمعة غير متوقعة على خده. وأنا أشاهده يبكي لأول مرة في حياتي، شعرت بالعجز وبالحرج معاً.

- يا للبلاهة، أضاف وهو يفرك جفنيه. ظننت أننا اجتزنا الأصعب، لكني كنت على خطأ: ليس الأصعب هو الحصول على ما نريد، وإنما معرفة الحفاظ عليه.

- يا ميلو، أنا لا آبه لذلك المال. إنه لم يملأ فراغاً ولا حلَّ معضلة، إنك تدرك ذلك جيداً.

- سوف ترى. سنخرج من المأزق مثلما فعلنا ذلك دائماً، قال

واعداً إياي محاولاً الإمساك بزمام الأمور. نجمنا السعيد لن يخذلنا الآن!

قبل أن ينطلق في أعقاب كارول حضنني بأخوة وهو يطمئنني:

- سوف أنتشلك من هنا، أقسم على ذلك. ربما سيستغرق الأمر بعض الوقت، لكني سوف أنجح في فعل ذلك.

*

فتحت الباب من دون أي ضجيج، وأطللت برأسي من الفتحة المواربة، كانت غرفة بيلي تسبح في ظلمة مائلة إلى الزرقة، دنوت من سريرها بهدوء.

كانت تغط في نوم مضطرب ومحموم. غطاء سميك يلف جسدها، لا يبدو منه سوى وجهها الشاحب. الفتاة الشابة الحيوية والمتلألئة، الزوبعة الشقراء التي، حتى هذا الصباح، عصفت بحياتي، شاخت بعشر سنوات في ظرف ساعات قليلة. مذهولاً، بقيت لوقت طويل بجانبها قبل أن أجرؤ على وضع يدي على جبينها.

- أنت فتاة غريبة الأطوار يا بيلي دونلي، همستُ وأنا أنحني صوبها.

تململت في سريرها، ومن دون أن تفتح عينيها، غمغمت:

- كنتُ أظن أنك قائل «مُزْعِجَة غريبة الأطوار»...

- مزعجة غريبة الأطوار أيضاً، قلتُ لأداري انفعالي.

داعبت وجهها وأسررت إليها:

- لقد انتشلتني من الحفرة السوداء التي هويت إليها. لقد جعلت الحزن الذي كان يلتهمني يتراجع رويداً رويداً. بفضل ضحكتك وسوء نيتك هزمتِ الصمت الذي كان يسجنني.

سعت إلى قول شيء ما، لكن نَفَسَها القصير وتنفسها المتقطع جعلاها تحجم عن فعل ذلك.

- لن أتخلى عنك، بيلي. إنها كلمة شرف مني لك على ذلك، طمأنتها وأنا أمسك بيدها.

*

قدح مورتمر فليبسون عود ثقاب لإشعال طرف الهافانا الذي له، ثم وهو يمسك بيده مضرب الغولف، خرج إلى الأرضية المعشبة وخطى بضع خطوات على البساط الأخضر المشذب. كانت كرة الغولف على بعد أكثر من سبعة أمتار تقريباً، في ملعب ذي منحنى جد منبسط، سحب مورتمر نَفَسَاً عميقاً قبل أن يقرفص لفك رموز الضربة المزمع تصويبها. لقد كانت ضربة خفيفة تتطلب الدقة، وسبق له أن أدخل المئات من تلك المسافة. نهض، واتخذ وضعية التسديد واستجمع تركيزه. «الحظ هو وصل الإرادة بالظروف المناسبة»، هذا ما زعمه سِينِيك (Sénèque). سدَّد مورتمر الضربة كما لو أن حياته كانت متوقفة عليها. تدحرجت الكرة على البساط الأخضر المشذب، وبدا كما لو أنها مترددة في اتخاذ مسارها قبل أن تغازل الحفرة من دون أن تسقط فيها رغم ذلك.

ذلك المساء لم تكن الظروف مناسبة.

*

خرج ميلو بهَرَجٍ إلى بوابة الفندق الرحبة والتمس من الخادم إحضار البوغاتي المركونة في الموقف السفلي للفندق. واتجه شطر la Paz، مستعيناً بنظام التموضع العالمي الـ GPS للعثور على المكان الذي غادر عنده كارول.

في تلك الظهيرة، على الشاطئ، أدرك مدى عمق الجراح

المفتوحة، جراح المرأة الشابة، جراح لم يعرف بوجودها من ذي قبل.

بكل تأكيد، نحن نجهل في الغالب المِحَن التي يجتازها الناس الذين نحبهم أكثر، فَكَّر بحزن.

لقد جرحته هو أيضاً تلك الصورة الخالية من الظلال التي رسمتها عنه. ومثل الآخرين، اعتبرته دوماً مجرد حثالة عديم الأخلاق، فظ حقير من أولئك الذين تمتلئ بهم الأحياء، غليظ، معتد بذكورته. ينبغي الإقرار بأنه لم يفعل شيئاً ليحررها من ذلك الوهم. لأن هذه الصورة كانت تحميه، تخفي حساسية لم ينجح في تحملها. وللظفر بحب كارول، كان مستعداً لفعل أي شيء، لكنها لم تمنحه ما يكفي من الثقة كي يكشف لها عن شخصيته الحقيقية.

قاد سيارته طوال نصف ساعة، مخترقاً الليل المضيء. كانت ظلال الجبال بارزة وسط سماء ذات زرقة صافية اختفت منذ أمد طويل من مدننا الملوَّثة. لما وصل إلى وجهته، ولج ميلو مسلكاً غابوياً حتى يركن به السيارة، ثم بعد أن وضع بمخلاته غطاء وقنينة ماء، سلك الطريق الصخري الذي يتيح الوصول إلى الساحل.

- كارول! كارول! صرخ بكل قواه.

تلاشى صراخه محمولاً بنسمة الهواء الدافئة المتقلبة التي كانت تهب على البحر وهي تطلق آهات شاكية.

عثر على الجون حيث تخاصما من ذي قبل في الظهيرة. كان الجو صحواً. نرجسياً، كان البدر الزاهر يبحث عن صورته على صفحة الماء. لم يسبق لميلو أن رأى كل تلك النجوم تملأ السماء، لكنه لم يجد لكارول أثراً. حاملاً مصباحه اليدوي، واصل طريقه متسلقاً الصخور الناتئة الوعرة الممتدة على طول الساحل. وعلى بعد ما يقارب خمسمائة متر، سلك درباً ضيقاً ينزل إلى غاية خليج صغير.

- كارول! صاح من جديد وهو ينفذ إلى الشاطئ.

هذه المرة وصل صوته إلى أبعد مدى. كان الخرم الصخري محمياً من الرياح بجرف غرانيتي يُلَطِّف صوت تلاطم الأمواج على الرمال.

- كارول!

مستنفراً كل حواسه، جاب ميلو بنظره امتداد الجون إلى أن تبين حركة عند طرفه الأقصى. دنا من الجدار الحاد. وكانت الصخرة مخترقة من أعلاها بالكامل، أو تكاد، بصدع طويل ينفتح على مغارة طبيعية محفورة في الحجر.

كانت كارول هناك. منهارة على الرمل، منحنية الظهر، ساقاها مطويتان، في حالة إنهاك تام. مُطْرِقَة، كانت ترتجف وهي تمسك دائماً بمسدسها بقبضة مضمومة.

جثا ميلو بالقرب منها بحذر قليل حلَّت مكانه بسرعة حيرة صادقة حيال صحة رفيقته. دثرها بالغطاء الذي كان بمخلاته ورفعها لحملها بين ذراعيه على طول الطريق المؤدي للسيارة.

- سامحني عما بدر مني من ذي قبل، همست. لم أكن أقصد ذلك.

- لقد نسيت ذلك، طمأنها. منذ الآن، سيكون كل شيء على ما يرام.

اشتدت برودة الريح واشتد هبوبها.

مررت كارول يدها على شعر ميلو ورفعت نحوه عينين غمرهما الدمع.

- لن أؤذيك أبداً، وعدها هامساً في أذنها.

- أعرف ذلك، طمأنته وهي تتشبث بعنقه.

*

لا تنهاري، يا آنا، ابقي واقفة، ابقي واقفة!

بضع ساعات من ذي قبل، في اليوم نفسه، وبواحد من الأحياء الشعبية في لوس أنجلس، كانت امرأة شابة، **آنا بُورُوسْكي**، تصعد الزقاق مهرولة. عند رؤيتها وهي تعدو، مخبأة تحت القلنسوة السميكة لكنزتها الصوف الغليظة، يعتقد المرء أنها تحافظ على لياقتها بالركض الصباحي.

لكن آنا لم تكن تمارس رياضة المشي. بل كانت تتعقب حاويات القمامة.

سنة من ذي قبل، رغم ذلك، كانت تعيش حياة طيبة، تتعشى بانتظام في المطاعم، ولم تكن تتردد في إنفاق أكثر من ألف دولار خلال جولات التسوق برفقة صديقاتها. لكن الأزمة الاقتصادية قلبت كل شيء رأساً على عقب. وبين عشية وضحاها، قلصت الشركة الموظِّفة، وعلى نحو جذري، أعداد العاملين، وحذفت منصبها بصفتها مراقبة تدبير.

وخلال بضعة شهور، أرادت أن تصدق بأنها تمر فقط بمرحلة حرجة ولم تيأس. ولأنها كانت مستعدة لقبول أي مهمة تناسب سيرتها، أمضت أيامها في ولوج مواقع الإنترنت الخاصة بالتشغيل، مُغْرِقَة المقاولات بنسخ من نهج سيرتها وطلبات التوظيف، مساهمة في منتديات التشغيل، بل منفقة المال في استشارة مكتب للتدريب المهني. لكن هيهات، كل محاولاتها باءت بالفشل. في ظرف ستة أشهر، لم تظفر ولو بأدنى لقاء جدي شيئاً ما.

ولكي تسد رمقها، قبلت مكرهة القيام لساعات بأشغال التنظيف يومياً في دار للعجزة في مونتيبيلو (Montebello)، لكن لم تكن تلك الدولارات المعدودة الملتقطة من ذلك العمل قادرة على أداء واجب الإيجار.

أبطأت **آنا** سرعة ركضها عندما وصلت **بوربل ستريت**، لم تكن قد حانت السابعة صباحاً. كان الزقاق لا يزال هادئاً، نسبياً، وإن أخذت تدب فيه الحركة. ومع ذلك انتظرت إلى حين غادرت حافلة المدرسة الشارع الرئيس كي تغمس رأسها في حاوية القمامة، وبحكم العادة تعلمت أن تترك كبريائها واعتزازها بنفسها جانباً حين انخراطها في هذا النوع من الحملات. وعلى أي حال لم يكن لديها الخيار في حقيقة الأمر. فالخطأ ناجم عن تصرف هو أقرب إلى الصرَّار منه إلى النملة وعن بعض الديون التي كانت تبدو مستساغة في الوقت الذي كانت تتقاضى فيه 35 ألف دولار سنوياً، لكنها في الوقت الراهن تخنقها وتهدد بفقدانها للسقف الذي يؤويها.

في بادئ عهدها، اكتفت بالتنقيب في صناديق قمامة الأسواق الكبرى في الجهة السفلى من مسكنها بحثاً عن المواد الغذائية التي نفذ تاريخ صلاحيتها. لكنها لم تكن بمفردها من دارت بخلده هذه الفكرة. كل مساء، جماعة يزداد عددها يوماً عن يوم من الأشخاص الذين لا مأوى قار لهم، ومن العمال المؤقتين، والطلبة، والمتقاعدين المفلسين، يتزاحمون حول الصناديق الحديد إلى حد أن انتهى المطاف بإدارة المتجر إلى رشِّ المواد الغذائية بسوائل التنظيف كي تتفادى أي جمع لها. قررت **آنا** إذاً التوغل باستكشافاتها خارج حيِّها السكني. في البداية، عاشت هذه التجربة بوصفها صدمة، لكن الكائن البشري هو بالتأكيد حيوان يتكيف مع كل المهانات.

كانت الحاوية الأولى مملوءة عن آخرها وكان التنقيب فيها مجدياً: علبة شرائح دجاج نصف مقضومة، قدح ستارباكس بقي فيه قدر كبير من القهوة السوداء، وآخر فيه كابوتشينو. في الثانية، وجدت قميصاً، من نوع أبيركومبي، ممزقاً تستطيع غسله ورتقه، وفي الثالثة، عثرت على رواية تكاد تكون جديدة ذات غلاف جلدي جميل.

وضعت كنوزها البئيسة في حقيبة الظهر ثم واصلت جولتها.

عادت آنا بوروسكي إلى بيتها نصف ساعة بعد ذلك، إلى الشقة الصغيرة في عمارة حديثة العهد بحالة جيدة، كان أثاثها مقتصراً على ما هو ضروري. غسلت يديها ثم سكبت القهوة والكابوتشينو في كوب عملت على تسخينه بالفرن الميكروويف مع شرائح الدجاج. وفي انتظار أن يكون فطورها جاهزاً، فرشت حصاد يومها فوق طاولة المطبخ. غلاف الرواية القوطي الأنيق شدَّ انتباهها على الخصوص. كان هناك ملصق في الزاوية اليسرى ينبه القارئ:

بقلم مؤلف رفقة الملائكة.

طوم بويد؟ لقد سمعت به من خلال البنات في المكتب هن اللائي يعشقن كتبه، لكن لم يسبق لها قط أن قرأت له. مسحت بقعة من الحليب المخفوق وهي تفكر في أن باستطاعتها الحصول على سعر جيد، ثم ولجت الإنترنت وهي تقرصن مرة أخرى **الواي فاي** (البث اللاسلكي) من جارتها. الكتاب جديداً، هو بسعر 17 دولاراً على موقع أمازون. ضغطت على زر حسابها eBay وجرَبت حظها: عرض للبيع بسعر 14 دولاراً في حالة الشراء الفوري.

غسلتِ القميص وأخذت دُشّاً كي «تتفسَّخ» ثم ارتدت ملابسها مبطئة أمام المرآة.

كانت قد أقفلت للتو عقدها الثالث. هي التي، طوال سنوات، بدت أصغر من سنها، شاخت دفعة واحدة، كما لو أن مصاص دماء جفَّف نضارتها. منذ أن فقدت عملها، ومن فرط التهام القاذورات، ازداد وزنها بما يقارب عشر كيلوغرامات، تجمعت كلها في الردفين والوجه، فأصبح لها مظهر قارض (هَمْسْتِر) عملاق. حاولت أن تبتسم لكنها وجدت النتيجة مثيرة للشفقة.

كانت تسير بغير هدى في مهب الريح، وكان غرقها بادياً على وجهها البشع.

أسرعي، سوف تتأخرين!

لبست بسرعة سروال جينز فاتح اللون، وقميصاً قطنياً بغطاء رأس وزوج حذاء رياضي.

هذا جيد، لست ذاهبة إلى المرقص، لا داعي لكل ذلك التبرج من أجل تنظيف أوساخ العجزة التعساء!

عاتبت نفسها فوراً على تهكمها. لقد كانت تشعر بأنها عاجزة تماماً. بم تتشبث في الأوقات الأكثر قتامة؟ لم يكن لديها أحد يساعدها، لا أحد تسر إليه باضطرابها. لا أصدقاء حقيقيين لديها، لا رجل في حياتها- آخر واحد عرفته يرجع إلى شهور عديدة. أسرتها؟ خشية أن تفقد ماء الوجه، لم تتحدث عن إحباطاتها لا مع والدها ولا مع والدتها. ولا يمكن القول بأن هذين الأخيرين كانا يستعجلان الخطو للاطمئنان على أخبارها. في بعض الأيام، كانت تتحسر على عدم المكوث بـ **ديترويت** شأن أختها التي لا تزال تقيم على بعد خمس دقائق من منزل أبويهما. لم يكن لدى **لوسي** أي طموح يذكر قط. لقد تزوجت فظاً غليظاً، وكيل تأمينات، ولها ولد شقي لا يحتمل، لكن هي على الأقل لم يكن عليها التساؤل يومياً عن كيفية تدبر قُوتها.

وبينما كانت تفتح الباب، شعرت **آنا** بالوهن. ومثل جميع الناس كانت تتناول أدوية: مضادات للألم كي لا يؤلمها ظهرها **والإيبوبروفين فلاش** الذي كانت تزدرده مثل الحلوى لطرد صداع نصفي مزمن. لكنها اليوم في حاجة إلى مهدِّئ قوي. كلما مرَّت الأسابيع كانت عرضةً لأزمات قلق، وهي تعيش باستمرار في حالة خوف يصاحبها ذلك الانطباع الملاصق لجسدها بأنها مهما كانت

جهودها وإرادتها الحسنة فإنها لم تعد تسيطر على شيء في حياتها.
أحياناً تضجر من الهشاشة وتشعر بأنها تستطيع الإقدام على فعل جنوني مثل ذلك الإطار السابق في المالية الذي قام، قبل ذلك الحين بتسعة أشهر، وعلى بعد أزقة معدودة منها، بقتل خمسة أفراد من أسرته قبل أن يوجه سلاحه لنفسه تاركاً رسالة إلى الشرطة يبرر فيها فعله بوضعه الاقتصادي الميؤوس منه. ولأنه كان عاطلاً عن العمل منذ عدة شهور، فقَدَ جميع مدخراته جرَّاء انهيار البورصة.

لا تنهاري يا آنا، ابقي واقفة، ابقي واقفة!

قاومت كي تستجمع قوتها. وعلى الأخص لا ينبغي أن تمنح لنفسها الحق في الانهيار. إن هي تخاذلت غرقت، إنها تدرك ذلك. كان يجب عليها أن تصارع بكل قواها للحفاظ على شقتها السكنية. أحياناً كان يبدو لها أنها انحطت إلى وضعية حيوان في جحره، لكن هنا على الأقل كان بمقدورها الاستحمام والنوم في أمان.

وضعت خوذة الآيبود iPod على أذنيها، هبطت السلالم، استقلت الحافلة للوصول إلى دار العجزة. قامت بأشغال التنظيف لمدة ثلاث ساعات وانتهزت فترة استراحة الغذاء لولوج شبكة الإنترنت عبر حاسوب الخدمة الحرة في قاعة استراحة المأوى. خبر سعيد. الكتاب الذي طرحته للبيع وجد مقتنياً بالمبلغ المذكور. واصلت آنا عملها إلى غاية الثالثة بعد الزوال ثم ذهبت إلى مكتب البريد لإرسال الكتاب إلى صاحبته:

بوني ديل أميكو، مجمع بيركلي، كاليفورنيا.

دسَّت الرواية في المغلف من دون أن تنتبه إلى أن أكثر من نصف عدد صفحاتها كانت بيضاء فارغة...

*

- يا رجال، أسرعوا قليلاً!

زعق الراديو ذلك الأمر لكل سائقي أسطول الشاحنات المقطورة الثمانية التي كانت تعبر المنطقة الصناعية في بروكلين. ومثل نقل الأموال، كانت المدة والمسار بين مستودع نيوجيرسي ومقاولة إعادة التصنيع قرب **كوني آيسلند** منظمان بدقة بغية تفادي سرقة البضائع. وهي مثقلة بثلاثين صفيحة تحميل للبضائع، كانت كل شاحنة تنقل بمفردها ثلاثة عشر ألف كتاب ملفوفة في ورق مقوى.

كانت الساعة زهاء العاشرة ليلاً حينما اجتازت الحمولة الضخمة، تحت المطر، أبواب محطة الإتلاف المقامة على فضاء شاسع محاط بأسلاك شائكة يظنه المرء حامية عسكرية.

وعلى التوالي، أفرغت كل شاحنة حمولتها على بلاط المستودع المُزَفَّت الشاسع: أطنان من الكتب التي كانت لاتزال مغلفة بغشائها البلاستيكي.

مرفقاً بمحضر محكمة، كان هناك ممثل لدار النشر يشرف على تلك العملية. ليس في كل سائر الأيام يتم إتلاف مائة ألف نسخة بسبب عيب في التصنيع. ومن أجل تفادي أي غش، كان الرجلان يراقبان بدقة الحمولة. وعند كل تفريغ، كان محضر المحكمة يخرج كتاباً من علبة مغلفة لملاحظة عيب الطباعة. كانت جميع الكتب تشكو من العيب ذاته: من بين الخمسمائة صفحة التي تضمها الرواية، نصفها فقط كان مطبوعاً. كانت الحكاية تتوقف فجأة في منتصف الصفحة 266 عند جملة غير مكتملة بدورها...

كانت ثلاث جرَّافات تروح وتغدو متراقصة بين ذلك المد الهائل من الكتب كما لو تعلق الأمر بأنقاض عادية لرفعها على أحزمة دوَّارة تصعد بسرعة فائقة نحو الأفواه المشرعة، أفواه الوحوش الحديدية. حينها يبدأ الإتلاف الصناعي.

كانت الطاحونتان تبتلعان بشراهة عشرات الآلاف من الكتب، وبعنف كان الوحش الآلي يمزق ويمضغ المؤلفات. وحول المكان، وسط غبار الورق، كانت تنفلت بعض الصفحات الممزقة.

بعد انتهاء عملية الهضم، ركام من الكتب المبقورة، المقشرَّة، الممزقة، خرج من بطن الوحش قبل أن يتم ضغطها بآلة الطبع، أفرزت في نهاية الركض حُزَماً ضخمة ذات شكل مكعب محاطة بسلك معدني.

ثم جُمِعَت المكعبات المضغوطة في الجزء الخلفي من الحظيرة. في اليوم التالي، يتم حملها بدورها في شاحنات أخرى. بعد إعادة تصنيعها في شكل لُبَاب الورق قبل أن تبعث من جديد على هيئة جرائد، أو مجلات، أو مناديل، أو علب للأحذية.

*

في ساعات معدودة تم طيُّ القضية.

بعد إتلاف المخزون بأكمله، قام المسؤول عن المصنع والناشر ومحضر المحكمة بالتوقيع على وثيقة تثبت على نحو دقيق عدد المؤلفات التي تم إتلافها أثناء كل عملية على حدة.

وصل العدد الإجمالي إلى 99,999 نسخة.

26

الفتاة القادمة من هناك

الذين يسقطون غالباً ما يجرُّون في سقطتهم
أولئك الذين يهبُّون إلى نجدتهم.

ستيفان زفايغ

عيادة الفندق الثامنة صباحاً.

- يا هذا، ليس بمثل شخير الدلافين ذاك تسهر على راحتي!

فتحت عينيَّ فزعاً. وجسمي متكوم على مسند الأريكة السنديانية، كان ظهري مقصوماً، أما صدري المنضغط وساقيَّ فكانت تعاني من الوخز.

كانت بيلي جالسة على سريرها. وجهها الطبشوري استعاد بعض ألوانه، لكن شعرها ازداد بياضاً. على أي حال، لقد استرجعت شيئاً من الحيوية، وكان ذلك بالأحرى مؤشراً جيداً.

- كيف تشعرين؟

- عليلة للغاية، أسرَّت إليه وهي تبرز لسانها الذي صار وردياً. هلا ناولتني مرآة؟

- لست متيقناً من أنها فكرة جيدة.

وبما أنها ألحَّت، كنت مضطراً لمدها بمرآة حائطية صغيرة نزعتها من غرفة الاستحمام.

نظرت إلى نفسها بهلع، رفعت شعرها إلى الأعلى، فرقت خصلاته، ونكشتها، حدَّقت في منبتها، فزعت لما شهدت أن شعرها الذهبي الجامح تحوَّل في ليلة واحدة إلى شعر جَدَّة عجوز.

- كيف... كيف يمكن ذلك؟ قالت متسائلة وهي تمسح دمعة كانت تسيل على خذها.

وضعت يدي على كتفها، وأنا عاجز عن تقديم أي تفسير، ولما كنت أبحث عن كلمات مواسية، فتح باب الغرفة فاسحاً المجال لميلو والدكتور فليبسون.

وهو يتأبط محفظة، منشغل البال، حيَّانا هذا الأخير باختصار ثم انغمس لمدة طويلة في دراسة معطيات مريضته الملصقة في طرف السرير.

- لدينا معظم نتائج التحاليل آنستي، قال بعد دقائق معدودة، وهو يرفع نحونا نظرات اختلطت فيها الإثارة بالحيرة.

أخرج من وزرته قلم لبد أبيض ثم وضع السبورة الشفافة التي أحضرها معه.

- أولاً، بادر قائلاً وهو يخط بضع كلمات، المادة السوداء والدَّبِقة التي لفظت هي بحق حبر زيتي. وقد وجدنا به آثار تتميز بها الصِّبغات اللَّونية، والعناصر المكثفة، والمواد المضافة والمذيبة.

ترك جملته معلقة ثم سأل من دون مواربة:

- هل سعيتِ إلى تسميم نفسك، يا آنستي؟

- قطعاً لا! ثارت بيلي في وجهه.

- إني أطرح عليك السؤال لأني ولكي أكون صادقاً معك، لا أرى كيف يمكن اجترار مثل هذه المادة من دون ابتلاعها من ذي قبل. وهذا لا يتوافق مع أي مرض معروف.

- وماذا وجدت غير ذلك؟ سألت كي نتقدم في الحديث.

ناول مورتمر فليبسون لكل منا ورقة مملوءة بالأرقام والمصطلحات كنت قد سمعت بها في Urgences أو Grey's Anatomy لكني كنت أجهل دلالتها الصحيحة: NFS (ترقيم التركيبة الدموية)، Iono (التخطيط الإيوني)، Urée (تحليل البول)، كرياتينين، (السكري) Glycémie، bilan hépatique (الكشف عن التليف الكبدي)، hémostase (تخثر الدم)...

- وكما كنت أظن، فإن الكشف الدموي أكد فقر الدم، قال شارحاً وهو يسجل رائزاً جديداً على السبورة. وبمعدل هيموغلوبلين يبلغ 9 غرامات في عُشْرِ اللتر، فإنك أقل من المستوى العادي بكثير. وهذا ما يفسر شحوبك، وتعبك الشديد، وآلام الرأس، واختلال خفقان القلب لديك، والدوار.

- وفقر الدم هذا، ماذا يعني؟ سألته.

- ينبغي إجراء تحاليل أخرى لتحديد ذلك، شرح فليبسون، لكن في العاجل، ليس هذا ما يقلقني أكثر...

كانت عينيَّ مركزتان على نتيجة تحاليل الدم ومن دون أن أفقه شيئاً في الأمر، كنت أرى بدوري أن رقماً لم يكن عادياً:

- معدل السكري هو الذي يعاني من الاختلال، أليس كذلك؟

- أجل، أكَّد مورتمر: 0,1 غرام في اللتر الواحد، إنه نوع من السكري المنخفض الحاد وغير المعروف.

- كيف ذلك، «غير معروف»؟ تساءلت بيلي بقلق.

- يحدث هناك انخفاض للسكري حينما يكون معدل السكر في الدم منخفضاً جداً، شرح الطبيب بإيجاز. وفي حالة ما إذا تعذر على الدماغ الحصول على ما يكفي من الجلوكوز، يشعر المرء بالدوار وبالعياء، لكن مُعَدَّلَك أنت، يا آنستي، يفوق كل المعايير...

- مما يعني؟

- مما يعني أن في هذه الساعة التي أحدثك فيها كان من المفروض أن تكوني ميتة أو على الأقل غارقة في غيبوبة عميقة.

دوَّى صوت ميلو وصوتي:

- لابد أن هناك خطأ!

حرَّك فليبسون رأسه: لقد أعدنا التحاليل ثلاث مرَّات. هذا غير مفهوم لكنه ليس الأغرب.

من جديد، فتح قلمه اللَّبد الأبيض الذي تركه مرفوعاً في الهواء: في هذه الليلة طبيبة شابة مقيمة، أُشْرِفُ على أطروحتها للدكتوراه، أخذت المبادرة بإجراء تخطيط طيفي. إنها تقنية تسمح بتحديد الجزيئات من خلال قياس كتلتها كما تقوم بوصف بِنْيَتِها الكيميا...

- حسناً، ادخل في الموضوع! قاطعته.

- أظهر التخطيط وجود هيدرات الكربون غير عادية. ولكي أكون أكثر وضوحاً، آنستي، لديك السليلوز في الدم.

كتب كلمة **سِليلوز** على سبورته الشفافة.

- وكما تعلمون، لا ريب، قال مسترسلاً، السليلوز هو المكون الأساسي للخشب. كما أن القطن والورق يحتويان على قدر مهم منه.

لم أدرك بتاتاً ما كان يرمي إليه. أكد فكرته بطرحه لسؤال علينا:

- تخيلوا أنكم تبتلعون سدادات قطنية. ما الذي سيحدث برأيكم؟

- لن يحدث شيء ذو أهمية من دون شك، قال ميلو. سنتخلص منها بالذهاب إلى المرحاض...

- تماماً، وافق فليبسون، مادة السليلوز لا يهضمها الإنسان. هذا ما يميزنا عن الحيوانات العاشبة كالأبقار أو الماعز.

- إن كنت قد فهمت جيداً، قالت بيلي، جسم الإنسان لا يضم السليلوز عادة، إذاً. .

- إذاً، أكمل الطبيب، تكوينك البيولوجي ليس تكوين كائن بشري. يتم الأمر كما لو أن جزءاً منك هو في طريقه إلى أن يصير «نباتياً».

*

فسح المجال كي يخيم صمت طويل، كما لو تعذر عليه قبول خلاصات التحاليل التي طلب إجراءها.

بقيت ورقة أخيرة في محفظته: نتيجة تحاليل خصلات شَعَر المرأة الشابة الأبيض.

- إنها تحتوي تركيزاً قوياً لهيدروسيلفيت الصوديوم وبيرطوكسيد الهيدروجين، المعروف أكثر باسم. . .

- الماء الأكسيجيني، خمنتُ.

- في الأساس، تابع الطبيب، هذه المادة يقوم جسم الإنسان بإفرازها طبيعياً. ومع الشيخوخة، فهي المسؤولة عن تبييض شعرنا من خلال منع تركيب الصبغات التي تمنحه لونه. لكنها عملية تدريجية جداً في العادة ولم يسبق أن رأيت شعر شخص في سن السادسة والعشرين يبيض في ليلة واحدة.

- هل ذلك لا رجعة فيه؟ سألتْ بيلي.

- أوه. . . تمتم مورتمر، أحياناً وقفنا على تلون جزئي بعد الشفاء من بعض الأمراض أو وقف العلاجات القوية، لكن. . . أعترف أن تلك تبقى حالات معزولة.

مستغرقاً في التفكير، نظر إلى بيلي بشفقة غير مفتعلة واعترف أمامنا:

- إن حالتك المرضية تتجاوز بوضوح كفاءاتي وكفاءات هذه العيادة الصغيرة، آنستي. سوف نحتفظ بك تحت المراقبة اليوم، لكن لا يسعني إلا أن أنصحك بالعودة إلى بلدك في أقرب وقت ممكن.

*

ساعة بعد ذلك

بقينا نحن الثلاثة في الغرفة. وبعد أن أفرغت كل ما فيها من دموع، نامت بيلي في آخر المطاف. مسترخياً على كرسي، كان ميلو ينهي طبق الأكل الذي رفضته بيلي، وعيناه لا تفارقان السبورة التي نسيها الطبيب:

أصباغ لونية
مذيب إضافي

فقر الدم
سليلوز

ماء أكسيجيني
هيدروسيلفيت الصوديوم

- ربما لدي وسيلة، قال وهو ينهض فجأة. تسمر بدوره أمام السبورة، أمسك قلم اللبد ورسم قوساً كي يربط السطرين الأولين.

- ذلك الحبر الدبق واللزج الذي تقيأته رفيقتك، إنه ذاك الذي يستعمل في مطابع النشر. وعلى الخصوص في نظام طباعة كتبك...

- هكذا؟

- والسليلوز، إنه أول مكون في الخشب، هل توافقني الرأي؟ والخشب يستعمل في صنع...

- أوه... الأثاث؟

- لباب الورق، قال مصححاً وهو يكمل ملاحظات الدكتور فليبسون. أما في ما يخص الماء الأكسيجيني وهيدروسيلفيت الصوديوم، فهما منتوجان كيماويان يتم استعمالها لتبييض...

- الورق، أليس كذلك؟

وللإجابة، أدار نحوي اللوحة الشفافة:

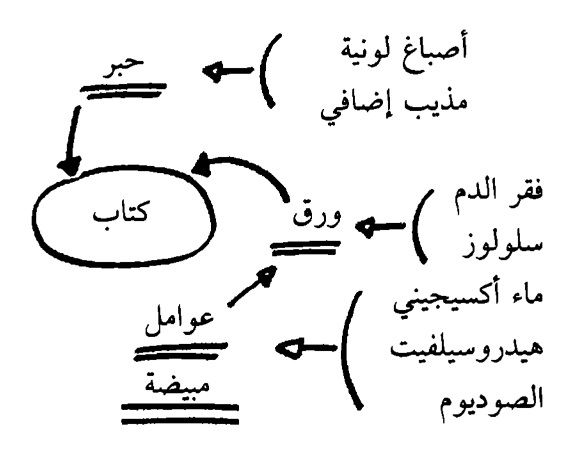
أصباغ لونية
مذيب إضافي) ← حبر

فقر الدم
سلولوز) ← ورق

ماء أكسجيني
هيدروسيلفيت
الصوديوم) ← عوامل مُبَيِّضَة

- بداية، لم أرد تصديقك، طوم، في ما يخص تلك الحكاية عن بطلة رواية سقطت من كتاب، لكني كنت مرغماً على الإقرار بما هو بداهي: إن رفيقتك هي في طريقها إلى أن تصير شخصية من ورق.

بقي لبرهة وعيناه تحدقان في الفراغ قبل إنهاء خربشاته:



- إن عالم الخيال سائر في استعادة حقوقه، صاح على سبيل الخاتمة.

الآن، يذرع الغرفة وهو يلوح بحركات واسعة من يديه. لم يسبق أن رأيته مضطرباً إلى هذا الحد.

- هدئ من روعك! قلت للتخفيف عنه. ما الذي تقصد تحديداً بذلك؟

- الأمر واضح، طوم: إذا كانت بيلي شخصية من ورق، فإنها لا تستطيع بكل بساطة العيش في الحياة الواقعية!

- مثلما لا يمكن للسمكة أن تعيش خارج الماء...

- هو ذاك! تذكر أفلام طفولتنا. لماذا يمرض E. T. الكائن الفضائي؟

- لأنه لا يستطيع البقاء طويلاً بعيداً عن كوكبه.

- لماذا لا تستطيع حورية البحر في فيلم Splash البقاء في اليابسة؟ لماذا لا يستطيع الإنسان العيش تحت الماء؟ لأن كل كائن عضوي مختلف ولا يتكيَّف مع كل البيئات.

كانت حجته موثوق بها مع استثناء واحد.

- إن بيلي أمضت معي للتو ثلاثة أيام ويمكنني أن أؤكد لك بأنها كانت تشع حيوية وأن الحياة الحقيقية لم تكن تزعجها بتاتاً. لماذا انهارت على هذا النحو المفاجئ؟

- صحيح أن هذا يظل لغزاً محيراً، اعترف.

كان ميلو يحب المنطق والعقلانية. والعبوس بادٍ عليه، جلس مجدداً على كرسيه وصالب ساقيه قبل أن يسترسل في أفكاره.

- ينبغي التفكير انطلاقاً من «باب الدخول»، قال مغمغماً: الفجوة التي من خلالها استطاعت شخصية متخيلة ولوج واقعنا.

- لقد سبق لي أن قلت لك ذلك مرات عديدة: بيلي سقطت من سطر في منتصف جملة غير مكتملة، شرحت له مستعملاً العبارة التي استخدمتها هي بنفسها أثناء لقائنا الأول.

- آه، أجل، مجموعة المائة ألف كتاب التي لم يتم طبع نصف أعداد صفحاتها! ذاك هو «باب دخولها». في هذا الصدد عليَّ التأكد من أنه تم بحق إتلاف...

ظل فاغراً فاه عند منتصف جملته ثم اندفع نحو هاتفه المحمول. رأيته يقوم باستعراض عشرات من الرسائل الإلكترونية قبل أن يجد تلك التي يبحث عنها.

- في أي ساعة شعرت بيلي بأولى علامات المرض؟ سأل من دون أن يرفع عينيه عن شاشته.

- أظن حوالي منتصف الليل، عندما عدتُ إلى الغرفة.

- حسب توقيت نيويورك، فذلك يعني الثانية صباحاً، أليس كذلك؟

- أجل؟

- إذاً، أعرف ما الذي سبب أزمتها، قال وهو يناولني هاتفه الآيفون (iPhone).

على الشاشة، قرأت بسرعة الرسالة التي بعث بها ناشري إلى ميلو:

من: روبرت. براون@دابلداي. كوم

الموضوع: تأكيد تدمير المخزون المعيب

التاريخ: 9 أيلول/ شتنبر2010. 02 :03

إلى: ميلو. لومباردو@ج. ميل. كوم

سيدي العزيز

أؤكد لكم التدمير الكلي عبر الإتلاف لمجموع المخزون المعيب من الطبعة الخاصة للجزء الثاني من **ثلاثية الملائكة**، لكاتبها طوم بويد. عدد المؤلفات المدمرة: 99,999. العملية المنجزة اليوم، تمت بإشراف محضر المحكمة، من الساعة الثامنة مساء إلى الثانية صباحاً بمحطة الإتلاف في مصنع شيبارد في بروكلين. نيويورك.

- هل لاحظت ساعة كتابة الرسالة؟

- أجل، قلت مذعناً، إنها توافق بالتمام الساعة التي أصيبت فيها بالوعكة.

- إن بيلي ترتبط مادياً بالنسخ المعيبة، قال بقوة.

- وبتدمير هذه النسخ، فنحن نعمل على قتلها هي!

كنا منفعليْن جداً ومرعوبيْن معاً جرَّاء اكتشافنا ذاك. وعلى الأخص، كنا نشعر بعجزنا إزاء وضعية تتجاوزنا.

- إذا لم نفعل شيئاً، فإنها سوف تموت.

- ما الذي تودُّ فعله؟ سألني. لقد دمرُّوا المخزون بأكمله.

- لا، لو كان الأمر كذلك، لكانت ميتة سلفاً. هناك كتاب واحد على الأقل لم يستطيعوا إتلافه.

- النسخة التي بعث لي بها الناشر ومنحتك إياها! صاحَ. لكن ماذا فعلت بها؟

لقد تطلب مني ذلك النبش في ذاكرتي كيما أتذكرها. وأذكر أني تصفحتها في تلك الليلة المشهودة حيث ظهرت بيلي مبللة في مطبخي، ثم في الصباح التالي أيضاً، قبل أن تريني بقليل وشمها، ثم...

كان يَشقُّ عليَّ التركيز. في رأسي، كانت الصور تتدفق كي تختفي فور ظهورها مثل ومضات: وثم... وثم... تشاجرنا وبدرت مني حركة غاضبة رميت إثرها الرواية في سلة القمامة في المطبخ!

- إننا نغوص حقاً في الوحل! صفَّر ميلو بعد أن كشفت له عن مكان آخر مؤلَّف.

فركتُ جفنيَّ. أنا بدوري كنتُ أغلي جرَّاء الحمَّى؛ والذنب في ذلك يعود لالتواء كاحلي الذي صار ألمه لا يطاق؛ الذنب ذنب جيش المكسيكيين الذين أوسعوني ضرباً في الحانة قرب الموتيل؛ الذنب ذنب جسمي الذي عوَّدته الأدوية؛ ذنب تلك اللكمة التي سدَّدها لي بغتة ذلك المخبول؛ ذنب القبلة المباغتة والصاعقة التي اختلستها مني تلك الفتاة غريبة الأطوار التي اجتاحت حياتي...

معذب بصداع نصفي، كنت أتخيل باطن دماغي وكأنه مجسم للكرة الأرضية بداخلها تغلي حمم بركانية منصهرة. وسط هذا المستنقع المتفكك، عبرتْ ذهني فكرة بداهية.

- ينبغي أن أهاتف خادمتي كي لا ترمي الكتاب بالخصوص، قلتُ لمِيلُو.

ناولني هاتفه ونجحت في محادثة تيريزا. لكن السيدة العجوز أخبرتني بأنها أخرجت القمامات يومين من ذي قبل.

فهم ميلو ما حصل فوراً ثم صدرت عنه تكشيرة. أين هي الرواية الآن؟ هل في مركز فرز النفايات؟ على وشك أن يتم حرقها أو إعادة تصنيعها؟ ربما التقطها أحد من الشارع؟ كان يجب الانطلاق للبحث عنها. لكن ذلك كان يعادل البحث عن إبرة في كومة قش.

على أي حال، هناك شيء واحد مؤكد: كان ينبغي التحرك بسرعة.

لأن حياة بيلي أصبحت متعلقة بكتاب واحد.

27

دائماً في بالي

أن نحب شخصاً آخر يعني أيضاً أن نحب سعادته.

فرانسواز ساغان

كانت بيلي لا تزال نائمة. وكان ميلو قد ذهب لإخبار كارول وقد خططنا لنلتقي ساعتين بعد ذلك في مكتبة الفندق للقيام ببعض التحريات وإعداد الخطة لمعركتنا. وبينما كنت أجتاز الردهة صادفتُ أُرور التي كانت تسدد فاتورتها في مكتب الاستقبال. وكان شَعرُها غير مصفَّف عن قصد، نظارات النجوم الشمسية، وكانت تلبس فستاناً قصيراً ذا نمط بوهيمي ماضوي، وسترة جلدية من نوع بِرْفيكْتو، وحذاءين سُوَيْقِيَيْن بكعب عال وحقيبة للسفر فينْتِدْج. على أغلب النساء، لكان مفعول ذلك **زائداً عن الحد**، لكن هيئتها بدت لا تشوبها شائبة.

- هل تغادرين؟

- لديَّ حفل في طوكيو غداً مساء.

- في الكِيُويْ هُولْ؟ سألتها، وقد استغربت بنفسي لتذكر اسم المكان الذي أدَّت فيه عزفها الموسيقي حينما رافقتها أثناء جولتها في اليابان.

أشرقت نظرتها:

- هل تتذكر تلك الـ Plymouth Fury القديمة التي اكتريتها؟ لقد أُرْهِقْنا للعثور على القاعة ووصلت قبل بداية العرض الموسيقي بثلاث دقائق. وكان عليَّ استعادة أنفاسي فوق الخشبة لشدة ما ركضتُ!

- ومع ذلك فقد كان عَزْفُك جيداً.

- بعد الحفل قدنا السيارة الليل بأكمله من أجل مشاهدة «الجحيم الحارق» في مدينة بِيبُو[*] (Beppu).

إن استحضار هذا الحدث أغرقنا معاً في الحنين. أجل، لقد شهدنا أيضاً لحظات سعادة وطيش، وهي لم تكن بعيدة جداً بكل ذلك القدر...

قطعت أرور هذا الصمت الذي قُدَّ من حرج ومن سِحْر معتذرة عن تصرف رفائيل باروس. لقد اتصلت بي هاتفياً تلك الليلة للاطمئنان على أخباري، لكني لم أكن موجوداً في غرفتي. وبينما كان خادم الفندق يهتم بحقائبها، حكيت لها باختصار ما حدث لبيلي. أنصتت إلي باهتمام. كنت أعلم أن والدتها توفيت في سن التاسعة والثلاثين جرَّاء سرطان ثدي تم الكشف عنه بعد فوات الأوان. منذ تلك الوفاة الصادمة، أصبحت مصابة بالوسواس المرضي، وعلى أي حال، مهووسة بكل ما يمس صحتها البدنية وصحة أقاربها.

- الظاهر أن الأمر جدي بحق. خذها سريعاً عند طبيب كفؤ. إن أحببت، أدلك على واحد.

- من هو؟

(*) أكبر مدينة مياه جوفية ساخنة في العالم. بآلاف منابع المياه الساخنة التي تجعل منها تشتهر مدينة بيبو الواقعة في جزيرة كيوشو الجبلية البركانية.

- البروفسور جان باتيست كلوزو: خبير في التشخيص لا مثيل له. إنه بنوع ما الدكتور هَاوْسْ على الطريقة الفرنسية. ويخصص معظم وقته لصنع قلب اصطناعي كلياً. لكن إن ذهبت عنده بتوصية مني، سوف يستقبلك.

- أهو عشيق سابق؟ رفعت عينيها إلى السماء.

- إنه عاشق موسيقى غالباً ما يحضر حفلاتي في باريس. إذا التقيته، سوف ترى أنه، من حيث الخلقة، ليس هوغ لوري (hugh laurie)! لكنه عبقري.

وهي تتكلم، شغَّلت هاتفها البلاك بيري وبحثت ضمن أرقامها على رقم الطبيب.

- سوف أحوله لك، قالت وهي تركب السيارة.

أغلق خادم بابها وتابعتُ السيارة البِرْلِينية وهي تبتعد في اتجاه البوابة الضخمة التي تحمي مدخل المُجَمَّعِ. ومع ذلك، بعد خمسين متراً، توقف سيارة التاكسي وسط الممر وركضت أرور نحوي كي تختلس مني قبلة خاطفة. وقبل أن تعود أخرجت من جيبها مسجلتها الجوالة الرقمية وتخلت عنها لي بعد أن وضعت السماعتين على أذنيَّ.

كنت أحفظ طعم لسانها على شفتيَّ وفي رأسي الموسيقى والكلمات التي برمجتها: أحسن أغنية لإلْفيسْ كنتُ قد عرفتها عليها حينما كنا عاشقين بما يكفي كي نهدي لبعضنا الأغاني:

Quite as good as I should have
Maybe I didn't love you
Quite as often as I could have
...
were You Mind Always On My
You were Always On My Mind

*

ربما لم أعاشرك دوماً

مثلما كان ينبغي عليَّ

ربما لم أحببك كثيراً

قدر ما كنت أستطيع

(لكن) كنتِ طوال الوقت في بالي

كنتِ طوال الوقت في بالي.

28

في المحنة

يمكن اعتبار القارئ بوصفه الشخصية الرئيسية في الرواية، على قدم المساواة مع المؤلف، والتي من دونها لا يحدث شيء.

إِلْزا تْرِيُولي

كيف لفندق أن يضم مثل هذه المكتبة الباذخة؟ الظاهر أن كرم الأمير الثري لم يشمل المستشفى وحده. والمثير أكثر هو المظهر المفارق و«النخبوي» للمكان: قد يحسب المرء نفسه داخل قاعة للقراءة بإحدى أرقى الجامعات الأنجلوساكسونية وليس في مكتبة نادي اصطياف. آلاف الكتب المجلَّدة بعناية كانت تزين الرفوف المحاطة بأعمدة كورانثية. في هذا الإطار المخملي والحميمي، فإن الأبواب الثقيلة والمنحوتة، والتماثيل النصفية الرخامية والجدران الخشبية القديمة تقذف بك بضعة قرون إلى الخلف. والتنازل الوحيد أمام الحداثة: هو الحواسيب من أحدث طراز المدمجة في أثاث من عوسج الجوز.

وددت لو عملت في مثل هذا المكان عندما كنتُ أصغر سناً. في بيتي، لم يكن هناك مكتب. كنت أقوم بفروضي المدرسية محبوساً في

المراحيض، واضعاً لوحة خشب على ركبتيَّ بمثابة مكتب وعلى رأسي خوذة ورشة لطرد صراخ الجيران.

بنظاراتها المستديرة، وسترتها المصنوعة من الوبر المُخَيَّر وتنورتها الاسكتلندية المزركشة، حتى القَيِّمة على الخزانة تعطي الانطباع بأنه تم نقلها من فضاء آخر. وبينما كنت أناولها لائحة المؤلفات التي كنت أودُّ مراجعتها، اعترفت لي بأني كنت «قارئها» الأول لذلك اليوم:

- أثناء العطل، يفضل زبائن الفندق عموماً الشاطئ على قراءة جورج فيلهلم فريدريك هيغل.

رسمتُ على وجهي ابتسامة بينما كانت تناولني رزمة كتب مضاف إليها كوب من الشوكولاته الساخنة ببهارات مكسيكية.

وللقراءة في الضوء الطبيعي، جلست قرب إحدى النوافذ الواسعة، بمحاذاة مجسم سماوي لكُورُونِيلي، وانهمكت في العمل بلا تأخير.

*

كان الجو مواتياً للدرس. لم يكن هناك ما يخدش الصمت سوى هسيس الأوراق المقلَّبة والانزلاق الناعم لقلمي على الورق. فوق الطاولة أمامي، فتحتُ العديد من المراجع التي كنت قد دققت فيها أثناء دراساتي من بينها: **ما الأدب؟** لجان بول سارتر. **القارئ في الحكاية** لأمبرتو إيكو و**الموسوعة الفلسفية** لفولتير. وخلال ساعتين، سجلت زهاء عشر صفحات من النقط. كنت في مجالي الحيوي المفضل: محاط بالكتب، في عالم من السكينة والتأمل. كنتُ أشعر من جديد بأني أستاذ للأدب.

- واهاً! وكأننا في الكلية! صاح ميلو وهو يهجم على القاعة المهيبة على نحو أهوج.

وضع مخلاته على إحدى الأرائك الشارلستون وانحنى على كتفي:

- هل وجدت شيئاً يا ترى؟

- ربما لديَّ خطة معركة، شرطَ أن توافق على مساعدتي.

- سوف أساعدك بالتأكيد!

- إذاً، يجب أن نقتسم الأدوار، قلت وأنا أغلق قلم الحبر. أنت، ستعود إلى لوس أنجلس لمحاولة العثور على آخر نسخة معيبة. أعلم بأنها مهمة مستحيلة، لكن إن تم إتلافها، فإن بيلي ستموت، هذا مؤكد.

- وأنت؟

- أنا، سوف آخذها إلى باريس لاستشارة الطبيب الذي نصحتني به أرور من أجل السيطرة على تفشي المرض، على الأقل، لكن خاصة... استجمعتُ كلماتي كي يكون شرحي الأكثر وضوحاً.

- خاصة؟

- يجب أن أكتب الجزء الثالث من كتابي لإعادة بيلي إلى العالم الخيالي.

- عقد ميلو حاجبيه:

- لا أفهم جيداً كيف أن كتابةَ كتابٍ سوف تعيدها بالملموس إلى عالمها.

أمسكتُ مفكرتي وعلى طريقة د. فليبسون، حاولت جمع الأفكار المدوَّنة المهمة في استنتاجاتي:

- العالم الواقعي هو الذي نعيش فيه، أنت وكارول وأنا. إنها الحياة الحقيقية، المجال الذي نستطيع التصرف فيه والذي نقتسمه مع أمثالنا: الكائنات البشرية.

- إلى حد الآن، نحن متفقان.

- وفي المقابل، العالم الخيالي هو عالم المتخيل والحلم. إنه يترجم ذاتية كل قارئ. هناك كانت تعيش بيلي، قلتُ شارحاً وأنا أتبعُ كلامي ببعض النقط الموجزة:

عالم واقعي (حياة حقيقية)	عالم خيالي (المتخيل)
طوم، ميلو، كارول	بيلي

- واصل، قال ميلو.

- ومثلما قلتَ أنت ذلك، بيلي استطاعت عبور الحد الفاصل بين العالمَيْن بسبب حادثة صناعية: الطبع المعيب لمائة ألف نسخة من كتابي. وهذا ما سميتَه «باب الدخول»:

عالم واقعي (حياة حقيقية)	عالم خيالي (المتخيل)
طوم، ميلو، كارول	بيلي

كتاب معيب
باب الدخول إلى العالم الواقعي

- أجل، أجل، قال موافقاً.

- إذاً، في الوقت الراهن، نحن نوجد مع بيلي وهي في طريقها إلى التحلل داخل بيئة ليست لها.

- والوسيلة الوحيدة من أجل تخليصها، انقض قائلاً، هي العثور على المؤلَّف المعيب لتفادي موتها في الحياة الحقيقية . . .

- وإعادتها إلى عالم المتخيل عبر كتابة الجزء الثالث من كتابي. إنه «بابها للخروج» من العالم الواقعي.

كان ميلو ينظر إلى خطاطتي باهتمام، لكنني كنت أرى أن شيئاً ما يزعجه.

- لا تزال لا تفهم لماذا قد تساعد كتابة الجزء الثالث في السماح لها بالمغادرة، أليس كذلك؟

- ليس بالملموس.

- حسناً، طيب. سوف تفهم. بالنسبة إليك، من يبدع العالم الخيالي؟

- إنه أنت، أقصد إنه الكاتب.

- أجل، لكن ليس وحدي. أنا لا أقوم سوى بنصف العمل.

- ومن يقوم بالنصف المتبقي؟

- القارئ . . .

تَفَرَّسَنِي والحيرة بادية عليه أكثر.

- انظر ما كتبه فولتير عام 1764، قلت وأنا أناوله ما دوَّنته من أفكار.

أنحني على أوراقي وقرأ بصوت مسموع:

- «الكتب الأكثر نفعاً هي تلك التي يخط القراء أنفسهم نصفها».

قمتُ من على الكرسي وبسطتُ عرضي باقتناع:

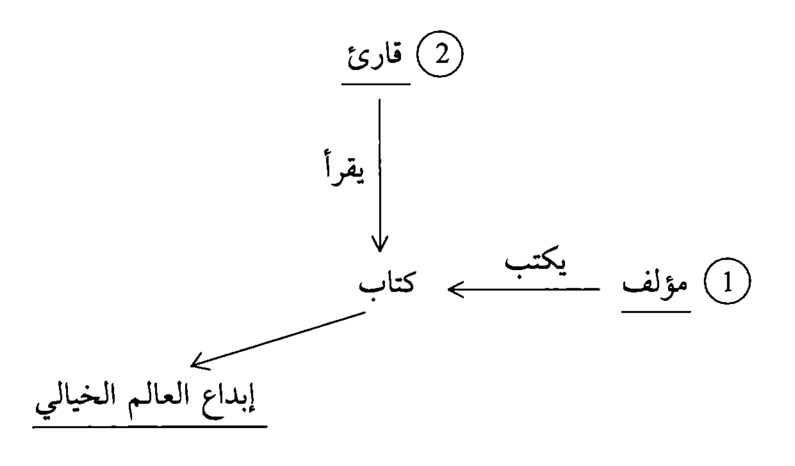
- في العمق، ما هو الكتاب، يا ميلو؟ إنه مجرد حروف مرصوفة في ترتيب معيَّن على الورق. لا يكفي وضع نقطة النهاية لحكاية ما حتى نجعلها موجودة. لديَّ في أدراج مكتبي بضعة بدايات لمخطوطات لم تُنْشَر لكني أعتبرها بمثابة حكايات ميِّتة لأن ولا أحد ألقى عليها نظرة واحدة. إن أي كتاب لا يصير على صورته إلا بالقراءة والقارئ هو من يمنحه الحياة، من خلال تأليف صور ستخلق ذلك العالم الخيالي الذي تعيش داخله الشخصيات.

انقطع حبل حديثنا بتدخل نائب القيمة على الخزانة التي اقترحت على ميلو كوب شوكولاتة بالبهارات. أخذ صديقي جرعة من الكاكاو قبل أن يبدي ملاحظته:

- في كل مرة صدر لك فيها كتاب ويشرع في عيش حياته، كنت تقول لي دائماً بأنه لم يعد مِلْكاً لك في حقيقة الأمر...

- صحيح! إنه صار في مِلْكِ القارئ الذي يواصل المهمة بامتلاكه الشخصيات ويجعلها تحيا في رأسه. أحياناً فهو يؤول على طريقته بعض المقاطع، ويمنحها معنى ليس هو الذي فكرت فيه بداية الأمر، لكن هذا جزء من اللعبة!

كان ميلو ينصت إليَّ باهتمام وهو يخط على مفكرتي:



كان لديَّ إيمان راسخ بهذه النظرية. كنت أعتقد دوماً أن مؤلَّفاً ما لا يوجد في حقيقة الأمر سوى من خلال علاقته بالقارئ. وأنا بنفسي منذ أن بلغتُ السن الذي يسمح بالقراءة كنت أسعى دوماً للغوص أبعد ما يكون إلى خيال الروايات التي تعجبني، مستبقاً، واضعاً ألف فرضية، ساعياً دوماً إلى إحراز تقدم على المؤلف ومكملاً في رأسي حكاية الشخصيات حتى بعد قلب الصفحة الأخيرة. خلف الكلمات المطبوعة، فإن خيال القارئ هو الذي كان يسمو على النص ويسمح للحكاية بالوجود تماماً.

- إذاً، إن كنتُ قد استوعبت كلامك جيداً، بالنسبة إليك الكاتب والقارئ يتشاركان من أجل إبداع العالم الخيالي؟

- لست أنا القائل، بل أُمبرتو إيكو! وجان بول سارتر، أجبتُه وأنا أناوله الكتاب المفتوح الذي وضعت فيه سطراً تحت هذه الجملة: «القراءة ميثاق سخاء بين المؤلف والقارئ؛ كل منهما يثق في الآخر ويعتمد عليه».

- لكن بالملموس؟

- بالملموس، سوف أشرع في كتابة روايتي الجديدة، لكن فقط

حينما يستكشفها القراء الأوائل عندها سوف يتخذ العالم الخيالي صورته وتختفي بيلي من العالم الواقعي كي تسترجع الحياة التي كانت لها في المتخيل.

- إذاً، يجب أن لا أهدر ولا ثانية، قال وهو يتخذ مكانه قبالة شاشة حاسوبه. ينبغي أن أعثر بأي ثمن على آخر كتاب مَعيبْ، إنه السبيل الوحيد لإبقاء بيلي على قيد الحياة أطول مدة كافية من أجل إتاحة الوقت لك لكتابة رواية جديدة.

ربط الاتصال بموقع مِكْسيكانا إيرْلايْنز (الخطوط الجوية المكسيكية).

- هناك رحلة إلى لوس أنجلس في غضون ساعتين، إن ذهبتُ الآن سوف أكون في ماك آرثر بارك عند المساء.

- ماذا ستفعل هناك؟

- إذا كنت تنوي أخذ بيلي إلى باريس، يجب أن توفر لها بسرعة جواز سفر مزور. لدي بعض المعارف الذين قد نستفيد من خبرتهم...

- وسيارتك؟

- فتح محفظته وأخرج منها حزماً عديدة من الأوراق النقدية وزَّعها إلى قسمتين متساويتين.

- أحد أتباع يوشيدا ميتسوكو حضر لأخذها هذا الصباح. هذا كل ما وسعني الحصول عليه، قد يعيننا على التحمل لبضعة أسابيع.

- بعد ذلك الأوان، سوف نكون قد أتينا على آخر فلس في جيبنا.

- أجل، إضافة إلى ما ندين به للضرائب، أذكرك بأننا مدينون لما لا يقل عن عشرين سنة.

- هذا خبر نسيتَ أن تذكرني به، أم لا؟

- اعتقدتُ أنك أدركتَ ذلك.

حاولتُ التهوين من الموقف:

- سوف نسعى لإنقاذ حياة شخص، إنه أسمى شيء ممكن، أليس كذلك؟

- أنا متيقن من ذلك، أجابني، لكن بيلي تلك، هل تستحق العناء؟

- أظن أنها واحدة منا، قلتُ وأنا أبحث عن الكلمات، أعتقد أنها تنتمي لـ«أسرتنا» تلك التي اخترناها، أنت وكارول وأنا. لأني أعلم أنها في الأصل ليست مختلفة عنا، تحت دِرْعِها يكمن شخص من النوع الحساس، الكريم. إنها لجوج ذات قلب ناصع، وقد عركتها الحياة سلفاً.

تعانقنا لمرة أخيرة، كان يقف عند عتبة الباب حينما التفت صوبي:

- هذه الرواية الجديدة، هل تستطيع كتابتها؟ كنت أظن أنك غير قادر على خط ثلاث كلمات مترادفة.

نظرتُ إلى السماء من خلال النافذة: غيوم رمادية متراكمة كانت تسد الأفق، مانحة للمكان ملامح بادية إنجليزية.

- هل لديَّ خيار حقاً؟ سألته وأنا أغلق مفكرتي.

29

حينما نكون معاً

في الليل شعرتُ بالبرد، قمتُ وذهبتُ
كي أدثِّره بغطاء ثان.

رومان غاري

مطار شارل ديغول الأحد 12 أيلول/ شتنبر

انتزع سائق التاكسي حقيبة بيلي وحشرها في الصندوق بقوة، داهساً أثناء ذلك الجِرَاب الذي فيه حاسوبي. في داخل السيارة البْرِيُوسْ (تويوتا) الهجينة، كان صوت الراديو عالياً مما جعلني أزعق ثلاث مرات كي أدُلَّ السائق على وجهتي.

غادرت السيارة المحطة النهائية وبسرعة أصبحت غارقة في زحمة الشارع الفرعي.

- مرحباً بك في فرنسا، قلتُ بطرفة عين لبِيلِي.

هزَّت كتفيها:

- لن تنجح في إفساد متعة الوجود هنا عليَّ. كان حلمي هو رؤية باريس!

بعد بضع كيلومترات من الزحمة الخانقة، اجتازت السيارة بوابة **مايو** قبل أن تسلك شارع **لاغراند آرمي** وتسير إلى غاية مدار

الشانزلزيه. ومثل أي طفل ظلَّت بيلي مشدوهة وهي تستكشف على التوالي قوس النصر، «أجمل شارع في العالم»، وكذا أطلال ساحة **الكونكورد**.

ومع أني زرتُ المكان عدة مرَات صحبة أُرور، لا أستطيع الادعاء أني أعرف باريس حق المعرفة. دائماً في الوقت الفاصل بين رحلتين جويتين وبين حفلتين، كانت أُرور بمثابة رحَالة لم تجد يوماً الوقت كي تجعلني أستكشف مدينتها الأصلية. وعلى كل حال، لم تتجاوز إقاماتي قط يومين أو ثلاثة متتالية كنا نقضيها عموماً حبيسيْ شقَّتها الجميلة بزقاق **لاس كاسيس**، قرب كاتدرائية **سانت كلوتيلد**. ومن العاصمة، لم أكن أعرف إذاً سوى بضعة أزقة في المقاطعتين السادسة والسابعة وزهاء عشرة مطاعم وأروقة الموضة، حيث كانت تجرني خلفها.

عبَر التاكسي نهر **السِّين** للوصول إلى الضفة اليسرى، وانعطف على مستوى **ألكي دورسي**. لما أبصرتُ برج الأجراس وحصن كنيسة **سان جرمان دي بري**، أدركتُ أننا غير بعيدين عن الشقة المفروشة التي اكتريتها عبر الإنترنت من المكسيك. وبالفعل، بعد دورات معدودة أودعنا السائق عند الرقم 5 بزقاق **فورستنبرغ**، أمام ساحة صغيرة دائرية بالكامل، تحيطها متاجر قديمة، بالتأكيد هي إحدى أبهى الساحات التي قُيِّض لي رؤيتها.

في مرتفع ترابي دائري، كانت هناك أربع شجرات بَاوْلُو نْيَا وارفة تحيط عمودَ إنارة له خمسة مصابيح كُرَوِيَّة الشكل. وكانت الشمس تنعكس على السقوف القرميدية الزرقاء. مغمور بين الأزقة الضيقة، بعيداً عن صخب الشارع، كان المكان بمثابة جزيرة رومانسية، متعالية على الزمن، خارجة مباشرة من إحدى رسومات بِيِنِْي (Peynet).

*

في اللحظة التي أكتب فيها هذه الأسطر، مرّت أكثر من سنة منذ ذلك الصباح، لكن ذكرى بيلي وهي تنزل من السيارة وقد اتسعت عيناها دهشة لا تزال راسخة في ذهني. في تلك الفترة لم أكن أعلم أن الأسابيع التي كنّا مُقْبِلَيْن على عيشها سوف تكون في الآن نفسه الأكثر إيلاماً والأكثر جمالاً في حياتنا.

*

إقامة الفتيات الداخلية مجمع بيركلي كاليفورنيا

- هذه الرزمة هي من أجلك! صاحت **يُوشَانْ** وهي تلج الغرفة التي كانت تقتسمها منذ بداية الدخول الجامعي مع **بُونِي ديل أميكو**.

وهي جالسة في مكتبها، رفعت **بُونِي** رأسها من على حاسوبها وشكرت رفيقتها في الغرفة قبل أن تنغمس من جديد في لعبتها الشطرنج.

كانت مراهقة ذات شَعَر كستنائي بقَصَّة قصيرة ولها وجه منشرح لا يزال يحافظ على استدارات الطفولة. لكن من نظرتها المركزة والجادة يتضح أن الحياة، رغم فتوتها، لم تكن دوماً رحيمة بها.

كانت شمس الخريف تلسع بأشعتها من خلال النافذة، مضيئة جدران الغرفة المغطاة بالملصقات المتنافرة التي تترجم أهواء المراهقتين: روبرت باتسون، كريستيان ستيوارت، ألربت إينشتاين، أوباما أو الدلاي لاما.

- ألا تَفُضِّينَها؟ سألتها الفتاة الصينية بعد مرور دقائق معدودة.

- إحم... هَمْهَمت بوني وهي شاردة الذهن. أمهليني فقط حتى أُلَقِّنَ هذه الآلة درساً.

قامت بحركة جسورة، مقدمة حصانها في المربع D4، آملة الظفر بفِيلِ خصمها.

- ربما هي هدية من تِيمُوثِي، جازفت يوشان وهي تتفحص الرزمة. إنه يهيم في حبك، ذلك الولد.

- إحم، كررت بوني. لا أبالي كثيراً بتيموثي.

صدَّ الحاسوب حركتها بإبراز الوزير.

- حسناً، سوف أفضُّها إذاً! قرَّرت الآسيوية.

ومن دون انتظار موافقة رفيقتها، فضت الظرف كي تجد كتاباً من الحجم الكبير له غلاف من الجلد ذي الحُبَيْبَاتْ: طوم بويد - ثلاثية الملائكة - الجزء 2.

- إنها الرواية التي اشتريتِها مستعملة بواسطة الإنترنت، قالت بصوت فيه شيء من الخيبة.

- إحم، إحم. . . همهمت بوني.

في الوقت الحاضر، يجب عليها حماية حصانها، ومن دون أن تتراجع تماماً، ضغطت على فأرة الحاسوب لتحريك بيدق نحو الأمام، لكن لاندفاعها الحماسي، تسرَّعت في ترك القطعة.

فات الأوان!

كانت كلمات «شِكْ مَلِك» تومض على الشاشة. مرَّة أخرى، انهزمت أمام تلك الخردة المعدنية!

هذا لا يبشر بالخير بالنسبة إلى بطولتي، فكرت وهي تخرج من البِرْنَامج.

في الأسبوع التالي كان يجب عليها الدفاع عن ألوان مدرستها أثناء بطولة العالم لأقل من ثمانية عشر سنة. وهي منافسة ستتم في روما كانت ترعبها وتثيرها في الآن نفسه.

نظرت الفتاة إلى الساعة الحائطية التي لها هيئة الشمس وأسرعت في جمع لوازمها. أمسكت الرواية التي توصلت بها توّاً وحشرتها في حقيبتها للظهر. سوف تقوم بإعداد حقيبة السفر إلى روما في ما بعد.

وداعاً ياصديقتي! قالت من بعيد وهي تجتاز عتبة الغرفة.

نزلت السلالم ثلاثاً ثلاث ثم توجهت صوب المحطة مسرعة الخطى لإدراك الـ BART(*): وهو الـ RER(**) المحلي الرابط بين بيركلي وسان فرانسيسكو الذي يعبر الخليج على علو أربعين متراً من مستوى الماء. شرعت في قراءة الفصول الثلاثة الأولى من الكتاب داخل القطار قبل النزول في محطة أُمْبَارْكَدِيرُو واللحاق بالترامواي المقطور بالأسلاك في **كاليفورنيا ستريت**. عَبَرَ الترامواي، المكتظ بالسياح، **نوب هيل**، وتجاوز **غريس كاتدرال**. غادرت الفتاة العربة الخشبية أبعد من ذلك المكان بمجموعتين سكنيتين، للوصول إلى قسم علاج السرطان بمستشفى **لينوسك** حيث كانت متطوعة للعمل، مرَّتين في الأسبوع، ضمن جمعية مُكَلَّفَة بالترويح عن المرضى بأنشطة ترفيهية أو فنية. لقد اهتدت إلى هذه المهمة النبيلة عبر معايشتها طوال سنتين لاحتضار أمها، **مالوري** التي ماتت جرَّاء إصابتها بالسرطان منذ بضع سنوات. كانت بوني إذاك في الجامعة وإن لم تبلغ سوى ستة عشر سنة، وهي سِنٌّ غير كافية، في العادة، للانخراط في هذا النوع من الأعمال. ولحسن الحظ أن **إليوت كوبر**، عميد المستشفى، كان صديقاً لـ **غاريت غودريتش**، الطبيب الذي تابع حالة أمها خلال أيامها الأخيرة، وكان يغض الطرف عن وجودها في المستشفى.

- نهارك سعيد سيدة **كوفمان**! قالت بصوت منشرح وهي تلج إحدى غرف الطابق الثالث.

ظهور بوني وحده، أشرق له وجه **إثيل كوفمان**، ورغم ذلك حتى أسابيعها الأخيرة، رفضت السيدة العجوز المشاركة في ورشات

(*) القطار السريع العابر للخليج.

(**) شبكة النقل السريع الجهوي، الذي يربط باريس وأطرافها.

الرسم أو ألعاب التسلية الجماعية التي تنظمها الجمعية، كما أنها لم تكن تحضر لحفلات المُهَرِّجينْ أو الدمى المتحركة التي برأيها تنم عن البلادة والانحطاط. كانت تريد أن يدَعُوها تموت في سلام وكفى.
لكن بوني كانت مختلفة، فالمراهِقَة تتمتع بشخصية قوية وبمزيج من الطهر والذكاء لم يجعلها غير مبالية بها. وقد تطلب الأمر من السيدتين عدة أسابيع كي تأتلفا، لكن في الوقت الحاضر، صارت لقاءاتهما نصف الأسبوعية ضرورية. وبما أنهما اعتادتا عليها، شرعتا في الثرثرة لدقائق معدودة. سألت إثيل بوني عن دراستها في الجامعة وعن بطولتها المقبلة في الشطرنج، ثم أخرجت الفتاة الكتاب من حقيبتها:
- مفاجأة! قالت وهي تظهر المجلد الجميل.

كانت عينا إثيل مرهقتان وكانت بيلي تستمتع بأن تقرأ لها. في الأسابيع السابقة كانتا مسحورتان طوعاً بحبكة **ثلاثية الملائكة**.

- لم أستطع المقاومة وقد قرأت مسبقاً الفصول الأولى، أقرَّت بوني. سوف أقدم لك ملخصاً سريعاً قبل متابعة القراءة، اتفقنا؟

*

مقهى وقاعة شاي بينْ أنْد لِيفْ
مقهى صغير في سانتا مونيكا العاشرة صباحاً

- أظن أني وجدتُ شيئاً ما! صاحت كارول وهي مُكِبَّة على حاسوبها المحمول، كانت الشرطية الشابة قد ارتبطت بالإنترنت بفضل نقطة البث **واي فاي** الموجودة في المقهى.

وهو يحمل بيده كوب حليب بالكراميل، دنا ميلو من الشاشة.

وبفعل إدخال كل أنواع الكلمات المفاتيح في محركات البحث، عثرت كارول في الأخير على صفحة في موقع eBay يعرض للبيع بواسطة الإنترنت النسخة الوحيدة المبحوث عنها.

- إنه ضرب من الجنون، هذا الشيء! استغرب وهو يهرق نصف شرابه على قميصه.

- أتعتقد بحق أنها النسخة المناسبة؟

- ليس في ذلك أدنى شك، قال جازماً وهو يتفحص الصورة: بعد عملية الإتلاف لم يعد هذا الغلاف الجلدي موجوداً سوى في نسخة واحدة.

- للأسف، تم البيع مسبقاً، قالت كارول مُتَبَرِّمَة.

- لقد عُرِضَ على eBay عدة أيام من ذي قبل، وتمَّ بيعه على الفور بمبلغ زهيد يساوي أربعة عشر دولاراً.

قولاً وفعلاً، ضغطت كارول على الرابط الذي يتيح إظهار تعريف العضو: annaboro73، المسجَّل منذ ستة أشهر خلت والذي يتمتع بتقديرات إيجابية.

بعثت كارول رسالة إلكترونية تشرح فيها رغبتها في التواصل مع الشخص الذي اشترى ذلك المنتَج. ثم انتظرا خمس دقائق كاملة، آملين من دون يقين أن جواباً فورياً سيرد عليهما، إلى أن نفد صبر ميلو وقام بدوره بتحرير رسالة أكثر وضوحاً مع تضمينها وعداً بمكافأة قيمتها ألف دولار.

- يجب أن أعود إلى العمل، قالت كارول وهي تنظر إلى ساعتها اليدوية.

- أين هو زميلك في العمل؟

- إنه طريح الفراش، أجابت وهي تغادر المقهى. قرر ميلو اللحاق بها وجلس بجانبها داخل سيارة الشرطة.

- ليس لديك الحق في الوجود هنا! أنا في ساعة مزاولة العمل، وهذه سيارة الدورية.

تصرف وكأنه لم يسمع شيئاً، ثم واصل الحديث:

- ما هو اسمها المستعار ذاك؟

- annaboro73، أجابته كارول وهي تشغل المحرِّك.

- جيِّد، **آنا**، هذا اسمها الشخصي، اتفقنا؟

- يبدو ذلك منطقي.

- بُورُو (Boro)، إنه اسم عائلي. إنها لم تَكْتُبْ بُورُووْ (Borrow) وهذا معروف، وإنما كتبتْ بُورُو، وهذا يذكرنا بصيغةِ تصغيرِ اسم ألماني.

- بالأَحرى بُولُونِي، لا؟ مثل بُورُوسْكِي (Borowski).

- أجل، هو ذاك.

- والرقم، هل تظن أنه يوافق تاريخ الميلاد؟

- من المرجَّح، أجاب ميلو.

بواسطة هاتفه، ارتبط سلفاً بموقع دليل الهاتف، لكن في منطقة لوس أنجلس وحدها، كان هنالك أكثر من عشرة آنا بوروسكي.

- ناولني الراديو، التمست منه كارول. وهي تسلك منعطفاً بمهارة.

أمسك ميلو مكبر الصوت ولم يمنع نفسه من ارتجال شيء ما:

- آلُو، الأرض، هنا القبطان كِيْرِكْ على متن المركبة أَنْتِرْبْرَايْز، نطلب السماح لنا بالهبوط في القاعدة.

نظرت كارول نحوه مذعورة.

- ماذا، هل ذلك مضحك؟

- أجل يا ميلو: عندما نبلغ من العمر ثمان سنوات، فذلك مضحك...

أمسكت المكبر بكثير من الحزم:

- آلو المركز، هنا الرقيب ألفَارِيزْ، الرقم B11231 436. هلا

عثرتم لي على عنوان المدعوة آنا بوروسكي، المرجح أنها من مواليد 1973؟

- عُلم، أيتها الرقيب، اعتبري أن الأمر قد نفذ.

*

باريس سان جرمان دي بري.

كانت شقتنا المفروشة ذات الغرفتين، تقع في الطابق العلوي من بناية بيضاء صغيرة، تطل على ساحة ظليلة، صغيرة بدورها؛ وشعرنا فيها على الفور بأننا «في دارنا».

- نذهب للتنزه؟ اقترحت بيلي.

الظاهر أن هواء باريس أعاد لها عافيتها. بالتأكيد لا تزال خصلات شعرها بيضاء وسحنتها شاحبة، لكن بدا أنها استرجعت بعضاً من لياقتها.

- أذكرك بأنه ينبغي عليّ كتابة أكثر من خمسمائة صفحة...

- شيء تافه، أم لا؟ قالت مازحة وهي تدنو من النافذة كي تعرض وجهها لأشعة الشمس.

- جيِّد، نزهة سريعة، إذاً. ما يكفي فحسب كي أُرِيكِ الحارة.

لبستُ معطفي بينما كانت تضع قليلاً من المساحيق على وجهها. وها نحن انطلقنا. ومثل أي سائحين، وقد كنا كذلك، تجوَّلنا أول الأمر في أزقة سان جرمان الضيقة ونحن نتوقف أمام واجهة كل مكتبة أو متجر لبيع التحف القديمة، نتفحَّصُ قوائم كل مقهى، ونُفَتِّش داخل الصناديق الحديد لبائعي الكتب القديمة الموجودين بمحاذاة (نهر) السِّين.

رغم المتاجر الفاخرة التي عوَّضت شيئاً فشيئاً أماكن الثقافة، فإن روح الحارة حافظت على شيء من السحر. في هذه المتاهة من

الأزقة، كان الهواء متميزاً، وفي كل موضع يتنسم المرء حب الكتب والشِّعر والرسم. كل الأزقة، كل البنايات التي تصطف في جولتنا تشهد على ماضي ثقافي ثري. لقد سبق وأن عمل **فولتير** بالبْروكُوبْ، أما **فِرْلِين** فقد كان يفد إلى هناك من أجل شرابه الأَبْسَنْت المُسْكِر. وكان **دولاكروا** يمتلك محترفاً بزقاق فُورْسْتِنْبُرْغ. وعاش **راسين** بزقاق فِيسْكُنْتِي. وقد أفلس **بلزاك** لمَّا أقام به مطبعته. ومات **أوسكار وايلد** وحيداً وبئيساً في فندق موبوءٍ بزقاق لِي بُوزَارْ. ورسم **بيكاسو** غِرْنِيكَا في زقاق لِي غْرَانْ أُوغِسْتَان. وعزف **مايلسْ دِيفِس** بزقاق سَانْ بُونْوا، وأقام **جِيمْ مُورِيسُون** بزقاق السِّين...

دُوَارٌ مُسْكِرٌ. أما بيلي فقد كانت متألقة، ترفرف في الشمس، تحمل بيدها دليلاً مرشداً، حريصة على أن لا تفلت شيئاً في جولتها. عند الظهيرة، أخذنا قِسطاً من الراحة بشرفة مقهى، وبينما كنت أعب فناجين الإسبريسو على الطريقة الإيطالية، الواحد تلو الآخر، كنتُ أنظر إليها وهي تستلذ، وكلها ابتسامة، بطعم الجبن الأبيض المُعَسَّل وبالخبز المحمص بالتُّوت. في ما بيننا، شيء ما تغير. تبخرت عدوانيتنا المتبادلة ليَحُلَّ مكانها تواطؤ جديد. منذ ذلك الحين، أصبحنا متحالفَين، كنا ندرك تمام الإدراك أن اللحظات التي نقضيها معا كانت معدودة، وهشَّة وبأن من مصلحتنا أن يعتني الواحد بالآخر.

- جيِّد، سنذهب في هذا الاتجاه، لزيارة هذه الكنيسة! اقترحتْ وهي تشير إلى برج أجراس سان جرمان. وحينما كنتُ أخْرِجُ حافظة النقود لأداء الفاتورة، ابتلعت بيلي جرعة أخيرة من الشوكولاتة الساخنة قبل أن تغادر كرسيَّها، ومثل طفلة تود إبراز مهاراتها، أسرعت في عبور الزقاق بينما كانت سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس. في تلك الآونة انهارت بفظاظة في قارعة الطريق.

*

وهي محتارة، قلبت بوني صفحات الرواية لتجد أنها كانت بيضاء.

- أخشى أنك لا تستطيعين التعرف اليوم إلى نهاية حكايتك، سيدة كوفمان.

عقدت إثيل حاجبيها ونظرت إلى الكتاب باهتمام أكبر. كان يتوقف بغتة عند الصفحة 266 بالتمام في منتصف جملة غير مكتملة بدورها.

- لا ريب أنه عيب في الطباعة. يجب إعادته للمكتبة.

- لقد اشتريته بواسطة الإنترنت!

- إذاً، تم النَّصْبُ عليك.

منزعجة، أحست بوني بالاحمرار يغمر وجنتيها. خسارة. كان الكتاب ممتعاً والرسومات بالصباغة المائية متقنة جداً.

- إلى المائدة! صاح عامل الخدمة وهو يدفع باب الغرفة لتقديم أطباق الوجبة.

ومثل كل مرة جاءت إلى هناك، كان لبوني أيضاً الحق في نصيبها. على القائمة: حساء بالخضر، سَلَطَة كُرُنْب بْرُوكْسِيل، سمك القد مغلي.

صرَّت بوني على أسنانها وتحاملت على نفسها من أجل تناول بضع لُقَيْمَات. لماذا لا يزال السمك يسبح في مائه؟ لماذا اصطبغت شوربة الفاصوليا الخضراء بذلك اللون الدَّاكن؟ والمخلل بدون ملح... يا للقذارة.

- ليست جيدة، أليس كذلك؟ اشتكت مدام كوفمان.

- في منزلة بين المقزز صراحة والكريه تماماً، أقرَّت بُونِي.

ارتسمت ابتسامة خفية على وجه السيدة العجوز.

- مستعدة لتقديم الغالي والنفيس من أجل سوفليه شوكولاته لذيذ. إنه خطيئتي اللطيفة.

- لم يسبق لي تذوقه، قالت بُونِي وهي تتلمظ.

- سوف أُدَوِّنُ لك الوصفة، اقترحت عليها إثيل. ناوليني قلماً وهذا الكتاب! فليصْلُح على الأقل لشيء ما.

فتحت الرواية، وعلى أول صفحة من الصفحات البيضاء، خطت بكتابتها الأجمل:

سوفليه بالشوكولاته

200 غراماً من الشوكولاته السوداء 50 غراماً من السكر 50 غراماً من الطحين الدقيق 50 سل من الحليب نصف دسم

1) هرس الشوكولاته إلى قطع وإذابتها في الماء على طريقة حمام مريم...

*

باريس سان جرمان دي بري

- انتبهي! كان جسم بيلي ممدداً في قارعة الطريق. كبحت السيارة الكْلِيُو سرعتها بالكاد ما يكفي لتحاشي الاصطدام. بزقاق بُونَابَرْت توقفت حركة السير، وتحلَّق جمع حول المرأة الشابة بسرعة.

كنتُ مكِبَّاً عليها، رفعتُ ساقيها حتى يستأنف الدم مساره نحو المخ. ووضعت رأسها على الجنب وخففتُ عليها ملابسها، متبعاً بالحرف الإرشادات التي أمدَّني بها د. فليبسون. وأخيراً استعادت بيلي وعيها واسترجعت بعضاً من سحنتها، وبقدر ما كانت وعكتها مفاجئة كانت سريعة أيضاً. إغماء مشابه لذاك الذي أصابها في المكسيك.

- لا تبتهج بسرعة: لم أمت إلى الآن، قالت مُتهَكِّمة.

قبضت بشدة على معصمها. كان نبضها ضعيفاً لا يزال، وتنفسها شاقاً، وكانت حبيبات من العرق تلمع على جبينها.

كان لنا موعد في اليوم التالي مع البروفسور كْلُوزُو، الطبيب الذي نصحتني به أُرُور. كنتُ أتمنى بكل ما أوتيت من قوة أن تكون كفاءته بمقدار شهرته.

*

لوس أنجلس

- الشرطة، افتحوا الباب! من خلف ثقب الباب كانت آنا تراقب ضابط الشرطة التي تطرق بابها. أعرف أنك في الداخل، سيدة بوروسكي، صرخت كارول وهي تبرز شارتها.

مُذْعِنَةٌ، أدارت **آنا** القفل وجاوزت فتحة الباب بوجه مُتَحَيِّر.

- ماذا تريدون؟

- أن نطرح عليك بعض الأسئلة فحسب بخصوص كتاب قمتِ بإعادة بيعه عبر الإنترنت.

- لم أسرقه، ذاك الكتاب! قالت آنا مدافعة عن نفسها. لقد عثرت عليه في حاوية للأزبال، هذا كل ما في الأمر.

نظرت كارول صوب ميلو الذي استرسل.

- يجب أن تمدينا بعنوان الشخص الذي اشتراه.

- إنها طالبة، على ما أعتقد.

- طالبة؟

- على أي حال، إنها تقيم في مجمع بيركلي.

*

سان فرانسيسكو مستشفى لينوكس

الرابعة بعد الزوال

لم تجد إثيل كوفمان طريقها إلى النوم. منذ انصراف بوني، بعد الغذاء، كانت تتقلب في فراشها ذات اليمين وذات الشمال. شيء ما لم يكن على ما يرام. يعني، باستثناء السرطان الذي كان ينخر رئتيها...

إنه الكتاب. أو بالأحرى، ما خطته على صفحاته البيضاء. استوت على وسادتها وتناولت الرواية من على منضدة السرير لتفتحها على الصفحة التي دوَّنت بها وصفة التحلية التي تعود لطفولتها. من أين هبَ عليها ذاك الحنين مجدَّداً؟ من الموت الوشيك الذي كان يتقدم نحوها يوماً بعد يوم؟ على الأرجح.

الحنين... إنها كانت تمقت ذلك. كانت طريق الحياة سريعة جداً بحيث إنها قرَّرت عدم الالتفات إلى الخلف أبداً. لقد عاشت دوماً في اللحظة، ساعية لتجاهل الماضي. لم تكن تحتفظ بتذكارات. لم تحتفل بأي عيد ميلاد. كانت تغير سكنها كل ثلاث أو أربع سنوات حتى لا تتعلق بالأشياء أو بالناس. بالنسبة إليها، كان الأمر دائماً بمثابة بقاء.

ورغم ذلك، في تلك الظهيرة، كان الماضي يطرق بابها. نهضت بمشقة وخطت بضع خطوات حتى وصلت إلى الدولاب الحديد هناك حيث رُتِّبَتْ أغراضها. أخرجت الحقيبة الصغيرة المصنوعة من الجلد الخشن وذات السَّحَّاب التي أحضرتها لها **كاتْيا**، ابنة أخيها، أثناء آخر زيارة لها. أغراض وجدتها كاتيا عندما أفرغت منزل أبويها قبل عرضه للبيع.

كانت الصورة الأولى تحمل تاريخ آذار/ مارس 1929، شهور معدودة بعد ولادتها. تمثل زوجان عاشقان يَهُمَّان باتخاذ وضع صحبة

أطفالهما الثلاثة. كانت إثيل بين ذراعي أمها، بينما كان أخوها وأختها، توأمان يكبرانها بأربع سنوات، يحيطان بوالدهما. ملابس جميلة، وابتسامات صادقة، وتواطؤ: الحب الأسري والوداعة ينضحان من الكليشيه. وضعت إثيل الصورة جانباً فوق سريرها. لم تنظر إليها قَط منذ عقود.

الوثيقة الثانية كانت قصاصة صحافية مصفرَّة، مزينة بعدة صور تعود إلى سنوات 1940: الأزياء الرسمية النازية، الأسلاك الشائكة، والهمجية... كانت الصحيفة تحيل إثيل إلى طفولتها الشخصية. كانت تبلغ بالكاد عشر سنوات لمَّا قَدِمَتْ إلى الولايات المتحدة برفقة أخيها. لقد تمكنا من مغادرة كْرَاكُوفْيَا قبل أن يُحَوِّل الألمان جزءاً من المدينة إلى «غيتوه»، معزل. كان من المفروض أن تلحق أختها بهما في ما بعد، لكن لم تتوفر لها تلك الفرصة - لقد ماتت جرَّاء حمى التِيفوسْ في بْلاَسْزُوو (plaszow) - ولا لأبويها اللذين لم ينجوا من مركز الاعتقال في بيلزيك (Belzec).

واصلت إثيل عودتها إلى الماضي. الوثيقة التالية كانت عبارة عن بطاقة بريدية بالأسود والأبيض تمثل راقصة باليه أنيقة ترقص على أطراف أصابعها. كانت تلك هي، في نيويورك. لقد أمضت هناك مراهقتها كاملة في أحضان أسرة جديها من أمها التي أحسنت استكشاف موهبتها في الرقص وتشجيعها. وبسرعة، أبانت عن تميزها وتم قبولها في «نيويورك سيتي باليه»، الفرقة التي كان قد أنشأها منذ عهد قريب جورج بَالاَنْشِين.

كسَّارة البندق، بحيرة البجع، روميو وجولييت: لقد أدَّت رقصات الأدوار الرئيسية بأكبر الباليهات. ثم أُرْغِمَتْ على التخلي عن الرقص في سن الثمانية والعشرين، بعد كسر لم يتم علاجه كما ينبغي خلَّف لديها عرجاً قبيحاً.

شعور بالخراب جعل بَدَنَهَا يقشعر. خلف البطاقة البريدية عثرت على برنامج عرض نيويوركي. بعد حادثتها، أصبحت أستاذة في مدرسة الباليه الأمريكي، كما شاركت في إخراج بعض المسرحيات الموسيقية في بْرودْوِيْ.

صورة أخرى كانت تؤلمها على الدوام، ولو بعد عقود. كانت لعاشق غامض. رجل يصغرها بعشر سنوات. أحبته في سن الخامسة والثلاثين: حكاية غرامية، مقابل ساعات معدودة من النشوة، أدت ثمنها بسنوات من العذاب والخيبة.

وثم... وثم، الكابوس...

كابوس يبتدئ في ضوء الصورة التالية، الغائمة شيئاً ما، التي التقطتها بنفسها وهي تنظر إلى ذاتها في المرآة. صورة بطنها المنتفخ المدور.

وبينما لم تكن تتوقع ذلك بتاتاً، حبلت إثيل عشية بلوغها سن الأربعين. هدية من الحياة تقبلتها بامتنان غير محدود. لم يسبق لها قط أن كانت سعيدة بمثل ذلك القدر الذي كانت عليه خلال الشهور الستة الأولى من حملها. بالطبع كانت تعاني من الغثيان وكان التعب يسحقها، لكن الـ «bambino»، الطفل الذي كان ينمو في أحشاءها غيَّرها.

ورغم ذلك، ذات صباح، ثلاثة أشهر قبل الوضع، فقدت المياه المحيطة بالجنين بلا سبب ظاهر. تم نقلها إلى المستشفى حيث أجرت الفحوصات اللازمة. كانت تتذكر كل شيء بحِدَّةٍ فائقة. كان الرضيع هناك لا يزال، في بطنها. كانت تشعر بركلات رجله، وكانت تسمع قلبه ينبض. ثم أخبرها اختصاصي الولادة الذي كان يعمل ذلك المساء أن كيس المياه تمزق، وأنه من دون السائل الأمنيوسي لا يستطيع الجنين العيش. ولما صار الكيس الغشائي جافاً، أصبح

ضرورياً استثارة الولادة، وبالتالي كانت تلك الليلة المرعبة حيث وضعت رضيعها وهي تعلم بأنه لن يعيش. وبعد ساعات من الجهد لم تمنح الحياة، وإنما الموت.

لقد استطاعت رؤيته، لمسه وتقبيله. كان صغير الحجم جداً، لكن جميلاً جداً أيضاً. ولحظة الوضع، لم تكن قد قرَّرت في شأن اسم طفلها. في داخلها، كانت دائماً تقول bambino، الطفل، طفلي.

عاش الطفل دقيقة واحدة، قبل أن يتوقف قلبه. لن تنسى أبداً تلك الثواني الستين التي كانت خلالها أُمّاً؛ ستون ثانية سريالية، بعد ذلك لم تحي قط، بل كانت تتظاهر بالعيش. كل نورها، كل فرحها، كل إيمانها، استنفذته خلال تلك الدقيقة. كل ما تبقى داخلها من وهج انطفأ وطفلها في الآن نفسه.

كانت الدموع التي تسيل من خديها تنهمر على مغلف صغير سميك من ورق صدفي، فتحته وهي ترتجف وأخرجت منه خصلة شَعر الطفل. بكت طويلاً. لكن ذلك حرَّرها من ثقل حملته في داخلها منذ سنوات.

في الوقت الراهن كانت تشعر أنها مرهقة للغاية، قبل أن تعود للنوم، وبإلهام مفاجئ، ألصقت الصور والقصاصة الصحافية والبطاقة البريدية وخصلة الشعر على صفحات الكتاب الفارغة. موجز لأقوى لحظات حياتها تضمه قرابة عشر صفحات.

إن قيض لها البدء من جديد، هل كانت ستغير شيئاً من حياتها؟ طردت هذا السؤال من رأسها. لم يكن لهذا السؤال أي معنى. الحياة ليست لعبة فيديو فيها عدد من الاختيارات المتعددة. الزمن يمضي ونمضي معه، ونفعل فيه غالباً ما نقدر عليه بدلاً مما نريده. القدر

يقوم بما تبقى، ويأتي الحظ كي يضيف شيئاً من ملحه إلى كل ذلك. هذا كل ما في الأمر.

وضعت الكتاب في مغلف كبير من نوع كْرَافْتْ، ونادت على الممرضة والتمست منها تسليم تلك الرزمة لبوني ديل أميكو في المرة المقبلة التي تقدم فيها إلى المستشفى.

*

إقامة الفتيات الداخلية مجمع بيركلي

السابعة مساء

- لا تبالغي في أكل التِيرَاميسُّو في روما! نصحتها يُوشَانْ بخُبْث. هناك على الأقل مليار من السعرات الحرارية كما أنك صرتِ مثْخَنَة في الآونة الأخيرة، أم لا؟

- لا تشغلي بالك بحالتي، ردَّت عليها بوني وهي تغلق حقيبتها. لا يبدو أن ذلك ينفر الفتيان وفق ما فهمته...

نظرت الفتاة الشابة عبر النافذة. كان الظلام قد عمَّ، لكنها أبصرت أضواء التاكسي الذي طلبته وهي تنادي عليها.

- أنا ذاهبة.

- بالتوفيق! لقنيهم درساً لن ينسوه، هؤلاء الجُهَّال! قالت الفتاة الصينية مشجعة إياها.

نزلت بوني سلالم الإقامة الداخلية وناولت أغراضها لسائق التاكسي الأصفر ذاك الذي وضعها بسيارته.

- هل أنت ذاهبة إلى المطار آنستي؟

- أجل، لكن أود في البداية لو عرجت سريعاً على مستشفى لينوكس.

خلال الطريق، سرحت بوني مع أفكارها. لماذا أحست بالحاجة

إلى العودة بغية رؤية السيدة كوفمان؟ عندما غادرتها عند الظهيرة لاحظت أنها كانت مرهقة وحزينة شيئاً ما. خاصة أن السيدة العجوز ودَّعتها على نحو رسمي جداً مع إلحاحها على تقبيلها. وهذا أمر لم تعهده فيها حقيقة.

كما لو كنا نرى بعضنا للمرة الأخيرة! . . . توقف التاكسي في الصف المزدوج.

- ها أنا أترك حقيبتي، اتفقنا؟ سوف يستغرق الأمر خمس دقائق.

- على مهلك، سوف أركن السيارة في الموقف.

*

إقامة الفتيات الداخلية مجمع بيركلي
السابعة والنصف

- الشرطة، افتحوا الباب!

فزعت يوشان. لقد انتهزت فرصة غياب شريكتها في الغرفة للنبش في حاسوبها ومحاولة قراءة رسائلها البريدية. خلال ثوانٍ معدودة تملكها الرعب وظنت أن كاميرا مراقبة مدسوسة في الغرفة قد كشفت أمرها.

أطفأت المُشَغِّل على عجل قبل أن تفتح الباب.

- أنا الضابط كارول ألفاريز، قدَّمت كارول نفسها، وهي تعلم علم اليقين أنه لم يكن لديها أي تفويض للتدخل في الحرم الجامعي.

- نريد التحدث إلى بوني ديل أميكو، أخبرها ميلو.

- كدتما تصادفانها بقليل، قالت يوشان بارتياح. إنها غادرت للتو نحو المطار. سوف تشارك في بطولة الشطرنج في روما.

- روما! يا للقرف!

- هل لديك رقم هاتفها المحمول؟ سألها وهو يخرج هاتفه الخليوي.

*

موقف السيارات في مستشفى لينوكس
السابعة مساء و34 د.

في المقعد الخلفي للتاكسي كان جرس الهاتف يرن داخل حقيبتها الباتْشْوورْك. كان طنينه يُلِحُّ إلا أن السائق لم يسمعه لأنه في انتظار راكبته كان قد رفع من صوت المذياع لمتابعة مباراة تجمع بين فريقي المِيتْسْ والبْرِيفْسْ.

داخل المبنى، كانت بوني قد غادرت المصعد وتقدمت بخطى حذرة في الممر.

- لقد انقضى وقت الزيارات يا آنسة! أوقفتها ممرضة قائلة.

- كنتُ... كنتُ أود توديع السيدة كوفمان قبل سفري خارج البلاد.

- إحم... أنت المتطوعة الصغيرة، أليس كذلك؟

أيدتها بوني بحركة من رأسها.

- لقد نامت إثيل كوفمان، لكنها تركت ظرفاً لأجلك.

بقليل من الخيبة تبعت بوني السيدة ذات الرداء الأبيض حتى المقصورة للحصول على الرزمة التي تضم الكتاب.

عندما رجعت إلى التاكسي، في طريقها إلى المطار، اكتشفت بذهول الصور والحواشي التي أضافتها السيدة العجوز. وجرَّاء انفعالها لم تفكر لحظة في مراجعة هاتفها.

*

مطار سان فرانسيسكو الدولي مدرج الإقلاع رقم 3
السابعة و27 د

«نهاركم سعيد، سيداتي، سادتي. هنا رئيس القُمْرَة، أنا سعيد لاستقبالكم على متن هذه البوينغ 767 المتوجهة نحو روما. مدة الرحلة تقدر اليوم بـ 13 ساعة و55 دقيقة. انتهت الآن عملية الركوب. قبالة مقاعدكم تجدون نشرة تعليمات السلامة تضم الإجراءات الاستعجالية التي نلتمس منكم قراءتها برويَّة. سوف يقوم الآن فريق القمرة باستعراض الإجراءات. . .».

*

مطار سان فرانسيسكو الدولي قاعة المغادرة
التاسعة مساء و 28 د

- الرحلة المتجهة إلى روما؟ للأسف، لقد أنهينا للتو عملية الركوب، قالت مضيفة الاستقبال وهي تراجع شاشة حاسوبها.

- هذا أمر لا يصدَّق! أزبدت كارول. لن تطال أيدينا هذا الكتاب الملعون. حاول أن تتصل بتلك الفتاة!

- لقد سبق وأن بعث لها برسالتين، قال ميلو. لعلها اكتفت بتشغيل هاتفها على الهزَّاز.

- حاول مرَّة أخرى من فضلك.

*

مدَرَّج الإقلاع رقم 3 الرحلة 0966
التاسعة مساء و 29 د

«نحن الآن على وشك الإقلاع. المرجو ربط حزام السلامة، أرفعوا مقاعدكم، وأطفئوا هواتفكم. كما نذكركم أن هذه الرحلة مخصصة لغير المدخنين وأنه ممنوع إطلاقاً التدخين بالمراحيض».

ربطت بوني حزامها وفتشت حقيبتها لليد لإخراج وسادتها المخصصة للسفر، وقناعها للنوم وكتابها. لما أطفأت هاتفها، لاحظت أن الضوء الأحمر كان يومض، مشيراً إلى وجود رسائل أو رسائل الخدمة القصيرة. كانت تميل إلى فحصها، لكن نظرة المضيفة المعاتبة ردعتها.

*

باريس منتصف الليل

كان صالون شقتنا الصغيرة مضاء بنور خافت تنشره بضع شمعات. بعد أمسية هادئة، نامت بيلي على الأريكة. أما أنا فقد شغَّلتُ حاسوبي جَزِعاً وفتحت معالج النصوص القديم الذي لي. ظهرت الصفحة المرعبة على الشاشة ومعها الغثيان والقلق والذعر التي كانت قد صارت مألوفة لديَّ، للأسف.

غالب نفسك! غالب نفسك!

نهضت من على الكرسيِّ، توجَّهتُ نحو الأريكة وأخذتُ بيلي بين ذراعيَّ كي أحملها إلى الغرفة. في نومها المبلبل همهمتْ أنها كانت حملاً ثقيلاً عليَّ لكنها تركتني أفعل. كان الليل رطباً وجهاز التدفئة في الغرفة يرسل حرارة ضئيلة. في الخزانة وجدت لحافاً إضافياً ودثَّرتها مثل طفلة.

وأنا على وشك إغلاق الباب سمعتها تقول: «شكراً».

كنتُ قد أنزلت الستائر لحماية نومها من نور الزقاق وكان الظلام يعُمُّنا. «شكراً لاهتمامك بي. لم يفعل أحد من قبلك ذلك قط».

*

«لم يفعل أحد من قبلك ذلك قط». كان صدى الجملة لا يزال يتردد داخلي لمَّا رجعت إلى مكتبي. على الشاشة، نظرتُ إلى الزالقة

التي كانت تشاكسني بومضاتها. من أين يأتيك الإلهام؟ إنه السؤال الكلاسيكي الذي يتردد على لسان القراء والصحافيين، وبكل صدق لم أستطع قط الإجابة عنه بجدية. الكتابة تستلزم حياة زاهدة: إن تسويد أربع صفحات في اليوم كان يتطلب مني زهاء خمسة عشر ساعة. لم يكن هناك من سِحْر ولا وصفة: كان يكفيني فحسب الانقطاع عن العالم، الجلوس إلى مكتبي، وضع سمَّاعَتَيَّ، ثم ينساب فيهما شيء من الموسيقى الكلاسيكية أو الجاز وتوفير مخزون من كبسولات القهوة. أحياناً، في الأيام الجيدة، كانت تحل هالة نور فاضلة تجعلني أكتب دفعة واحدة حوالي عشر صفحات كاملة. في هذه الفترات المباركة، كنت أنجح في إقناع نفسي بأن الحكايات تتمتع بوجود قبلي في مكان ما من السماء وبأن صوت ملاك كان يملي عليَّ ما ينبغي كتابته، لكن هذه الأوقات كانت نادرة، ولمجرد التفكير في تحرير خمسمائة صفحة خلال بضعة أسابيع كان يبدو لي مستحيلاً ببساطة.

«شكراً لاهتمامك بي». اختفى غثياني. واستحال جزعي رهبة. رهبة الممثل قبل رفع الستار بالتحديد. وضعت أصابعي على لوحة مفاتيح الحاسوب وشرعت تتحرك تقريباً رغماً عني. وجاءت السطور الأولى كما لو بفعل ساحر.

الفصل 1

مهما تذكر كل بُوسْتُونِي أبعد ما يستطيع التذكر، لم يسبق له أن شهد شتاء قاسياً بمثل ذلك الحد. منذ أكثر من شهر، كانت المدينة ترزح تحت وطأة الثلج والصقيع. في المقاهي، كانت الأحاديث تدور في الغالب أكثر فأكثر حول ذلك الاحتباس الحراري الذي كانت وسائل الإعلام تصم به آذاننا. «لا يصدق! يا له من هراء، كل ذلك!»

في شقتها الصغيرة بسَاوْثِي، كانت بيلي دونلي تنام نوماً

خفيفاً، هشاً. حتى الوقت الراهن، لم تكن الحياة رحيمة بها. لم تكن تعلم بالأمر. لكن ذلك سوف يتغير.

هو ذاك، ها نحن انطلقنا. فهمت بسرعة أن المشاعر التي أكنها نحو بيلي قد حررتني من لعنتي. إذ بجعلها إياي أضع قدمي من جديد على أرض الواقع، كانت قد نجحت في العثور على مفتاح القفل الذي كان يغلق عقلي. لم تعد الصفحة البيضاء تخيفني. أخذت أرقن واشتغلتُ طوال الليل.

*

روما مطار فيوميتشينو اليوم التالي.

«سيداتي، سادتي، هنا رئيس القمرة، لقد هبطنا للتو بمطار فيوميتشينو في روما حيث درجة الحرارة 16°C تقبلوا اعتذارنا جرَّاء هذا التأخير البسيط. المرجو البقاء جلوساً أثناء الدوران وحافظوا على ربط حزام السلامة إلى أن تتوقف الطائرة كلياً. حاذروا من تساقط الأغراض عند فتح مقصورات الأمتعة وتحققوا من عدم نسيان أي شيء. باسم فريق يونايتد إيرلاينز كله، نتمنى لكم نهاراً ممتعاً ونأمل رؤيتكم قريباً على متن خطوطنا».

وقد تجشمت بوني ديل أميكو عناء الدنيا بأكملها كي تنفض عنها النعاس. إنها نامت طوال الرحلة نوماً مضطرباً، مليئاً بالكوابيس لم تستطع التخلص منه.

غادرت الطائرة وهي لا تزال مسترخية، من دون أن تنتبه إلى أنها نسيت داخل شبكة المقعد الكتاب الذي أعطتها إياه إثيل كوفمان.

30

متاهة الحياة

ليس هناك ما هو أشد مأساوية من ملاقاة شخص يتخبط من العجز، ضائع في متاهة الحياة.

مارتن لوثر كينغ

الاثنين 13 أيلول/ شتنبر المقاطعة 15 باريس
التاسعة صباحاً.

نزلنا في محطة بَالاَزْ، نهاية الخط 8 من المترو. في بداية الخريف الباريسي هذا، كانت الحرارة معتدلة وكان يعم الأجواء ما يشبه نسيم الدخول المدرسي.

كان المستشفى الأوروبي ماري كوري عبارة عن مبنى ضخم يقع على حافة نهر السِّين، بمحاذاة حديقة أَنْدْرِي - سِيتْرْوِين. واجهته الرئيسية مزينة بكاملها بالزجاج، كانت تتماهى مع انحناءة الزقاق وتخلف أثراً مرآويا يعكس الأشجار المحيطة.

وحسب ما قيض لي قراءته عنه، فهو يجمع أقسام المستشفيات القديمة في باريس، ويعدُّ واحداً من بين أكثرها كفاءة في أوروبا، وعلى الأخص نظراً إلى قُطْبِ القلب والشرايين حيث يعمل البروفيسور كلوزو.

بعد أن أخطأنا المدخل ثلاث مرَّات وأن تهنا في دهاليز الباحة المركزية الكبرى وجَّهَنا عاملٌ نحو مجموعة من المصاعد قادتنا إلى ما قبل الطابق الأخير.

ورغم موعدنا المسبق، أجبرنا على انتظار الطبيب مدة ثلاث أرباع الساعة. وفقاً لسكرتيرته، فالبروفسور كلوزو - الذي كان يقطن في المبنى حيث يوجد المرضى - عاد هذا الصباح بالذات من نيويورك، حيث يُدَرِّسُ مرَّتين في الشهر بالهارفرد ميدكل سكول المرموقة.

انتظرنا تحت إشراف كُورِينْ داخل مكتب رفيع يزينه أثاث يجمع بين الخشب والمعدن ويمنح رؤية مذهلة لنهر السِّين وأسطح باريس. بالوقوف قبالة الحاجز الزجاجي، يمكن تمييز القوارب وهي تنزلق ببطء على النهر، وجسر مِيرابُو، ونسخة تمثال الحرية في أقصى طرف من جزيرة البجع.

كان الرجل الذي اندفع داخل الغرفة أقرب شبهاً إلى المفتش كولومبو منه إلى أستاذ طب بارز. بشَعرٍ منفوش، ووجه متهدل غير حليق، كان يلبس معطفاً شتوياً مُكَوَّماً، رمى به على كتفه مثل رداء. قميصه الاسكتلندي كان منفلتاً من سترته المخضرة والمتدلي على سرواله المخملي المضلع الذي فيه بقع مشكوك فيها كثيراً. لو صادفتُ هذا الشخص في الشارع ربما دفعتني الحاجة لنفحه قطعة نقدية. من الصعب التصديق أنه بالإضافة إلى قسم المستشفى كان يدير فريقاً من الأطباء والمهندسين الذين يعملون منذ خمسة عشر سنة على ابتكار قلب اصطناعي مستقل بذاته.

غمغم بعبارة مبهمة للاعتذار عن تأخره، استبدل معطفه الشتوي بوِزْرَة مصفرَّة ومن دون شك بفعل الفارق الزمني تهالك على كرسيِّه.

سبق لي أن قرأت في موضع ما أنه أثناء لقائنا الأول بوجه

جديد، فإن دماغنا يقرر في عُشْرِ ثانية إذا ما كان ذلك الشخص جديراً بالثقة. وهذه عملية سريعة جداً بحيث إن قدرات الحكم لدينا لم تكن تتوفر بكل بساطة على الوقت للتأثير في ذلك الانفعال «الغريزي» الأول.

وذلك الصباح، رغم مظهره المهمَل، فإن انطباعاً بالثقة هو ما ارتسم في عقلي إزاء البروفسور كلوزو.

بيلي بدورها لم تترك لمظهره أن يهزها وحددت له بتفصيل أعراضها: فقدان الوعي، إرهاق كبير، شحوب، ضيق في التنفس لأدنى مجهود، غثيان، حمى، فقدان في الوزن وحرقة في المعدة.

وبينما كان يسجل هذه المعلومات وهو يهمهم بأصوات تكاد تكون غير مسموعة، ناولتُه الملف الطبي الذي كونته بفضل تحاليل مورتمر فليبسون. وضع نظارتين مقعرتين تشبهان تلك التي كانت ترى في سنوات السبعينيات ثم ألقى على الوثائق نظرة سريعة وهو يمط شفتيه مُرْتَاباً، لكن بريق نظرته الثاقبة خلف نظارتيه المستديرتين كان يشي بذكاء متّقد ومُتَحَفِّز.

- سوف تجرون تحاليل من جديد، قال جازماً وهو يرمي بصرامة الملف الورقي في سلة المهملات. هذه التحاليل التي تم إجراؤها في مستوصف فندق شاذ وحكاية الـ«فتاة من ورق» تلك، والحبر والسليلوز: لا شيء من هذا يقبله المنطق.

- وإغمائي؟ قالت بيلي بعصبية. وشَعر. . . .

قاطعها بقسوة:

- في رأيي، إن أزماتك المتكررة ناجمة عن انخفاض مباغت في الصبيب الدموي الدماغي. إذاً فهي صادرة بالضرورة عن تشوه في القلب أو في الشرايين؛ هذا بالتحديد تخصصي وتخصص القسم الذي أديره.

كتب على وصفة طبية لائحة من الفحوصات التي يجب إجراؤها في اليوم نفسه واقترح أن يرانا مجدداً في المساء.

*

روما مطار فيوميتشينو

البوينغ 767 القادمة من سان فرانسيسكو كانت راسية بحظيرة الوقوف. وكان الركاب قد نزلوا منذ أكثر من نصف ساعة وعمَّال الصيانة منشغلين بتنظيف داخل الطائرة.

وضع مايك بُورْتُويْ، الطيار المدني، اللمسة الأخيرة على تقرير ما بعد الطيران وأغلق حاسوبه المحمول.

لقد تعبتُ من هذه الأوراق! فَكر وهو يتثاءب.

لم يتقن شيئاً ما تقويمَه البَعْدي، لأن تلك الرحلة التي دامت خمسة عشر ساعة كانت قد أنهكته. نظر إلى شاشة هاتفه المحمول. زوجته تركت لأجله رسالة رقيقة وودودة. ولتفادي مكالمتها، أرسل إليها واحداً من النصوص «نسخ لصق» التي يحتفظ بها للحاجة. اليوم لديه أفضل مما يفعله عادة من ثرثرة مع زوجته. هذا المساء، عليه ملاقاة فْرانْسيسْكا. في كل مرة يمر فيها في روما كان يدبر أمره لتجريب حظه مع المضيفة الجميلة التي تعمل بمكتب الأغراض الضائعة. في سن العشرين، نضرة، جذابة، شهية باستداراتها السخية. كان لفرانسيسكا تأثير عجيب عليه. إلى حدٍّ الآن، رفضت دائماً تلميحاته، لكن ذلك سوف يتغير، إنه يشعر بذلك.

غادر مايك قُمْرَتَه، صفَّف شعره وأحكم أزرار سترته.

يجب عدم التقليل أبداً من هيبة الزِّي الرسمي.

لكن قبل أن يغادر الطائرة كان ينبغي له إيجاد مبرر للاقتراب من الإيطالية الشابة.

لمح فريقَ النظافة الذي وزع بينه المهام نظراً إلى سرعته وفعاليته. بالعربة الأولى، وسط المجلات والمناديل الورقية المستعملة، أبصر كتاباً جميلاً ذا غلاف جلدي أزرق بلون الليل. دنا، تناول الكتاب، تأمل الغلاف المزين بنُجُوم حيث يبرز اسم الكاتب وعنوان الرواية بأحرف ذهبية: طوم بويد - ثلاثية الملائكة - الجزء 2.

لم أسمع به قط، لكن سيقوم بالمهمة. هذه هي صنارتي!

- لا يمكنك أخذ ذلك الكتاب، سيدي. التفت، بعد أن أُخِذَ على حين غرة. من تجرأ على التحدث إليه على ذلك النحو؟

لقد كانت إحدى خادمات التنظيف. سوداء، لطيفة بالأحرى. وكانت الشارة الإلزامية المعلقة إلى عنقها تظهر اسمها - كايْلا - والمنديل الذي يعقد شعرها يضم نجمة بيضاء مرسومة على خلفية زرقاء المميزة للعلم الصومالي.

حَدَجَها باحتقار:

- سوف أتكلف بهذا! قرَّر وهو يشير إلى المؤلَّف. سوف أمر تحديداً بمكتب الأغراض الضائعة.

- أنا مضطرة لإخبار رئيس فريقي، سيدي.

- أخبري الرَّب في السماوات إذا كان ذلك يروقك، سخر منها وهو يهز كتفيه.

احتفظ بالكتاب في يده، وغادر الطائرة. هذا المساء سوف تنام فرانسيسكا في حضنه!

*

شارع ماريو دي برناردي

في التاكسي الذي كان يقودها إلى فندقها، فكرت بوني فجأة في تشغيل هاتفها المحمول. كان يعج بالرسائل! أولاً والدها الذي كان

منشغلاً لأمرها، ثم هناك رسالة نصية مخبولة من يُوشَانْ تخبرها أن الشرطة جاءت في أعقابها، وعلى الأخص عدة مكالمات من شخص يدعى ميلو كان يعبر عن رغبته في أن يبتاع من عندها رواية طوم بويد التي اقتناها بواسطة إنترنت.

يا لها من حكاية مجانين!

انتابها شعور سيء، فتشت جرابها كي تدرك أن الكتاب لم يعد هناك. لقد نَسِيتُه في الطائرة! كان التاكسي سيلج الطريق السيَّار حينما أطلقت بوني صرخة تعجب:

- توقف، من فضلك! هل يمكن أن تعود أدراجك؟

*

المستشفى ماري كوري الأوروبي

كي دو سين، باريس

- استرخي يا آنسة، إن الفحص غير مؤلم أبداً.

كانت بيلي ترقد، وصدرها عارٍ، ممدة على جنبها الأيسر. إلى يمينها، ألصق طبيب القلب ثلاثة أقطاب كهربية على صدرها قبل أن يدهن جذعها بقبضة كبيرة من الهلام.

- سوف نجري لك الآن تخطيطاً بالصدى للقلب، بحثاً عن ورم محتمل وتحديد موضعه. ألحق الفعل بالكلام وهو يجس بالمِسْبَار، وفق أوضاع مختلفة، بين أضلع بيلي وعلى مقربة من عظم القص، وفي كل مرة يلتقط صوراً إشعاعية عديدة. على الشاشة، كنتُ أميز بوضوح نبضات قلب المرأة الشابة التي تكومت على نفسها من شدة الخوف. كنت أرى الحيرة كذلك على محيا الطبيب الذي كان وجهه يحتدم أكثر فأكثر، كلما طال الفحص.

- هل الأمر خطير؟ لم أتمالك نفسي من عدم السؤال.

- سوف يوضح لك البروفيسور النتائج، رد علي بشيء من الجفاء. لكنه أضاف بمبادرة منه:

- أعتقد أنه بالإضافة إلى تخطيط القلب بالصدى سوف نجري التصوير بالرنين المغناطيسي.

*

روما مطار فيوميتشينو

- ليست فرانسيسكا هنا؟ سأل مايْك بورتُويْ وهو يدفع باب مكتب الأغراض الضائعة.

وجد الطيار المدني مشقة في إخفاء خيبته. خلف المنضدة، رفعت «البديلة» عينيها عن المجلة كي تمنحه بعض الأمل مجدداً:

- إنها تستمتع بقسطها من الراحة بالدَّافِينْتْشِيز.

انطلق مايك من دون أن يقول كلمة «شكراً» ولا حتى تجشم عناء إيداع الكتاب الذي أخذه من الطائرة.

وهو يقع في زاوية من المحطة النهائية 1، كان الدافينتشيز بمثابة واحة في قلب المطار. بديكور من الأعمدة الرخامية الوردية، كان للمحل مظهرُ مقهى غير رسمي، فيه دعامات وقِبَابٌ يغطيها اللبلاب المتسلق. وعلى طول مشرب ضخم له شكل حرف U، كان المسافرون يتدافعون لابتلاع فناجين إسبريسو قوية مع تذوق حلويات من صنع المحل.

- هَيَا! فرانسيسكا! صاح وهو يلمحها. في كل مرة كان يجدها أكثر جمالاً. كانت مستغرقة في الحديث مع مستخدم شاب: مهرج يلبس مئزرَ مُحَمِّصِ القهوة الذي يدفع له من أجل إعداد القهوة على نحو رسمي، بدءاً بالبن الأخضر وصولاً إلى مستخلص الرَّحيق المقدم في الفنجان.

دنا مايك، وضع الكتاب على المشرب وحاول التدخل في الحديث، بفرض لغته - الأمريكية - وموضوع حديثه - نفسه. لكن الإيطالية الجميلة كانت تنتشي بحضرة رفيقها الشاب، تعُبُّ كلماته وجفناها يرفرفان: كانت لديه ابتسامة فاتنة، عينان ضاحكتان، وخصلات شعر مجعدة داكنة. منتفخ الأوداج، نظر مايك إلى الملاك الروماني بتحدٍّ، ثم دعا فرانسيسكا إلى العشاء معه. فهو يعرف مطعماً إيطالياً صغيراً قرب كامْبو دي فْيُوري يقدم مقبلات لذيذة و. . .

- هذا المساء، سأخرج مع جْيانْلُوكا، أجابته وهي تهز رأسها.

- أوه. . . ربما غداً إذاً؟ أنا باق في روما ليومين.

- أشكرك، لكن. . . لا! رفضتْ عرضه قبل أن تنخرط في ضحك جنوني مع شريكها.

صار مايك شاحباً. شيء ما يستعصي عليه إدراكه. كيف لهذه العاهرة أن تفضل عليه ذلك البائس؟ هو الذي تابع دراساته الجامعية لثمان سنوات كي يصل إلى مهنة تحيط بها هالة من الهيبة التي تسحر الناس. والآخر لديه عمل غارق في الوحل ودوام عمل جزئي مرن. هو يغزو السماء، والآخر كان له أجر يقدر بسبعمائة وستة وثمانين أورو لا غير مؤقتاً. . .

وكي لا يفقد ماء الوجه كلياً، أجبر نفسه على طلب شيء ما. كان طائرا الحب قد واصلا حديثهما بالإيطالية منذ مدة طويلة. سرى عبق القهوة الساحر إلى دماغه. ابتلع فنجانه اللُّونْغُو دفعة واحدة فأحرق لسانه.

لا بأس، سوف أمتع نفسي بمومس من ناحية سان لورينزو، فكَّر وهو مغتاظ مع علمه جيداً أن ذلك لن يمحو ضحكة فرانسيسكا الساخرة.

نزل من على كرسيه الذي لا متكأ له وغادر المقهى وهو يجر

ذيول الخيبة ونسي على المشرب الكتاب ذي الغلاف الجلدي القوطي...

*

مطار فيوميتشينو مكتب الأغراض الضائعة
خمس دقائق بعد ذلك.

- آسفة، آنستي، لم يحضر أحد إلينا روايتك، قالت فرانسيسكا لبوني.

- هل أنت متأكدة؟ سألتها المراهقة. لقد كان كتاباً مهماً جداً بالنسبة إلي. كان يضم كذلك صوراً و...

- أنصتي إلي، سوف تعبئين هذه الجذاذة مع وصفك بأكبر دقة ممكنة الغرض الضائع وكذا رقم الرحلة، وإذا أحضره لنا أحد ما، سوف نخبرك بالهاتف على الفور.

- موافقة، أجابت بوني بحزن. وعملت على تعبئة الوثيقة بعناية، لكن في قرارة نفسها، كان هناك صوت مهموس يقول لها بأنها لن ترى مجدداً كتاب طوم بويد الغريب وغير المكتمل وبأنها لن تتذوق سوفليه الشوكولاته الذي يخص السيدة كوفمان...

*

مستشفى ماري كوري الأوروبي
كي دو سين السابعة و15 د

- كُورِينْ، هات نتائج الآنسة دونلي! صرخ جان باتيست كلوزو وهو يفتح باب مكتبه.

باغت نظرتي المستغرِبة إلى جهاز الاتصال الداخلي لمكتبه.

- لم أستطع يوماً معرفة كيف يعمل هذا الشيء: مع كل هذا العدد المفرط من الأزرار! غَمْغَمَ وهو يحك رأسه.

والظاهر أن الأمر يسري كذلك على البْلاكْ بِيرِي من آخر طراز الذي كان يومض ويهتز كل دقيقتين من دون أن يعيره أدنى اهتمام.

لقد واصل العمليات طوال النهار وبدا أنه غدا أقل «طراوة» من الصباح. كان وجهه المتعَب مجوفاً من الهَالاَت ولحيته الكثيفة بدت وكأنها نمت بنصف ستتمتر خلال ساعات معدودة.

خيَّم الليل على باريس، وأغرق الغرفة في شبه ظلمة. لكن كلوزو لم يتجشم عناء إضاءة المكان. واكتفى بالضغط على الزر المركزي لآلة التحكم عن بعد لتشغيل شاشة مسطحة كبيرة معلقة إلى الجدار، يتوالى عليها تقرير فحوصات بيلي، كما على شاشة للعرض.

دنا الطبيب من اللوحة المضيئة للتعليق على الوثيقة الأولى:

- أكد تحليل الدم انخفاض معدل الصفائح، وهذا ما يبرر حالة الأنيميا لديك، قال مفسراً وهو ينظر إلى المرأة الشابة من خلال مَوْشُور نظارتيه الغريبتين.

ضغط على زر للانتقال إلى الصورة التالية:

- أما تخطيط القلب بالصدى، فقد أبان عن وجود مخاطات قلبية.

- مخاطات؟ قالت بيلي متحيرة.

- إنها أورام تقع في القلب، قال كلوزو مدققاً بفظاظة.

اقترب أكثر من الشاشة ووجه آلة التحكم عن بعد إلى تفصيل في الصورة الطبية والذي يمثل كتلة داكنة لها شكل كرة صغيرة.

- وَرَمُكِ الأول يقع في الأُذَين الأيمن. إن له شكل معروف، به عُنَيْقٌ قصير له قوام هُلاَمي. للوهلة الأولى، يبدو لي ورماً حميداً...

انتظر انصرام بضع ثوان قبل أن يسترسل بصدد الصورة الأخرى:

- الورم الثاني مقلق أكثر، قال معترفاً. له حجم غير عادي

بحوالي عشر سنتمترات وله شكل مُتَلَيِّف، راسخ ومفتول. انحشر على مستوى الفتحة الميتْرَاليَّة، كما أن موقعه يعيق وصول الدم الغني بالأكسجين إلى الجانب الأيسر من القلب. وهذا ما يفسر ضيق التنفس، والشحوب والإغماء لديك، ما دام الجهاز العضوي لا يسري فيه الدم بما يكفي.

وبدوري اقتربت من الصورة. كان للورم شكل عنقود عنب معلق إلى حجرة القلب بخيوط. لم أستطع منع نفسي من التفكير في جذور الخشب وأليافه التي تنقل النسغ، وكأن شجرة كانت تنمو في جسد بيلي.

- سوف... سوف أموت، أليس كذلك؟ سألتْ بصوت مرتجف.

- بالنظر إلى حجم المخاط، إذا لم نُزِلْهُ في أسرع وقت، هناك بالفعل مخاطرة كبيرة في إصابتك بانسداد الشرايين أو الموت الفجائي، قال كلوزو مُسَلِّماً.

أطفأ الشاشة، أشعل الأضواء وجلس إلى كرسيه.

- إنه علاج جراحي بالقلب المفتوح. هناك مخاطر بالطبع، لكن بالنظر إلى الحالة الراهنة، أكبر خطر هو أن لا نقوم بشيء.

- متى يمكنك أن تجري لي العملية الجراحية؟ سألتْهُ.

بصوته الجهوري، نادى الطبيب على كُورِينْ، سكرتيرته، كي تناوله مفكرة مواعيده. كانت هذه الأخيرة حافلة جداً، هناك عمليات ومداخلات مُسَطَّرَة على عدة شهور مقدماً. كنت أخشى أن يحيلنا على واحد من زملائه، لكن باسم صداقته مع أرور، وافق على تأجيل موعد آخر للقيام بجراحة على بيلي خمسة عشر يوماً بعد ذلك الحين.

بالتأكيد، هذا الشخص يعجبني كثيراً.

*

من : bonnie.delamico@berkeley.edu

الموضوع: ثلاثية الملائكة - الجزء 2

التاريخ: 13 أيلول/ شتنبر 2009 22 : 57

إلى: milo.lombardo@gmail.com

سيدي العزيز

لقد وجدتُ بالفعل الرسائل العديدة التي تركتها على هاتفي للإشارة إلى رغبتك في اقتناء نسختي من كتاب طوم بويد الذي تزعم أنك مدير أعماله وصديقه.

وعلاوة على أن هذا الكتاب ليس للبيع، أخبرك أنني للأسف أضعته أثناء رحلة بين سان فرانسيسكو وروما، وأنه إلى حد الساعة لم تتم إعادته إلى مكتب الأغراض الضائعة في مطار فيوميتشينو.

متمنية أن تتوصل فعلاً بهذه الرسالة، أرجو أن تتقبل أصدق تحياتي.

بوني ديل أميكو

*

روما مطار فيوميتشينو مقهى دافينشي

كان أول ركاب الرحلة على متن فْلاَيْ إيطاليا القادمين من برلين قد شرعوا في مغادرة الطائرة. ومن ضمنهم الرسام والمصمم الشهير لوكا بارتوليتي العائد، بعد إقامة قصيرة، من العاصمة الألمانية. ثلاثة أيام قضاها في الإجابة عن استجوابات بمناسبة معرض استعادي لمجمل أعماله من تنظيم الـ هامبرغر باهْنْهوفْ، متحف المدينة للفن المعاصر. إن رؤية لوحاته معلقة إلى جانب لوحات أندي وارْهول وريشار لونغ تمثل نوعاً من التكريس. الاعتراف بمجهود عُمْرٍ بأكمله.

لم يهدر لوكا وقته في انتظار حقيبته أمام حزام نقل الأغراض

الدائري. كان يكره حمل الأمتعة ويسافر من دونها. في الطائرة كان بالكاد قد لمس طبق الوجبة التي كانت عبارة عن سَلَطَة مطاطية، عُجَّة بيض كريهة بالمعجنات ملفوفة بالسيلوفان وفطيرة بالإجاص صلبة وكأنها جِبْس.

قبل استرجاع سيارته، توقف كي يأكل شيئاً ما بالدافنشي. كان المقهى يوشك على إغلاق أبوابه، لكن المدير ارتأى قبول طلب أخير. اختار لوكا فنجان كابوتشينو وشطيرة ساخنة بالموتزاريلا والطماطم وجَامْبُون (لحم خنزير) إيطالي. جلس إلى المشرب لإنهاء قراءة مقالة في صحيفة **الرِيبابْليكَا** كان قد بدأها في الطائرة. لما وضع صحيفته من أجل أخذ جرعة من القهوة، لمح الكتاب ذا الغلاف الجلدي الأزرق الذي نسيه الطيَّار المدني قبل ذلك. كان لُوكَا من هواة الـbookcrossing(*)، كان يشتري الكثير من الكتب، ولا يحتفظ بأي منها، مفضلاً تركها في أماكن عامة كي يستفيد منها غيره. في البدء اعتقد أن الكتاب قد تُرِكَ هناك عن قصد، لكن لم يكن تمت أي بطاقة ملصقة على الغلاف تدعم هذه الفكرة.

تصفح لوكا الرواية وهو يقضم شطيرته. ولأنه لم يكن محباً للأدب الشعبي، فإنه لم يسبق له أن سمع بطوم بويد، لكنه احتار لما اكتشف أن الرواية كانت غير مكتملة وبأن أحد قرَّائها استعمل الصفحات الناقصة وكأنها ألبوم للصور.

أكمل وجبته وغادر المقهى متأبطاً ما عثر عليه. في موقف السيارات تحت الأرضي، وجد الـ DS المكشوفة القديمة ذات اللون الأحمر القاني التي اشتراها ذات مزاد قريب العهد. وضع الكتاب فوق

(*) الكتاب المسافر، ظاهرة تتمثل في ترويج كتب «بإطلاقها» في الطبيعة كي يتم العثور عليها وقراءتها من طرف أشخاص آخرين يطلقونها بدورهم.

مقعد الراكب ثم انطلق جهة جنوب غربي المدينة.

كان لوكا يقيم خلف ساحة سانتا ماريا، في الطابق الأخير من مبنى أَمْغَر اللون في حارة تْراسْتِفيري الطريفة والمُلَوَّنة. شقة واسعة حولها إلى فضاء مفتوح وفيها أقام ورشته. وما أن ولج عرينه، حتى غمر المكان نور ساطع - من النوع الذي يحتاج إليه لإنجاز لوحاته -. خفف لوكا من حدته بالتحكم في مفتاح الإضاءة. لم يكن المكان يعطي الانطباع بأنه مسكون مادام مجرداً، ينتظم حول مدفئة ضخمة مركزية تحيط بها مرايا دائرية. كان هناك مناصب تقريباً في كل مكان، فرش من جميع المقاييس، لفائف صباغة المباني، مكاشط دباغ الجلود، سكاكين، وعلب صباغة بالعشرات. لكن لم يكن هناك لا سرير طفل أو خزانة كتب، ولا أريكة ولا تلفاز.

تفحص لوكا لوحاته الأخيرة. كانت كلها مُوَحَّدَة اللَّون: تنويعات على اللون الأبيض، بها شجَّات، أخاديد، نقوش وضربات فرشاة تخلق تأثيرات ضوئية فريدة. أعمال تتمتع بتقدير كبير ومرتفعة الأسهم لدى هواة جمع اللوحات. لكن لوكا لم يكن مغفلاً. لقد كان يعلم أن النجاح والاعتراف النقدي لا يعكسان الموهبة ضرورة. إن المرحلة كانت مشبعة بالاستهلاك، يلوثها الضجيج والسرعة والأشياء، بحيث كان يبدو للناس أنهم يحصلون على نوع من التطهير عند اقتنائهم لوحاته.

خلع الرسام معطفه وأخذ يتصفح بانفعال الصفحات التي تزينها صور حياة إثيل كوفمان.

منذ أمد بعيد، خلت حياته من كل نزوة. ومع ذلك، هذا المساء اجتاحته رغبة جامحة في تذوق سوفليه بالشوكولاته...

31

أزقة روما

سوف تكون محبوباً في اليوم الذي تستطيع فيه إظهار نقاط ضعفك من دون أن يستخدمها الآخر لزيادة قوته.

سيزار بافيز

باريس 14-24 أيلول/ شتنبر

رغم التهديد الذي يمثله مرض بيلي، فإن الأسبوعين اللذين سبقا عمليتها الجراحية كانا بمثابة واحدة من الفترات الأكثر انسجاماً التي شهدها «زوجينا».

كانت روايتي تتقدم على نحو حسن. كنت قد استرجعت لذة الكتابة وكانت الليالي التي أقضيها في العمل محمولة باندفاع حماسي وخلاق. كنت أسعى إلى إرساء قواعد حياة وديعة وسعيدة بالنسبة إلى بيلي. قبالة حاسوبي، كنت أخلق من أجلها، على مر الصفحات، الحياة التي حلمَتْ بها دوماً: حياة أكثر هدوءاً، متخلصة من شياطينها، من خيباتها ومن جراحاتها.

عموماً، كنت أشتغل حتى الفجر، ثم أخرج في الصباح الباكر، عند الساعة التي تقوم فيها الكنّاسات بِرَشِّ أرصفة سانْ جِرْمانْ بالماء.

كنتُ أتناول أول فنجان قهوة لليوم في خمَّارة بزقاق بُوتْشِي قبل الانعطاف على مخبزة ممر دُوفِين التي تقدم حلوى الخف بالتفاح ذهبية وذائبة، أعود إلى عشِّنَا الواقع بساحة فورستنبورغ ثم أقوم بإعداد فنجانَيْ قهوة بالحليب وأنا أستمع إلى المذياع. كانت بيلي تلحق بي وهي تتثاءب، فنتناول فطورنا متكَئيْن على مَشْرَبِ المطبخ الأمريكي الذي يطل على الساحة الصغيرة. كانت تدندن محاولة فهم كلمات الأغاني المنوعة الفرنسية. أما عني أنا فقد كنتُ أمسح فتات المُعَجَّن الملفوف العالق بزاوية شفتيها ناظراً إليها وهي تغمض عينيها نصف غماضة لاتقاء الشمس التي كانت تتوهج على وجهها. وبينما كنتُ أواصل عملي كانت بيلي تقضي الصبيحة في القراءة. لقد وجدت مكتبة إنجليزية قرب نوتردام والتمستْ أن أضع لها لائحة بالروايات التي لا محيد عنها. من سْتَايْنْبِيكْ إلى سَالِينْجِر مروراً بدِيكْنْز، التهَمَت خلال تلك الخمسة عشر يوماً بَعْضاً من الروايات التي أثرت في مراهقتي، مُدَوِّنَة حواشي على متنها، سائِلَةً إياي عن سِيرةِ حياة مؤلِّفيها وناقِلَةً على دفترِ الجُمَلَ التي أثارت إعجابها.

في الظهيرة، بعد أن أكون قد نِمْتُ لساعات معدودة، غالباً ما أرافقها إلى قاعة السينما الصغيرة الواقعة بزقاق كْرِيسْتِين والتي كانت تعرض أعملاً خالدة قديمة لم يسبق لها أن سمعت بها من قبل، لكن كانت تكتشفها بانبهار: يمكن للسماء أن تنتظر، سبع سنوات من التفكير، متجر زاوية الزقاق... بعد انتهاء العرض، نعيد الفيلم مجتمعين حول فنجاني شوكولاته فِيينَا وفي كل مرة ذكرتُ فيها مرجعاً كان مجهولاً لديها كانت تتوقف لتسجله على دفترها. كنتُ هنري هيغنس وكانتْ إليزا دولِتل(*). كنا سعيدين.

(*) الشخصيتان الرئيسيتان في مسرحية بيغماليون لصاحبها جورج برنارد شو.

في المساء، رفعنا تحدي إعداد بعض الوصفات المأخوذة عن كتاب قديم في فن الطبخ عثرنا عليه في المكتبة الصغيرة بشقتنا. مع بعض النجاح تقريباً جرَّبنا أطباقاً كالصلصة بلحم العجل، فرخة بط بالكمثرى، عصيدة دقيق الذرة بالليمون أو - وهو ما مَثَّل أكبر نجاح لدينا - فخد الخروف مُلَبَّساً بالعسل والزعتر.

هكذا اكتشفت، أثناء هذين الأسبوعين، جانباً آخر من شخصيتها: امرأة شابة ذكية ودقيقة، عازمة على تثقيف نفسها. وعلى الأخص بعد أن ألقينا أسلحتنا، زعزعتني المشاعر الجديدة التي كنت أكنها لها.

بعد الأكل، كنتُ أجعلها تقرأ الصفحات التي كتبْتُها خلال اليوم، وهذا ما كان يشكل منطلقاً لأحاديث طويلة متبادلة. في مشرب الصالون الصغير، عثرنا على قنينة مفتوحة سلفاً لماء الحياة بالكمثرى من نوع ولیامز. كان الملصق التقليدي شبه ممحو، لكنه يثبت أن الخمرة قد تم «تقطيرها مع احترام تام لتقاليد الأسلاف» من طرف مُنْتِج صغير يوجد شمال الأَرْدِيشْ. في الليلة الأولى، ألهب هذا الماء الذي يلوي الأمعاء حَلْقَ كل منا، واعتبرناه غير صالح للشرب، لكن ذلك لم يمنعنا من شرب كأس منه في اليوم التالي. في الليلة الثالثة، كان حُكْمُنا عليه «بأنه لم يكن سيئاً إلى ذلك الحد» وبأنه «ممتاز صراحة» في الليلة الرابعة. ومنذ ذلك الحين، صار ماء النار جزءً لا يتجزأ من مراسيمنا، وبفعل تأثير الكحول المسكر، كنا نكشف أكثر أسرار بعضنا. هكذا حدثتني بيلي عن طفولتها، عن مراهقتها الكئيبة، عن الضيق الذي كانت تغرق فيه جراء الإحساس بالعزلة والذي كان يدفعها دوماً نحو قصص حبٍ فاشلة. حدثتني عن معاناتها لكونها لم تلتق يوماً رجلاً يحبها ويحترمها، عن آمالها في المستقبل وعن الأسرة التي تحلم بتكوينها. عموماً، كان ينتهي بها المطاف إلى النوم على الأريكة

وهي تنصت إلى أقراص موسيقية قديمة من فئة 33 لفة منسية من طرف مالكة الشقة ومحاولة ترجمة أغنية ذلك الشاعر ذي الشَعر الأبيض والذي يمسك سيجارة على الغلاف، والذي يزعم أن «مع الزمن الذي يمضي، كل شيء يمضي»، وأننا «ننسى الأهواء وننسى الأصوات التي كانت تهمس لنا بكلمات الناس البسطاء: لا تتأخر في العودة، وعلى الأخص حاذر البرد».

*

بعد أن أصعد بها إلى غرفتها، أنزل مجدداً إلى الصالون كي أجلس قبالة شاشتي. عندها تبتدئ بالنسبة إلي ليلة من العمل المنعزل، أحياناً تكون ليلة مثيرة لكنها مؤلمة دوماً، لأن سنوات السعادة التي كنت أتوقعها لبِيلي، كنتُ أعلم أنها سوف تقضيها بعيداً عني. في عالم كنتُ أنا خالقه لكن لم أكن أوجد فيه حتى، إلى جانب رجل كان هو عدوي اللدود.

قبل أن تقتحم بيلي حياتي، كنت بالفعل قد ابتدعت شخصية جَاكْ بوصفها معاكسة لي. كان يجسد كل ما أمقته أو ما يزعجني في الذكورة. كان جاك نقيضي، يمثل نوع الرجال الذي أكرهه، النوع الذي لم أكن أريد أن أصيره.

حيًّا الأربعين، له وجه وسيم، هو أب لطفلين، ويعمل في بوسطن مساعد مدير بشركة تأمينات كبرى. لأنه تزوج وهو في فتاء سنه، كان يخون زوجته بكل سرور، هي التي وجدت في ذلك الأمر مبرراً. واثق من نفسه، متحدث بليغ، كان يعرف جيداً نفسية النساء، وإبان اللقاء الأول كان ينجح في كسب ثقة محاورته. كان يُبْرِزُ، وعن قصد، في كلامه ومواقفه جرعة معينة من الذكورية التي تظهر على أنه فحل ورجل. لكن أمام تلك التي كان يريد إغواءها، كان يبدو في الغالب وديعاً ورقيقاً، وجرَّاء هذا التناقض كانت النساء تسقطن في

شراك حبه، لشعورهن بذلك الإحساس المُسْكِر بأن لهن السبق في تلك المعاملة التي لا يسلكها مع الأخريات.

في الحقيقة، ما إن يصل إلى مبتغاه، كان مزاج جاك الأناني يعود إلى الواجهة. ولأنه متلاعب، كان دائماً ينجح في تأدية دور الضحية كي يقلب الظروف إلى صالحه. كلما راوده الشك، كان يحطُّ من مكانة عشيقته بكلمات قاسية، إذ كان يتمتع بموهبة معرفة نقاط ضعف خليلاته من أجل إخضاعهن لسطوته.

ولسوء الحظ، رميتُ بيلي بين مخالب هذا الغاوي المنحرف والنرجسي الذي كان يصيب ضحاياه بجراح لا تندمل. هو من سقطتْ في حباله والتمستْ مني أن أبني حياتها إلى جانبه.

منذ ذلك الحين، سقطتُ بدوري في فخ أنا من نصبه، لأننا لا نستطيع تغيير مزاج شخصية روائية من النقيض إلى النقيض. ومهما كنتُ مؤلف الكتاب، فإنني لست الإله الخالق. للمتخيل قواعده الخاصة، وبين هذا الجزء وذاك، لم يكن بمقدور هذا الحقير القح أن يتحول بغتة إلى صِهْرٍ مثالي.

في كل ليلة كنت أبذل ما في وسعي للتقهقر بلطف، مغيراً منحى جاك، من خلال لمسات دقيقة كي أخلع عليه صفة البشرية وأجعله على مرِّ الصفحات شخصاً مألوفاً أكثر.

*

بَاسِيفِك بَالِيزَاد، كاليفورنيا

15 أيلول/ شتنبر التاسعة و01 د.

- الشرطة! افتح الباب، سيد لومباردو!

استيقظ ميلو بصعوبة. فرك عينيه وغادر سريره وهو يترنَّح.

سهرا حتى وقت متأخر، أمضيا، كارول وهو، جزءاً مهما من

الليل كلٌّ قبالة حاسوبه، مغرقين، للأسف بلا جدوى، غرف الدردشة ومواقع البيع عبر الإنترنت، بحثاً عن النسخة المفقودة. وكلما كان الأمر ممكناً، تركا إعلانات وتنبيهات عبر البريد الإلكتروني. كان عملاً مُمِلاً وسَّعَاهُ حتى شمل كل المواقع التي كان لها علاقة، من قريب أو من بعيد، بِبيع الكتب أو الأدب.

- الشرطة! افتح وإلا...

وارب ميلو الباب. كانت تواجهه موظفة الشرِيف. سمراء قصيرة لها عينان خضراوان وتتمتع بسِحْرٍ أيرلندي - أمريكي كانت تظن نفسها تِيرِيزا لِيزْبُون.

- يومك سعيد سيدي. كَارينْ كَالِينْ. وحدة شريف كاليفورنيا. لدينا أمر للقيام بإجراءات الإفراغ.

خرج ميلو إلى الشرفة بينما كانت شاحنة نقل تتوقف أمام البيت.

- ما هذا القرف؟

- لا تفسد علينا عملنا، من فضلك! هدَدته الضابط. في هذه الأسابيع الأخيرة، تلقيت العديد من الإشعارات موجهة من قِبَل المصرف.

وبالفعل، كان هناك حمَّالان واقفان أمام المدخل، لا ينتظران سوى الأمر لإفراغ المنزل.

- فضلاً عن ذلك، واصلت الشرطية وهي تناوله مغلفاً، ها هو أمر الإحالة على المحكمة من أجل تهريب ممتلكات مهدَّدة بالحجز.

- إنك تقصدين بذلك...

- سيارة البوغاتي التي قمتَ برَهْنِها، أي نعم.

بحركة من رأسه، أعطى الشريف الأمر لـ «صَاحِبَيْ الإفراغ» اللذين نهبا كل أثاث المنزل في أقل من نصف ساعة.

- وهذا يعتبر لا شيء مقارنة مع ما ستجبركم عليه إدارة

الضرائب! صاحت من بعيد كارين السَّادية وهي تغلق باب السيارة.

وجد ميلو نفسه وحيداً، على الرصيف، وبيده حقيبة. أدرك فجأة أنه لم يعد له مكان يقضي به الليلة. ومثل ملاكم تلقى ضربة على رأسه أذهلته، خطى بضع خطوات يمنة ويسرة، لا يعلم أين المفر. ثلاثة أشهر من ذي قبل، كان قد سرَّح الشخصين اللذين كانا يعملان معه وباع مكاتبه الواقعة في داون تاون. هكذا. لم يعد له عمل، ولا سقف يؤويه ولا سيارة، لا شيء بالمرة. ولأمد طويل جداً، رفض مواجهة الواقع، ظناً منه أن الأمور ستتم تسويتها في نهاية المطاف، لكن هذه المرة، أمسك به بالواقع على نحو مقرف.

كانت أشعة الشمس الصباحية تجعل الوشوم التي تزين أعلى ذراعيه متوهجة. ندوب من ماضيه، كانت تعيده إلى الشارع، إلى المشاجرات، إلى عنفٍ وبؤسٍ ظنَّ أنه أفلت منهما.

أخرجه من أفكاره عويل صفارة إنذار الشرطة. التفت تحدوه الرغبة في الفرار، لكن لم يكن ذلك حضوراً عدوانياً.

كانت كارول.

فهمتْ على الفور ما حصل ولم تترك من مجال للحرج. وكلها عزم، أمسكت حقيبة ميلو وحشرتها في المقعد الخلفي لسيارة الدورية التي لها.

- لدي أريكة سرير مريحة جداً، لكن لا تعتقد أنك ستقيم عندي من دون فعل أي شيء. هناك ورق مصبوغ أود إزالته من على جدران الصالون منذ مدة طويلة، كما ينبغي إعادة طلاء المطبخ بالكِلْس، وإصلاح مفاصل الدُّش، لدي كذلك صنبور يرشح في الحمام وآثار الرطوبة التي ينبغي إخفاؤها. في الحقيقة، ها أنت ترى أن طردك يلائمني بالأحرى...

شكرها ميلو بحركة خفية من رأسه. ربما لم يعد له عمل، ولا

بيت ولا سيارة. لكن بقي لديه كارول. لقد أضاع كل شيء. ما عدا الأساس.

*

روما حارة تْراسْتِفيري 23 أيلول/ شتنبر

دخل الرسام لوكا بارتوليتي مطعماً عائلياً صغيراً يقع في زقاق فرعي. بديكور من الأثاث القديم، كان المكان يعرض طبخاً رومانياً لا تكلف فيه. هنا تُؤكَل المعجَّنات على مفرش تُزَيِّنُه مربعات ويُشرب الخمر في غرَّافة.

- جيوفاني! قال منادياً.

كانت القاعة فارغة. والساعة تشير إلى تمام العاشرة صباحاً، ومع ذلك فإن رائحة الخبز الساخن كانت تعم الأجواء سلفاً. كان المطعم في ملكية والديه منذ أكثر من أربعين سنة، وإن كان أخوه هو من يشرف على تسييره اليوم.

- جيوفاني!

ظهر طيفٌ في مدخل الباب. لكن لم يكن لأخيه.

- لماذا تصرخ هكذا؟

- يومك سعيد، ماما.

- يومك سعيد.

لا قبلة. لا عناق. لا دفء.

- أبحثُ عن جيوفاني.

- أخوك غير موجود. لقد ذهب عند مارْسيلُو لاشتراء الـ piscialandrea(*).

(*) نوع إيطالي لفطيرة البصلية، تشبه البيتزا.

- حسناً، سوف أنتظره.

ومثل كل مرة يوجدان فيها لوحدهما، يخيم صمت ثقيل عليهما، كله عتاب ومرارة. قليلاً ما كانا يلتقيان، وقليلاً ما كانا يتحدثان إلى بعضهما. عاش لوكا لمدة طويلة في نيويورك، ثم بما أنه عاد إلى إيطاليا بعد طلاقه، استقر أول الأمر بميلانو قبل أن يقتني شقة في روما.

ولدفع الحرج، مر خلف المشرب وأعدَّ لنفسه فنجان إسبريسو. لم يكن لوكا شديد التعلق بالأسرة. وكان عمله يمثل في الغالب مبرراً لعدم الحضور في حفلات التعميد والزواج والمناولة ووجبات الغداء أيام الآحاد التي كانت تطول. ومع ذلك، كان يحب كثيراً ذويه على طريقته ويتعذب لفشله في معرفة السبيل إلى التواصل معهم. لم تفهم أمه قط رسمه، بل ولا حتى نجاحه. لم تستسغ كيف أن الناس يقبلون على شراء لوحات أحادية اللون بعشرات الآلاف من عملة الأورو. وكان لُوكا يعتقد أنها تنظر إليه وكأنه نصَّاب: محتال موهوب كان ينجح في الاستمتاع بحياة مريحة من دون أن «يعمل» حقاً. وقد أدى سوء الفهم هذا إلى نَسْفِ علاقتهما.

- هل من أخبار عن ابنتك؟ سألته.

- لقد التحقت سانْدْرا للتو بالثانوية، في نيويورك.

- ألا تلتقيها أبداً؟

- ليس دوماً، قال معترفاً. أذكرك بأن أمها هي التي لها حق رعايتها.

- وعندما تراها، لا تتم الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟

- حسناً، لم أقدم إلى هنا من أجل سماع هذه السخافات! صرخ لوكا وهو ينهض من مكانه للانصراف.

- انتظر! قالت منبهة إياه.

لزم مكانه عند عتبة الباب.

- يبدو أنك مهموم.

- هذا شأن يخصني.

- ماذا كنت تريد أن تطلب من أخيك؟

- معرفة إن كان قد احتفظ ببعض الصُّور.

- صُوَر؟ إنك لم تأخذ قط أي صور؟ فأنت تردد على الدوام بأنك لا تحب الإثقال على نفسك بالذكريات.

- شكراً على مساعدتك، ماما.

- من ذا الذي تبحث عن صوره؟

غيَّر لوكا مجرى الحديث تماماً.

- سوف أعود لرؤية جيوفاني في ما بعد، قال وهو يفتح الباب.

دنت منه المرأة العجوز وأمسكت به من معصمه.

- لقد صارت حياتك مثل لوحاتك، يا لوكا: أحادية اللون، جافة وفارغة.

- هذا رأيك.

- إنك تعرف جيداً أنها الحقيقة! قالت بأسى.

- إلى اللقاء، ماما، قال وهو يغلق الباب خلفه.

*

هزت السيدة العجوز كتفيها وعادت إلى مطبخها. فوق طاولة العمل القديمة المصنوعة من الخشب البلاط كان هناك المقال الامتداحي الذي خصصته **لاريبابْليكا** لمجمل أعمال لوكا. أنهت قراءته قبل أن تقتطعه وتضعه في إضبارة كبيرة كانت تحفظ فيها، منذ سنوات، كل ما يكتب عن ابنها.

*

عاد لوكا إلى شقته. استعمل فرشاته الصغيرة وكأنها قطع خشب لإشعال الموقد المركزي الكبير الذي كان يمثل محوراً حوله تنتظم ورشته. وبينما كانت النار آخذة في الاشتعال، جمع كل لوحاته، ومنجزاته الأخيرة، المكتمل منها والجاري العمل فيه، ثم صبَّ عليها بإحكام المحلول الروحي الأبيض قبل أن يقذف بها في النيران.

لقد صارت حياتك مثل لوحاتك، يا لوكا: أحادية اللون، جافة وفارغة. مسحوراً باحتراق رسوماته، نظر الفنان إلى عمله الذي كان يذهب مع الدخان على أنه خلاص له.

رنَّ جرس الباب. انحنى لوكا على النافذة ورأى طيف أمه المقوس الظهر. نزل للحديث إليها، لكن عندما فتح الباب، كانت قد اختفت، مكتفية بترك غلاف كبير في صندوق رسائله.

عقد حاجبيه وفتح المغلف من دون انتظار. كان يحتوي بالضبط الصور والوثائق التي أراد طلبها من أخيه!

كيف عرفت بذلك؟

صعد إلى ورشته وبسط على منضدة عمله ذكريات فترة بعيدة.

صيف 1980: السنة التي بلغ فيها سن الثامنة عشر، لقاؤه مع سْتِيلا، حبه الأول، ابنة صياد من بُورتُو فِنيرِي. نزهتهما على امتداد الميناء أمام صف من البيوت الصغيرة المتعانقة، الضيقة والمتعددة الألوان التي تقابل البحر؛ أوقات الظهيرة التي كانا يمضيانها في السباحة في الخليج الصغير.

عيد ميلاد السنة نفسها: سْتِيلا وهو يتجولان في شوارع روما. غَزَلُ العطلة الذي يقاوم الصيف.

ربيع 1981: فاتورة فندق في مدينة سْيِينَا، أول ليلة حب جمعتهما.

1982: جميع الرسائل المتبادلة بينهما تلك السنة. وعود، مشاريع، حماس، زوبعة حياة.

1983: هدية عيد ميلاد من ستيلا: بوصلة كانت قد اشترتها من سردينيا، نقشت عليها كتابة تقول: كي تعيدك الحياة دائماً إلي.

1984: أول رحلة إلى الولايات المتحدة. ستيلا تركب الدراجة الهوائية على طريق غُولْدْن غِيت. ضباب العبَّارة نحو أَلْكَاتْرَازْ. شطائر الهامبرغر والحليب المخفوق من عند لُورِيسْ دِينِرْ.

1985: ضحكات، أيادي تمتد إلى بعضها... زوجي يحميه درع من اليواقيت... 1986... السنة التي باع خلالها لوحته الأولى... 1987... هل نرغب في إنجاب طفل أو ليس بعد؟... الشكوك الأولى... 1988... فقدت البوصلة وجهة الشمال...

سالت دمعة صامتة على خذ لوكا.

اللعنة، لن تشرع في النحيب مهما يكن...

كان قد هجر سْتيلا في سن الثامنة والعشرين. مرحلة قذرة اختلَّ أثناءها كل شيء فيه. ولم يعد قادراً على تحديد المعنى الذي سيعطيه لرسومه. وزواجه هو من تحمل عواقب ذلك. ذات صباح، استيقظ وأشعل النار في لوحاته مثلما فعل اليوم. ثم انصرف مثل أي لص. لم يشرح شيئاً، تصرف بسرعة، لم يفكر إلا في نفسه ورسومه. لجأ إلى مَانْهَاتَان حيث غيَّر أسلوبه، واضعاً على جنب الفن التصويري لتخليص لوحاته على نحو متطرف إلى حد أنه لم يعد يرسم سوى لوحات أحادية اللون ضاربة إلى البياض. هناك، تزوج بصاحبة رواق للفن، بارعة، تفوقت في الترويج لعمله وفتحت له أبواب النجاح. رزقا بفتاة، إلا أنهما انفصلا عن بعضهما سنوات بعد ذلك، مع استمرارهما في العمل معاً.

لم يلتق سْتِيلا مجدداً. علم من قبل أخيه أنها عادت إلى بُورْتو فِنيري. لقد محاها من حياته. لقد تبرَّأ منها.

لماذا يستحضر اليوم هذه الحكاية القديمة؟ ربما لأنها لم تنته؟

*

روما بابيتونز تي روم بعد ساعتين من ذلك

كانت قاعة الشاي تقع في ساحة إسبانيا، بالضبط عند أسفل دُرْجِ الـ Trinité-des-Monts الكبير.

جلس لوكا إلى مائدة صغيرة في أقصى القاعة. المائدة ذاتها التي اعتاد الجلوس إليها حينما كان يأتي برفقة ستيلا. كانت المنشأة هي الأقدم من نوعها في روما. وهي من إبداع سيدتين إنجليزيتين مائة وعشرين سنة من ذي قبل، في وقت كان فيه الشاي لا يباع إلا في الصيدليات.

لم تتغير الزخرفة بتاتاً منذ القرن 19 جاعلة من المكان جَيْباً إنجليزياً في قلب روما، باستثمار التعارض بين المظهر المتوسطي للمدينة والسحر البْرِيتِش (الإنجليزي) للمقهى. كانت الجدران مُلَبَّسة بخشب السنديان ومكسوَة برفوف من الخشب الداكن التي صفت عليها العشرات من الكتب ومجموعة من أباريق الشاي القديمة.

فتح لوكا كتاب طوم بويد عند صفحة فارغة، بالضبط بعد التركيب الذي أجرته السيدة كوفمان. لقد أثر فيه الإخراج المشهدي لتلك الذكريات، من خلال مقتطفات الحياة تلك التي تتوالى. وكأنه كتاب سحري قادر على تلبية الأمنيات وإحياء الماضي. وبدوره ألصق لوكا صُوَرَهُ الشخصية، مضيفاً إليها رسوماً وبصمات. الصورة الأخيرة كانت تظهره على دراجته النارية صحبة ستيلا. إبان إحدى العطل في

روما، سنة 1981. كانا يبلغان من العمر تسعة عشر سنة. في تلك الفترة، كتبت إليه هذه الكلمات: لا تكفَّ أبداً عن حبي...

حدَّق لبضع دقائق في الصورة. هو الذي يوشك على بلوغ الخمسين سنة من عمره، عاش حياة غنية نسبياً، حملت له أسباب الرضا: لقد قام بعدة أسفار، وعاش من فنه، وعرف النجاح. لكن عند إمعان التفكير في الأمر، لم يعرف ما هو أشد قوة من سحر البدايات ذاك، حينما كانت الحياة لا تزال حبلى بالوعود والصفاء.

أغلق لوكا الكتاب وألصق على ظهر الغلاف بطاقة حمراء كتب عليها بضعة كلمات. وبواسطة هاتفه، ربط الاتصال بموقع إلكتروني خاص بالكتاب المسافر ودوَّن فيه ملاحظة قصيرة. ثم اغتنم فرصة كان لا ينظر فيها أحد صوبه، ودسَّ الكتاب في أحد الرفوف بين كتاب لـ كِيتْسْ (Keats) وآخر لـ شِيلِيي (Shelley).

*

خرج لوكا إلى الساحة لأخذ دراجته النارية المركونة قرب صف سيارات التاكسي. وبواسطة حبل مدَّاد، ثبَّت حقيبة السفر فوق حمَّال الأمتعة وركب دراجته الدُّوكَاتِي. سلك الطريق الصاعد على امتداد حديقة فيلا بُورْغِيزْ (villa Borghèse)، ثم لفَّ حول ساحة بُوبُولُو (Popolo)، وعبر التِّبْر (le Tibre) وسار على طول النهر حتى وصل حارة تراستفيري. ومن دون أن يُسْكِت محرك دراجته، توقف قبالة المطعم العائلي، رفع مقدم خوذته الواقية، وكما لو أنها كانت في انتظاره، وجد أمه في الخارج على الرصيف. نظرت إلى ولدها آملة أن تعبر كلمات الحب أحياناً عن نفسها بلغة العيون.

ثم رفع لوكا من السرعة كي يسلك الطريق التي تؤدي إلى خارج المدينة. ويَمَّمَ وجهه شطر بورتو فنيري وهو يحدث نفسه بأنه ربما لم يفت الأوان...

لوس أنجلس الجمعة 24 أيلول/ شتنبر السابعة صباحاً

بقميصه القصير وبدلة العمل كان ميلو يعتلي سلماً متحركاً. وهو يمسك بيده مدحاة، كان يعيد طلاء جدران المطبخ بالكلس المغلَّف.

فتحت كارول باب غرفتها للالتحاق به.

- أنت تعمل مسبقاً؟ سألته وهي تتثاءب.

- أجل، لقد جفاني النوم.

فحصت مُنْجَزَ الصباغة.

- إنك تتقن عملك، أو ليس كذلك؟

- هل تمزحين؟ منذ ثلاثة أيام وأنا أشتغل مثل عَبْد قِنٍّ!

- حسناً، صحيح أنك تتفوق في ذلك، قالت موافقة. هلا أعددت لي فنجان كابوتشينو، من فضلك؟

انصاع ميلو للأمر بينما جلست كارول إلى مائدة الصالون المستديرة الصغيرة. أعدت لنفسها قدحاً من حُبُوبِ الفطور، ثم فتحت حاسوبها المحمول لمراجعة رسائلها الإلكترونية.

كان صندوق بريدها ممتلئاً. إذ إن ميلو بعث لها القائمة الكاملة الخاصة بـ «طائفة» قراء طوم بويد الذين بعثوا، منذ ثلاث سنوات، رسائل إلى الكاتب عبر موقعه على الشبكة العنكبوتية، وبفضل تلك الرسائل المُجَمَّعَة التي تم إرسالها إلى كل أنحاء العالم تمكنت من إحاطة آلاف القراء علماً. لقد فضلت الصراحة لإخبارهم عن بحثها عن نسخة غير مكتملة للجزء الثاني من **ثلاثية الملائكة**. ومنذ ذلك الحين، وكل صباح، كانت تجد في بريدها عبارات تشجيع كثيرة. لكن الرسالة التي كانت قبالتها هي الأكثر أهمية:

- تعال لمشاهدة هذا! صاحت.

ناولها ميلو فنجان قهوتها الذي ينبعث منه البخار ونظر من خلف

كتفيها. زعم مستخدم للإنترنت أنه وجد أثراً للنسخة المعلومة على موقع الكتاب المسافر. نقرت كارول على الرابط المشار إليه لتجد نفسها بالفعل على صفحة إنترنت تعود لجمعية إيطالية تقوم، لأجل الرفع من مستوى القراء، بتشجيع أعضائها على ترك كتبهم في أماكن عامة حتى تروج بين أشخاص آخرين. كانت قواعد «الكتاب المسافر» بسيطة: فالشخص الذي يودُّ إطلاق كتاب يقوم بمنحه شفرة ويسجله في الموقع قبل إطلاق سراحه في البريَّة.

رقنت كارول اسم «طوم بويد» في خانة البحث وحصلت على قائمة كتب صديقها التي يحتمل وجودها في البريَّة.

- هذا هو! صرخ ميلو مشيراً إلى إحدى الصُّوَر.

ألصق أنفه بالشاشة، لكن كارول دفعته:

- دعني أرى!

لم يكن هناك أدنى شك ممكن: فالكتاب له بحق غلاف جلدي أزرق داكن، ونجوم ذهبية ونقوش بالحروف القوطية تشكل عنوان الرواية.

وبنقرة جديدة عرفت كارول أن الكتاب قد تم وضعه، في اليوم السابق، بمقهى بابينتونس تي روم، الواقع بـ 23، ساحة إسبانيا، روما. وبانتقالها إلى صفحة أخرى وصلت إلى جميع المعلومات التي أراد تركها لوكا 66، وهو اسم مستعار للشخص الذي «أطلق سراح» الرواية. المكان المضبوط الذي تم فيه التخلي عن الكتاب - رف في عمق المقهى - وكذا ساعة «إطلاق سراحه»: 13:56 بالتوقيت المحلي.

- يجب أن نذهب إلى روما! قالت بحزم.

- لا تتسرَّعي! كبح ميلو اندفاعها.

- كيف ذلك؟ انتفضت في وجهه. إن طوم يعول علينا. لقد اتصلت به مساء البارحة عبر الهاتف. إنه عاد إلى الكتابة، لكن بيلي قد تفقد حياتها.

كشَّرَ ميلو:

- سوف نصل بعد فوات الأوان. لقد مرت الآن عدة ساعات على التخلي عن الكتاب.

- أجل، لكن ليس الأمر كما لو أن الرجل تركه فوق كرسي أو مقعد عمومي! لقد أخفاه في رف بين مؤَلَّفات أخرى. قد تمر عدة أسابيع قبل أن يعثر عليه أحد ما!

نظرتْ إلى ميلو وأدركتْ أنه في انتقاله من خيبة أمل إلى أخرى فقد انتهى به المطاف إلى فقدان ثقته.

- افعل ما شئت، أما أنا فإني ذاهبة إلى هناك.

ربطت الاتصال بموقع لشركة طيران. هناك رحلة متجهة إلى روما على الساعة 11:40. بعد تعبئة الاستمارة، طُلِبَ منها عدد المسافرين.

- اثنان، أشار ميلو مطرقاً رأسه.

*

روما ساحة إسبانيا اليوم التالي

وسط الساحة، قرب نافورة لاباركاشيا (la Barcaccia) الضخمة، كانت جماعة من السياح الكوريين تتلقف بلهفة كلمات المرشد:

- منذ مدة طويلة، تم اعتبار ساحة إسبانيا على أنها حيز ترابي إسباني. وهنا أيضاً يوجد المقر العالمي لمنظمة فرسان مَالْطَا التي تتمتع بوضع... ثرثرة ثرثرة ثرثرة ثرثرة...

وعيناها مصوبتان نحو عمق النافورة كانت إِيزُولْ بَارْك، البالغة من العمر ثمانية عشر سنة، مسحورة بالأزرق التركي الصافي جداً للماء الذي تقبع في عمقه قطع نقدية ملقاة من طرف السُّيَّاح. كانت إيزول تكره أن تُشَبَّه بتلك الصورة المسكوكة «لمجموعات السياح الآسيويين» التي كانت تَجُرُّ عليها السخرية أحياناً. لم تكن تشعر بالارتياح ضمن هذه المراسيم، صيغة السفر تلك التي عفا عليها الزمن والتي تتمثل في زيارة عاصمة أوروبية واحدة في اليوم، والانتظار لساعات كي يلتقط كل سائح الصورة نفسها، في المكان نفسه.

كانت أذناها تطنان، ترتجف، وتشعر بالدُّوار. وعلى الأخص كانت تختنق وسط الجمع. هشة مثل قشَّة، انسلَّت كي تبتعد عنه ولجأت إلى أول مقهى صادفته في طريقها. وكان هو البابينتونس تي روم، 23، ساحة إسبانيا..

*

روما مطار فيوميتشينو

- حسناً، هل سيفتحون هذا الباب الملعون، أم لا؟ صرخ ميلو.

منتصباً في معبر الطائرة الأوسط، كان يخبط الأرض برجليه من اللهفة.

كانت الرحلة شاقة. بعد انطلاقهما من لوس أنجلس، توقفا أولاً في سان فرانسيسكو ثم فرانكفورت قبل أن يهبطا أخيراً في الأراضي الإيطالية. نظر إلى ساعته لليد: 12:30.

- أنا متيقن من أننا لن نجد أبداً ذلك الكتاب! قال متذمراً. لقد قمنا بكل هذه الرحلة بلا جدوى، كما أني أموت جوعاً. لقد رأيت ما تم تقديمه لنا من أكل. بالنظر إلى ثمن التذكرة، فلقد ضحكوا على ذقوننا...

- كفَّ عن التباكي! توسلت إليه كارول. لم أعد احتمل سماعك تشتكي لأتفه سبب! إنك مُتْعِبٌ في آخر المطاف!

سرت همهمة موافقة في الطابور. وأخيراً فُتِح الباب، مما سمح للركاب بالنزول. وميلو في إثرها، نزلت كارول عبر سلم آلي في الاتجاه المعاكس واندفعت للوصول إلى محطة سيارات الأجرة. وللأسف كان صف الانتظار عظيماً، تناوب السيارات يتم ببطء لا نهائي.

- لقد حذرتك من ذلك.

لم تتجشم عناء الرد عليه حتى. وبدل ذلك، أخرجت بطاقة الشرطة الخاصة بها، تجاوزت الصف وأظهرت «مفتاحها السحري» ذاك بحزم للمستخدم المكلَّف بتحديد السيارات للرُّكاب.

- (American police ! We need a car, right now. It's a matter of life or death !)[*]، صاحت على طريقة المفتش هاري.

هذا سخيف! لن ينجح الأمر أبداً، حدث ميلو نفسه وهو يهز رأسه.

لكنه لم يكن على صواب. هزَّ الرجل كتفيه ولم يطرح على نفسه الكثير من الأسئلة، وفي أقل من عشر ثوان، كانا يجلسان داخل التاكسي.

- ساحة إسبانيا، أشارت كارول للسائق. البابينتونس تي روم.

- تحرك بسرعة! أضاف ميلو.

*

(*) الشرطة الأمريكية! نريد سيارة في الحال! إنها مسألة حياة أو موت!

جلست إيزول بارك إلى مائدة صغيرة في أقصى قاعة الشاي. شربت الكورية الشابة فنجاناً كبيراً من الشاي وقضمت كعكة مُوفِنْز، مسطحة ومستديرة، بالقشدة المخفوقة. أعجبتها المدينة، لكنها ودَّت لو استطاعت زيارتها بأخذ ما يكفيها من الوقت للتجول في أزقتها، والغوص إلى ثقافة مغايرة، التحدث مع الناس، الجلوس على شرفة مقهى مشمسة من دون النظر باستمرار إلى ساعة اليد ومن دون التفكير في أنه من الضروري التقاط صورة كل عشر ثوان بضغط من المجموعة.

في انتظار ذلك، كانت عيناها مسلطتين، ليس على ساعتها، بل على شاشة هاتفها المحمول. ليس هناك أي رسالة من جِيمْبُو. إن كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر وفق التوقيت الإيطالي، فهي بالتأكيد السابعة صباحاً في نيويورك. ربما لم يستيقظ. أجل، لكن منذ أن مرَّت خمسة أيام افترقا بعدها، لم يحدثها بالهاتف ولو مرة واحدة كما لم يرد على عشرات من الإيميلات والرسائل القصيرة. كيف أمكن حدوث ذلك؟ ومع ذلك فقد أمضيا شهراً ولا في الأحلام بالـ NYU (جامعة نيويورك) حيث كان جِيمْبُو طالباً في معهد السينما. أمضت إيزُول نهاية الصيف في رحلة دراسية في الجامعة النيويوركية الشهيرة. فترة ساحرة خلالها اكتشفت الحب بين أحضان رفيقها الأمريكي. يوم الثلاثاء الفارط، رافقها إلى المطار حيث التحقت بمجموعتها وتواعدا على أن يحدثا بعضهما يومياً عبر الهاتف، ومواصلة رعاية حبهما حتى يكبر رغم البعد، وعلى أن يلتقيا، ربما، أثناء عيد الميلاد. منذ ذلك الوعد الجميل، لم يُسْمَع أي خبر عن جيمبو وبداخلها تمزَّق شيء ما.

وضعت عشرة أُورُو على المائدة لأداء حسابها. كان لهذا المكان

بحق سحر قوي، مشغولاته الخشبية على الجدران ورفوف الكتب. وبفارق قليل، قد يعتقد المرء أنه موجود داخل خزانة كتب. نهضت ولم تستطع منع نفسها من القيام بالتنقيب بين الرفوف. في الكلية، كانت تدرس الأدب الإنجليزي وبعض من مؤلفيه الأعلام كان هناك: جين أوستين، شيليي، جون كيتس و. . .

عقدت حاجبيها لما اكتشفت كتاباً لا يتماشى مع الكتب الأخرى. طوم بويد؟ ليس في الحقيقة شاعراً من القرن 19! أخرجت الكتاب من رفه واكتشفت بطاقة باللون الأحمر ملصقة على الغلاف. وبدافع الفضول، عادت إلى مائدتها من دون إثارة الانتباه كي تفحص الكتاب عن كثب. كانت الشارة اللاصقة تحمل كتابة غريبة:

نهارك سعيد! لستُ تائهاً! لستُ كتاباً مثل باقي الكتب. أنا منذور للسَّفَر والتجول عبر العالم. خذني، اقرأني، واتركني بدورك في مكان عام.

إحم. . . كانت إيزول مرتابة بعض الشيء. أزالت الملصق وتصفحت الرواية لاكتشاف مضمونها الغريب وصفحاتها البيضاء التي استحوذ عليها أشخاص آخرون ليقوموا بدورهم بسرد حكايتهم الخاصة. شيء ما أثَّر فيها. بدا لها أن لهذا الكتاب قوة مغناطيسية. كان الملصق يصرح بأنه مجاني، لكنها كانت لا تزال مترددة في وضعه داخل حقيبتها لليد.

*

روما قاعة الشاي بابينتونس خمس دقائق بعد ذلك.

- إنه هناك! صاح ميلو وهو يشير بأصبعه إلى الرف في أقصى قاعة الشاي.

رجف الزبائن والخادمات حينما رأوا ذلك الفيل الطائش في متجر

الخزف الصيني. اندفع صوب الخزانة وتصفح الرفوف بعجلة إلى حد أن إبريقاً عَمَّر مائة سنة تراقص في الأجواء إلى أن أمسكت به كارول في اللحظة الأخيرة.

- بين كتب كيتس وشيليي، أكَّدت له. هو ذاك، لقد وصلا مبتغاهما! جين أوستين، كيتس، شيليي، لكن ليس هناك من كتاب لطوم بويد.

- يا للقرف! صرخ وهو يوجه ضربة حاقدة إلى الكساء الخشبي.

وبينما كانت كارول تبحث عن الرواية في رف آخر، هدَّد صاحب المحل بالاستنجاد بالشرطة. هدئ ميلو من حدَّة الوضع واعتذر. وهو يتحدَّث أبصر مائدة فارغة، بها صحن يوجد فيه وعاء قشدة شانتيلي إلى جانب بقية من كعكة الموفينز. بعد أن تملَّكه إحساس داخلي، دنا من المقعد واكتشف الشريط اللاصق القرمزي (Post-it) وقد ألصق على المائدة. تصفح النص وشهق طويلاً:

- كنا على بعد خمس دقائق تقريباً... قال لكارول وهو يلوح بالملصق الأحمر الصغير في اتجاهها.

32

الشر بالشر

كنتُ أود أن تدرك ما هي الشجاعة الحقيقية، بدل أن تتصور بأنها رجل يحمل بندقية بيده. الشجاعة الحقيقية هي أن تعلم بأنك مهزوم لا محالة لكن ومعِ ذلك تتصرف بلا كلل.

هاربر لي

لابْرُوطَانْ فِنِيسْتِير الجنوبية
السبت 25 أيلول/ شتنبر

كانت شرفة المطعم المشمسة تطل على خليج أُدْيِيرْنْ. وكان الساحل البْرُوطَانِي بمِثْلِ جمال الساحل المكسيكي، وإن كان أشد برودة منه.

- يا له من قرٍّ تجمد له العَجُز! ارتعدت بيلي وهي تغلق سحَّابة سترتها الواقية من البرد.

بما أن عمليتها الجراحية كانت متوقعة الاثنين التالي، قرَّرنا أن نغير الأجواء وذلك بأن نستمتع بنهاية أسبوعٍ من الراحة بعيداً عن باريس. لا يهم المستقبل، لقد أنفقتُ جزءاً من المال في استئجار سيارة ومنزل صغير قرب بْلُوغُوفْ، قبالة جزيرة سَانْ.

بكثير من التَّكلُّف وضع النادل في وسط المائدة طبقاً من ثمار البحر كنا قد طلبناه.

- ألا تأكل شيئاً؟ قالت بتعجب.

نظرتُ بارتياب إلى تشكيلة من المحار وقنافذ البحر والجمبري والبَطْلينوس وأنا أشتهي هامبرغر بلحم الخنزير المقدد.

حاولتُ رغم ذلك فك فاكهة جمبري.

- يا لك من طفل حقيقي، قالت ممازحة.

ناولتني محارة كانت قد سكبت عليها قليلاً من عصير الليمون.

- تذوقها، ليس هناك ما هو أفضل من ذلك في الدنيا.

تفحصتُ مظهرها اللزج بحذر شديد.

- تخيل فاكهة المانغا حينما كنا في المكسيك، ألحَّت علي.

أن تُجيد وصف مذاقات العالم الواقعي...

ابتلعتُ لحم الرخوية الجامد وأنا أغمض عيني. كان لها طعم قوي، مالح وبنكهة الْيُودْ. لها رائحة أعشاب البحر والبندق يستطيبهما الفم.

غمزت لي بيلي بطرفة عين باسمة.

خلفنا كنا نرى قوارب صيد الجمبري وهي تغدو وتروح، ومراكب صغيرة لها ألوان زاهية تغطس صناديقها الشبكية لاصطياد صدفات البحر والقشريات.

يجب عدم التفكير في الغد ولا في اللحظة التي لن تعود فيها هنا.

عيش اللحظة.

التسكع في أزقة الميناء الملتوية ثم على طول شاطئ تْرِيسْكادِيك. جولة بالسيارة لخليج الموتى (les Trépassés) عند

أقصى رأس الرَازْ (Raz)، مع إلحاح بيلي الدائم على سياقة السيارة. ضحكنا الجنوني عندما تذكرنا حادث الشرِيف الذي أوقفنا بسبب الإفراط في السرعة في كاليفورنيا. إدراكُنا أننا نقتسم مسبقاً العديد من الذكريات. رغبة عفوية، لكن مطمورة على الفور، في الحديث عن المستقبل.

وثم المطر، طبعاً، الذي فاجئنا أثناء جولتنا بين الصخور.

- هنا، الحال أشبه بما هي عليه في اسكتلندا، الأمطار جزء من المشهد، صاحت نحوي بينما شرعتُ في التأفف. أنت، هل تتصور نفسك ستزور مرتفعاتها Highlands وبحيرة لوش لوموند والشمس ساطعة؟

*

روما

ساحة نوفونا السابعة مساء

- ذق من عندي هذه، إنها تذهب العقل! قالت كارول وهي تناول ميلو ملعقة من تحليتها: طَارْطُوفَة مَحَلِّية، مزينة بقشدة شانتيي.

بعين ماكرة تذوق ميلو القشدة المثلجة بالشوكولاتة. كانت لها خُثُورَة كثيفة وطعم قريب من فطر الدرنة الذي يمتزج أحسن ما يكون مع قلب الكرز.

كانا يجلسان إلى مائدة بشرفة مطعم يقع في ساحة نافونا التي تُعَدُّ معبراً لا محيد عنه لكل من وطأت قدماه المدينة الخالدة. كانت الساحة المشهورة التي تحيط بها شرفات المقاهي وبيع المثلجات، مرتعاً لرسامي البورتريهات وأصحاب التمثيل الإيمائي والباعة المتجولين.

وبينما كان يحل الظلام، جاءت نادلة وأوقدت الشمعة التي كانت

تتوسط المائدة. كان الهواء عذباً وكان ميلو ينظر إلى صديقته بِحُنُو ورغم الإحباط الذي أصابهما جراء فقدان أثر كتاب طوم إلا أنهما أمضيا ظهيرة كلها تواطؤ على استكشاف المدينة. ولعدة مرَّات كاد يبوح لها بحبه الذي كتمه منذ أمد بعيد، لكن خشيته من فقدان صداقتها كبحت كل ميل إلى ذلك. كان يشعر أنه واهن ويخاف من أن يشهد انكسار قلبه. كان يود بشدة أن تراه بمظهر مختلف. كم تمنى أن يعطيها صورة مغايرة عن نفسه، كم تمنى أن يُظْهِرَ لها الإنسان الذي يستطيع أن يصيره في اليوم الذي يشعر فيه أنه محبوب.

بجانبهما كان زوجان أستراليان يتناولان العشاء مع طفلتهما ذات السنوات الخمس، والتي كانت منذ لحظة تتبادل مع كارول نوبات من الضحك الشديد وغمزات بطرف العين.

- ألا تجد بحق أن هذه الصغيرة لطيفة؟

- أجل، إنها طريفة.

- وعلى خُلُق!

- وأنت، هل ترغبين في أطفال؟ سألها على نحو مفاجئ شيئاً ما.

وعلى الفور، كانت على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسها:

- لماذا تسألني عن ذلك؟

- أوه... لأنك تصلحين كأم رائعة.

- وما أدراك؟ قالت بِعُدْوانِيِّة.

- إن المرء يشعر بذلك.

- كفَّ عن التفوه بالحماقات!

أحزنه وأذهله في الآن نفسه العنف الذي جاء به ردُّها.

- لماذا تنفعلين هكذا؟

- إني أعرفك وأنا متأكدة بأن ذلك جزء من الأمور التي تحكيها للنساء لإغوائهن. لأنك تظن بأن ذلك هو ما ترغبن في سماعه.

- لا على الإطلاق! إنك غير منصفة في حقِّي! ماذا فعلتُ لك حتى تتصرفي معي بكل هذا القدر من القسوة؟ قال مغتاظاً وأسقط كأساً جرَّاء ذلك.

- إنك لا تعرفني، يا ميلو! ولا تعلم شيئاً عن حياتي الخاصة.

- إذاً، احكي، اللعنة! ما السر الذي ينخرك؟

حدَّقت فيه والسَّهْوُ بَادٍ على محيَّاها وتمنَّتْ الوثوق في صدقه. ربما قد استعجلت في غضبها.

رفع ميلو الكأس ومسح المفرش بمنديله. وانتابه الندم على صراخه وفي الوقت نفسه لم يعد يحتمل تلك التغيرات المفاجئة في موقف كارول حيالَه.

- لماذا صرتِ عنيفة وجافة حينما تطرقتُ إلى هذا الموضوع؟ سأل بصوت أكثر هدوءاً.

- لأنه سبق لي أن كنتُ حبلى، أقرَّت له وهي تشيح بناظرها عنه.

خرجت الحقيقة من تلقاء ذاتها. كانت مثل نحلة تخلَّصت من وعاء كانت مسجونة بداخله لسنوات.

متجمد في مكانه، كان ميلو مذهولاً. لم يكن يرى شيئاً آخر غير عيني كارول اللتين تلمعان في الليل مثل نجوم مثقلة بالغم.

أخرجت المرأة الشابة تذكرة الطائرة ثم وضعتها على المائدة.

- تريد أن تعرف؟ جيد جداً. سوف أختار الوثوق فيك. سوف أُفشي لك سِرِّي، لكنْ بعد ذلك، لا أريدك أن تضيف ولو كلمة واحدة ولا أن تقبل على أدنى تعليق. سوف أقص عليك ما لا يعرفه أحد.

وحينما أنتهي سوف أقوم من مكاني وأستقل سيارة أجرة إلى المطار. هناك رحلة أخيرة على الساعة التاسعة ونصف ليلاً في اتجاه لندن ومن هناك، رحلة على الساعة السادسة صباحاً نحو لوس أنجلس.

- هل أنت متيقنة من...

- عين اليقين. سوف أحكي لك وأنصرف، وبالتالي عليك أن تنتظر انقضاء أسبوع على الأقل قبل الاتصال بي هاتفياً أو العودة إلى المبيت عندي. إما تقبل هذا أو لا شيء.

- اتفقنا، قال مُسَلِّما، سنفعل كما تريدين.

نظرت كارول حولها. وسط الساحة، كانت التماثيل الضخمة، تماثيل نافورة الأنهار الأربعة، والمعلقَّة إلى المسلَّة، ترميها بنظرات صارمة وكلها تهديد.

- المرة الأولى التي أقدم فيها على ذلك، بادرت إلى القول، كانت مساء عيد ميلادي. كنت أبلغ الحادية عشر من العمر.

*

بروتان بلوغوف رأس الراز.

- لن تجعلني أقتنع بأنك تعرف كيف تشعل نار الموقد؟ مازحته بيلي.

- بالطبع أعرف ذلك! أجبتها وأنا منزعج.

- جيد، تفضل أيها الرجل، ها أنا أتابعك بعَيْني المرأة الخاضعة المعجبتين.

- إن كنتِ تظنين بأنك تضغطين عليَّ بقولك ذلك...

ومما أسعد بيلي كثيراً، اشتداد عاصفة هوجاء كانت تهب على الفنيستر، ترج مصراعي النوافذ وتسلط على زجاج البيت مطراً طوفانياً، البيت الذي كان يعمه برد قطبي. الظاهر أن العبارة الفرنسية

«سحر الريف» المستعملة في الإعلان هي مرادف لـ «غياب مدفئات» و«عزل حراري معيب».

قدحتُ عود ثقاب وحاولتُ إشعال النار في ركام الأوراق اليابسة التي وضعتها تحت الحطب. شبت النار في الكومة الصغيرة... لتنطفئ تقريباً في الحين.

- لم يثمر ذلك كثيراً، ارتأت بيلي وهي تحاول إخفاء ابتسامتها.

ملفوفة في رداء الحمام، ومنشفة معقودة على شعرها، نطَّت حتى الموقد.

- اعثر لي على ورق الجرائد، من فضلك.

بعد التنقيب في درج صوان المطبخ البِيغُودِينِي، عثرت على عدد قديم من صحيفة *L'Equipe* تحمل تاريخ 13 تموز/ يوليوز 1998 غداة فوز الفريق الفرنسي بكأس العالم لكرة القدم. كان عنوان: **إلى الأبد**، يخترق الصفحة الأولى التي يظهر عليها زين الدين زيدان المرتمي في أحضان يوري دجوركاييف.

بسطت بيلي الأوراق الواحدة تلو الأخرى ثم فركتها لتحصل على كرة يتسرب إليها هواء كاف.

- ينبغي جعل الورق يتنفس، قالت شارحة، أبي هو من علَّمني ذلك.

ثم، ومن دون تقتير في الكَمِّ، فرزت أعواداً صغيرة ولم تحتفظ سوى بالقطع الجافة ووضعتها تحت ركام ورقها المفروك، ثم وضعت الحطب الأكبر لتشكل ما يشبه خيمة الهنود الحمر المسماة بالتِّيبِّي.

- يمكنك أن توقد النار الآن، قالت باعتزاز.

وبالفعل، دقيقتان بعد ذلك، كانت هناك شعلةُ لهبٍ رائعة متوهجة في الموقد.

هزَّ هدير الريح النوافذ بقوة شديدة، حيث اعتقدت أنها سوف

تنفجر. ثم صفق مصراع في الوقت نفسه الذي عمَّ فيه الظلام الغرفة جرَّاء انقطاع كهربائي.

عبثتُ في علبة الكهرباء لعلَّ النور يعود.

- لا شيء ذي بال، قلتُ متظاهراً بالاطمئنان. لا شك في أنه القاطع أو الصَّمام الكهربائي.

- ربما، أجابت متهكمة، لكن ذلك عدَّاد الماء ما أنت منهمك في التلاعب به. أما عدَّاد الكهرباء فهو في المدخل...

وبروح رياضية، تقبلتُ ملاحظتها بابتسامة. وبينما كنتُ أعبر الغرفة أمسكتْ يدي و...

- تمهَّل!

فكَّت عقدة المنشفة التي كانت تحبس شعرها وأرخت حزام رداء الحمام الذي سقط فوق البلاط.

ثم حضنتها بين ذراعيَّ بينما كانت ظلالنا الشوهاء تتعانق على الجدران.

*

روما ساحة نافونا السابعة و20 د

بصوت رخو، قصَّت كارول على ميلو جحيم طفولتها المحطَّمة. حكت له سنواتها الفظيعة حيث كان يلحق بها زوج أمها إلى سريرها. تلك السنوات التي فقدت خلالها كل شيء: ابتسامتها، أحلامها، براءتها وابتهاجها بالحياة. حدثته عن تلك الليالي حيث كان يغادرها، ذلك الوحش المفترس بعد إشباع رغبته، كان يردد على مسامعها دائماً: «لن تخبري أمك، أليس كذلك؟». «لن تخبري أمك بذلك».

كما لو أن أمي لم تكن على علم بذلك!

حكت الإحساس بالذنب، قانون الصمت وتلك الرغبة التي

لازمتها، في الارتماء تحت حافلة ركاب، كل مساء عند عودتها من المدرسة. ثم ذلك الإجهاض الذي خضعت له في السر، وهي في سن الرابعة عشر والذي ظلَّت بعده مُمَزَّقة، شبه ميتة، وفي أحشاءها آلام لا تشفى.

تحدثت له بالأخص عن طوم الذي ساعدها على التعلق بالحياة، وذلك بأن اختلق من أجلها، مع مرور الأيام، ذلك العالم السحري، عالم **ثلاثية الملائكة**. وأخيراً حاولت أن تجعله يتفهم حيطتها من الرجل، تلك الثقة في الحياة التي فقدتها ولم تسترجعها قط، وموجات التقزز التي لاتزال وإلى اليوم تغمرها فجأة، حتى عندما تشعر أنها في حال أفضل.

توقفت كارول عن الكلام من دون أن تغادر مقعدها.

صدق ميلو وعده ولم ينطق بكلمة. ورغم ذلك فرض سؤال نفسه تلقائياً.

- لكن متى كانت نهاية كل ذلك؟

ترددت كارول في الإجابة. أدارت رأسها لتلحظ أن الأسترالية الصغيرة قد رحلت بصحبة والديها. شربت جرعة ماء ولبست الكنزة الصوف الملقاة على كتفيها.

- ذاك هو الجانب الآخر من الحقيقة، يا ميلو، لكنني لست متأكدة من أنها في مِلْكي.

- ومن يملكها إذاً؟

- إنه طوم.

*

بروتان بلوغوف - رأسُ الراز.

أخذت النار تخمد وتنشر في الغرفة نوراً متراقصاً. ونحن

متعانقان، وملفوفان في الغطاء نفسه، كنا نقبل بعضنا بشراهة كما في سنوات الحب الأولى.

ساعة بعد ذلك، نهضت كي أشعل الجمر وأضع قطعة حطب في الموقد.

كنا نموت من شدة الجوع، لكن خزانة الطعام والثلاجة كانتا فارغتين. في الصوان تمكنت من العثور على قنينة عصير التفاح والغريب في الأمر أنها كانت «**صنع في الكبيك**». يتعلق الأمر بخمرة من عصير التفاح المجمد، إذ تصنع من فاكهة التفاح التي يتم قطفها من الأشجار في عز الشتاء وهي مجمدة. فتحت سدادة القنينة وأنا أنظر من خلال النوافذ. كانت العاصفة في عنفوانها وتتعذر الرؤية على بعد أقل من متر واحد.

متلفعة بغطاء السرير، لحقت بي بيلي قرب النافذة وبيدها قدحان من الفخار.

- أود أن تحكي لي شيئاً ما، بادرت قائلة وهي ترسم قبلة على عنقي.

أمسكتْ معطفي الموضوع على متكأ الكرسي كي تستخرج منه محفظة الجيب.

- هل تسمح؟

وافقتُ بإشارة من رأسي. فتحتِ البطانة الممزقة حتى نصفها خلف جيب الأوراق وقلبتها لتُخْرِجَ منها غلاف الرصاصة النحاسي.

- من قتلتَ؟ سألتني وهي تريني المقذوف الصغير.

*

لوس أنجلس حارة ماك آرثر بارك 29 نيسان/ أبريل 1992

أبلغُ من العمر سبعة عشر سنة. أنا الآن بمكتبة المدرسة الثانوية، منهمك في تحضير امتحاناتي، تدخل فتاة وهي تصرخ: «لقد تمت

تبرئتهم!». يدرك كل من في القاعة أنها تقصد الحكم الصادر في قضية رودني كينغ.

سنة من ذي قبل، تم اعتقال هذا الشاب الأسود ذي السادسة والعشرين سنة بتهمة الإفراط في السرعة من طرف شرطة لوس أنجلس. ولأنه كان في حالة سكر، لم يمتثل لأوامر رجال الـ LAPD الذين حاولوا ضبطه بهراواتهم. وأمام مقاومته لهم، أوسعوه ضرباً حدَّ الشطط من دون أن يخطر ببالهم أن المشهد قد قام بتصويره أحد هواة الفيديو من شرفة منزله والذي بعث شريطه في اليوم التالي إلى قناة **شانيل** 5، وبسرعة أعيد بث الصور على نحو متلاحق من قبل قنوات العالم بأسره، مما أحدث موجة من الغضب والاستهجان والسخط.

- لقد تمت تبرئتهم!

وعلى الفور، توقفت الأحاديث وانطلقت الشتائم في كل الاتجاهات. أحس أن مشاعر الاستهجان والكراهية أخذت تتصاعد. يمثل السُّود أغلبية السكان في الحارة. أُدْرِكُ بسرعة أن الأمور تسير نحو الأسوأ وأنه من الأجدى أن أعود إلى البيت. في الشارع، انتشر خبر الحُكْمِ مثل العدوى. الجو مكهرب ومشبع بالسخط. طبعاً، لا يتعلق الأمر بأول شطط تقترفه الشرطة ولا بأول مهزلة قضائية، لكن هذه المرة هناك الصور، وهذا يغير كل شيء. الدنيا بأكملها شاهدت أربعة رجال شرطة مسعورين يتكالبون على الشَّقي: أكثر من خمسين ضربة بالهراوة، وزهاء عشر ركلات مصوبة لرَجُلٍ مقيَّد بالأصفاد. هذه التبرئة غير المستساغة هي بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس. سنوات حكم ريغان وبوش كان لها آثار فادحة على الفئات الأشد فقراً. طفح الكيل بالناس من استفحال العطالة والبؤس، من ويلات المخدرات ومن نظام تعليمي يكرس اللامساواة.

عند العودة إلى البيت، أشعل التلفاز وأعد لنفسي فطوراً من

الحبوب. انفجرت أعمال الشغب في أنحاء مختلفة. أرى الصور الأولى لما سوف يصير يوميات معتادة في الأيام الثلاثة التالية: عمليات النهب، الحرائق، المواجهات مع الشرطة. في المجموعات السكنية الواقعة بين فلورانس ونورماندي امتزجت الدماء بالنيران. أشخاص يهربون وهم محملون بعلب كارطونية مليئة بالمؤن الغذائية التي سطوا عليها من المتاجر. آخرون يجرُّون عربات أو صفائح متحركة لنقل الأثاث والأرائك والأجهزة الإلكترونية. ورغم دعوات السلطات إلى التهدئة، أتوقع أن ذلك لن يتوقف. وفي الحقيقة فإن وضع يناسبني...

أجمع كل مدخراتي المخبأة في جهاز راديو وأمسك لوح التزلج الذي لي وأتوجه بسرعة نحو ماركوس بْلينْك.

ماركوس هو فتوة الحارة الصغير، «الطيِّب» الذي لا ينتمي لأي عصابة، يكتفي بإعادة بيع الأقراص المُهَلْوِسَة، ومخدر الحشيش بالتقسيط ويعيد بيع المسروقات من الأسلحة. كنت برفقته في المدرسة الابتدائية، وهو يقدرني بالأحرى لأنني ساعدتُ والدته مرة أو مرَّتين في تعبئة وثائق الرعاية الاجتماعية. في الحارة يعمُّ الغليان. الجميع أدرك مسبقاً أن العصابات سوف تستغل الفوضى لتصفية حساباتها مع عصابات أخرى أو مع الشرطة. ومقابل مائتي دولار عثر لي ماركوس على مسدس من نوع Glock 22 من تلك المتداولة بالعشرات في كل حارة إبَّان هذه الفترة العفنة، حيث إن العديد من رجال الشرطة المفسدين يبيعون سلاحهم الوظيفي بعد التصريح بأنه قد ضاع منهم. ومقابل عشرين دولار إضافية باعني أيضاً مُشْطاً من خمسة عشر خرطوشة. وأنا مسلح على ذلك النحو، عدتُ إلى البيت وأنا أشعر بمعدن السلاح البارد والثقيل داخل جيبي.

*

لم أنم طويلاً تلك الليلة. أفكر في كارول. منذ ذلك الحين لدي هاجس وحيد: هو أن تتوقف الاعتداءات التي تتعرض لها نهائياً. قد يقدر الخيال على كثير من الأشياء لكن ليس على كل شيء. الحكايات التي أقص عليها تتيح الولوج إلى عالم خيالي تهرب فيه لبضع ساعات من العذاب الجسدي والذهني الذي يمارسه عليها جلاَّدها. لكن ذلك لم يعد كافياً. العيش في الخيال ليس حلاً دائماً، مثله مثل تناول المرء للمخدرات أو معاقرة الخمر لنسيان شِقْوَتِه.

لا حيلة مع ذلك: في وقت من الأوقات، ينتهي المطاف بالحياة الواقعية إلى أن تسترد حقوقها من الخيال.

*

في اليوم التالي، تصاعدت وتيرة العنف، في غياب كامل لما يردعه. طائرات الهيليكوبتر المرسلة من طرف القنوات التلفزيونية كانت تحلق في سماء المدينة على الدوام، وتبث على المباشر صور مدينة لوس أنجلس التي أصبحت تعيش حالة حصار: عمليات النهب، والضرب، أثاث محروق، تبادل إطلاق النار بين القوة العمومية ومثيري الشغب. العديد من التقارير الصحفية التي تبرز انعدام التنظيم والفعالية لدى الشرطة العاجزة عن منع السرقات.

وبفعل ضغط عدد القتلى، قدم العمدة تصريحاً لوسائل الإعلام أعلن فيه عن حالة الطوارئ وعبر خلاله عن نيته استدعاء جنود الحرس الوطني لفرض منع التجول من الغروب حتى الفجر. وهذه فكرة غير سديدة: لأن الناس في الأحياء يقولون بأن الحفل أوشك على نهايته، مما يؤدي إلى تصاعد عمليات النهب.

في حارتنا، كانت المتاجر التي يديرها الآسيويون على الأخص هي التي تعرضت للنهب. في تلك الفترة كان التوتر بين السود

والكوريين على أشده، وفي اليوم الثاني من أعمال الشغب، تعرضت أغلب المتاجر والأسواق الصغرى ومحلات بيع الكحول التي يشرف عليها كوريون للتخريب والسرقة من دون أن تتدخل الشرطة.

منتصف النهار تقريباً، منذ ساعة، وأنا متوازن على لوح التزلج، كنت مختبئاً قبالة متجر زوج أم كارول. ورغم المخاطر المحدقة به، فإنه مع ذلك قام بفتح المحل هذا الصباح، آملاً ربما في أن لا تطاله عمليات النهب. لكنه في الوقت الراهن، يشعر بدوره أنه في خطر، وتوقعتُ أنه يستعد لإسدال ستاره الحديدي.

إنها اللحظة التي اخترتُ بقصد الخروج من مخبئي.

- هل أساعدك، سيد ألفاريز؟

لم يأخذ حذره مني، فهو يعرفني جيداً، كما أن لي مظهراً يوحي بالثقة.

- موافق، يا طوم! ساعدني في إدخال اللوحات الإشهارية الخشبية.

تأبطتُ اللوحتين وتبعته داخل المحل.

إنه متجر بائس بعض الشيء، الذي يوجد مثله بالعشرات في الحارة، والذي يعرض أساساً منتوجات ضرورية أولية وهو منذور إلى إغلاق أبوابه على المدى القصير أمام منافسة الـ walmart الموجود في الجوار.

كروز ألفاريز شخص من أصل لاتيني، متوسط القامة، مكتنز، وجهه عريض ومربع، له خِلْقَةٌ تناسب لعب أدوار من الدرجة الثالثة في السينما لتمثيل شخصية القَوَّاد أو مالك ملهى ليلي.

- لقد قلتُ ذلك دوماً، بأنه في يوم من الأيام سوف يقوم أبناء العاهرات هؤلاء، بادر بالحديث قبل أن يلتفت ويرى الـ Glock 22 مُصَوَّباً نحوه.

المتجر خال، ليس هناك كاميرا تصوير. يكفي أن أضغط على الزناد. لا أريد أن أقول له شيئاً، ولو «مت أيها القذر المتعفِّن». لستُ هنا لتحقيق العدالة. لستُ هنا لتطبيق القانون. كما أني لست هنا لسماع مبرراته. ليس في تصرفي أي مدعاة للفخر، ولا بطولة ولا شجاعة. أريد فحسب أن تكف معاناة كارول وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي وجدت قيد يدي. منذ عدة شهور خلت، ومن دون إخبارها، قمت بتقديم شكاية مجهولة لدى مركز اجتماعي للتخطيط الأسري، لم تؤد إلى نتيجة، بعثتُ رسالة إلى الشرطة لم يعقبها جواب. لا أعرف أين يكمن الخير، لا أعرف أين يكمن الشر، لا أؤمن بأي إله، كما لا أؤمن بالقدر. أعتقد فحسب أن مكاني هنا، خلف هذا المسدس وبأن علي الضغط على الزناد.

- طوم، ما الذي دها...

دنوتُ لأسدد على مقربة. لا أريد أن أفلته، ولا أريد استعمال سوى طلقة واحدة.

أطلقتُ النار.

انفجر دماغه، تناثرت بفعل ذلك قطرات من الدم على ملابسي.

أنا لوحدي في المتجر. أنا لوحدي في العالم. لم تعد ساقيَّ قادرتان على حملي. ذراعيَّ يرتجفان على امتداد جسدي.

ارحل!

ألتقط غلاف الطَّلق الناري وأضعه في جيبي صحبة المسدس، وأعود إلى البيت جرياً. أستحمُّ، أحرق الملابس وبعد العناية بتنظيفه، أتخلص من المسدس برميه في حاوية للأزبال. أما غلاف الطلق الناري فإني أفضِّل الاحتفاظ به للاعتراف بجريمتي إن تم اتهام شخص غيري مكاني، لكن هل أملك ما يكفي من الشجاعة حقاً للإقدام على ذلك؟

ربما لن أعرف ذلك أبداً.

*

بروتان بلوغوف - رأس الرّاز

- لم أخبر أحداً بما اقترفتُ ذلك الصباح. لقد تعايشتُ مع ذلك، وحسب.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ سألتْ بيلي.

كنا قد استلقينا على الأريكة، ملتصقة بي من الخلف، مدَّت يدها إلى صدري بينما كنتُ أمسك وركها، مثل المتشبث بقارب نجاة.

لقد حرَّرني الكلام من ثقل. كنتُ أشعر أنها تفهمني من دون أن تحكم عليَّ وهذا كل ما كنت أنتظره.

- في المساء، ألقى الأب بُوشْ خطاباً عبر التلفزيون ليقول بأنه لن يتم التسامح مع الفوضى. في اليوم التالي، كان هناك أربعة آلاف فرد من الحرس الوطني يجوبون المدينة، متبوعين بوحدات عديدة من المارينز. بدأ الهدوء يعود في اليوم الرابع، ورفع العمدة حظر التجول.

- والتحقيق؟

- لقد أوقعت عمليات التمرد زهاء خمسين قتيلاً وعدة آلاف من الجرحى. في الأسابيع التالية، تم إجراء الآلاف من عمليات التوقيف في المدينة، تقل وتكثر درجة شرعيتها وتعسفها، لكن لم يتم قط اتهام أي كان بالاسم عن مقتل كروز ألفاريز.

وضعت بيلي يدها على جفنيَّ وقبلةً على عنقي:

- يجب أن تنام الآن.

*

- إلى اللقاء ميلو، شكراً لأنك أنصتَّ إلي من دون مقاطعتي، قالت كارول وهي تغادر مكانها.

وهو لا يزال تحت هول الصدمة، قام رفقتها، لكنه أمسكها بلطف من يدها:

- تمهلي... كيف أنك متيقنة من كون طوم هو من فعل ذلك مادام لم يحدثك في الأمر قط؟

- أنا شرطية، ميلو. منذ سنتين خلتا، كان لدي ترخيص بالاطلاع على جزء من أرشيف شرطة مقاطعة لوس أنجلس، والتمستُ الحصول على ملف مقتل زوج أمي. لم يكن هنالك شيء يذكر: اثنان أو ثلاث استجوابات للجيران، بعض صور مسرح الجريمة ومسح للبصمات رديء تماما. الجميع لم يكن مبالياً بمقتل تاجر بسيط بحارة ماك آرثر بارك. ورغم ذلك، على إحدى الصور يمكن أن نميز بوضوح لوح تزلج موضوع أسفل الجدار وقد نقش على واجهته نيزك.

- ولوح التزلج هذا...

- أنا من أهداه إلى طوم، قالت وهي تلتفت.

33

تعلق الواحد بالآخر

قد نمنح الكثير من الأشياء لمن نحبهم: كلمات، راحة، لذة. لقد منحْتِنِي أغلى شيء على الإطلاق: الافتقاد. غداً من المستحيل علي الاستغناء عنك، وحتى عندما كنتُ أراك، كنت أفتقدك أكثر.

كريستيان بُوبَان

الاثنين 27 أيلول/ سبتمبر

باريس المستشفى الأوروبي ماري كوري

بكامل أعضائه، كان فريق الجراحة يحيط البروفسور جان باتيست كلوزو.

وبواسطة منشار، فتح هذا الأخير جؤجؤ بيلي طولاً بدءاً من جزئها السفلي وصولاً إلى ما تحت ذقنها.

ثم وصل إلى غشاء التأمور(شغاف القلب) لفحص الشرايين التاجية ووضع دورة دموية خارج الجسد وذلك بحقن محلول به جرعة قوية من البوتاسيوم مما يؤدي إلى توقف القلب. إذاك يتم تعويض القلب بمضخة والرئة بجهاز ضخ الأكسجين.

وفي كل مرة أجرى خلالها جراحة القلب المفتوح، كان جان

باتيست كلوزو يشعر بالافتتان ذاته أمام هذا العضو الذي يكاد يكون ساحراً والذي يربطنا بالحياة: 100000 خفقة في اليوم، 26 مليون في السنة، أكثر من ثلاثة ملايير مرة في حياة واحدة. كل هذا تقوم به مضخة صغيرة دامية تبدو هشة للغاية...

في البداية، فتح الأذين الأيمن، ثم الأيسر وقام باجتثاث الوَرَمَيْن، وفي كل مرة يستأصل قاعدة منبتهما لمنع توالدهما من جديد. وقد كان للورم الليفي بالفعل حجم غير عادي.

نحن محظوظون إذ اكتشفنا الأمر في حينه!

ومن باب الحيطة، استكشف التجاويف القلبية والبُطَيْنَيْن، بحثاً عن أورام مخاطية أخرى، لكنه لم يجد شيئاً.

بعد انتهاء العملية، أعاد وصل القلب بالوَتِينْ مجدداً، وقام بتهوية الرئتين، ووضع أوعية تصريف الدم ثم خاط الجؤجؤ بواسطة خيط معدني.

بسرعة وبإتقان! قال محدثاً نفسه وهو يزيل قفازيه ويغادر غرفة العمليات.

*

كوريا الجنوبية جامعة إيوْها (Ewha) النسائية

كانت الشمس تغرب على سِيُولْ. ومثل كل المساءات في ساعة الذروة، كانت الحركة مشلولة في شوارع العاصمة الكورية.

غادرت إيزول بارك محطة المترو، سارت بضع خطوات على الرصيف وعبرت ممر الراجلين للالتحاق بالمُجَمَّع. هي الواقعة في قلب الحي الطلابي، كانت جامعة إِيوْهَا تضم أكثر من عشرين ألف طالب وتعد من بين أحسن جامعات البلاد وأشدها نخبوية.

نزلت إيزول السلالم المنحدرة التي توصل إلى ما يسميه الجميع

«الفالق»: فضاء مصنوع من الزجاج بالكامل يتكون من مَبْنَيَيْن متقابليْن يوجدان عند طرفيْ ممشى من الإسمنت المسلح. ولجت المدخل الرئيسي لتلك السفينة الشفافة والتي يشبه طابقها السفلي بمتاجره ومقاهيه مركزاً تجارياً عصرياً جداً. أخذتْ المصعد للوصول إلى الطوابق العلوية التي تضم قاعات الدرس، مسرحاً، وقاعة للسينما، وأخرى للرياضة، وعلى الأخص مكتبة ضخمة مفتوحة على مدار ساعات اليوم والليل. توقفت عند موزع آلي لاقتناء كأس شاي أخضر، ثم وجدت لها مكاناً في أقصى القاعة. هنا، يوجد المرء بالفعل في القرن الواحد والعشرين: كل منضدة هي عبارة عن مكان عمل مجهز بحاسوب يتيح الولوج الفوري إلى مؤلفات المكتبة التي تمت فهرستها رقمياً جميعها.

دلكت إيزول جفناها، كانت بالكاد تستطيع الوقوف. لقد عادت في اليوم السابق من رحلتها الدراسية وكان ينتظرها الكثير من العمل. قضت جزءاً كبيراً من الليل في تحضير جذاذاتها ومراجعة دروسها وهي ترمق باستمرار شاشة هاتفها المحمول وترتجف كلما اهتز الجهاز للإعلان عن وصول رسالة قصيرة أو إيميل ولم يحدث قط أن كان ذاك هو الذي تأمله.

كانت ترتعد وتشعر بالبرد، وكادت تُجَنُّ. لماذا لا يبعث لها جيمبو بأي إشارة تدل على أنه قيد الحياة؟ هل ضحك عليها هي التي كانت عادة حذرة من الناس وتبقي على مسافة منهم.

كانت الساعة تقارب منتصف الليل. أخذت المكتبة تخلو شيئاً فشيئاً، لكن عدداً معيناً من الطلبة سيمكث فيها إلى غاية الثالثة أو الرابعة صباحاً. هكذا تجري الأمور هنا...

أخرجت إيزول من حقيبتها كتاب طوم بويد الذي عثرت عليه في قاعة الشاي في إيطاليا. طوت الصفحات إلى أن صادفت صورة لوكا

بارتوليتي وصديقته ستيلا يركبان الدراجة النارية في شوارع روما حينما كانا في سن العشرين.

لا تكف عن حبي أبداً، كانت قد كتبت الشابة الإيطالية. كان ذلك ما تودُّ قوله لجِيمْبُو...

أخرجت مقصا من مقلمتها وأنبوب الغراء وبدورها استخدمت الصفحات الفارغة كي تلصق عليها أجمل الصور الملتقطة خلال الأسابيع الأربعة المليئة بالسعادة والتي قضتها صحبته. باقة من الذكريات أثرتها بطاقات العروض الفرجوية والفنية التي تقاسماها: المعرض الاستعادي الخاص بتِيمْ بُورْتُون في الـ MOMA (متحف الفن الحديث)، المسرحية الموسيقية **شيكاغو** بالـ Ambassador Theater، وأيضاً كل الأفلام التي جعلها تكتشفها بالخزانة السينمائية الخاصة بجامعة نيويورك: دوني داركو، تراتيل الموتى من أجل الحلم، برازيل...

اشتغلتْ الليل بأكمله بكل ما في قلبها من حب. في الصباح الباكر، بعينين حمراوين ورأس مضطرب، توقفت عند مكتب البريد الواقع في البناية الإدارية لشراء ظرف بريدي مبطن بكيس هوائي من الداخل ودسَّت فيه الكتاب ذا الغلاف الجلدي الأزرق الداكن وبعثت به إلى الولايات المتحدة.

*

باريس المستشفى الأوروبي ماري كوري غرفة إنعاش القلب

كانت بيلي تصحو تدريجياً. ولأنها كانت لا تزال موصولة بجهاز التنفس لم تستطع الكلام بسبب مِجَس الأنبوب الرغامي الذي يخترق قصبتها الهوائية.

- سوف نخلصك من ذلك في الساعات المقبلة، طمأنها كلوزو.

تحقق من الأقطاب الكهربية الصغيرة التي كان قد وضعها على صدرها لتحفيز القلب في حالة تباطؤ وتيرة نبض القلب.

- ليس هناك مشكل من هذه الناحية، قال.

ابتسمتُ في وجه بيلي، وأجابتني بطرفة عين.

كان كل شيء على ما يرام.

*

الأربعاء 29 أيلول/ شتنبر

نيويوركِ غرينويتش فِيلِدْجْ

لقد تأخرت كثيراً! اشتكت الفتاة وهي ترتدي ملابسها. لقد أخبرتني بأنك ضبطت ساعتك المنبه!

ليَّنتْ تنورتها، لبست حذاءها ذا الكعب العالي بعجالة وأزرَّت قميصها.

أما الشاب المستلقي على السرير فكان ينظر إليها وعلى وجهه ترتسم ابتسامة مسلية.

- إذا أردت مكالمتي، فلديك رقم هاتفي...، قالت وهي تفتح باب الغرفة.

- موافق، يا كريستي.

- اسمي كاري أيها البائس!

ابتسم جيمس ليمبو - المدعو جيمبو - حتى برزت جميع أسنانه. نهض وتمطى من غير أن يسعى للاعتذار لرفيقة ليلته أو استبقاءها. غادر الغرفة وذهب لإعداد الفطور.

اللعنة، لم يعد هناك بُنٌّ! قال بتبرم وهو يفتح صوان المطبخ.

نظر عبر نافذة الشقة ذات الحجارة الحمراء ولمح كاري أيّاً كان اسمها وهي تصعد الزقاق المؤدي إلى هوستن ستريت.

- ضربة جيدة، أو هي متوسطة... 6 على 10، قال وهو يمط شفتيه. غير كافية على أي حال لمعاودة الكَرَّة.

انفتح باب الشقة ودخل جوناثان، شريكه في الغرفة حاملاً كوبين من القهوة اشتراهما من المقهى الواقع في زاوية الشارع.

- لقد صادفتُ ساعي الـ UPS (خدمة الطرود المتحدة) أسفل العمارة، قال وهو يشير بذقنه إلى الطرد الذي يتأبطه.

- شكراً، قال جيمبو وهو يلتقط الظرف وكوبه المزدوج من قهوته الحليب بنكهة الكراميل.

- أنت مدين لي بـ 3،75 دولار، قال مطالباً إياه، زد عليها 650 دولار مقابل الإيجار التي منحتك مُقَدَّماً أسبوعين من ذي قبل.

- أجل، أجل، ردَّ جيمبو بتَمَلُّص وهو ينظر إلى العنوان المكتوب على الظرف.

- أرسلتْهُ إيزول بارك، أليس كذلك؟

- وما دخلك أنت؟ سأله وهو يفض الطرد الذي يضم كتاب طوم بويد.

غريب هذا الشيء، فكر وهو يتصفح الرواية ويرى الصور التي ألصقها أصحابها المختلفون.

- اعرف أنك لا تهتم بتاتاً برأيي، استرسل جوناثان، لكن دعني أقول لك شيئاً: إنك لا تتصرف على نحو حسن مع إيزول.

- إني لا أهتم فعلاً برأيك، أكد جيمبو وهو يشرب رشفة من القهوة.

- لقد تركت مرة أخرى رسائل على المجيب الآلي. إنها قلقة بشأنك. إذا كنت تود الانفصال عنها، خذ على الأقل وقتك كي تخبرها بذلك على الوجه المطلوب. لماذا تتصرف هكذا مع النساء؟ ما هي مشكلتك بالتحديد؟

- مشكلتي، هي أن الحياة قصيرة وأننا سنموت جميعاً، هل يكفيك هذا جواباً؟

- لا، لا أجد أي صلة بذلك.

- أريد أن أصير مُخْرِجاً، يا جوناثان. حياتي هي الأفلام ولا شيء سواها. هل تدري ما كان يقوله تروفو (Truffaut)؟ السينما أهم من الحياة. وعليه فالأمر كذلك بالنسبة إلي. لا أريد قيوداً، ولا أطفالاً، ولا زواجاً. بإمكان كل واحد أن يكون زوجاً طيباً أو أب أسرة صالحاً، لكن ليس هناك سوى كونتان طارانتينو واحد ومارتان سكورزي واحد.

- لقد ذهبت حججك بعقلك يا صديقي...

- يا للأسف إن كنت لا تفهم. دع عنك ذلك! أجاب جيمبو وهو يتراجع نحو الحمام.

استحمَّ وارتدى ملابسه بسرعة.

- حسناً، سأنصرف، صاح وهو يلتقط جرابه. لدي درس منتصف النهار.

- هو ذاك! ولا تنس الإيجا...

فات الأوان، كان قد صفق الباب.

كان جيمبو جائعاً. اشترى من عند مامون فلافل الخبز المدَوَّر التهمه بشراهة في طريقه إلى كلية السينما. وبما أنه وصل باكراً بعض الشيء، توقف بالمقهى المجاور لمبنى المدرسة كي يتناول كُوكَا. بالمشرب تفحص من جديد الكتاب ذي الغلاف القوطي الذي أهدته إيزول إياه. كانت الشابة الكورية الظريفة جذابة وذكية. لقد استمتعا معاً كثيراً، لكن في الوقت الراهن، صارت مضجرة قليلاً ما بصُوَرِها المتملِّقة.

إلا أن الكتاب كان يُحَيِّرُهُ. **ثلاثية الملائكة**؟ هذا يذكره بشيء ما... فكر وتذكر بأنه سبق له وقرأ في Variety أن هوليود ظفرت بحقوق الرواية وتستعد لتحويلها إلى فيلم. لكن لماذا توجد هذه النسخة على هذا الحال؟ قام من مقعده كي يجلس قبالة أحد الحواسيب الموضوع رهن إشارة الزبائن. رقن بعض الكلمات المفاتيح عن طوم بويد وعثر على آلاف المراجع، لكن بعد حصر مجال بحثه في الأيام السبعة الأخيرة، اكتشف أن شخصاً ما قد أغرق غرف الدردشة آملاً العثور على نسخة فريدة نصف عدد صفحاتها فارغة.

وهذه النسخة، هي بالتحديد تلك الموجودة في جرابه!

خرج إلى الرصيف وهو يجتر ما قرأه للتو. عندها اختمرت فكرة في ذهنه.

*

غرينويتش فيلدج اليوم نفسه نهاية الظهيرة.

كانت **كيرواك آند كو بوكسيلر** عبارة عن مكتبة صغيرة تقع في غرين ستريت المختصة في شراء وبيع الكتب القديمة وتلك التي نفذ مخزونها من المطابع.

ببدلة سوداء مكوية وربطة عنق قاتمة، أضاف كِنيثْ أنْدْروزْ إلى الواجهة الزجاجية كتاباً حصل عليه على عهد قريب عقب تصفية تركة صاخبة بين ورثة هاوية جمع التحف عجوز: نسخة كتاب *Go Down Moses* من توقيع وليام فولكنر. كان مكان المؤلَّف يقع بين طبعة أصلية لسكوت فيتزجرالد، وتوقيع منقوش على الزجاج للسير آرثر كونان دويل، ملصق معرض من توقيع آندي وارهول ومسودة أغنية لبُوبْ دِيلاَنْ مكتوبة على ظهر فاتورة مطعم.

كان كنيث آندروز يدير متجره منذ ما يقارب خمسين سنة. لقد

عايش أزمنة البوهيمية الأدبية البطولية حينما كان الفِيلِدْجْ، في سنوات 1950، مرتعاً لجيل البِيتْ (Beat Generation)، وشعراء وفناني أغنية الفُولْك الشعبية. لكن مع ارتفاع أسعار الإيجار غادر الفنانون الطليعيون منذ أمد طويل نحو أحياء أخرى، وصار سكان غرينويتش اليوم أناساً أثرياء، يشترون من عنده آثاره بسعر الذهب كي يجدوا شيئاً من رائحة الماضي الذي لم يَحْيَوْه.

رنَّ جرس المتجر وظهر فتى في مدخل الباب.

- يوم سعيد، قال جيمبو متقدماً.

لقد سبق له أن حل بالمتجر الذي كان يجده ظريفاً. بإضاءته الخافتة، وعبقه الطعن ومنحوتاته الغابرة، كان يذكره بديكورات فيلم قديم ويمنحه الانطباع بأنه في عالم موازٍ، منعزل عن صخب المدينة.

- يومك سعيد، أجابه أندروز. هل لي بخدمتك؟

وضع جيمبو كتاب طوم بويد على المنضدة لعرضه على الكُتُبِيّ.

- أيهمك أمره؟

لبس الرجل الهرِمُ نظارتيه وفحص الرواية ومدَّ شفتيه بازدراء: غلاف جلدي، أدب شعبي، عيب في التصنيع، من دون الحديث عن كل تلك الصور التي تُفْسِدُ الكتاب بأكمله. وبحسبه، فالكتاب لم يعد صالحاً سوى لسلة المهملات.

وهذا ما كان على وشك الرد به على مخاطبه حينما تذكر قصاصة سبق له قراءتها بمجلة *American Bookseller* عن الطبعة الخاصة من الكتاب الذي حقق أفضل المبيعات والذي تم إتلافه بالكامل نظراً إلى عيب في الصنعة. هل من الممكن أن. . .

- سأمنحك ستة وثمانين دولاراً، عرض عليه وهو في ذلك يتبع حدسه.

- إنك تمزح، قال جيمبو مستاء، إنها نسخة فاخرة، أستطيع بيعها بضعف ثمنها بثلاث مرات عبر الإنترنت.

- هيا، ماذا تنتظر إذاً. أما أنا فقد أرفع السعر إلى حد مائة وخمسون دولاراً. آخذها أو أتركها.

- صفقة مبرمة، قرر جيمبو، بعد لحظة من التفكير.

*

انتظر كنيث أندروز إلى أن غادر الفتى الشاب المتجر للعثور على المقال المنشور في المجلة والذي يتطرق للكتاب.

إنها صفقة خاسرة بالنسبة إلى دابلداي، بعد سحب معيب تم إتلاف الـ 100000 نسخة من الطبعة الخاصة للجزء الثاني من **ثلاثية الملائكة** للمؤلف المشهور طوم بويد.

إحم، مثير للاهتمام، ارتأى الكُتُبِيُّ العجوز. بقليل من الحظ، ربما يكون قد وضع يده على نسخة فريدة...

*

روما حارة بْراتِي 30 أيلول/ شتنبر.

وهو يلبس وزرة بيضاء، كان ميلو يقدم كرات الأرز، وشرائح سمك ثعباني وقطع بيتزا بمطعم صِقلِّي بزقاق دِيغْلي شِيبِّيُونِي. بعد انصراف كارول، قرَّر البقاء بضعة أيام في روما وهذا العمل كان يسمح له في الآن نفسه بأداء إيجار غرفته الصغيرة بالفندق ويوفر له الأكل مجاناً. كان يتبادل رسائل إلكترونية يومياً مع طوم ولسعادته بكونه عاد إلى الكتابة، فقد اتصل بالناشر دابلداي والعديد من الناشرين الأجانب كي يخبرهم بأنهم تسرَّعوا في دفن صديقه قبل الأوان وبأنهم سوف يشهدون قريباً بدون شك ميلاد كتاب جديد لِطُومْ بُويْد في المكتبات.

- إنه عيد ميلادي هذا المساء، قالت له زبونة مألوفة، سمراء جميلة تعمل في متجر لبيع الأحذية الفاخرة بشارع كُونْدُوتِي.

- مسرور بمعرفة ذلك.

قضمت كرة الأرز، وقد خلفت شيئاً من أحمر الشفاه على المُحَمَّص.

- إني أقيم حفلاً بمعية أصدقائي بشقتي، إذا ما فضلت قضاء...

- ذلك لطف منك، لكن لا أقبل.

أسبوعاً من ذي قبل، لم يكن ليفوت عليه الفرصة، لكن منذ اعتراف كارول، لم يعد هو الشخص نفسه. لقد خضته حكاية صديقته التي كشفت له الوجه الخفي لأحب الناس إلى قلبه في الدنيا. كل ذلك كان يرمي به في خضم مشاعر متضاربة: إشفاق لا محدود تجاه كارول التي يحس نحوها بحب يزداد قوة، احترام واعتزاز إزاء تصرف طوم، لكن وأيضاً تذمر من كونه كان مقصياً ولمدة طويلة من دائرة ثقتهما، وعلى الأخص الحسرة من كونه لم يكن هو من أقدم على إنجاز «العمل الوسخ».

- أظن أني سوف أنجر وراء إغراء تحلية «كَاسَاتَا»، أخبرته الناعمة الإيطالية، وهي تشير إلى الحلوى المكسوة بالفواكه المعسِّلة.

كان ميلو على أهبة اقتطاع شطر منها لها حينما اهتز هاتفه المحمول في جيب سرواله الجينز.

- المعذرة.

لقد كانت رسالة قصيرة من كارول تتكون من كلمتين: «اقرأ هذا!» يليهما رابط إحالة.

ويداه لزجتان، ضغط كما اتفق على شاشته التي تعمل باللمس

فكان أن حطَّ على موقع يسمح بالاطلاع مباشرة على قائمة أصحاب المكتبات المحترفين المختصين في الكتب النادرة أو المستعملة.

إذا كانت المعلومات صحيحة، فإن مكتبة موجودة في غرينويتش فيلدج عرضت للتو للبيع الكتاب الذي يبحث عنه!

وتقريباً في غمرة ذلك، تلقى رسالة قصيرة من كارول:

نلتقي بمَانْهَاتن

أجابها فوراً:

أنا قادم

فك وزرته، تركها فوق المشرب وغادر المطعم.

- وتحليتي إذاً؟ ثارت ثائرة الزبونة.

34

كتاب الحياة

الوقت المستغرق في القراءة هو دوماً وقت مختَلَسٌ، لذلك السبب، لا شك، يعتبر الميترو أكبر مكتبة في العالم.

فرانسواز ساغان

باريس المستشفى الأوروبي ماري كوري.

كانت بيلي تسترجع عافيتها بسرعة مذهلة. لقد نُزِعَ عنها جهاز التنفس الاصطناعي، أنابيب التصريف ومختلف الأقطاب الكهربية قبلها قسم النقاهة بالمستشفى.

كان كلوزو يعودها يومياً، باحثاً عن تعقيدات تعفنية محتملة أو عن أثر تدفق سائل في شغاف القلب. لكن في رأيه كل شيء كان تحت المراقبة.

أما عني أنا، فقد جعلت من المستشفى ملحقة لمكتبي. ومن السابعة والنصف صباحاً إلى السابعة مساء وأنا أضع على أذني قبعة واقية من الضجيج، كنتُ أعمل على حاسوبي بمقهى الطابق الأرضي. عند منتصف النهار كنت أتناول وجبة بمطعم الخدمة الحرة المخصص للعاملين وذلك بفضل رقاقة كلوزو الإلكترونية الخاصة.

- لكن متى ينام هذا الشخص؟ ومتى يأكل؟ ذاك لغز...

- وبصفة المرافق، حصلتُ على سرير في غرفة بيلي مما سمح لنا بمواصلة قضاء أمسياتنا معاً.

لم يسبق لي أن كنتُ مغرماً بذلك القدر.

لم يسبق لي أن كتبتُ بذلك القدر من السهولة.

*

غرينويتش فيلدج

فاتح تشرين الأول/ أكتوبر نهاية الظهيرة

كانت كارول أول من وصل أمام المكتبة الصغيرة الواقعة في غْرِينْ سْتْرِيتْ.

كيرواك أند كو بوكسيلر

نظرت من خلال الزجاج ولم تصدق عينيها.

كان الكتاب هناك!

مفتوح فوق معرض تزينه بطاقة كتب عليها «نسخة فريدة»، كان بجوار مجموعة شعرية من تأليف إميلي دِكينْسون وملصق فيلم المخبولون عليه توقيع مارلين مونرو.

أحست بوجود ميلو خلف ظهرها.

- تهنئتي على مثابرتك، قال وهو يدنو من الواجهة، هذه المرة كنتُ أعتقد أننا لن نعثر عليه قط.

- هل أنت متأكد بأنه هو هذا بالفعل؟

- سوف نتحقق من ذلك اللحظة، قال وهو يدخل المحل.

كان المتجر يوشك على إغلاق أبوابه. وهو واقف قبالة رفوفه، كان كنيث أندروز يرتب الكتب التي نفض عنها الغبار للتو. أوقف تصنيفه لاستقبال زبونيه الجديدين.

- هل لي بخدمتكما، سيدتي، سيدي؟

- نود فحص أحد مؤلفاتك، التمست منه كارول وهي تشير إلى رواية طوم.

- آه! وثيقة استثنائية! صاح الكُتُبِيُّ بتعجب وهو يسحب الكتاب من الواجهة ويتناوله بقدر من الحيطة كما لو أنه يحمل بين يديه مخطوطة قديمة.

فحص ميلو الكتاب من جميع زواياه متعجباً من الطريقة التي استأثر من خلالها مختلف القراء به.

- وإذاً؟ سألته كارول متحيِّرة.

- إنه بالفعل هو.

- سنشتريه من عندك! قالت بحماس كبير.

كانت منفعلة ومزهوة، بفضلها أصبحت بيلي الآن بمنأى عن الخطر.

- اختيار ممتاز، سيدتي. سوف أجهزه لك. بأي صيغة تفضلين الأداء؟

- أوه... كم سعره؟

مدعوم بتجربته، أستشعر كنيث أندروز لهفة زبونته ولم يتردد في النطق برقم يدعو للهذيان:

- ستة آلاف دولار، سيدتي.

- ماذا! إنك تهزل؟ قال ميلو بصوت مختنق.

- هذا مؤلَّف فريد، قال الكتبي، مبرراً.

- لا، هذا نصب!

دلهما الرجل العجوز على الباب:

- في هذه الحال، لن أستبقيكما.

- هو ذاك! فلتذهب للج... قال ميلو بغضب.

- أنا ذاهب على الفور، سيدي العزيز، وأتمنى لك بالمناسبة ليلة سعيدة، أجابه أندروز وهو يعيد الرواية مكانها فوق المعرض.

- تمهل! التمست منه كارول وهي تسعى لتهدئة الأجواء. سوف أدفع لك المبلغ المطلوب.

أخرجت حافظة نقودها وناولت الكتبي بطاقتها المصرفية.

- هذا لطف منك، سيدتي. قال وهو يتناول المستطيل البلاستيكي الصغير.

*

باريس المستشفى الأوروبي ماري كوري اليوم نفسه.

- حسناً، هل أستطيع العودة إلى البيت؟ لقد طفح بي الكيل من البقاء مستلقية! قالت بيلي متبرمة.

رشقها البروفسور كلوزو بنظرة صارمة.

- هل تحسين بالألم حينما أضغط هاهنا؟ سألها وهو يجسُّ عَظْم القص.

- شيئاً ما.

ظل الطبيب حائراً. كانت بيلي تعاني من الحمى. صار جرحها أحمر وتَقَيَّحَ، مع تباعد طفيف عند الجانبين. ربما لم يكن سوى عَفَن سطحي، ومع ذلك فقد أمر بإجراء بعض الفحوصات.

*

نيويورك

- مرفوضة، كيف ذلك؟ أرعد ميلو.

- أنا آسف، اعتذر كنيث أندروز، لكن يبدو أن هناك مشكل بسيط يخص بطاقة أداء زوجتك.

- لست زوجته، قالت كارول مصححة.

استدارت نحو ميلو:

- لعلي خرقت سقف ما تسمح به بطاقتي المصرفية بسبب ثمن تذاكر الطائرة، لكن لا يزال لدي بعض المال في حساب الادخار.

- هذا جنون، أقنعها ميلو، لن تسببي إفلاسك...

لم ترد كارول سماع أي شيء:

- يجب أن أتصل بمصرفي للقيام بتحويل مالي، لكننا اليوم الجمعة وقد يتطلب ذلك كثيراً من الوقت، شرحَت للكتبي.

- ليس هناك أي مشكل. تستطيعين العودة متى أمكنك ذلك.

- هذه الرواية مهمة جداً بالنسبة إلينا، قالت بإلحاح.

- سوف أحتفظ لكما به حتى مساء الاثنين، وعدهما أندروز وهو يسحب الكتاب من الواجهة ليضعه على المنضدة.

- هل يمكنني الوثوق فيك؟

- عهدٌ عليَّ، سيدتي.

*

باريس المستشفى الأوروبي ماري كوري
الاثنين 4 تشرين الأول/ أكتوبر

- أَخ! صرخت بيلي بينما كانت الممرضة تضع ضمادة ساخنة على عظم قصها.

هذه المرة كان الألم شديداً جداً. لقد عانت من الحمى طوال نهاية الأسبوع كلها وأعادها البروفسور كلوزو من جناح النقاهة إلى قسم القلب.

عند سريرها، فحص الطبيب الجرح. كان ملتهباً برمته وواصلت القرحة سيلانها. وظل كلوزو يخشى التهاب العظم والنخاع العظمي:

التهاب المنصف، وهو من المضاعفات النادرة لكن التي تخشاها جراحة القلب، وربما هو ناتج عن عنقودية ذهبية.

كان قد أمر بفحوصات متعددة، لكن ولا واحد منها قدم له عوناً حاسماً. أظهر التخطيط الإشعاعي للقفص الصدري انقطاع خيطين معدنيين، لكن يصعب تأويله بالنظر إلى خثورة الدم الحميدة الناجمة عن العملية.

ربما هو حائر من أجل لا شيء...

تردد ثم فضل إجراء فحص أخير هو بنفسه. غرز إبرة دقيقة في التجويف الواقع بين رئتي بيلي الاثنتين لسحب قليل من السائل المنصفي. بالعين المجردة، كانت العينة تشبه القيح.

وصف علاجاً بالمضادات الحيوية عن طريق الوريد وبعث بالعينة على وجه السرعة إلى المختبر.

*

غرينويتش فيلدج

الاثنين 4 تشرين الأول/ أكتوبر التاسعة والنصف

ومثل كل الأصباح التي كان يوجد خلالها في نيويورك، توقف الملياردير أوليغ مورْذورُوفْ بمقهى صغير يقع بِبْرُومْ سْتْريت لطلب كابوتشينو. وهو يحمل كوبه الورقي بيده، خرج إلى الرصيف وسلك غرين ستريت.

كانت شمس الخريف تضيء بنايات مانهاتن بنور معتدل. كان أوليغ يحب التسكع في الأزقة. لم يكن وقتاً مهدوراً، على العكس من ذلك. كانت لحظات للتفكير غالباً ما اتخذ أثناءها أهم القرارات في حياته. كان لديه موعد على الساعة 11 لإنهاء عملية عقارية مهمة. كانت المجموعة التي يديرها تستعد لاقتناء بنايات ومستودعات بويليامسبورغ، غرينبوينت وغوني آيسلند لتحويلها إلى إقامات فاخرة.

وهو مشروع لم يحظ، بالضرورة بموافقة سكان هذه الأحياء، لكن لم تكن تلك مشكلته.

كان أوليغ يبلغ أربعاً وأربعين سنة من العمر، لكن وجهه المستدير قليلاً كان يجعله يبدو أصغر من ذلك. يلبس جينز، وسترة مخملية وكنزة فضفاضة بغطاء رأس، لم يكن له مظهر من هو عليه: واحد من أكبر أثرياء روسيا. لم يكن يعرض علامات الثراء الخارجية، ولا كان يتنقل في ليموزين الأوليغارشي، كما أن حارسه الشخصي الذي يسهر على أمنه كان يحرص على البقاء على مسافة منه ويبدو وكأنه غير مرئي. في سن السادسة والعشرين بينما كان يُدَرِّسُ الفلسفة في خليج أَفَاشَا، عُرِضَ عليه الانضمام إلى فريق بلدية بتروبافلوسك كامشاتسكي، مدينة بحرية تقع شرق روسيا. لقد انغمس كثيراً في الحياة المحلية، ثم وبفضل البريسترويكا وإصلاحات يلتسين، انخرط في البيزنس، مجال الأعمال، عبر مشاركة رجال أعمال لم يكونوا دائماً من الذين ينصح بهم لكنهم جعلوه يستفيد من سياسة خصخصة المقاولات العمومية. في الأصل، لم يكن لديه «مظهر» المحتال كما أن خصومه قد ضللهم دوماً بُدُوَّه الحالم والمسالم الذي كان يخفي إرادة مدروسة لا هوادة فيها. هو اليوم خطى طريقه وتخلص من صداقاته التي تثقل عليه. له ممتلكات في لندن، ونيويورك ودبي، وله يخت، وطائرة خاصة، وفريق محترف لكرة السلة وفريق فورمولا 1.

توقف أوليغ قبالة واجهة المكتبة الصغيرة كيرواك أند كو. انجذب نظره نحو ملصق فيلم المخبولون بتوقيع من مارلين مونرو.

هدية إلى ماربيك؟ لم لا..

كان يعاشر ماربيك فان إدين، عارضة أزياء هولندية تبلغ أربعاً وعشرين سنة والتي تستحوذ منذ سنتين على أغلفة كل مجلات الموضة.

- نهارك سعيد، قال وهو يدخل المتجر.

- هل لي بخدمتك، سيدي؟ قال كنيث أندروز مرحباً به.

- توقيع مارلين، هل هو أصلي؟

- بالطبع، سيدي، إننا نقدمه بشهادة إثبات الأصل. إنه تحفة جميلة...

- تساوي...

- 3500 دولار، سيدي.

- فليكن، قال أوليغ موافقاً من دون سعي للمساومة. إنه هدية، هل يمكنك تغليفه؟

- في الحين.

وبينما كان الكتبي يلف الملصق بكثير من الحيطة، أخرج أوليغ بطاقته البلاتنيوم ووضعها على المنضدة، تحديداً بجانب كتاب له غلاف جلدي أزرق.

طوم بويد - ثلاثية الملائكة إنه مؤلف ماريك المفضل.

سمح لنفسه بفتح الكتاب لتصفحه.

- كم سعر هذا الكتاب؟

- آه، أنا آسف، إنه ليس للبيع. ابتسم أوليغ. في تجارة الأعمال لم يكن يهتم تحديداً سوى بالأشياء التي يتم «الادعاء» بأنها ليست للبيع.

- كم؟ ردد من جديد.

وجهه المستدير فقد وداعته. في الوقت الراهن، صارت عيناه تقدحان شرراً مخيفاً.

- لقد تم بيعه، سيدي، قال أندرو شارحاً بهدوء.

- إن كان قد تم بيعه، ماذا يفعل هنا؟

- سوف يقدم الزبون لأخذه.

- إذاً، لم يسدد ثمنه؟

- لا، ولكني عاهدته بكلمة شرف.

- وكم هو ثمن هذه الكلمة؟

- كلمتي ليست للبيع، أجاب الكتبي بحزم.

شعر أندروز فجأة بعدم الارتياح. كان في هذا الشخص شيء ما ينذر بالسوء والعنف. أخذ البطاقة المصرفية وناول الروسي رزمته وإيصاله، متنفساً الصعداء بعد إنهاء هذه المساومة.

لكن أوليغ لم يكن ليِّن العريكة. وبدل الانصراف، جلس على الأريكة الجلدية المصفَرَّة.

- كل شيء قابل للبيع، أليس كذلك؟

- لا أعتقد، سيدي.

- ماذا كان يقول شكسبيركم في ما مضى؟ سأل وهو يحاول إيجاد استشهاد. المال يجعل القبيح جميلاً، العجوز شاباً، الجائر عادلاً، والوضيع سامياً...

- إنها نظرة للإنسان مغرقة في السخرية، إنك توافقني الرأي، أليس كذلك؟

- وما الذي لا يمكن شراؤه؟ قال أوليغ مستفزاً إياه.

- إنك تعلم ذلك جيداً: الصداقة، الحب، الكرامة...

أزاح أوليغ الحجة بحركة من يده:

- الإنسان ضعيف ويسهل إفساده.

- إنك لن تنازعني القول بوجود قيم أخلاقية وروحانية لا يحكمها منطق الفائدة.

- لكل إنسان ثمنه.

هذه المرة، دله أندروز على الباب:

- أتمنى لك يوماً سعيداً.

لكن أوليغ لم يتزحزح قيد أنملة:

- لكل إنسان ثمنه. ما هو ثمنك؟

*

غرينويتش فيلدج

بعد ساعتين من ذلك

- ما هذه الفوضى؟ استشاط ميلو غضباً عندما وصل أمام المكتبة.

لم تصدق كارول عينيها. لم يكن الستار الحديدي مسدلاً فحسب، بل إن لوحة مكتوبة على عجل كانت تخبر الزبائن المحتملين:

مغلق من أجل العطلة السنوية

قبل تغيير المالك

كانت تشعر بالدموع تغزو عينيها. مثبطة العزيمة، جلست على طرف الرصيف ودفنت رأسها بين يديها. لقد استخلصتْ للتو الستة آلاف دولار. ربع ساعة من ذي قبل، أصرَّت على أن تبلغ بنفسها طوم الخبر السعيد، وها هو الكتاب يفلت أمام عينيها.

ومن شدة الغيظ، كان ميلو يرج الستار الحديدي، لكن كارول قامت من مكانها محاولة إقناعه:

- تستطيع تكسير كل ما تريد، لن يبدل ذلك في الأمر شيئاً.

أخرجتْ الستة آلاف دولار نقداً وسلمته أكبر قسط منها.

- أنصت إلي، إني شارفت على نهاية كل إجازاتي، أما أنت فيجب عليك الذهاب لمؤازرة طوم في باريس. هذا هو أفضل أمر مجدٍ نستطيع فعله الآن.

على هذا النحو تم الاتفاق. وهما لا يزالان محبطان، ركبا معاً سيارة أجرة إلى مطار JFK (جون فتزجيرالد كينيدي) وانطلق كل واحد منهما إلى وجهته: كارول نحو لوس أنجلس، وميلو صوب باريس.

*

نيو وارك - نهاية الظهيرة

على مسافة بضع كيلومترات من هناك، في مطار نيويوركي آخر، أقلعت الطائرة الخاصة التي يمتلكها الملياردير أوليغ موردوروف نحو أوروبا. رحلة ذهاب وإياب سريعة إلى باريس بغية إعداد مفاجأة لماريك. في هذا الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، كانت عارضة الأزياء الشابة تعمل في العاصمة الفرنسية لحساب Fashion Week. كانت تتهافت عليها كل دور تصميم الأزياء التي كانت تعرض فيها آخر مجموعة مبتكراتها. إنها ذات جمال كلاسيكي وهي في الآن نفسه امرأة رفيعة الذوق. كان في الهولندية الشابة لهبة ليست في سواها. وكأن الآلهة، من علياء جبل الأولمب، قد سمحت لهذا القبس من نار أبديتها بالسير على الأرض.

وهو مستقر في أتم راحته داخل شرنقته، تفحص أوليغ كتاب طوم بويد في شرود قبل أن يدسه في ظرف مُبَطَّنٍ له أكياس هوائية من الداخل، مُزَيَّنٍ بشريط.

هدية فريدة، خمَّن، أتمنى أن تنال إعجابها.

أمضى بقية الرحلة في التصدي لبعض الأعمال قبل أن يمنح نفسه ساعتين من النوم.

*

باريس - مستشفى ماري كوري
5 تشرين الأول/ أكتوبر الخامسة والنصف

- يا لها من مستشفيات نتنة! صاح كلوزو بفظاظة وهو يلج الغرفة.

مرهقة جراء الحمى والتعب، لم تستفق بيلي من سباتها منذ اليوم السابق.

- خبر سيء؟ خمنتُ.

- بل سيء جداً: إنّ الفحص الذي أجري على السائل قد أظهر وجود طفيليات. إن التهاب المنصف ينمو بداخلها: وهو التهاب خطير يستدعي إجراء جراحة مستعجلة.

- هل ستجري لها عملية من جديد؟

- أجل، سوف ننقلها إلى غرفة العمليات، في الأعلى.

*

حطت طائرة أوليغ مورذوروف الخاصة بأورلي الجنوبي الساعة السادسة صباحاً. كانت هناك سيارة غير مثيرة للانتباه في انتظاره من أجل نقله إلى جزيرة سَانْ لُوِي في قلب باريس.

توقفت السيارة على رصيف بُورْبُونْ قبالة فندق جميل يعود إلى القرن السابع عشر. حاملاً بيده حقيبة السفر ومتأبطاً الظرف الذي يضم الرواية استقل أوليغ المصعد إلى الطابق الخامس. كانت الشقة المزدوجة تستحوذ على الطابقين الاثنين الأخيرين، وتمنح إطلالة جميلة على نهر السين وجِسر ماري، إنها هدية كان قد أسرف في تقديمها لماريك في بداية ارتباطهما.

كان في حوزة أوليغ مجموعة مفاتيحه الخاصة. دخل الشقة. كان الصمت يعم المكان كله، الغرق في ضوء الصباح الباكر الشاحب

ذاك. تعرف إلى معطف ماريك المشدود ذي اللون الرمادي الأشيب وهو مرمي على الأريكة الجلدية البيضاء وإلى جانبه سترة جلدية رجالية ليست له...

أدرك على الفور ولم يتجشم عناء الصعود إلى الغرفة.

وهو في الشارع، حاول إخفاء إحساسه بالعار في حضرة السائق، لكن لغضبه الجارف رمى الكتاب بكل ما أوتي من قوة في النهر.

*

مستشفى ماري كوري، السابعة والنصف

بإشراف من كلوزو، وضع الطبيب المقيم مزيلات الرجفان على جسد بيلي الغارق في غياهب التخدير. ثم تدخل الجرَّاح ساحباً بعناية كل الخيوط التي كانت لا تزال تشد القفص الصدري قبل أن يوسع حافتي القص، ويستأصل الأنسجة النَّخِرَة أو المتعفنة.

كان الجرح ينضح بسائل صديدي. قرر كلوزو إجراء عملية على «الصدر المغلق». ومن أجل شفط مصالة القرحة وضع ستة أنابيب تصريف صغيرة موصولة بقارورات يسودها ضغط قوي ثم ختم جراحته بتثبيت القص جيداً بواسطة خيوط معدنية جديدة حتى لا يضطرب اندمال الجرح جراء حركات التنفس.

وأخيراً كللت العملية بالنجا...

- سيدي، إنها تتعرض لنزيف! صرخ الطبيب المقيم.

*

وهي محفوظة فقط بالظرف المُبَطَّن، طفت الرواية ذات الغلاف الجلدي بلونه الأزرق الداكن لبرهة على سطح السِّين قبل أن يشرع الماء في التسرب إلى الغلاف.

خلال الأسابيع الأخيرة، سافر هذا الكتاب منتقلاً من ماليبو إلى

سان فرانسيسكو، عابراً الأطلنتي حتى روما، مواصلاً رحلته إلى آسيا قبل العودة إلى مانهاتن ومن هناك قام برحلته الأخيرة نحو فرنسا.

وعلى طريقته فقد بدَّل حياة كل الذين حملوه بين أيديهم.

لم تكن هذه الرواية مثل باقي الروايات. فالقصة التي تحكيها كانت قد اختمرت في ذهن فتى مراهق صدمته مأساة عاشتها صديقة طفولته.

سنوات عديدة من بعد ذلك، وبينما كان مؤلفها بدوره يتخبط في المشاكل، أنزل الكتاب في العالم الواقعي واحدة من شخصياته التي هبَّت لنجدته.

لكن في ذلك الصباح، وحينما كان ماء النهر يزيل بياض صفحات الكتاب، فالظاهر أن الواقع عقد العزم على استرداد حقوقه، مصمماً على إزالة بيلي من على وجه الأرض.

35

محنة القلب

بعد أن نبحث من دون أن نجد شيئاً يذكر، قد
يحدث أن نجد من دون أي بحث.

جيروم. ك. جيروم

مستشفى ماري كوري الثامنة وعشر دقائق

- لنُعِد فتحها، قال كلوزو آمراً.

لقد حدث ما كان يخشاه. تعرض البطين الأيمن للتمزق نجم عنه تدفق عارم للدم. كان هذا الأخير ينز من كل صوب ويغمر مساحة العمل. وقد وجد الطبيب المقيم والممرضة صعوبة في شفطه مما اضطر كلوزو للضغط على القلب بيديه سعياً منه لوقف النزيف.

هذه المرة لم تعد حياة بيلي تتعلق سوى بخيط رفيع.

*

رصيف سان برنار الثامنة و45 د

- أيا رجال، إنها ساعة العمل، وليس وقتاً لتناول الفطور! ثارت القبطان كارينْ أنْبيلِي وهي تلج غرفة الاستراحة بالمقر العام التابع لفرقة حرس النهر.

هلالية في يد وفنجان قهوة بالحليب في الأخرى، كان الملازمان

دْياز وكابِيلاَ يتصفحان عناوين جريدة *le Parisien* ويستمعان عبر المذياع ليوميات المقلد الشهير صاحب الفترة الصباحية.

بخصلات شعرها الفوضوي القصيرة والنمش الساحر الذي لها كانت كارين أنثوية بقدر ما كانت سلطوية. ولتذمرها من تلك اللامبالاة، أقفلت المذياع وزجرت رجالها.

- لقد طَلَبَتْنا مصلحة الطرقات للتو، لدينا حالة مستعجلة، شخص مخبول أقدم على الارتماء من على جسر مَارِي، وعليه، كفوا عن التلاعب بأشياء...

- نحن قادمان، أيتها القائد! لا داعي لأن تكوني بذيئة.

وخلال بضع ثوان، أخذوا أماكنهم هم الثلاثة على متن الـ cormoran أحد زوارق التجول السريعة المستخدمة لمراقبة النهر الباريسي. اخترق المركب المياه على طول الرصيف هنْرِي الرابع ومر من تحت جسر سُولِي.

- ينبغي أن يكون المرء أخرق بحق لتدفعه الرغبة إلى الارتماء في الماء والطقس بهذه البرودة الشديدة! لاحظ دياز.

- أجل، لا يبدو لي أنكما جاهزان بما يكفي أنتما الاثنان، قالت كارين معربة عن رأيها.

- طوال الليل، لم يكف آخر العنقود عن الاستيقاظ من النوم، قال كابيلا مبرراً حالته.

- وأنت، دياز؟

- أمي هي السبب.

- أمك؟

- إن الأمر معقد، قال بنبرة المتهرب.

ولم تظفر منه بأكثر من ذلك. واصل الزورق سباقه على طول نهج جورج بومبيدو إلى أن...

- إني أراه! صاح كابيلا من خلف منظاريه.

خفض المركب من سرعته لما تجاوز جسر ماري. وهو يكاد يختنق، بحركاته التي يعوقها معطف مطري، كان هناك شخص يتخبط في الماء، محاولاً بمشقة الوصول إلى الضفة.

- إنه يغرق، لاحظت كارين. من يلحقه؟

- هذه المرة، إنه دور دياز! أكد لها كابيلا.

- إنك تهزل، مساء البارحة، أنا الذي...

- حسناً، لقد فهمتُ، قاطعته الفتاة الشابة. في نهاية المطاف، هنا، أنا الوحيدة التي لدي الشجاعة.

شبكتْ بدلة الغطس وارتمت في الماء تتبعها نظرة ملازميها المذهولة.

سبحت حتى لحقت الرجل، طمأنته وأعادته نحو زورق الكورمران، حيث تلقاه دياز ودثره بغطاء قبل أن يقدم له الإسعافات الأولية.

وهي لم تغادر الماء، أبصرت كارين شيئاً ما يطفو على سطح النهر فالتقطته. كان عبارة عن ظرف بلاستيكي كبير مبطَّن. لم يكن في الحقيقة من نوع تلك الأشياء القابلة للتحلل. إذ إن محاربة التلوث كانت بدورها جزء من مهام شرطة النهر. التقطت الرزمة قبل أن يرفعها كابيلا إلى الزورق.

*

مستشفى ماري كوري

عمل فريق الجراحة طوال الصباح سعياً منه إلى إنقاذ بيلي.

في محاولته رتق التمزق البُطَيْني استخدم كلوزو جزء من ثنية الصِّفاق لإغلاق الثُّلمة.

كانت تلك جراحة الفرصة الأخيرة.

لم تكن التوقعات تنبئ بخير.

*

رصيف سان برنار التاسعة والربع

حين العودة إلى المقر العام الخاص بشرطة النهر، تكلف الملازم كابيلا بإفراغ الزورق قبل أن يخضعه للمنظف ذي الضغط العالي.

التقط الظرف المبطن المشبع بالماء مثل إسفنج. كان يضم كتاباً بالإنجليزية يبدو في حالة سيئة. كان على أهبة رميه في حاوية الأزبال حينما تراجع وقرر في نهاية المطاف وضعه على الرصيف.

*

وتعاقبت الأيام...

تبعني ميلو إلى باريس وساعدني على اجتياز هذه الأوقات العصيبة. معلقة بين الحياة والموت، ظلت بيلي لأكثر من أسبوع في الإنعاش، تحت حراسة دقيقة من كلوزو الذي كان يجري كل ثلاث ساعات تقويماً لحالة مريضته الصحية.

ولأنه كان يتفهم الوضع، سمح لي بالولوج الدائم إلى غرفة الإنعاش. كنت أقضي على ذلك النحو جزءاً لا يستهان به من أيامي، جالساً على كرسي وحاسوبي المحمول موضوع على ركبتَي، أرقن بشكل محموم على لوحة المفاتيح، صحبة إيقاع صوت جهازَيْ مراقبة القلب والتنفس الاصطناعي.

ذاهلة بفعل مسكنات الألم، تخترقها الأنابيب، كانت بيلي مغمورة بالأقطاب الكهربية وأنابيب التصريف الخاصة بالقفص الصدري ومحقنات السوائل المنطلقة من ذراعيها ومن صدرها. نادراً ما كانت تفتح عينيها، ولما كانت تفعل ذلك كنت أرى في نظرتها

الألم والاستغاثة. كنت أود مواساتها وكفكفة دموعها، لكن كل ما كنت أستطيع فعله هو مواصلة الكتابة.

*

في منتصف شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وهو جالس في شرفة مقهى، ختم ميلو رسالة مطولة إلى كارول. دس الوريقات في ظرف، أدى ثمن كأسه Perrier بالنعناع وعبر الشارع للوصول إلى ضفتي السِّين، على مستوى رصيف مَلاَكِي. وهو يتجه نحو معهد فرنسا - هناك حيث لمح صندوق رسائل لوضع رسالته -، تسكع قليلاً أمام أكواخ باعة الكتب، حيث كتب قديمة ذات جودة رفيعة إلى جانب بطاقات دْوَانُو البريدية، ملصقات القط الأسود من طراز فينتدج العتيق، أسطوانات تعود لسنوات 1960، وعلاَّقة مفاتيح بشعة تمثل برج إيفل. توقف ميلو أمام كُتُبِيٍّ متخصص في بيع الأشرطة المصورة بدء من هُولْك (Hulk) وصولاً إلى سبايدرمان (Spiderman). كانت أحلام طفولته تعج بأبطال كوميكس مارفل (comics Marvel)، وفي هذه الظهيرة اكتشف باهتمام بعضاً من ألبومات أستريكس (Astérix) ولوكي لوك (Lucky Luke).

كان الكوخ الحديد الأخير يضم المنشورات «الكل بأورو واحد». نقب فيها ميلو بفضول: طبعات جيب قديمة صفراء، مجلات ممزقة، وضمن هذه الفوضى، رواية متهرئة ذات غلاف جلدي أزرق داكن....

مستحيل!

فحص الكتاب: كان الغلاف الفني مشوهاً عن آخره والصفحات ملتصقة ببعضها ويابسة كالحجر.

- Where... Where did you get this book?[*]، سـأل وهـو عاجز عن النطق بأدنى جملة بالفرنسية.

غمغم الكتبي ببضع كلمات إنجليزية مفسراً بأنه وجده على الرصيف. لكن ميلو لم يعرف بأي معجزة استطاع الكتاب الذي فقد أثره في نيويورك أن يظهر عشرة أيام من بعد ذلك في باريس.

وهو لا يزال تائهاً، قلب الكتاب بين يديه من كل جوانبه. بالتأكيد، الرواية كانت ماثلة أمامه، لكن في حال تدعو...

استدرك الكُتُبِيُّ اضطرابه.

- إذا كنت تود إصلاحه، أستطيع أن أدلك على شخص معين، عرض عليه وهو يناوله بطاقة معايدة.

*

ملحقة دير القديس بُونْوا في مكان ما في باريس

داخل ورشة الدير للتغليف الفني التقليدي، فحصت الأخت مَارِي كْلودْ المؤلَّف الذي عهد إليها به. كان «جسد» الكتاب ممزقاً ومرضوضاً وغلافه الجلدي متضرر كثيراً. بدا لها أن الإصلاح الذي طُلِبَ منها صعب المنال، لكن الرَّاهبة عكفت على عملها بحزم.. بادرت إلى سلخ الكتاب بعناية فائقة، ثم بواسطة منشف لا يفوق في حجمه قلم حبر أرسلت على الكتاب بخاراً دقيقاً ظهرت حرارته على شاشة قابلة للمس، تغلغلت السحابة الرطبة في الورق وفصلت الصفحات الملتصقة. وبما أنها كانت مبللة، فإن الورقات كانت هشة وفي جزء منها فاقدة للونها. وبرفق وضعت الأخت ماري كلود مناشف بين كل صفحات الكتاب، قبل أن تضعه على وجهه السفلي، وبجهد لا ينتهي، استخدمت مجفف الشعر حتى «تعيد الكتاب إلى الحياة».

(*) أين... أين عثرت على هذا الكتاب؟

ساعات معدودة بعد ذلك، أصبح من الممكن تقليب الصفحات بشيء من المرونة. تفحصتها الراهبة واحدة بعد أخرى بدقة، متحققة في كل مرة من أن العمل قد تم إنجازه بإتقان. أعادت لزق الصور التي انفصلت عن مكانها وكذا خصلة الشعر الصغيرة التي كانت من الدقة بمكان حتى ليخال المرء أنها خيوط ملاك. وأخيراً، كي يستعيد الكتاب شكله، وضعته طوال ليلة كاملة بين لوحتي آلة ضاغطة.

في اليوم التالي، شرعت الأخت ماري كلود في صنع جلد جديد للكتاب. في خلوة ورشتها، يحفها الصمت والسكينة، عملت طوال اليوم بدقة الطبيب الجراح لصنع تجليد فني مصنوع من جلد العجل، وزينته ببطاقة من جلد الحمل عليها نقشت العنوان بحروف مذهبة.

في السابعة مساء، قرع الشاب الأمريكي ذو الاسم العجيب باب جماعة الدير. سلمت الأخت ماري كلود الكتاب إلى ميلو الذي شكرها كثيراً على عملها، بحيث لم تستطع إخفاء احمرار وجنتيها من الخجل...

*

- استيقظ! قال ميلو آمراً وهو يرجني. اللعنة!

كنت قد نمت قبالة شاشة حاسوبي، في غرفة المستشفى التي تقيم فيها بيلي قبل الخضوع للجراحة من جديد. كنت أقضي بها لياليَّ، بموافقة ضمنية من العاملين.

كانت الستائر مسدلة، والغرفة مضاءة بنور مصباح السهر الخافت.

- كم الساعة الآن؟ سألت وأنا أفرك عينيَّ.

- الحادي عشرة.

- وأي يوم نحن؟

- الأربعاء.

لم يتوان عن الإضافة بنبرة مستهزئة:

- قبل أن تطرحِ علي السؤال، فنحن بكل تأكيد في العام 2010، وأوباما لا يزال رئيساً.

- إحم...

حينما أكون غارقاً في حكاية معينة، كانت مؤشراتي الزمنية تنحو دائماً إلى التشويش.

- كم من صفحة كتبتَ؟ سألني وهو يحاول أن يقرأ من خلف كتفي.

- مائتان وخمسون، قلتُ وأنا أصفق الشاشة. لقد وصلت إلى المنتصف.

- وكيف هي حال بيلي؟

- لا تزال تحت المراقبة، في غرفة الإنعاش.

وبإجلال، أخرج من كيس ورقي كتاباً مجلداً على نحو فاخر.

- عندي لك هدية، قال بغموض.

تطلب مني ذلك بعض الوقت، لإدراك أن الأمر يتعلق بكتابي الذي تعقبه صحبة كارول في أطراف الدنيا القاصية.

كان الكتاب قد تم إصلاحه على نحو متين، وكان غلافه الجلدي دافئاً وناعماً عند الملمس.

- لم تعد بيلي تخشى أي شيء، طمأنني ميلو. في الوقت الراهن، ما عليك فعله هو إتمام حكايتك من أجل إعادتها إلى عالمها.

*

مرَّت الأسابيع والشهور. تشرين الاول/ أكتوبر، تشرين الثاني/ نونبر، كانون الأول/ دجنبر...

نكست الريح الأوراق المصفرة المتساقطة على الأرصفة، وبعد

عذوبة شمس الخريف حلَّت قسوة الشتاء.

أخلت المقاهي شرفاتها من الكراسي وأوقدت مجامرها. وظهر بائعو الكستناء عند مداخل المترو هناك، حيث كان المارة وبحركة واحدة يلبسون على عجل قبعاتهم ويلفون أوشحتهم.

مدفوعاً بحماسي، كنت أكتب بسرعة أكثر فأكثر، أغرس ملامس لوحة مفاتيح الحاسوب وأنا أكاد لا آخذ نفَسي، ممسوساً بحكاية صرت الآن لعبة بين يديها أكثر مما كنتُ مبدعها، مسحوراً بأرقام الصفحات وهي تتعاقب على معالج النصوص: 450، 400، 350.

كانت بيلي قد تحملت الصدمة واجتازت بنجاح «محنة القلب». بادئ الأمر، نزع عنها الأنبوب الذي كان يحبس حلقها وتم استبداله بقناع للأكسجين. ثم خفض كلوزو تدريجياً جرعات مسكنات الألم وسحب أنابيب التصريف والحقن، وتنفس الصعداء لما لاحظ أن العينات البكتيرية لم تظهر آثاراً جديدة للتعفن.

وتم تخليصها من الضمادات وذلك لإخفاء الندوب المَخيطَة بشريط شفاف. ومع مرور الأسابيع، أصبحت ندوبها مستترة.

وغدت بيلي تأكل وتشرب على نحو مستقل من جديد. وشاهدتها تقوم بخطواتها الأولى ثم ترتقي السلم تحت إشراف مختص في الترويض.

استعادت جذور شعرها لونها الأصلي، أما هي، فقد استرجعت ابتسامتها وحيويتها.

في يوم السابع عشر من كانون الأول/ دجنبر، استيقظت باريس على ندف الثلج الأولى التي تساقطت طوال الصبيحة.

وفي يوم 23 من كانون الأول/ دجنبر وضعت نقطة الختام لروايتي.

36

المرة الأخيرة التي شاهدت فيها بيلي

إن الحب العظيم هو التقاء حُلْمَيْن، يهربان، في
تواطئهما، من الواقع إلى آخر المطاف.

رومان غاري

باريس

23 كانون الأول/ دجنبر. الثامنة مساء

عشية ليلة رأس السنة، كان سوق عيد الميلاد يضج بالكامل. متشبثة بذراعي، كانت بيلي تنقاد خلال الشاليهات البيض الصغيرة الموجودة بين ساحة لا كونكورد ومدار الشانزلزيه. العجلة الضخمة، الأضواء، المنحوتات على الجليد، وروائح النبيذ الساخن وخبز الزنجبيل كانت تغدق على الشارع شيئاً من السحر والفتنة.

- هل عزمت على إهدائي زوج حذاء؟ صاحت بينما كنا نمر قبالة المتاجر الفاخرة الموجودة في شارع مُونْتِين.

- لا، بل آخذك إلى المسرح.

- هل سنشاهد عرضاً؟

- لا، سوف نتناول العشاء!

لما وصلنا أمام واجهة مسرح الشانزلزيه الرخامية البيضاء، أخذنا المصعد للوصول إلى المطعم الموجود في الأعلى.

في ديكور صاف، حيث يمتزج الخشب بالزجاج والغرانيت، كانت للقاعة ألوان فاتحة تحسنها أعمدة بلون أرجواني.

- هل تودّان شرب شيء معين؟ سألهما كبير الخدم بعد أن أجلسهما في واحدة من القباب الصغيرة المكسوة بالحرير، المواتية للحميمية.

طلبت كاسين من الشمبانيا وأخرجت من جيبي علبة فضية صغيرة.

- لقد وفيت بوعدي، قلتُ وأنا أقدم العلبة لشريكتي.

- أهي حلية؟

- لا، لا تتسرعي...

- آه، إنه مفتاح ناقل تسلسلي عام (USB)! كشفت عنه وهي تفتح سدادة المُوصِل الصغير. لقد أنهيت روايتك!

وافقتُ بإيماءة من رأسي بينما كان يتم إحضار شرابنا المُشهي.

- أنا بدوري عندي شيء لك، قالت بنبرة غامضة، وهي تخرج من حقيبتها هاتفاً. قبل أن نشرب هذا النخب، أود أن أعيد لك هذا.

- ولكن إنه هاتفي!

- أجل، لقد اختلسته منك هذا الصباح، باحت بذلك من دون أي عقدة. إنك تعلم بأني أحب التنقيب...

استرجعتُ هاتفي المحمول وأنا أدمدم بينما كانت تظهر ابتسامة راضية:

- لقد سمحت لنفسي بقراءة بعض من رسائلك القصيرة. أرى أن الأمور تعود إلى مجاريها مع أرور.

وإن لم تكن مخطئة تماماً، أومأتُ برأسي علامة على النفي. خلال الأسابيع الأخيرة، أصبحت رسائل أرور تفد عليَّ بكثرة عدداً

ومودة. كانت تقول بأنها تفتقد أنسي وتعتذر عن بعض من أخطائها، وتلمح بين السطور إلى «فرصة ثانية» ربما كان لكلينا الحق فيها.

- إنها مغرمة من جديد! لقد سبق وقلت لك أني بدوري سألتزم بما تعهدت به! صرحت بيلي وهي تسحب من جيبها قطعة المفرش الورقي المتجعد الذي يعود لمحطة الخدمات.

- كانت فترة جميلة، قلتُ وأنا أستحضر بشيء من الحنين اليوم الذي وقعنا فيه ذلك الاتفاق.

- أجل، فيه وجهت لك صفعة رائعة، إنك تذكر ذلك جيداً!

- إذاً، هذا المساء هو نهاية المغامرة؟

نظرت إلي وهي تحاول إظهار الخفة على محياها:

- أي نعم! لقد أنجزت المهمة بالنسبة إلينا معاً: أنت، أنهيت روايتك، وأنا، أعدت لك المرأة التي تحبها.

- بل أنت المرأة التي أحبها.

- لا تصعب الأمور من فضلك، التمست منه بينما كان كبير الخدم يتقدم نحونا لأخذ طلبنا.

أدرت رأسي لإخفاء حزني وهرب نظري عبر الواجهة الزجاجية المدوِّخة بعُلُوِّهَا التي تطل على المدينة وتمنح منظراً مبهجاً لأسطح باريس. انتظرت حتى انصرف النادل لأسألها:

- بالملموس، ما الذي سيقع الآن؟

- لقد سبق وتحدثنا في هذا الشأن مرات عديدة يا طوم. سوف تبعث مخطوطك للناشر وما إن يقرأ نصك فإن العالم الخيالي الذي تصفه في حكايتك سيأخذ شكلاً في ذهنه، وفي هذا العالم الخيالي يوجد مكاني.

- مكانك هنا، برفقتي!

- لا، مستحيل، لا يمكنني الوجود في الواقع وفي الخيال معاً. لا يمكنني العيش هنا! لقد كدتُ أموت وإنها لمعجزة أني لا أزال على قيد الحياة.

- لكنك الآن في حال أفضل.

- محكوم علي مع وقف التنفيذ وأنت تعلم ذلك جيداً. إن بقيت، سوف أمرض من جديد، وهذه المرة لن تسلم الجرة.

أربكني استسلامها.

- لكن يبدو وكأنك تستمتعين بهجري!

- لا، إن ذلك لا يمتعني، لكننا نعلم منذ البداية أن قصتنا لن تكون إلا عابرة. كنا نعلم أن لا مستقبل لنا معاً، وأننا لن نستطيع بناء أي شيء معاً.

- لكن حدثت أمور بيننا!

- بالطبع: لقد عشنا خلال هذه الأسابيع الأخيرة ما يشبه «فاصلاً ساحراً»، لكن واقعينا لا يلتقيان، إنك تعيش في العالم الواقعي أما أنا فإني لست سوى مخلوق خيالي.

جيد، قلت وأنا أغادر المائدة، لكن بمقدورك على الأقل إظهار شيء من الحزن.

رميتُ المنديل على الكرسي وما تبقى لي من نقود على المائدة قبل مغادرة المطعم.

*

البرد القارس الذي شلَّ أوصال المدينة جمَّد عظامي. رفعتُ ياقة معطفي وصعدت الشارع حتى البلاتزا، حيث كانت هناك ثلاث سيارات للأجرة تنتظر زبوناً.

ركضت بيلي خلفي وأمسكتني من ذراعي بعنف.

- لا حق لك في أن تهجرني على هذا النحو! لا حق لك في إفساد ما عشناه سوياً.

كانت ترتجف رعشاً. وكانت دموع تسيل على وجنتيها، والبخار ينبعث من جوفها.

- ماذا تظن؟ صرخت، بأنني غير منهارة مع علمي المسبق بكوني سأفقدك؟ لكن يا صديقي التعس، لا تدري مقدار حبي لك!

كانت غاضبة علي، ومتذمرة من عتابي لها.

- تود أن أصارحك: لم أشعر في يوم من الأيام بتاتاً بأني في مثل هذه الحال الجيدة بصحبة رجل طوال حياتي. لم أكن أعلم أن المرء يستطيع الإحساس بمثل هذا الشعور نحو شخص ما! لم أكن أعلم أن الهوى ينسجم مع الإعجاب والفكاهة والحنان! أنت الوحيد من جعلني أقرأ الكتب، الوحيد من ينصت إلي بحق حين أتكلم، وفي ناظريه لا أشعر بأني مفرطة الغباء، الوحيد من يحكم على ردودي بأنها مثيرة وبالمثل على ساقَيَّ، الوحيد الذي يرى فيَّ شيئاً آخر غير الفتاة التي لا تصلح سوى للمضاجعة... لكنك أغبى من أن تنتبه لذلك.

حضنتها بين ذراعي، أنا بدوري كنت غاضباً: من أنانيتي، من ذلك الحاجز العنيد الذي، بِفَصْلِه الواقع عن الخيال، يمنعنا من عيش قصة الحب التي نحن جديران بها.

*

وللمرة الأخيرة عدنا إلى «دارنا»، إلى تلك الشقة الصغيرة الموجودة بساحة فورستنبرغ والتي احتضنت بداية حبنا.

وللمرة الأخيرة أوقدت النار في المدفئة مظهراً لها بأني تعلمت الدرس جيداً: أولاً الورق المفروك، ثم عيدان خشبية، وفي النهاية قطع خشبية مرصوفة على شكل خيمة تِيبِي.

وللمرة الأخيرة، شربنا جرعة من ماء الحياة الشنيع واللذيذ الذي له نكهة الإجاص.

وللمرة الأخيرة أنشدَنا لِيُو فيري «مع الوقت الذي يمضي، كل شيء يمضي».

*

بدأت النار تلتهب وترسل ومضاتها الوهاجة على الجدران. كنا مستلقيان على الأريكة، وكان رأس بيلي يستند إلى بطني بينما كنتُ أداعب شعرها.

- يجب أن تعدني بشيء، بادرت ملتفتة نحوي.

- كل ما تودين.

- عدني أن لا تسقط من جديد في الهاوية السحيقة، حيث انزلقت سابقاً، وأن لا تهلك نفسك بالأدوية.

تأثرت لتوسلاتها الصادقة، لكني لم أكن متيقناً بما يكفي من قدرتي على الوفاء بها ما إن أجدني وحيداً مع نفسي.

- لقد استعدت زمام حياتك يا طوم، وأخذت تكتب وتحب من جديد. لديك أصدقاء. كن سعيداً برفقة أرور، أنجب أطفالاً. لا تنجر وراء...

- أنا لا تهمني أرور بتاتاً! قلتُ مقاطعاً إياها.

انتصبت واقفة ثم واصلت: لو قيض لي العيش عشرات المرات، لن يكفيني الوقت لإسداء الشكر إليك من أجل ما قمت به من أجلي. لا أعلم بحق ما الذي سيحل بي، ولا أين سأحط الرحال، لكن كن متيقناً من أني سوف أظل أحبك أنَّا كنتُ.

تقدمتْ نحو المكتب. بحثت في الدرج عن الكتاب الذي أحضره لي ميلو بعد ترميمه.

- ماذا تفعلين؟

وبينما كنت أحاول النهوض للحاق بها، تملكني دوار مباغت وحاد. كان رأسي ثقيلاً وغالبني نوم لا يقهر.

ماذا حلَّ بي؟

سرتُ بضع خطوات مترددة. كانت بيلي قد فتحت الرواية وكنت أخشى أنها تعيد قراءة تلك الصفحة 266 المشهودة والتي تتوقف بغتة عند: «صرخت وهي تسقط».

كانت عيني تنغلقان وقواي تهجرني وفجأة أدركتُ الأمر: إنه ماء الحياة! اكتفت بيلي بلثمه أما أنا فقد. . .

- هل وضعت شيئاً ما في القنينة؟

ومن دون سعي منها للنفي، أخرجت من جيبها وعاء عقاقير الخدار، وهو داء النوم المفرط، والتي ربما اختلستها من المستشفى.

- لكن، لماذا؟

- كي تدعني أغادر.

كانت عضلات عنقي مشلولة ولدي رغبة رهيبة في التقيؤ. كنت أقاوم سباتي محاولاً عدم الانهيار، لكن كل شيء حولي صار مضاعفاً.

آخر صورة شاهدتها وكانت بالفعل واضحة هي صورة بيلي المنهمكة في تحريك الجمر بواسطة المِخَض قبل أن ترمي بالرواية وسط النيران. عبر هذا الكتاب جاءت، وعبر هذا الكتاب يجب عليها المغادرة.

لعجزي عن منعها من فعل ذلك، سقطتُ على ركبتي وتبلبلت رؤيتي أكثر. كانت بيلي قد فتحت شاشة حاسوبي، وخمنت أكثر من كوني رأيت أنها ستقدم على ربط مفتاح الـ USB الفضي. . .

وبينما كان كل شيء يتراقص أمامي، سمعت الصوت المعروف لرسالة إلكترونية تنطلق من حاسوبي ثم، حينما كنت أفقد وعيي وأنا أتهاوى فوق البلاط الخشبي، هَمَسَ صوت خافت في أذني عبارة «أحبك» واهنة، ذابت في غياهب النوم الذي غرقت فيه.

*

مانهاتن شارع ماديسن أفنيو

في اللحظة ذاتها، في نيويورك كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر لما رفعت رِبيكا تايْلر، مديرة أدبية لدى دابلداي، سماعة هاتفها للرد على مكالمة من مساعدتها.

- لقد توصلنا اللحظة بالمخطوط الأخير لطوم بويد! أخبرتها جانَيسْ.

- لقد تأخر كثيراً! صاحت ربيكا مندهشة. مرَّت شهور ونحن نترقبه.

- هل أطبعه لك؟

- أجل، بأسرع ما يكون.

طلبت ربيكا أيضاً بأن يتم إلغاء المواعيد التالية. الجزء الأخير من **ثلاثية الملائكة** كانت له الأولوية بالنسبة إلى دار النشر، كما كانت تتحرق شوقاً للتحقق من قيمة النص.

شرعتْ في قراءته قبل الساعة الخامسة بقليل، ثم تابعتها حتى وقت متأخر من الليل.

ومن دون أن تنبس بكلمة إلى رئيستها، طبعت جانيسْ لنفسها نسخة من الرواية. غادرت المكتب على الساعة السادسة مساء كي تعود عبر الميترو إلى شقتها الصغيرة في وليامسبورغ، محدثة نفسها بأنها جُنَّت تماماً بعد إقدامها على تلك المخاطرة، فذلك يُعَدُّ من

الأخطاء المهنية التي قد تؤدي إلى طردها من العمل، إلا أنها كانت مستعجلة أيما استعجال لقراءة نهاية الثلاثية، بحيث لم تستطع مقاومة ذلك الإغراء.

هكذا إذاً، ففي ذهن هاتين القارئتين الأوليين بدأ العالم الخيالي الذي يصفه طوم يتخذ شكله.

العالم الذي صارت تعيش فيه بيلي منذ ذلك الحين.

*

باريس 24 كانون الأول/ دجنبر الساعة التاسعة.

في الصباح التالي، لما فتحت عيني كنت أشعر بالغثيان وبطعم التراب في فمي. كانت الشقة فارغة وباردة. في المدفئة، لم يتبق هناك سوى دُقاق الرماد.

في الخارج، كانت السماء مظلمة والمطر ينقر زجاج النوافذ.

خرجت بيلي من حياتي بغتة مثلما دخلتها، شأن رصاصة اخترقت قلبي، وتركتني من جديد وحيداً وبائساً.

37

عرس أعز أصدقائي

الأصدقاء الوحيدون الجديرون بالاهتمام هم أولئك الذين نستطيع استدعائهم عند الرابعة صباحاً.

مارلين ديتريش

ثمانية أشهر بعد ذلك الأسبوع الأول من أيلول/ شتنبر
ماليبو، كاليفورنيا

كانت المزرعة - وهي مِلْكِيَّة نسخة طبق الأصل من قصر فرنسي بُنِي في سنوات 1960 على يد ملياردير غريب الأطوار - تمتد على هضبة زُومَا بِيتْشْ. ست هكتارات من الخضرة، من الحدائق والأعناب التي تمنح الانطباع بأن المرء يوجد في قلب البادية البُورْغينْيُونِية وليس على ساحل المحيط، في مدينة راكبي الأمواج وشواطئ الرمال الذهبية.

في هذا المحيط المحروس، اختار ميلو وكارول الاحتفال بزواجهما. منذ نهاية مغامرتنا، كان صديقيَّ يعيشان قصة حب رائعة، وكنت أول من ابتهج لسعادتهما المؤجلة منذ أمد بعيد.

عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي. قمتُ بتأدية ما كان بذمتي من ديون، وتسوية متاعبي القانونية. بعد نشره منذ ستة أشهر خلت، التقى

الجزء الأخير من ثلاثيتي قرَّائه. أما الفيلم الأول المقتبس من رواياتي فقد ظل طوال أكثر من ثلاثة أسابيع يتصدر شباك التذاكر للفترة الصيفية. العجلة تدور بسرعة في هوليود: من (looser) فاشل على حافة الهاوية أصبحتُ من جديد مؤلفاً ناجحاً كل شيء يكلل عنده بالنجاح (sic transit gloria mundi)(*).

فتح ميلو مكاتبنا من جديد، وأضحى منذ ذلك الحين يدير أعمالي بحذر شديد جدير بالهنود السِّيُو. استرجع سيارته البوغاتي، لكن حينما علم بحمل زوجته المقبلة، استبدلها بأخرى من نوع فُولْفو عائلية.

باختصار، لم يعد ميلو بحق هو ميلو.

وإذا كانت الحياة في الظاهر قد أخذت تبتسم لي من جديد، فإني كنت أعيش اختفاء بيلي بوصفه حداداً. لقد غادرتْ وتركت في أعماق قلبي مخزوناً من الحب لا ينضب لم أعد أعرف ما أصنع به. وكي أظل وفيّاً لوعدي لم أسقط مجدداً في هوة «مضادات الأرق والقلق، والكريستال ميث». كنتُ نظيفاً (clean) قدر الإمكان، وحتى لا أبقى بدون شغل، قمتُ بجولة واسعة لتوقيع كتبي، والتي جعلتني في ظرف أشهر معدودة أزور أطراف البلاد القاصية. ومجرد مشاهدة الناس من جديد كان له عليَّ آثار علاجية، لكن ما إن كنتُ أختلي مع نفسي، كانت ذكرى بيلي الأليمة تطفو عل السطح من جديد وتذكرني على نحو قاسٍ بسحر لقائنا، بشرارة مشاداتنا الكلامية، وبمبتدأ شعائرنا ودفء حميميتنا.

ومنذئذٍ ودَّعتُ حياتي الغرامية وقطعتُ كل صلة بأرور. حكايتنا

(*) هكذا يمر مجد العالم.

لم تكن من تلك التي تستحق فرصة ثانية. كنتُ قد فقدتُ كل مشروع للمستقبل، مكتفياً بالأخذ من الأيام ما تمنحه لي في تعاقبها يوماً بعد آخر.

لكن لم أكن أسمح لنفسي بأن تأخذ من جديد تذكرة ذهاب بلا عودة إلى الجحيم. فإذا ما انْهَرْتُ مرة أخرى، لن أستطيع النهوض أبداً ولم يكن لدي الحق في إحباط كارول وميلو اللذين كانا يعملان بلا كلل على جعلي أستلذ بطعم الحياة من جديد. وحتى لا أفسد عليهما حبهما، كنتُ أخفي كُرْبَتي وجِراحي وذلك بالحضور طوعاً إلى حفلات العشاء «الانتقاء» والتي كان ينظمانها كل ليلة جمعة لدفعي إلى العثور على توأم روحي. وقد أقسما على أن يتوصلا إلى إيجاد الجوهرة النادرة لأجلي. ولهذا الغرض استنفذا كل علاقاتهما. وفي ظرف أشهر معدودة، وبفضل مجهودهما التقيت بنخبة من العازبات من بنات كاليفورنيا اللائي تم انتقاؤهن بعناية - أستاذة جامعية، كاتبة سيناريو، مُدرِّسة، وعالمة نفسانية... - لكني لم أستمتع بتاتاً بهذه اللعبة ولم تكن حواراتنا تتجاوز فترة العشاء.

*

- كلمة الشاهد! صاح أحد ما من بين الحضور.

كنا في ظل الخيمة البيضاء الكبيرة المنصوبة لاستقبال الضيوف. كان هناك على الخصوص عناصر شرطة، رجال مطافئ وإسعاف كانت كارول تخالطهم أثناء عملها والذين جاؤوا برفقة أسرهم. إلى جانب أمه كنتُ الوحيد تماماً من يُمَثِّل ميلو. كانت الأجواء منشرحة ومن دون رسميات. كانت الريح تصفق ستائر القماش وتجلب معها نسائم العشب الندي والهواء البحري.

- كلمة الشاهد! ردد الضيوف جماعة. وأخذوا جميعاً ينقرون

كؤوسهم بسكاكينهم، مُرْغِمينَ إياي على الوقوف لارتجال النَّخْب الذي ما كانت لي به حاجة: إن المشاعر التي كنت أكنها لصديقيَّ لم تكن من تلك التي يُعَبَّرُ عنها في حضور أربعين فرداً.

ومع ذلك أكرهت نفسي على الانخراط في اللعبة. قمتُ واقفاً فعَمَّ الصمت.

نهاركم سعيد جميعاً.

إنه لشرف لي أن تم اختياري شاهداً على هذا الزواج والذي هو زواج أعز صديقين لديَّ وحتى أكون صادقاً، صديقيَّ الوحيدين الحقيقيين.

استدرت بادئ الأمر نحو كارول، كانت مشرقة في فستانها المشدود عند الصدر، والذي تُوَشِّيه بِلَّوْراتٌ صغيرة.

كارول، نحن نعرف بعضنا منذ فترة الطفولة، ويجدر القول منذ الأزل. حكايتك وحكايتي متصلتان بلا انفصام. ولن أكون سعيداً أبداً إن علمتُ أنك لستِ كذلك.

وجهتُ إليها ابتسامة وردَّت عليَّ بطرفة عين، ثم توجهتُ بالكلام إلى ميلو.

ميلو، أخي، معاً عرفنا كل شيء، واقتسمنا كل شيء: بدءاً بفترة شبابنا الصعبة ووصولاً إلى غرور النجاح الاجتماعي. معاً اقترفنا أخطاء وقمنا بتصحيحها. معاً فقدنا كل شيء واستردنا كل شيء. وأتمنى أن نواصل طريقنا معاً.

أومأ إلي ميلو بحركة خفيفة من رأسه. كنتُ أرى أن عيناه تلمعان وأنه كان منفعلاً.

عادة، الكلمات حرفتي، لكن الكلمات تعجز عن التعبير عن سعادتي برؤيتكما متزوجين اليوم.

منذ أكثر من سنة، أبنتما لي إلى أي حد أستطيع الاعتماد عليكما وبخاصة في الظروف الأشد مأساوية. لقد أبنتما لي أن المثل القائل بأن الصداقة تضاعف الأفراح وتخفف من شدة الأحزان ليس مجرد عبارة جوفاء.

من أعماق قلبي، أشكركما على ذلك، وأعدكما بدوري أني سوف أكون في الموعد حينما تحتاجان إلي في إعانتكما على حفظ سعادتكما طوال حياتكما.

ثم رفعت كأسي أمام الحاضرين:

أتمنى لكم يوماً سعيداً وأدعوكم لشرب نخب العروسين.

- نخب العروسين! صاح الضيوف جماعة.

لمحتُ كارول تمسح دمعة بينما كان ميلو قادماً نحوي لمعانقتي.

- يجب أن نتحدث، قال هامساً في أذني.

*

لِذْنا بمكان هادئ في المزرعة: حظيرة المراكب المبنية على ضفاف بحيرة كان يسبح فيها سرب من طيور البجع. كانت البناية الصغيرة التي يعلوها قوس تضم مجموعة من المراكب المصنوعة من الخشب المُلَمَّع وكان لها مظهر يتعالى على الزمن يُذكِّر كثيراً بإنجلترا الجديدة.

- عمَّ تودُّ أن نتحدث يا ميلو؟

أرخى صديقي عقدة ربطة عنقه. كان يحاول جاهداً إظهار رباطة الجأش، لكن ملامح وجهه كانت تعبر عن الحرج والانشغال.

- لم أعد أرغب العيش في الكذب بعد الآن، يا طوم. أعرف أنه كان ينبغي عليَّ مفاتحتك في الموضوع قبل هذا الحين، لكن...

توقف كي يفرك جفنيه.

- ماذا حدث؟ سألته وأنا حائر. لا تقل لي بأنك خسرت أيضاً أموالاً في البورصة؟

- لا، إنها بيلي...

- ماذا، بيلي؟

- إنها... حية ترزق. أقصد، ليس تماماً، لكن...

لم أفهم شيئاً مما كان يريد قوله.

- لعمري، لقد أسرفتَ في الشرب!

تنفس بعمق كي يستعيد هدوءه وجلس على طاولة النجارة.

- يجب وضع الأمور في سياقها. تذكر الحالة التي كنت عليها سنة قبل الآن. كنت تنجرف كلياً. كنت تراكِم الحماقات: الإفراط في السرعة، المخدرات، المشاكل القانونية. توقفت عن الكتابة، كنت تغرق في الاكتئاب المؤدي للانتحار، لا شيء استطاع انتشالك منه، لا العلاج، لا الأدوية ولا مساندتنا لك.

جلستُ إلى جانبه، وفجأة صرتُ قلقاً.

- ذات صباح، قال مسترسلاً، توصلتُ بمكالمة هاتفية من الناشر كان يخبرنا فيها بخطأ شَابَ طباعة السحب الجديد للجزء الثاني من الثلاثية. بعث لي نسخة عبر الساعي واكتشفت أن الكتاب يتوقف تماماً عند الكلمات: «صرخت وهي تسقط». وطوال النهار بأكمله ظلت، هذه الجملة تتردد في رأسي وكنتُ لا أزال أفكر فيها عند لقائنا في الظهيرة باستوديوهات كولومبيا. كان الممثلون منهمكون في إنهاء عملية اختيار الممثلين لاقتباس روايتك سينمائياً، وفي ذلك اليوم كان فريق الفيلم يقوم بإجراء تجارب للأدوار الثانوية. تسكعتُ لبعض الوقت في البلاتو، حيث كان يتم الاختبار من أجل العثور على الممثلة التي ستقوم بدور «بيلي» على الشاشة. هناك التقيت تلك الفتاة...

- أي فتاة؟

- كان اسمها لِيلِي. لقد كانت امرأة شابة، بائسة شيئاً ما، تحمل معها دفتر عناوينها من تجربة اختيار إلى أخرى. كانت شاحبة الوجه، عيناها مزينتان بالماسكارا، تجر وراءها تعب بطلة من بطلات كاسافِتْز. وقد وجدتُ أداءها مدهشاً. لكن مساعد المخرج لم يترك لها بصيص أمل. والحق أن عينَي هذا الشخص حجبتهما القذارة، إذ كان يبدو بداهياً أن هذه الفتاة هي بيلي التي لك. وعليه دعوتها إلى احتساء كأس ثم حكت لي قصة حياتها.

ثم توقف ميلو عن الكلام وقفة لا تطاق، مترقباً ردود فعلي، مستعملاً كل كلمة بحذر، لكن طفح بي الكيل من رؤيته يَلُفُّ حول الموضوع:

- واصل، عليك اللعنة!

- من بين أشغال بسيطة تقوم بها بوصفها نادلة، كانت بيلي تمتهن عارضة أزياء، في سرية تامة وعلى نحو متقطع، ومع ذلك تسعى لتصير ممثلة. لقد سبق لها أن قدمت بعض الصور لمجلات إعلان رخيصة، كما أنها ظهرت ببعض الأفلام القصيرة، لكنها ليست كِيت مُوسْ. وإن كانت لا تزال شابة، فهي تعطي مسبقاً الانطباع بأنها وصلت إلى نهاية مشوارها المهني. شعرت بأنها ضعيفة وتائهة شيئاً ما في عالم الموضة الذي لا يرحم، حيث تطرد فتاةٌ فتاةً أخرى، وحيث إن اللائي لم يبرزن في سن الخامسة والعشرين لم يعد لهن أي مستقبل.

قشعريرة باردة انطلقت من ظهري وصعدَتْ حتى رقبتي، كنت أشعر بالدم يفور في صدغي. لم أكن أرغب في تلك الحقيقة التي كان يتأهب لكشفها لي.

- ما الذي تقصد قوله يا ميلو؟ ماذا عرضتَ على هذه الممثلة؟

- عرضتُ عليها 15000 دولار. أقر لي في نهاية المطاف. خمسة عشر ألف دولار كي تؤدي دور بيلي، لكن ليس في فيلم، بل في حياتك.

38

لِيلِي

القدر هو من يُوزِّع الأوراق، لكن نحن من يلعبها.

راندي بوش

- عرضتُ عليها 15000 دولار كي تؤدي دور بيلي، لكن ليس في فيلم. بل في حياتك.

كان لاعتراف ميلو أثر ضربة قاضية. كنتُ مترنحاً مثل ملاكم صَعِقٍ انهار وسط الحلبة. استغل حيرتي كي يبرر سلوكه:

- أعرف أن ذلك يبدو غير معقول، لكنه كان مجدياً، يا طوم. لم أستطع البقاء مكتوف اليدين. كان يجب إخضاعك لصدمة قوية، ما يكفي لجعلك تأتي برد فعل. كانت آخر ورقة أستطيع لعبها لانتشالك من الهاوية.

تزعزعتُ، كنت أسمعه ولا أفهم شيئاً مما يقوله.

- بيلي ليست سوى ممثلة؟ كل هذه المغامرة مجرد تلاعب؟ يستحيل أن أكون قد انخدعت بهذا الشكل. . .

- لا، لا أصدقك، قلتُ. هذا لا يستقيم له معنى! بغض النظر عن التشابه في الخلقة، هناك الكثير من الأدلة التي تدعم التصديق بوجود بيلي.

- ما هي؟

- الوشم، مثلاً.

- كان مزيَّفاً. نقش مؤقت من إنجاز مُمَوِّه ماكياج سينمائي.

- إنها كانت تعرف كل شيء عن حياة بيلي.

- لقد جعلتُ بيلي تقرأ كل رواياتك فقامت هي بتحليلها. لم أعطها كلمة السر الخاصة بحاسوبك لكنها استطاعت الولوج إلى جذاذات سِيَرِ شخصياتك.

- وكيف وصلتَ إليها أنت؟

- استأجرتُ تقنياً من أجل قرصنة حاسوبك.

- كم أنت وقح!

- لا، بل أنا صديقك.

ومهما كانت حججه دامغة، لم أنجح في الاقتناع بها.

- لكنك أخذتني بنفسك إلى عند المعالجة النفسية للحجر الصحي عليَّ.

- لأني كنت أعلم أنه إذا ما نجحتْ خطتي، فسوف تُقْدِمُ على رد الفعل ذاك الرافض، وستسعى للهرب.

كانت صور كل ما عشته رفقة بيلي تعبر أمامي بوضوح، كنت أُغَرْبِلُها عساني أواجه ميلو بتناقضاته.

- تمهل! لقد استطاعت إصلاح السيارة عندما تعطلت البوغاتي! أين تعلمت الميكانيكا إذا لم يكن أخواها يملكان ورشة للسيارات؟

أجابني كلمة بكلمة:

- مجرد سلك قمتُ بفَكِّهِ، مناورة وضعتها بصحبتها لتبديد شكوكك نهائياً. لا داعي للبحث، ليس هناك سوى تفصيل واحد كان يمكنه فضحنا، لكن لحسن الحظ، لم تتنبه له.

- ما هو؟

- بيلي عسراء، أما لِيلي فهي مُيَمِّنة بكل بساطة، إيهٍ؟

حول هذه النقطة، خانتني ذاكرتي. ومن المستحيل معرفة ما إذا كان يقول لي الحقيقة.

- تفسيراتك لطيفة جداً، لكنك عاجز أمام أهم شيء: مرض بيلي.

- صحيح أنه منذ الوصول إلى المكسيك تلاحقت الأحداث، أقر ميلو. وإن لم تكن لا تزال غير قادر إذاك على العودة للكتابة، فقد بدا جلياً أنك كنت في حال أفضل، وعلى الأخص أن شيئاً ما يحدث بينك وبين تلك الفتاة. ومن دون الإقرار بذلك، فقد بدا أن كلا منكما كان مغرماً بالآخر. في ذلك الحين فكرتُ في الكشف لك عن الحقيقة كاملة، لكن ليلي أصرت على الاستمرار. هي صاحبة فكرة التمثيلية التي تدور حول المرض.

كنت أسبح في لجة الضباب.

- لكن ما الغاية من ذلك؟

- لأنها كانت تحبك أيها الأبله! لأنها كانت تريد سعادتك: أن تعود للكتابة، وأن تنجح في الظفر بحب أرور من جديد. وهذا ما نجحتْ في تحقيقه!

- إذاً خصلات الشعر البيض، كانت...

- ... عبارة عن صباغة.

- والحبر في فمها؟

- محتوى خرطوشة حبرٍ تم إفراغها أسفل لسانها.

- ونتيجة التحاليل، في المكسيك؟ السيليلوز الذي عثر عليه في جسمها؟

- لقد اختلقنا كل ذلك، يا طوم. الدكتور فليبسون كان على بعد ثلاثة أشهر من حصوله على التقاعد. أخبرته أنك صديقي وأني أودُّ تدبير مَقْلَبٍ لك. كان غارقاً في الضجر داخل مستوصفه وقد استمتع بهذه المزحة؛ لكن وكما هو الحال في جميع الخطط كانت هناك حبة الرمل تلك التي عرقلت كل شيء لما عرضتْ عليك أرور أخذ بيلي عند البروفسور كلوزو...

- كلوزو، لم يكن ليسمح بتلك الخدع. حينما كنا في باريس، لم تكن أعراض بيلي كاذبة. لقد كادت تموت، أنا متأكد من ذلك.

- أنت على حق، لكن ها هنا حدث أمر خارق، يا طوم. من دون أن تعلم ذلك، فقد كانت بيلي مريضة بالفعل. وبفضل كلوزو تم تشخيص ورم القلب المخاطي. وعلى نحو ما فقد أنقذتُكما معاً.

- وذلك الكتاب الذي بحثت عنه طوال أسابيع عبر العالم؟

- هاهنا تجاوزتني الأحداث، قال معترفاً. ولم تكن كارول على علم بأي شيء وكانت تصدق جازمة هذه الحكاية. هي من كان يأخذ المبادرة، أما أنا فقد اكتفيت بالمشاركة في اللُّعْ...

لم يتوفر ميلو على الوقت الكافي لإتمام جملته إذ طرحتُه أرضاً بلكمة قوية.

- لم يكن لك الحق في فعل ذلك!

- في إنقاذك؟ سأل وهو يستقيم واقفاً. لا، لم يكن ذلك حق لي، بل واجب عليَّ.

- لكن ليس بأي ثمن!

- بل هو ذاك تماماً، بأي ثمن.

مسح خيط الدم الذي كان يسيل من فمه قبل أن يُصِرَّ:

- كنتَ سوف تقوم بالشيء نفسه من أجلي. وبغية حماية كارول

لم تتردد في اقتراف جريمة قتل. وعليه، لا داعي للمواعظ! هذه قصة حياتنا يا طوم! ما إن يتداعى واحد منا حتى يهب الآخران لنجدته بكل الوسائل. لهذا السبب لا نزال نقف على أرجلنا. لقد انتشلتني من الشارع، لولاك لكنت لا أزال قابعاً في السجن، ولا كنتُ مقبلاً على الزواج بالمرأة التي أُحِبُّها. لولاك ربما كانت كارول قد أقدمت على الانتحار شنقاً بدل الاستعداد لمنح الحياة لمولود. وأنت؟ ما هو مآلك اليوم لو تركناك تخرب ذاتك؟ محجور عليك في عيادة طبية؟ ميت ربما؟

كان ضوء أبيض يعبر من خلل النوافذ البلورية. تركتُ سؤاله معلقاً. في هذه اللحظة كنت مشغولاً بأمر آخر.

- ما مصير تلك الفتاة اليوم؟

- لِيلي؟ لا أعلم من أمرها شيئاً. لقد أعطيتها مالها واختفت من حياتي. أظن أنها غادرت لوس أنجلس. في السابق، كانت تعمل نهاية الأسبوع في علبة ليل تقع بالـ Sunset Trip. عدتُ إلى هناك، لكن لا أحد رآها هناك بعد ذلك الحين أبداً.

- ما اسمها العائلي؟

- لا أدري! لست متيقناً حتى من أن لِيلي هو اسمها الشخصي الحقيقي.

- ألا تتوفر على دليل آخر؟

- أنصت إلي، إني أتفهم رغبتك في العثور عليها من جديد، لكن المرأة التي تبحث عنها هي ممثلة من الدرجة الثانية، نادلة في نادٍ لاستعراض العري، وليست بيلي التي أغرمت بها.

- احتفظ بنصائحك لنفسك. إذاً، ليست لديك أي معلومة؟

- لا، أنا متأسف، لكن اعلم إن وجب تكرار ذلك، فإني سأعيده عشر مرات.

خرجت من الحظيرة، منهكاً جراء اعترافات ميلو ومشيت بضع خطوات فوق الجسر الخشبي الصغير العائم الذي كان يتوغل في البحيرة. غير مكترث بهموم البشر، كان سرب من البجع الأبيض يسبح وسط السوسن البرِّي.

*

أخذت سيارتي من الموقف وسرتُ على طول الساحل حتى سانتا مونيكا قبل أن أتوغل في المدينة. كانت الفوضى تعم رأسي وكنت إخالني أسير من غير هدي، عابراً Inglewood، مواصلاً عبر Van Ness و Vermont Avenue، قبل أن أنتبه أن قوة غير مرئية أعادتني إلى حارة طفولتي.

ركنتُ السيارة المكشوفة قرب أصص الأزهار، والتي لم تكن حتى في فترة الطفولة، تضم سوى أعقاب السجائر وعلب شراب معدنية فارغة.

أسفل البنايات، كل شيء تبدل ولم يتبدل أي شيء. كل يوم، نفس الأشخاص يجرون سلالاً فوق الإسفلت بينما آخرون يسندون الجدران في انتظار أن يحدث طارئ ما. وللحظة خلت بصدق أن واحداً منهم سينادي عليَّ:

- هيه، مِسْتِر وحْش!

لكني أصبحت غريباً ولم يحتك بي أحد.

مشيت على امتداد ملعب كرة السلة المُسَيَّج حتى وصلت موقف السيارات.

«شجرتي» كانت هناك لا تزال. أكثر نحولاً، قليلة الأوراق، لكنها واقفة دوماً. وكما الحال في الماضي، جلست فوق العشب اليابس وأسندتُ ظهري إلى جذعها.

في تلك اللحظة، هرعت سيارة من نوع مِينِي كُوبِرْ وتوقفت بين مَوْضِعَين للركن. وهي ترتدي فستان العرس لا تزال، غادرت كارول السيارة. رأيتها تتقدم نحوي، ممسكة بيدها اليمنى حقيبة رياضة ضخمة، وبيسراها ذيل فستانها الطويل الذي كانت تخشى عليه من الوسخ.

- لالالالا يصدق! هناك زفاف في موقف السيارات! صاح واحد من بين أوغاد ملعب الرياضة.

أقبل «زملاءه» لمتابعة المشهد لبرهة قبل العودة إلى انشغالاتهم.

لحقت بي كارول تحت ظل الشجرة.

- أهلاً، طوم.

- أهلاً وسهلاً، لكن أظن أنكِ أخطأتِ في الموعد: اليوم ليس عيد ميلادي.

افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة. أعقبتها دمعة خفية سالت على خدها.

- منذ أسبوع خلى باح لي ميلو بكل شيء. قبل ذلك الحين أقسم لك بأني لم أكن أعلم شيئاً من الأمر، شرحتْ لي وهي تقتعد جدار الموقف القصير.

- أنا متأسف لأني أفسدتُ عليك زفافك.

- لا بأس في ذلك، كيف تشعر الآن؟

- مثل أي شخص يكتشف أنه كان ضحية تلاعب.

أخرجتْ علبة سجائر، لكني أوقفتها بحركة من يدي:

- هل جُنِنْتِ؟ أذكرك أنك حامل.

- إذاً، كفَّ عن قول التفاهات! يجب أن لا تنظر إلى الأمور على هذا النحو.

- وكيف تريدين أن أنظر إليها على نحو مغاير؟ لقد انخدعتُ، هذا كل ما في الأمر، والأنكى من ذلك على يد أعز صديق لدي!

- أنصت إلي، لقد رأيت كيف كانت تلك الفتاة تتصرف معك، يا طوم. لقد رأيتُ كيف كانت تنظر إليك، وأؤكد لك بأن مشاعرها لم تكن مصطنعة.

- بل كانت مُحْتَسَبَة، لا غير. خمسة عشر ألف دولار، أليس كذلك؟

- أوه، لا تبالغ، مهما كان الأمر لم يطلب منها ميلو أن تضاجعك!

- على أي حال، لقد سارعت إلى الانصراف فور إتمام عقدتها.

- ضع نفسك مكانها ولو قليلاً، هل تظن أنه كان من السهل عليها تحمل عبء اختلاط الهوية ذاك؟ بالنسبة إلى ذهنها، فقد أغرمْتَ بشخصية روائية، بشخص كانته من دون أن تكونه بالفعل.

كان هناك قدر كبير من الصواب في ما قالته كارول. بمن أغرِمْتُ في حقيقة الأمر؟ بشخصية أبدعتها أنا وكان ميلو يتلاعب بها مثل دمية متحركة؟ بممثلة فاشلة عثرتْ في ذلك على دور حياتها؟ لم أغرم بأي واحدة منهما بالفعل. لقد أغرمتُ بفتاة في قلب صحراء المكسيك. جعلتني أدرك أن في رفقتها كان لكل شيء طعمه ومذاقه ولونه.

- يجب أن تعثر عليها من جديد، وإلا فإنك سوف تندم على ذلك ما حييت.

أومأتُ برأسي.

- مستحيل، لقد فقدنا أي أثر لها ونجهل حتى اسمها.

- يجب أن تجذ عذراً أفضل من ذلك.

- ماذا تقصدين؟

- أنا بدوري لن أكون سعيدة أبداً إذا ما علمتُ أنك غير سعيد.

من خلال نبرة صوتها، شعرت بمقدار صدق ما كانت تقول.

- إذاً، فقد أحضرتُ لك هذا.

انحنت على حقيبتها وناولتني قميصاً ملطخاً بالدم.

- هذه هدية لطيفة منك، لكني كنت أفضل الحاسوب، قلتُ لأخفف من حدة التوتر.

لم تستطع كبح ابتسامة قبل أن تشرح لي:

- هل تذكر ذلك الصباح حين حضرت عندك رفقة ميلو وحيث أخبرتنا لأول مرة عن بيلي؟ كانت شقتك في حالة من الفوضى وشرفتك عاليها سافلها. كان هناك دم على الزجاج وعلى الملابس...

- أجل، حصل ذلك يوم قامت «بيلي» بجرح باطن كفها.

- في تلك الفترة، حيَّرني مشهد الدم كثيراً وتخيَّلت كل شيء وأي شيء: إنك ربما قتلت أو تسببت في جرح أحد ما. في اليوم التالي، عدتُ إذن إلى شقتك وغسلتُ كل البقع. في الحمام وجدتُ هذا القميص الملطخ بالدم الذي أخذتُه لحجبه عن أي بحث بوليسي محتمل. لم يفارقني قط وحينما أخبرني ميلو بالحقيقة، حملته إلى المختبر من أجل الكشف عن الحمض النووي ADN، ثم قارنتُ النتائج مع معطيات نظام تبادل بيانات الحمض النووي CODIS و...

ثم انتظرت حتى توفِّرَ للمفاجأة وقعها بإخراج محفظة ورقية من حقيبتها.

-... أخبرك بأن رفيقتك جانحة لطيفة.

فتحتُ محفظة الوثائق فوجدتُ نسخة من ملف عليه شعار مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI وقامت كارول بالتعليق عليه:

- اسمها لِيلِي أوستين، وُلِدت عام 1984 في أوكلاند. تم اعتقالها لمرتين خلال السنوات الخمس الأخيرة. ليس هناك ما يستحق الاستنكار: مرة لأجل «عصيان عميل» عام 2006 أثناء مظاهرة مناصرة للإجهاض ومرة أخرى عام 2009 من أجل تدخين الحشيش في متنزه.

- وذلك كاف كي يُسَجَّل المرء؟

- إنك لا تشاهد كثيراً مسلسل **الخبراء** (Les Experts)، أليس كذلك؟ إن شرطة كاليفورنيا تأخذ تلقائياً عينة من الحمض النووي من الأشخاص المعتقلين أو المشكوك في صلتهم ببعض المخالفات. وإذا كان ذلك قد يطمئنك، فأنت أيضاً عضو في النادي.

- هل تعرفين عنوانها الجديد؟

- لا، ولكني أدخلت اسمها في قاعدة المعطيات التي لدينا وقد وجدتُ هذا.

ناولتني ورقة. كانت عبارة عن وثيقة تسجيل بجامعة بْرَاوْن برسم السنة المدرسية الجارية.

- لقد استأنفت ليلي الدراسة في شعبة الأدب والمسرح، شرحت لي كارول.

- كيف تسنى لها أن تقبل بِبْرَاوْن؟ إنها إحدى أفضل كليات البلاد...

- اتصلتُ بالجامعة: لقد تم إدماجها بفضل ملف قبول موازٍ. أفترض أنها أمضت الشهور الأخيرة في الدراسة، لأنها حصلت على نتائج ممتازة في الاختبارات التمهيدية.

نظرتُ على الوثيقتين، منبهراً بهذه الفتاة المجهولة، ليلي أوستين، والتي بات وجودها يتجسد شيئاً فشيئاً أمام ناظري.

- أظن أني سوف أعود إلى حيث ضيوفي، قالت كارول وهي

تنظر إلى ساعة يدها. وأنت، عليك الذهاب لإيجاد على شخص آخر.

*

يوم الاثنين التالي، أخذتُ الرحلة المتوجهة إلى بوسطن. وصلت عند الساعة الرابعة بعد الزوال إلى عاصمة الماساشوستس، استأجرتُ سيارة في المطار وتوجهتُ رأساً إلى بروفيدانس (Providence).

كان مجمع جامعة براون محاطاً ببنايات ضخمة من القرميد الأحمر وحوله مساحات مخضرة. وبالنسبة إلى الكثير من الطلاب، كانت تلك نهاية اليوم الدراسي. قبل الذهاب إلى هناك، قمت ببحث في شبكة الإنترنت عن جدول الحصص الزمني الموافق للدروس التي تتابعها ليلي وانتظرتها وقلبي يخفق أمام أبواب المدرَج حيث شارف الدرس على نهايته.

متوارياً بما فيه الكفاية حتى لا تراني، شاهدتها تخرج من القاعة وسط جماعة من الطلاب. تَطَلَّبَ مني التعرف إليها بعض الوقت في الحقيقة. كانت قد قصت شعرها الذي صار كذلك داكناً أكثر. كانت تعتمر قبعة تْوِيدْ وترتدي لباساً كاملاً قاتماً

- تنورة قصيرة رمادية فوق سروال لاصق أسود، وسترة منحنية على ياقة ملفوفة

- مما كان يعطيها مظهر فتاة لندنية. كنتُ مُصِراً على الاقتراب منها، لكنني كنت أفضل الانتظار حتى تكون لوحدها. تعقبتُ الشلة

- شابان وفتاة أخرى

- حتى مقهى قريب من الكلية. وهي تشرب شايها، انخرطت ليلي في نقاش ساخن مع أحد الطالبين. شخص متصنع ذو جمال مُلْهِب. وكلما حدَّقتُ فيها وجدتها نضرة وهادئة. بعد استئنافها

للدراسة بعيداً عن لوس أنجلس يبدو أنها وجدت توازناً ما. بعض الناس يستطيع فعل ذلك: بدء حياتهم من جديد. أما أنا، فلم أكن أعرف سوى مواصلة حياتي.

غادرت المقهى من دون أن أظهر لها وركبت سيارتي من جديد. إن هذه العودة إلى العالم الطلابي أصابتني بالقنوط. من المؤكد أني كنتُ سعيداً لعلمي أنها على خير ما يرام، لكن المرأة الشابة التي رأيتُ اليوم لم تعد هي بيلي «التي لي». الظاهر أنها طوت الصفحة ومشاهدتها وهي تحدث ذلك الشخص ذي العشرين عاماً جعلتني أبدو مُسِناً. في نهاية المطاف، إن فارق السن بعشر سنوات الذي يفصلنا لم يكن حاجزاً يسهل غض الطرف عنه.

وبينما أنا أقود في اتجاه المطار، كنتُ أحدث نفسي بأني قمت بالرحلة من أجل لا شيء. الأدهى من ذلك: مثل المصور الفوتوغرافي الذي يفشل في القبض على صورة زائلة لن تعرض له البتة، فقد فوَّتُّ عليَّ اللحظة الحاسمة، تلك التي كان بإمكانها أن ترجح كفة حياتي نحو الضحك والضوء...

*

في الطائرة العائدة إلى لوس أنجلس شغَّلت حاسوبي المحمول.

ربما لم أكن قد وصلت سوى منتصف عمري، لكني كنت أعلم مسبقاً أنني لن ألتقي مجدداً بفتاة مثل بيلي التي، في ظرف أسابيع معدودة، جعلتني أصدق ما لا يصدَّق، وسمحت لي بمغادرة تلك البلاد المحفوفة بالمخاطر حيث تنبع الأنهار من المِحَن وتصبُّ في مهاوي الألم.

كانت مغامرتي مع بيلي قد انتهت، لكني لم أرد نسيان أدنى حدث منها. كان من اللازم أن أحكي قصتنا. قصة من أجل أولئك

الذين، ولو مرة في حياتهم، حالفهم الحظ لمعرفة الحب، وهم يواصلون عيشه اليوم أو يأملون ملاقاته غداً.

وعليه، فتحتُ صفحة في معالج النصوص الذي عندي ومنحتها عنوان روايتي المقبلة: **فتاة من ورق**.

وخلال الساعات الخمس التي استغرقتها الرحلة، كتبتُ دفعة واحدة الفصل الأول. كان يبتدئ على هذا النحو:

الفصل الأول

المنزل المطل على المحيط

- طوم، افتح الباب!

ذهبت الصرخة في مهب الريح، وظلت بلا جواب.

- طوم، هذا أنا، ميلو، أعرف أنك هنا. اخرج من مخبئك، تبّاً لك!

ماليبو

ناحية لوس أنجلس، كاليفورنيا منزل مطل على الشاطئ

منذ خمس دقائق وميلو لومباردو يطرق بلا كلل الستائر الخشبية المطلة على شرفة منزل أعز صديق لديه.

- طوم، افتح وإلا كسرت الباب، تعلم أني أستطيع فعل ذلك!

39

تسعة شهور بعد ذلك...

يهدم الروائي بيت حياته كي يصنع من
لبناته بيتاً جديداً: بيت روايته.

ميلان كونديرا

ريح ربيعية تهب على بوسطن العتيقة.

كانت ليلي أوستين تجوب الأزقة الضيقة والمنحدرة الواقعة في بِيكُونْ هِيلْ. بأشجارها المزهرة وفوانيسها وبيوتها القرميدية ذات الأبواب الخشبية الضخمة، كان للحارة سحرها الأخاذ.

عند تقاطع رايْفِر وبايْرون سْتريت، توقفت قبالة واجهة متجر للتحف النادرة قبل أن تدخل إلى مكتبة. كان المكان ضيقاً والروايات إلى جانب الكتب الفكرية. كومة من الكتب شدت انتباهها: لقد كتب طوم رواية جديدة. . .

منذ سنة ونصف خلت، كانت قد تعودت بالتحديد على تفادي رواق كتب الخيال عن قصد كي لا تقع عيناها عليه، إذ في كل مرة كانت تلتقيه صدفة في الميترو، في الحافلة، على ملصق إشهاري أو في شرفة مقهى، كانت تشعر بالحزن وتراودها الرغبة في البكاء. حينما كانت رفيقاتها في الكلية تحدثنها عنه (يعني عن كتبه)، كانت

تتمالك نفسها حتى لا ترد عليهن قائلة: «لقد قدتُ سيارة بوغاتي بصحبته، لقد عبرت صحراء المكسيك برفقته، لقد عشتُ في باريس معه، لقد ضاجعته...». بل أحياناً، عندما كانت تشاهد قراء منغمسين في قراءة الجزء الأخير من الثلاثية، لم تكن تستطيع كبح الإحساس بشيء من الفخر، وهذه المرة كانت هي من يود المناداة عليهم: «بفضلي أنا، أمكنكم قراءة ذلك الكتاب! من أجلي أنا كتبه!».

قرأت عنوان الكتاب الجديد: **فتاة من ورق**.

حائرة، تصفحت أوراقه الأولى. كانت تلك حكايتها. كانت حكايتهما. وقلبها يخفق، أسرعت إلى صندوق الأداء، أدت ثمن النسخة وتابعت قراءتها على مقعد في الحديقة العامة، أكبر متنزه في المدينة.

*

وبعصبية كانت ليلي تقلب صفحات حكاية كانت تجهل خاتمتها. عاشت من جديد مغامراتهما من خلال وجهة نظر طوم، مكتشفة بفضول تطور مشاعره. كانت الحكاية مثلما عاشتها تقف عند الفصل 36، وبتخوف بدأت قراءة الفصلين الأخيرين.

بهذه الرواية كان طوم يعترف أنها أنقذت حياته، لكنه كان على الخصوص يُقِرُّ بأنه غفر لها خداعها، وبأن حبه لها لم يهجره صحبتها.

وكادت الدموع تطفر من عينيها حينما علمت بأنه ذهب إلى جامعة براون الخريف السابق وبأنه رحل من دون أن يحدثها. لقد عاشت الإحباط نفسه سنة من ذي قبل! ذات صباح، ولأنها لم تعد تحتمل الفراق، استقلت الطائرة نحو لوس أنجلس عاقدة العزم على

أن تكشف له الحقيقة، وهي تأمل خفية بأن حبهما لم يمت.

وصلت إلى ماليبو عند العَشِيّ، لكن المنزل الشاطئي كان خالياً، لذا ركبت سيارة أجرة لعل الحظ يحالفها في فيلا ميلو في باسيفك باليساد.

وبما أن المكان كان مضاء، دنت وشاهدت من خلال النافذة اثنين من الأزواج مستغرقَيْن في تناول العشاء: ميلو وكارول اللذان كان يبدو عليهما أنهما عاشقان جداً وكذلك طوم وامرأة أخرى لم تكن لها بها معرفة سابقة، في تلك اللحظة شعرت بأنها حزينة جداً بل وكادت تخجل من نفسها لكونها تصورت أن طوم لم يستبدلها بغيرها. الآن أدركت أن الأمر يتعلق بواحد من عشاءات - الانتقاء تلك الخاصة بليالي الجمعة والتي كانا ينظمانها من أجل أن يلتقي توأم روحه!

لما أغلقت الكتاب، خفق قلبها بين الحنايا. هذه المرة لم يكن أملاً، بل كان يقيناً: قصة حبهما هي أبعد من أن تكون قد انتهت. ربما لم يعيشا منها سوى فصلها الأول وهي مصممة على كتابة الفصل الثاني بصحبته!

كان المساء قد حلَّ على بيكون هيل. عند عبورها للشارع بغية الوصول إلى محطة الميترو التقت بيلي سيدة بوسطنية عجوز متعجرفة تجتاز ممر الراجلين، متأبطة كلبها ألْيُورْكْشاير.

كانت تطير فرحاً بحيث لم تستطع كبح صدحها لها بسعادتها.

- فتاة من ورق، هي أنا! صرخت وهي تريها الغلاف.

*

يسر مكتبة الأشباح والملائكة

أن تدعوكم إلى لقاء طوم بويد

الثلاثاء 25 حزيران/ يونيو من الثالثة إلى السادسة مساء

من أجل توقيع روايته الجديدة:

فتاة من ورق.

*

لوس أنجلس

كانت الساعة تقارب السابعة مساء. وكان طابور قرائي يتناقص وحفل التوقيع يشارف على نهايته.

لازمني ميلو طوال الظهيرة، يُحدِّثُ الزبائن ويطعم مداخلاته بالمزح. تواصله السهل ومزاجه الرائق جعلا انتظار الناس أقل مللاً.

- لم أنتبه للوقت! صاح وهو ينظر إلى ساعة يده. حسناً، سوف أدعك تنهي ذلك لوحدك يا صديقي العزيز، أما أنا فتنتظرني قنينة حليب الرضيعة.

كانت طفلته قد ولدت ثلاثة شهور من ذي قبل. ومثلما كان ذلك متوقعاً، فقد صار مولعاً بها تماماً.

- مضت الآن أكثر من ساعة وأنا أدعوك إلى الانصراف! قلت منبهاً إياه.

ارتدى معطفه بسرعة، حيَّا العاملين بالمتجر وأسرع للحاق بأسرته.

- آه! لقد طلبت سيارة أجرة لأجلك، أخبرني وهو عند عتبة الباب. سوف تنتظرك عند التقاطع، على الجانب الآخر من الشارع.

- طيب. بلغ سلامي لكارول.

بقيت عشر دقائق إضافية لإنهاء توقيعاتي وتبادل بضع كلمات مع المسؤولة عن المحل.

بضوئها الدافئ والناعم، وبلاطها الذي يئن تحت الأقدام ورفوفها

المُلَمَّعة، كانت الأشباح والملائكة عبارة عن مكتبة لم يعد يرى مثلها.
إلى حد ما بين المتجر الصغير الواقع عند ناصية الزقاق و *84 Charing Cross Road*. وقبل أن تتحدث الصحافة بخبرها، فإن صاحبة المكتبة دعمت روايتي الأولى. ومنذ ذلك الحين، ووفاء مني، بهذا المكان المفضل، كنت أفتتح كل جولة من جولات التوقيع.

- يمكنك المغادرة من الباب الخلفي، قالت لي.

كانت قد شرعت في إنزال الستائر الحديدية حينما نقر شخص ما زجاج الواجهة. لوَّحت قارئة متأخرة بنسختها وضمت يديها متوسلة السماح لها بالدخول.

وبعد أن استفسرتني بنظرة منها، وافقت صاحبة المكتبة على أن تفتح لها الباب.

خلعتُ سدَّادة قلمي الحبر ورجعت إلى طاولتي.

- اسمي سارة! قالت الفتاة الشابة وهي تقدم لي كتابها.

وبينما كنت أوقع كتابها، استغلت زبونة أخرى الباب الذي ظل مفتوحاً كي تدخل إلى المكتبة.

أعدتُ إلى «سارة» كتابها، ومن دون أن أرفع بصري تناولتُ الكتاب التالي.

- لأجل من؟ سألتُ.

- لأجل لِيلي، أجابني صوتٌ ناعم وهادئ.

منقاد باندفاعي، كنت على وشك كتابة اسمها بالصفحة الأولى حينما أضافت:

- لكن إن أحببتَ، بيلي...

رفعت بصري وأدركتُ أن الحياة منحتني للتو فرصة ثانية.

*

ربع ساعة بعد ذلك، كنا معاً نقف على الرصيف وهذه المرة كنت عازماً بالفعل على أن لا أدعها ترحل.

- هل تودين أن أرافقك؟ عرضت عليها، هناك سيارة أجرة في انتظاري.

- لا، سيارتي بالجوار، قالت وهي تشير إلى مركبة رُكِنَتْ خلفي.

استدرت ولم أصدق عينيَّ مما رأيت. كانت تلك هي الفياط 500 القديمة بلون ورد القرنفل التي عبرنا بها صحراء المكسيك.

- تصور، لقد ارتبطت عاطفياً بهذه السيارة، قالت مبررة.

- كيف عثرت عليها من جديد؟

- آه لو علمت! إنها حكاية لوحدها...

- إذاً، احك!

- إنها حكاية طويلة.

- لدي كل الوقت الكافي.

- إذاً، ربما نستطيع الذهاب إلى العشاء بمكان ما.

- بكل سرور!

- لكن أنا من سيقود، قالت وهي تتسلم قيادة «مركبتها الفضائية».

تركت سائق سيارة الأجرة ليذهب إلى حال سبيله بعد أن أديت له أجره.

أخذت مكاني إلى جانب لِيلي.

- إلى أين نذهب؟ سألتني وهي تشغل المحرك.

- إلى حيث تريدين.

ضغطت على دواسة السرعة فارتج «حق الياغورت»، بدائي دائماً

كما كان وغير مريح. ورغم ذلك، كنت أحلق في الأعالي منتشياً، يغمرني ذلك الإحساس المُسْكِر بأني لم أفارقها بتاتاً.

- سوف آخذك لأكل الجمبري وفواكه البحر، اقترحت عليَّ. إني أعرف مطعماً رائعاً يقع بميلروز أفنيو. بل أقصد إن أنت وجهت لي الدعوة، إذ في هذه الآونة لا يمكن القول بأني أمشي على بساط مفروش بالذهب. هذه المرة ليس من مصلحتك التدلل: «أنا لا آكل هذا، أنا لا آكل ذاك، ويبدو أن المحار لزج...». إنك تحب الجمبري بالتأكيد؟ أنا أعشقه، خصوصاً إذا كان مشوياً مع الكونياك! إنه ملذة حقيقية! وسرطان البحر؟ منذ سنوات، عندما كنت نادلة بلونغ بيتش، كنا نقدم «سرطان البحر السارق»... قد يصل وزنه إلى 15 كلغ، تصور! يستطيع تسلق الأشجار كي يسقط جوز الهند، وبعدما ينزل يستخدم ملقاطيه لفتحها ثم يأكل لبَّها! عمل جنوني، أليس كذلك؟ توجد أنواع منه بجزر المالديف والسيشيل. هل تعرف السيشيل، أنت؟ أنا أحلم بالذهاب إلى هناك. البحيرات، الماء الأزرق، الشواطئ ذات الرمال البيضاء... وكذا السلاحف العملاقة بجزيرة سِيلُوِيتْ. إنها تستهويني، تلك السلاحف العملاقة. هل تعلم أنها قد تزن 200 كلغ وقد تعمر لأكثر من مائة وعشرين سنة؟ هذا جنون، أليس كذلك؟ والهند؟ **هل سبق لك أن زرتها؟ إحدى صديقاتي حدثتني عن دار رائعة للضيافة في مدينة بونديشيري التي...**

المحتويات



غيوم ميسو

فتاة من ورق

مبلّلة وعارية تماماً، ظهرتْ على شرفتي في عزّ ليلة ماطرة.

«– من أنتِ؟ سألتُها وأنا أقترب متفحصاً إياها من أعلى إلى أسفل.

ـ لقد سقطتُ.

ـ سقطتِ من أين؟

ـ سقطتُ من كتاب. سقطتُ من حكايتك، هكذا!»

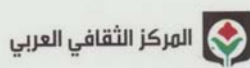
طوم بويد، كاتب مشهور يعاني من عسر في الإلهام، فإذا ببطلة رواياته تظهر بغتة في حياته. إنها جميلة ويائسة، يتهددها الموت إن هو كفَّ عن الكتابة. مستحيل؟ ولكن...

طوم وبيلي سوف يعيشان معاً مغامرة خارقة، يمتزج فيها الواقع بالخيال ويتنافسان في لعبة فاتنة وقاتلة...

ملهاة تشع حيوية وإثارة،
تشويق رومانسي وعجائبي،
نهاية مذهلة،
حينما تتوقف حياة المرء على التشبث بكتاب!

***

منذ أن عرفه الجمهور من خلال روايته «...وبعد» التي حققت مبيعات ناهزت المليوني نسخة، وترجمت إلى ثلاث وعشرين لغة، وبعد أن حاز اعترافاً عالمياً مستحقاً، لم تعد شهرة الكاتب الفرنسي **غيوم ميسو** في حاجة إلى إثبات.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com



